

المحاسن والمساوي

تأليف

إبراهيم بن محمد البيهقي

الجزء الثاني

تحقيق

محمد أبو الفضل إبراهيم



شركة آباء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع صيدا - بيروت - لبنان

• المكتب الرئيسي

الخدق الغميق - ص.ب: 11/8355

تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875

بيروت - لبنان

• الكلاسة الثانوية

بوليفار د. نزيه البزري - ص.ب: 221

تلفاكس: 720624 - 729259 - 00961 7 729261

صيدا - لبنان

• المطبعة العصرية

كفر جرة - طريق عام صيدا جزين

00961 7 230841 - 07 230195

تلفاكس: 655015 - 632673 - 00961 1 659875

صيدا - لبنان

الطبعة الأولى

هـ 1437 - 2016

Copyright© all rights reserved

جميع الحقوق محفوظة للناشر

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو اختزان مادته بطريقة الاسترجاع، أو نقله على أي نحو، أو بأي طريقة، سواء كانت الكترونية، أو بالتصوير، أو التسجيل، أو خلاف ذلك، إلا بموافقة كتابية من الناشر مقدما.

alassrya@terra.net.lb

E. Mail alassrya@cyberia.net.lb

info@alassrya.com

موقعنا على الإنترنت

www.alassrya.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

محاسن الفأل والزجر

حدّثنا الحسنُ بن وهب، قال: حدّثني صالح بن عليّ بن عطية، قال: كان المنصورُ أُلزِمَ خالدُ بن برمك ثلاثة آلاف ألف درهم، أهدر^(١) دمه فيها، وأجلّه ثلاثة أيام.

فقال خالد ليحيى ابنه: إنّي قد طُوبت بما ليس عندي، وإنّما يُراد بذلك دمي، فانصرف إلى حرّمك وأهلك؛ فما كنتَ فاعلاً بعد موتي فافعله. ثم قال: يا بُنيّ، ولا يمنعك ذلك من أن تلقى إخواننا فتعلمهم حالنا.

قال يحيى: فأتيّت إخوان والدي؛ فمنهم من جَبَهني بالردّ، ثم بعث إليّ بمال جليل، ومنهم من لم يأذن لي وبعث بمالٍ في أثري؛ لكيلا يُخبر به المنصور.

قال: فدخلتُ على عُمارة بن حمزة، وهو مقابل بوجهه إلى الحائط، فسَلّمت، فردّ رداً ضعيفاً. قال يحيى: فضاقت بي الأرض، ثم كلّمته فيما كنت أتيتُه فيه، فقال: إن أمكننا شيء فسيأتيك. فانصرفت عنه، وصرت إلى أبي فأعلّمته ذلك، وقلت: أراك تثق من عُمارة بما لا يوثق به، فوالله إنّي لفي ذلك الحديث، إذ طلع رسول عُمارة بمائة ألف درهم، ورسول صاحب المصلّى بمائة ألف درهم، ورسول مبارك التركيّ بمائة ألف درهم، فجمعنا في يومين ألفي ألف وسبعمئة ألف درهم، وبقيت ثلاثمئة ألف درهم، فتعذّر ذلك.

قال يحيى: فوالله إنّي لمارّاً بالجسر؛ مهموماً مغموماً، إذ وثب إليّ زاجر، فقال: فرّج^(٢) الطير، قف أخبرك، فطويته ولم ألتفت إليه، فلحقني وتعلّق بي، فقلت: ويحك! اذهب عني فإنّي مشغول عنك، فقال: أنت والله مهموم، ووالله ليُفرّجَن همك، ويُمِرُّ^(٣) باللواء غداً في هذا الموضع بين يديك.

(١) كذا في ك، وفي ل: «ندر»، وفي الطبري: «ندر».

(٢) كذا في إحدى نسخ الطبري، وفي ط: «فرخ».

(٣) كذا في الطبري: وفي ط: «يمن».

فأقبلت أعجب من قوله، فقال لي: إن كان ذلك فلي عليك خمسة آلاف درهم! قلت: نعم، ولو قال: «خمسون ألف درهم»، قلت: نعم، لبُعِدَ ذلك عني.

ثم مضيت، فوالله ما انصرفت حتى ورد على المنصور الخبر بانتقاض أمر الموصل، وانتشار الأكراد بها، فقال المنصور: ويحكم! مَنْ لها؟ - وكان المسيّب بن زهير عند المنصور، وكان صديقاً لخالد بن برمك - فقال: عندي والله مَنْ يكفيكه، وأنا أعلم أنك ستلقاني بما أكره، ولكني لا أدع على حالٍ نُضْحَك. فقال المنصور: قل: فلست أردّ عليك، قال: يا أمير المؤمنين ما ترميها بمثل خالد. فقال المنصور: ويحك! وتراه يصلح لنا بعد ما آتينا إليه! قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأنا زعيمه بذلك، والضامن عليه.

فتبسّم المنصور، وقال: صدقت، والله ما لها غيره، فليحضر غداً، فأحضر فصّح له عن الثلاثمائة ألف درهم الباقية عليه، وعقد له. قال يحيى: فنمرّ والله بالزاجر واللواء بين يديه، فلما رأيته قال: أنا هنا أنتظرك منذ غُدوة. قال: فتبسّمت إليه، فقلت: إمض، فمضى معي؛ ودفعت إليه الخمسة الآلاف الدرهم^(١).

(١) الخبر في تاريخ الطبري: ٣: ٣٨١، ٣٨٢ (طبع أوروبا).

مَسَاوِي الْقَال

قال إسحاق بن إبراهيم الموصلي: حضرت مجلس المأمون، فقلت: يا أمير المأمون، ألا أحدثك عن الفضل بن يحيى؟ قال: بلى، فقلت: دخلت دار الرشيد، وإذا الفضل بن يحيى، وإسماعيل^(١) بن صبيح، وعبد الملك بن صالح في بعض تلك الأزقة يتحدثون. فلما بصر بي الفضل أوماً إليّ وقال: يا إسحاق، انتظرناك منذ الغداة لتساعد على ما نحن فيه من المذاكرة، فقلت: يا سيدي أنا السكيت^(٢) إذا أجريت الجياد وفاز السابق والمصلي^(٣)، فقال: هيهات، عندها مدحت نفسك ولمّا تكذّب!

فلما فرغ عبد الملك من حديثه، قال الفضل: إن لقُسّ حديثاً سمعته من الخليل بن أحمد، فهل عند واحد منكم له ذكر؟ فسكت القوم، فقلت: يا سيدي، ما نعرف له حديثاً إلا حديث خطبته بعُكاظ، قال: ذاك شيء قد فهمته العامة، واختبرته الخاصة. ثم أطرق ساعة فقلنا: إن رأيت أن تحدثنا! فقال:

حدّثني الخليل بن أحمد، أنّ قيصر ملك الروم بعث إلى قُسّ بن ساعدة أسقف نجران - وكان حكيماً طبيباً بليغاً في منطقته - فلما دخل عليه ومثّل بين يديه، حمد الله وأثنى عليه، فأمره بالجلوس فجلس، فرحّب به وأدنى مجلسه، وقال: ما زلت مشتاقاً إليك مع ما أحببت من مناظرتك في الطب، فكان أوّل ما سأله عن الشراب لعجبه به، فقال: أيّ الأشربة أفضل عاقبة في البدن؟ قال: ما صفا في العين واشتدّ على اللسان وطابت رائحته في الأنف من شراب الكرم. قال: فما تقول في مطبوخه؟ قال: مرعى ولا كالسعدان! قال: فما تقول في نبيذ الزبيب؟ قال: ميتّ أحيي وفيه بعض المتعة^(٤)، وما يكاد يقوى شيء بعد الموت. قال: فما تقول في نبيذ العسل؟ قال: نعم شراب الشيخ للإبردة^(٥) والمعدة الفاسدة، قال:

(١) ك: «ومعه إسماعيل».

(٢) السكيت: آخر خيل الحلبة.

(٣) المصلي: التالي من خيل السباق.

(٤) ك: «المنفعة».

(٥) الإبردة، بكسر الهمزة والراء: علة من غلبة البرد والرطوبة، وفي العقد: «ذي الإبردة».

فما تقول في أنبذة التمر؟ قال: أوساخ يطيب مذاقها في اللّهوات، وتسوء عاقبتها^(١) في البدن، وتولد الأرواح في البطن لرققتها. قال: فمن أي شيء يكون الثَّمَل الذي يُذهب الغمّ ويطيّب النفس؟ قال: زعموا أنّ العقل تصعده سَوْرَة الشراب إلى الدِّماغ الذي هو أصله بقوة الرُّوح الذي جعل فيه، فإذا صعدت السَّوْرَة إلى الدِّماغ الذي هو أصله فاحتوت عليه حتى تغشاه، حُجِبَ العقل عن منافعه، فاحتجب البصر بغير عمى، والسمع بغير صَمَم، واللسان بغير خَرَسٍ؛ والدليل على ذلك أن السَّكران لا يرى في نومه شيئاً، ولا تُصيبه جنابة، فلا يزال العقل كذلك محتجباً حتى تفكّه الطبيعة من إसार السَّكر، إما بقوة فيعجل، وإما بضعف فيبطئ. قال: فمن أي شيء يكون الخُمار من بعد صَحْو السَّكران؟ قال: من إعياء الطبيعة عن مجاهدة السَّوْرَة في افتكاك العقل؛ وتخلّصه حتى يردّها النوم إلى هُدوء وما أشبهه. قال: الصَّرف أفضل أم الممزوج؟ قال: الصَّرف سلطان جائر، والجائر مستفسد مذموم، والتمزوج سلطان عادل، والعادل مستصلح محمود. قال: فصف لي الأطعمة، قال: الأطعمة كثيرة مختلفة، وجُملة ما أمرك به الإمساك عن غاية الإكثار؛ فإنّ ذلك من أفضل ما بلوناه من الأدوية، ورأس ما نأمر به من الحِمْية.

قال له: عَمَّن حَمَلَت الحِكْمَة؟ قال: عن عدّة من الفلاسفة، قال: فما أفضل الحِكْمَة؟ قال: معرفة المرء بقدره، قال: فما تقول في الحلم؟ قال: حلم الإنسان ماء وجهه، قال: فما تقول في المال وفضله؟ قال: أفضل المال ما أعطي منه الحق. قال: فما أفضل العطية؟ قال: أن تُعطي قبل السؤال، قال: فأخبرني عمّا بلوت من الزَّمان وتصرفه ورأيت من أخلاق أهله. قال: بلونا الزَّمان فوجدناه صاحباً يخون صاحبه، ولا يُعتب^(٢) من عاتبه، ووجدنا الإنسان صورةً من صُور الحيوان، يتفاضلون بالعقول، ووجدنا الأحساب ليست بالآباء والأمّهات، ولكنها هي أخلاق محمودة، وفي ذلك يقول - أو قال أقول -:

لقد حلبت الزَّمان أشطّره	ثم مَحَضْتُ الصَّريح ^(٣) من حَلبي
فلم أرَ الفضلَ والمعالي في	قولِ الفتى: إني من العربِ
حتى نرى سامياً إلى خُلُق	يذودُ محمودُهُ عن التَّسب
ما ينفعُ المرءَ في فُكاهته	من عقلٍ جدّ مضى وعقل أب

(١) ك: «عواقبها».

(٢) يعتب: يرضى.

(٣) الصَّريح كأمير: اللبن الخالص.

ما المرء إلا ابن نفسه فيها يُعرف عند التحصيل للثوب
حتى إذا الدهرُ غَالَ مُهْجَتَهُ أَلْفِيَّتُهُ تَرْبَةً مِنَ التُّرْبِ
ووجدنا أبلغ العظات النَّظَرُ إلى محلِّ الأموات. وأحمد البلاغة الصَّمت.
ووجدنا لأهل الحزم حذاراً شديداً، وبذلك نَجُوْ من المكروه، والكرم حسن
الاصطبار، والعزَّ سُرعة الانتصار، والتجربة طول الاعتبار.

قال: خَبَّرني، هل نظرت في النجوم؟ قال: ما نظرت فيها إلا فيما أردت به
الهداية، ولم أنظر فيما أردت به الكهانة، وقد قلت في النجوم:

علمُ النجوم على العقول وبَالُ وطِلابُ شيءٍ لا يُنالُ ضَالُّ
ماذا طِلابُك علمَ شيءٍ أَغْلِقْتُ مَنْ دونه الأفلأُك ليس يُنالُ
هيهات ما أَحَدٌ لَغَامِضٍ قُدْرَةُ يدري كم الأرزاقُ والآجالُ
إِلَّا الذي فوق السَّماءِ مكانُهُ فلوَجْههُ الإِكْرَامُ والإِجْلَالُ^(١)

قال: فهل نظرت في زجر الطير؟ قال: نحن معاشر العرب مولعون بزجر
الطير، قال: فما أعجب ما رأيته منه؟ قال: شخصتُ أنا وصاحبُ لي من العرب
إلى بعض الملوك، فآلفيناه يريد غزو قوم كانوا على دين النَّصْرانيَّة، فخرج حتى
إذا كان على فراسخ من مدينته، أمر بضرب فساطيطه وأرؤفته لتتوافي إليه
جنوده، وضرب له فُسطاط على شاطئ نهر وأمر بخباء فُضرب لي ولصاحبي،
فبينما نحن كذلك، إذ أقبل طائران: أسود وأبيض، وأنا وصاحبي نَرْمُقهما؛
حتى إذا كانا على رأسه رَفَرفا وشرَّشرا^(٢)، ثم غابا ثم رجعا أيضاً؛ حتى إذا كانا
قريباً منه طَوياه، ثم أقبلنا نحونا، فوقفا ثم رَتَّعا، فقال صاحبي: ما رأيتُ كالיום
طائرَيْن أعجبَ منهما، فأَيُّهما أنت مختار؟ فقلت: الأسود، قال: الأبيض
أعجبُهما إليَّ، فلَمَّا تَأَوَّلْتُهما؟ قلت: الليل والنَّهار يطويان هذا الرجل في سَفَره
فيَموت، وتَأَوَّلْتَ اختيارك الأبيض، أَتُك تنصرف بيد بيضاء مخففة من المال؛
فإذا هو قد غضب. فلما جنَّ الليل بعث إلينا الملك لنسْمُرَ عنده، فإذا صاحبي
قد أخبره بالخبر، فسألني فأخبرته وصدقته، فغضب وقال: هذه حميَّة منك
لأهل دينك. فقلت: أمَّا أنا فقد صدقتك. فأمر بحبسي ومضى لوجهه، فلم
يتجاوز إلَّا قليلاً حتى مات، فأوصى لي بعشرين ناقة، وقال: قاتل الله قُسَّاء،

(١) ك: «الإفضال».

(٢) شرشرا: سمع لطيرانها صوت.

لقد مَحَضَنِي النصيحة! فانصرفت من سفري ذلك بعدة من الإبل، وانصرف صاحبي مخفياً من المال.

قال الملك: وما رأيت أيضاً من الزجر أعجب؟ قلت: رأيت مرة عند الملك الهُمَام أبي قابوس، وقد خرج عليه خارج من مُضَر يريد ملكه. وقد حشد له، فبعث إلى بعض عمّاله في توجيه أربعمئة فارس، ووجهني مع الرسول، وأمرنا بالشّد على أيديهم في جمع الخيل والرجال - وكان الرسول شاعراً - فبينما نحن نسير؛ إذ سنحت لنا ظباء أعزّ فيها تيسٌ يقدمها، وكان أبو قابوس يواعد للقاءه في يوم كذا وكذا، فنحن نقول: إن كان الملك قد خرج في يوم كذا فهو اليوم في موضع كذا، وقد أقبلنا ونحن نقود جيشاً عرمرماً، فأنشأ الرسول يقول:

ألا ليت شعري ما تقول السّوانحُ أغادِ أبو قابوسَ أم هو رائحُ!

قال: فنظرتُ إلى التّيس عند فراغه من هذا البيت قد دخل في مكنسه حتى توارى فيه، فدخلني من ذلك ما لم أقدر على أن أمسك نفسي حتى استرجعت، فقال لي رفيقي: ما لك؟ قلت: إن صدّق الزّجر، فصاحبك قد ثوى في التراب، والتحفّ عليه أطباق الثرى، قال: كيف ذلك؟ قلت: وافق فراغك^(١) من البيت دخول التّيس في مكنسه، فأعرض عني، فلمّا أصبحت في اليوم الذي واعدنا للقاءه لم يواف، ولم يكن بأوشك من أن أتانا الخبر بهلاكه وعود ابنه. فأكرمه قيصر وأحسن جائزته.

قلنا: أيّد الله الوزير! لقد بلغت ما بلغت باستحقاق، ولقد حزت قصبة الرهان في كل منقبة! فتبسّم وقال: عزّ الشريف أدبه، وإذا رسول الرشيد قد وافاه، فنهض نحوه وتصدّع المجلس وانصرفنا، فلمّا مضى من الليل بعضه، إذا أنا بطارق قد طرّقني، وبين يديه غلمان على أعناقهم البدر، وإذا رسول الفضل وقد حمل إليّ مائة ألف درهم، وقال: الوزير يقرأ عليك السلام، ويقول: ضجرت باستماع الحديث، وأوجبت عليّ بذلك مئة، هذه صلة وتحفة في جنب قدرك عندي، فخذها ولا تعتدّ بها، فقلت: سبحان الله الذي خلق هذا الرجل وجبله على كرم بدّ به من مضى ومن غبر! وإذا هو قد وجّه إلى أصحابي الذين كانوا معي بمثل الذي وجّه به إليّ، فغدوت إليه وأردت أن أشكره، فقال: والله لئن ذهبت تكشف ما ستر الله لأجفونك. فكأنما ألّمني بذلك حجراً، فاحتبسني عنده، فطعمت

(١) ك: «عند».

وشربت، ورحت وقد حملني على عدة أفراس بسروج مذهبة ولجُم مذهبة، ووجه معي بعشرة تخوت ثياب وعشر بدر.

قال: فقال المأمون: ويحك يا إسحاق! ثواب حديثك ضعف ما أمر لك به الفضل، وقد أمرت لك بمائة ألف درهم، فقبضت ذلك وانصرفت.



قال: كان محمد بن حازم قال قصيدته التي يقول فيها:

فيا شامتاً مهلاً فكم من شماتة تكون لها العُقبى لقاصمة الظهر
فاعتل محمد، ولم يكن يرثه إلا أخوه، وكان بُسر من رأى. فوجهت إليه
جاريته تعلمه بشدة علته، فقدم أخوه ومحمد لمآبه، فأدخل الجارية بيتاً في الدار
ووطئها قبل وفاة أخيه، فلما مات حمل المال والأثاث والجارية إلى منزله بُسر من
رأى، وأخذ في الشراب، فانصرف ليلة ثملاً، فأراد المبيت على سطح الدار فمنع
من ذلك فامتنع، فلما صار في أعلى الدرجة سقط وانقص ظهره، فجعلنا نتذكر
شعر أخيه.



قيل: ووفدت عزة كثير على عبد الملك بن مروان، فلما دخلت سلمت فرد
عليها السلام، ورحب بها، وقال: ما أقدمك يا عزة؟ قالت: شدة الزمان، وكثرة
الألوان، واحتباس القطر، وقلة المطر، قال: هل تروين لكثير:

وقد زعمت أنني تغيرت بعدها ومن ذا الذي يا عز لا يتغير!
قالت: لا أروي له هذا، ولكني أروي له قوله [في قصيدة له غير هذه]^(١):
كأني أنادي صخرة حين أعرضت من الصم لو تمشي بها العصم زلت^(٢)
فقال: ما كنت لتصيري^(٣) إلى حاجة^(٤)، أو تهبي^(٥) نفسك لي؛ فأزوجك
منه.

قالت: الأمر إليك يا أمير المؤمنين، ما كنت لأزهد^(٦) في هذا الشرف الباقي
لي ما دامت الدنيا؛ أن يكون أمير المؤمنين وليي، فعظم بذلك قدرها عنده، وأمر

(١) ل: «حاجته».

(٢) ط: «تهمين».

(٣) ك: «أزهد».

(١) من ك.

(٢) ل: «الشم».

(٣) ط: «لتصيرين».

لها بمال، وكتب إلى كثير وهو بالكوفة: أن أركب^(١) البريد وعجل فإني مزوج عزة. فأتاه الكتاب وهو مُضنى من الشوق إليها، فرحل فأقبل نحوها، فلما كان في بعض الطريق، إذا هو بغراب على شجرة بانه، وإذا هو ينتف ريشه ويطيره - وكان شديد الطيرة - فلما رآه تطير وهم بالانصراف، ثم غلبه شوقه، فمضى وهو مكروب لمّا رأى، حتى أتى ماءً لبني نهدي، فإذا هو برجل يسقي إبله، فنزل عن راحلته واستظل بشجرة هناك، فأبصره النهدي، فأتاه وسأله عن اسمه ونسبه، فانتسب، فرحب به، فأخبره عما رأى في طريقه، فقال: أما الغراب فغربة، وأما البانة فبين، وأما نتف ريشه ففرقة.

فاستطير^(٢) لذلك ومضى حتى دنا من دمشق، فإذا بجنازة فاستعبر، وقال: اسأل الله خير ما هو كائن، فسأل عن الميت، فإذا هي عزة، فخر مغشياً عليه، فعرف وصّب عليه الماء، فكان مجهوده أن بلغ القبر، فلما دُفنت انكب على القبر وهو يقول:

سراج الدجى صفر الحشى، منتهى المنى	كشمس الضحى نؤامة حين تصبح
إذا ما مشت بين البيوت تخزلت	ومالت كما مال النزيف المرئج
تعلقت عزاً وهي رؤد شبابها	علاقة حب كاد بالقلب يرجع ^(٣)
أقول ونضوي واقف عند رمسها:	عليك سلام الله والعين تسفح ^(٤)
فهلاً فداك الموت من أنت دونه	ومن هو أسوأ منك ذلاً وأقبج!
على أم بكر رحمة وتحيّة	لها منك والنائي يود وينصح
منعمة لو يدرج الدر بينها	وبين حواشي بردها كاد يجرح ^(٥)
وما نظرت عيني إلى ذي بشاشة	من الناس إلا أنت في العين أملح
ثم بكى حتى غشي عليه فأفاق ^(٦) وهو يقول:	

وما أعيف النهدي لا در دره	وأزجره للطير لا طار طائر!
رأيت غراباً ساقطاً فوق بانه	ينتف أعلى ريشه ويطيره
فقال: غراب اغتراب من النوى	وبانه بين من حبيب تعاشره
ثم لم يزل باكياً حتى أدركه الموت، ولم ير ضاحكاً بعدها.	



(٤) النضو هنا: الجمل المهزول.

(٥) ك: «حواشي درعها».

(٦) ك: «وجعل يقول».

(١) ل: «يركب».

(٢) استطير، أي دعر.

(٣) الرؤد: الشابة الحسنة.

وقيل فيه من الشعر:

تَنَادَى الطَّائِرَانِ بَبَيْنِ سَلَمَى
فَكَانَ الْبَانُ أَنْ بَأْتَتْ سُلَيْمَى
أَخَذَهُ أَبُو الشَّيْصِ فَقَالَ:

أَشَاقَكَ وَاللَّيْلُ مُلْقِي الْجِرَانِ
أَحْصُ الْجَنَاحَ شَدِيدُ الصِّيَاحِ
وَفِي نَعَبَاتِ الْغُرَابِ اغْتِرَابٌ
وَلَا خَر:

أَقُولُ يَوْمَ تَلَاقَيْنَا وَقَدْ سَجَعْتُ
أَلَّا نَ أَعْلَمُ أَنَّ الْغَصْنَ لِي غَصَصٌ
فَقَمْتُ تَخْفِضُنِي أَرْضٌ وَتَرْفَعُنِي
وَلَا خَر:

أَقُولُ وَقَدْ صَاحَ ابْنُ دَايَةَ غُدُوَّةٍ
أَفِي كُلِّ يَوْمٍ رَائِعِي مِنْكَ رَوْعَةٌ
فَلَا بَضَتْ فِي خَضِرَاءِ مَا عَشَتْ بَيْضَةً

عَلَى غُصْنَيْنِ مِنْ غَرْبٍ وَبَانِ
وَفِي الْغَرْبِ اغْتِرَابٌ غَيْرُ دَانِي

غُرَابٌ يَنْوُحُ عَلَى غُصْنِ بَانِ!
يُبْكِي بَعَيْنَيْنِ مَا تَدْمَعَانِ
وَفِي الْبَانِ بَيْنُ بَعِيدِ التَّدَانِي

حَمَامَتَانِ عَلَى غُصْنَيْنِ مِنْ بَانِ
وَالْبَانُ بَيْنُ قَرِيبٍ عَاجِلُ دَانِ
حَتَّى وَثَبْتُ، وَهَذَا السَّيْرُ أَرْكَانِي

بَوْشَكَ النُّوَى لَا أَخْطَأُكَ الشَّوَابِكُ^(١)
بَبَيْنُونَةِ الْأَحْبَابِ، عِرْسُكَ فَارُكُ^(٢)
وَضَاقَتْ بِرَحْبِئِهَا عَلَيْكَ الْمَسَالِكُ!



(١) ابن داية: الغراب.

(٢) الفارك: التي تبغض زوجها.

محاسن الشعر في هذا الفن

لبعضهم:

وقالوا: عُقاب، قلتُ عُقبى من النَّوى
وقالوا: حَمَامٌ، قلتُ حُمَّ لِقَاؤِهَا
وقالوا: دُمٌّ دامتْ مودَّةٌ بيننا
وقالوا: تَغْنَى هُدْهُدٌ فوق أَيْكَةٍ
دَنْتُ بعدَ شَحَطٍ مِنْهُمْ ونُزُوحُ
وعادتْ لَنَا رِيحُ الوصالِ تَفُوحُ
وطلَّحَ فَنيلَتِ والمَطْيُ طُلُوحُ
فقلتُ هُدًى تَغْدُو بنا وتَرُوحُ



وحكي عن النُّعْمان بن المنذر، أَنَّهُ خرج يتصيدُ ومعه عديّ بن زيد، فمرَّ
بآرام - وهي القُبُور - فقال عديّ: أبيت اللعن! أتدري ما تقول هذه الآرام؟ قال:
لا، قال: إنها تقول:

أَيُّهَا الرِّكْبُ المِخْبُوءُ^(١) نَ عَلَى الأَرْضِ يَمُروُنُ^(٢)
فكما كنتم فكنّا^(٣) وكما نحنُ تكونونُ
قال: أعدّ^(٤)، فأعاد، فرجع كئيباً وترك صيده. قال: ثم خرج معه خرجة^(٥)
أخرى، فوقف على آرام بظاهر^(٦) الكوفة^(٧)، فقال: أبيت اللعن! أتدري ما تقول
هذه الآرام؟ قال: لا، قال: فإنها تقول:

رُبَّ رَكْبٍ قد أَنَاخُوا عِنْدَنَا^(٨) يشربونَ الخمرَ بالماءِ الزلالِ
ثمَّ أَصْحَوْا عَصَفَ الدَّهْرِ بِهِمْ وكذلكَ الدهرُ حالٌ بعدَ حالٍ

(١) كذا في ل والأغاني، وفي ك: «المخثون»، وفي المحاسن والأضداد: «المخفون».

(٢) الأغاني: «الجدون».

(٣) الأغاني: «وكنا».

(٤) ك: «أعده».

(٥) المحاسن والأضداد: «مرة».

(٦) ك: «بظاهر».

(٧) المحاسن والأضداد: «الحيرة».

(٨) كذا في ل والأغاني والمحاسن والأضداد، وفي ك: «حولنا».

فانصرف وترك صيْده^(١).



عبد الله بن مسلم، قال: حَدَّثت عن معاوية أنه سأل عبيد بن شَرِيَّة الجُرهمي عن أعجب شيء رآه، قال: نزلت بحَيٍّ من قضاة في الجاهليَّة، فأخرجوا جنازة لرجل من بني عُذرة؛ فخرجت معهم حتى إذا وارَوْه؛ تنَحَّيْتُ جانباً وعيناي تَذرفان، ثم تمثَّلت بأبيات من شعر كنت رُويْتُها قبل ذلك الزمان:

استَقْدِرَ اللهَ خيراً وارْضينَّ به فبينما العسرُ إذ دارَتْ مَياسيرُ
وبينما المرءُ في الأحياءِ مغتبطٌ إذ صار في الرَّمسِ تعفوه الأعاصيرُ
يبكي الغريبُ عليه ليس يعرفه وذو قرابته في الحيِّ مسرورُ
حتى كأن لم يكنْ إلا تذكُّرُه والدَّهرُ أيَّتما حالٍ دهاريرُ

قال: وإلى جانبي رجل يسمع ما أقول، فقال: أتدري مَنْ قائل هذه الأبيات؟ قلت: لا، والله، قال: والذي يُحلف به إنه لصاحب هذا القبر، وهذا ذو قرابته، أسرُّ الناس بموته، وأنت الغريب تبكي عليه، فعجبت ممَّا ذكره في شعره، والذي صار إليه من قوله، كأنه نظر إلى نفسه بعد موته.



قال: ولمَّا بعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه خالد بن الوليد إلى أهل الرِّدة، انتهى إلى حيٍّ من تغلب، فأغار عليهم وقتلهم، وكان رجلٌ منهم جالساً على شرابٍ له، وهو يغني بهذه الأبيات:

ألا علَّلاني قبلَ جيش أبي بكر لعلَّ منايانا قريبٌ وما ندري
فوقف عليه رجل من أصحاب خالد، فضرب عنقه، وإذا رأسه في الجفنة التي كان يشرب منها، ولذلك قيل: «إنَّ البلاءَ موَكَّلٌ بالمنطق»^(٢).



وحدثنا الحسين بن الضحاك، قال: شهدتُ الواثق - وكان قاعداً في مجلسٍ وكان أوَّل مجلس قعده، فكان أوَّل ما تغنَّى من الغناء في ذلك المجلس صوت إبراهيم بن المهدي، فغنَّت به شارية، جارية إبراهيم:

(١) الخبر في الأغاني: ٩٥: ٢، ٩٦ (طبعة الدار)، والمحاسن والأضداد: ٦٩، ٧٠.

(٢) أول من قاله أبو بكر الصديق؛ في خبر معروف. مجمع الأمثال ١: ١٧.

ما درى الحاملون يوم استقلوا نعيشه للثواء أم لللقاء
فلتقل فيك باكيات كما شئ ن صباحاً وعند كل مساء
قال: فبكى والله وبكىنا، حتى شغلنا البكاء عن جميع ما كنا فيه، ثم اندفع
بعض المغنين، فغنى:

ودّع هريرة إن الركب مُرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل^(١)
قال: فازداد والله في البكاء، ثم قال: أسمعت كالיום قطّ تعزية بأب ونعي
نفس! ثم ارفض ذلك المجلس.



وحدثنا ابن المكي، عن أبيه، قال: قال محمد الأمين في آخر أيامه: يا
مكي، والله أحب أن أقعد يوماً قبل أن يُحال بيننا وبين ما نريد! فقلت: يا أمير
المؤمنين، افعل ذلك، فقال: اغد عليّ في غد.

قال: فانصرفت، وغدا عليّ رسوله في السحر، فجئت إليه وهو في صحن
داره، وعليه جبة وشي مذهبة تأتلق، وعمامة مثلها، ما رأيت لأحد قطّ مثل ذلك،
وتحتّه كرسيّ من ذهب مرصّع بالجواهر، فدعا بكرسيّ، فجلست عليه عن يساره،
ثم قال لخادم على رأسه: ادع لي فلانة وفلانة، حتى عدّ أربع جوار، ما منهنّ
جارية إلّا وأنا أعرف جذقها وجودة غنائها. فخرجن وجلسن عن يمينه، ثم قال: يا
غلام، عليّ برطل، فأتي برطلٍ وقدح بلّور مكلّل بالجواهر، فالتفت إلى التي تليه،
فقال لها: غنيّ، فضربت ضرباً حسناً، وتغنّت بشعر الوليد بن عتبة بن أبي
مُعيط^(٢):

هم قتلوه كي يكونوا مكائهُ كما قتلت كسرى بليلٍ مرأزبه^(٣)
بني هاشم ردّوا سلاح أخيكُم^(٤) ولا تنهبوه، لا تحلّ مناهبه^(٥)
قال: فرمى بالقدح في وسط الدار. ثم قال: لعنك الله! ما هذا؟ قالت: لا

(١) لأعشى قيس، ديوانه: ٤١.

(٢) من أبيات ثلاثة، في الكامل ٣: ٢٨.

(٣) الكامل: «كما غدرت يوماً بكسرى».

(٤) الكامل: «سلاح ابن أختكم».

(٥) بعده في الكامل:

بني هاشم كيف الهوادة بيننا وعند عليّ دُرْعُهُ ونجائبُهُ!

والله يا سيدي، ما جاء على لساني غير هذا، ثم التفت إلى الغلام، فقال: اسقني،
فأتاه بقدح مثل الأول، وقال للأخرى: غتي، فغنت ما قيل في كليب وائل:
كُليبٌ لعمري كانَ أكثرَ ناصراً وأيسرَ ذنباً منك ضرجَ بالدم
فرمى بالقَدح في صحن الدار وكسره، ثم قال: يا غلام، عليّ برطل، وقال
للثالثة: غتي، فغنت:

أَتَقْتُلُ عَمراً لا أبالك شارداً وتزعم بعد القتل أنك هارب!
فلو كنت بالأقطار ما فتّ ضربتي وكيف تفوت الحين والدم طالب!
قال: فرماها بالقَدح وقال: يا غلام، عليّ برطل، وقال للرابعة: غتي،
فغنت:

كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا أنيس ولم يسمُر بمكة سامر^(١)
بلَى نحنُ كنّا أهلها فأبادنا صروف الليالي والجدود العواثر
قال: فالتفت إليّ وقال: قد سمعت! هذا أمر يريده الله جلّ وعزّ.
قال: فما مضت أيام حتى رأيت رأسه بين شرفتين من شرف قصره!

(١) من قصيدة لعمرو بن الحارث بن مضاض الجهمي؛ في ابن هشام ١: ٨٢ وأولها:
وقائلة والدمع سكب مبادر وقد شرقت بالدمع منها المحاجر

محاسن ترك التطير

رُوِيَ عن عكرمة، قال: كُنَّا جُلُوساً عِنْدَ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ عُمَرَ، فَمَرَّ طَائِرٌ يَصِيحُ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ: خَيْرُ! فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا خَيْرَ وَلَا شَرٍّ، وَأَنْشَدَ فِي مِثْلِهِ^(١):

مَا فَرَّقَ الْأَحْبَابَ بَعْدَ	دَ اللَّهْ إِلَّا الْإِبْلُ
وَالنَّاسَ يَلْحَوْنَ غُرَا	بَ الْبَيْنَ لَمَّا جَهِلُوا
وَمَا عَلَى ظَهْرِ غُرَا	بِ الْبَيْنِ تُطَوَّى الرَّحْلُ
وَلَا إِذَا صَاحَ غُرَا	بُ فِي الدِّيارِ احْتَمَلُوا
وَمَا غَرَابُ الْبَيْنِ إِلَّا	نَاقِلَةٌ أَوْ جَمَلُ

وَلَا آخِرَ:

أَتَرْحَلُ عَمَّنْ أَنْتَ صَبٌّ بِمِثْلِهِ	وَتَلْحَى غُرَابَ الْبَيْنِ! إِنَّكَ ذُو ظُلْمٍ ^(٢)
أَقِمْ فِغْرَابُ الْبَيْنِ غَيْرُ مَفْرَقٍ	وَلَا نَازِلٌ إِلَّا عَلَى أَفْضَلِ الْحَكَمِ

آخِرَ:

عَلِطَ الَّذِينَ رَأَيْتَهُمْ بِجَهَالَةٍ	يَلْحَوْنَ كَلَّهُمْ غُرَاباً يَنْعِقُ ^(٣)
مَا الذَّنْبُ إِلَّا لِلْجَمَالِ فَإِنَّهَا	مِمَّا يَشْتَتُ جَمْعُهُمْ وَيُفْرَقُ
إِنَّ الْغُرَابَ بِيَمْنِهِ يُدْنِي النُّوَى	وَتُشْتَتُ الشَّمْلُ الْجَمِيعَ الْأَيْتُقُ



(١) فِي الْمَحَاسَنِ وَالْأَضْدَادِ ٦٨: «لَأَبِي الشَّيْصِ».

(٢) الْمَحَاسَنِ وَالْأَضْدَادِ، مِنْ غَيْرِ نَسَبَةٍ.

(٣) الْمَحَاسَنِ وَالْأَضْدَادِ مِنْ غَيْرِ نَسَبَةٍ أَيْضاً.

محاسن المواعظ

قال: وحكي عن الأوزاعي، قال: بعث إلي المنصور، فقال: لِمَ تبطئ عنا؟ قلت: وما تريد منا؟ قال: لآخذ عنكم، وأقتبس منكم. فقلت له: مهلاً، فإن عروة بن رُويم أخبرني أن نبي الله ﷺ، قال: «مَنْ جَاءَتْهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَقَبِلْهَا شَكَرَ اللَّهُ لَهُ ذَلِكَ، وَمَنْ جَاءَتْهُ فَلَمْ يَقْبَلْهَا كَانَتْ حِجَّةً عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ». مهلاً! فإن مثلك لا ينبغي له أن ينام، إنما جُعِلَتِ الأنبياءُ رعاةً لعلمهم بالرعية، يجبرون الكسير، ويُسمنون الهزيلة، ويردُّون الضالة، فكيف مَنْ يسفك دماء المسلمين، ويأخذ أموالهم! أعيذك بالله أن تقول: إنَّ قرابتك من رسول الله ﷺ تدعوك إلى الجنة! إنَّ رسول الله ﷺ كانت في يده جريدة يستاك بها، فضرب بها قرن أعرابي، فنزل عليه جبريل عليه السلام، فقال: يا محمد، إنَّ الله تبارك وتعالى لم يبعثك جباراً مؤسراً مقتطاً، تكسر قرون أمتك، ألقي الجريدة عن يدك. فدعا الأعرابي إلى القصاص مِنْ نفسه، فكيف بمن يسفك دماء المسلمين!

إنَّ الله عزَّ وجل أوحى إلى مَنْ هو خير منك، إلى داود عليه السلام: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ [ص: ٢٦]، وأوحى إليه: يا داود، إذا أتاك الخصمان، فلا يكوننَّ لأحدهما على صاحبه الفضل، فأمحوك من ديوان نبوتي.

واعلم أنَّ ثوباً من ثياب أهل النار لو عُلق بين السماء والأرض لمات أهل الأرض من ثن ربحه، فكيف بمن تقمصه! ولو أنَّ حلقة من سلاسل جهنم وُضعت على جبال الدنيا لَذَابَتْ كما يذوب الرصاص، حتى تنتهي إلى الأرض السابعة، فكيف بمن تقلدها!



قال: ودخل عمرو بن عُبيد على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ الله عزَّ وجل يقيفك ويسائلك^(١) عن مثقال ذرة من الخير والشر؛ وإن الأمة خصماؤك

(١) ك: «يوقفك ويسألك».

يوم القيامة، وإنَّ اللهَ جلَّ وعزَّ لا يرضى منك إلَّا بما ترضاه لنفسك. ألا وإنَّك لا ترضى لنفسك إلَّا بأن يعدل عليك، وإنَّ اللهَ جلَّ وعزَّ لا يرضى منك إلَّا بأن تعدل على الرعيَّة. يا أمير المؤمنين، إن وراء بابك نيراناً تتأجج من الجور، والله ما يُحكِّم وراء بابك بكتاب الله ولا بسنة نبيه ﷺ.

قال: فبكى المنصور، فقال سليمان بن مُجالد - وهو واقف على رأس المنصور: يا عمرو، قد شققتَ على أمير المؤمنين! فقال عمرو: يا أمير المؤمنين، مَنْ هذا؟ قال: أخوك سليمان بن مُجالد، قال عمرو: ويلك يا سليمان! إنَّ أمير المؤمنين يموت، وإن كلَّ ما تراه يُنفد، وإنَّك جيفة غداً بالفناء، لا ينفعك إلَّا عمل صالح قدَّمته، ولقُرْبُ هذا الجدار أنفع لأمر المؤمنين من قُربك، إذ كنت تطوي عنه النصيحة، وتنهى مَنْ ينصحه! يا أمير المؤمنين إنَّ هؤلاء اتَّخذوك سُلماً إلى شهواتهم.

قال المنصور: فأصنع ماذا؟ ادْعُ لي أصحابك أوْلَهُم.

قال: ادعهم أنت بعمل صالح تحدِّثه، ومُرْ بهذا الخناق فليُرْفَع عن أعناق النَّاس، واستعمل في اليوم الواحد عمَلاً كلَّما رابك منهم ريبٌ أو أنكرت على رجل عزلته وولَّيت غيره، فوالله لئن لم تقبل منهم إلَّا العدل ليتَقَرَّبَنَّ به إليك من لا نيَّة له فيه.



وحدَّث محمد بن عبد الله؛ قال: قال المنصور لجعفر بن حنظلة البهراني: عِظْني، قال: فقلتُ: يا أمير المؤمنين، أدركتُ عمر بن عبد العزيز سنتين لم يتخذ مالاً، ولم يُنشئ عَيْناً، ولم يستخرج أرضاً، ولم يضع لَبِنَةً على لَبِنَةٍ، ولا أحصى اليوم كم من ولده تحمَّل الحمالات وحمل على الخيل. وولي هِشام بن عبد الملك ثمان عشرة سنة ما منها سنة إلَّا وهو يُنشئ فيها عيوناً، ويتخذ فيها أموالاً، ويقطع لولده القطائع، ولا أعرف اليوم من ولده رجلاً يشبع. فقال: والله لقد وعظت وأحسنت.

قال جعفر: ففرحت أن نَجَعْتُ عِظْتي في أمير المؤمنين. قال: فأطرق ساعة ثم قال: يا غلام، ادع لي سليمان بن مُجالد، فدعاه، فقال: يا سُلَيْمان، علَّق أصحاب قبلياً بأرْجُلِهِم حتى يؤدُّوا ما عليهم - وكان قد جعلها لصالح ابنه - فعلمتُ أن عِظْتي لم تنفع قليلاً ولا كثيراً.



وحدث محمد بن عبد الله الخراساني، قال: حدثني المفصل الضبي، قال: سمعتُ المسيّب بن زهير يقول: بينا المنصور يطوف بالبيت وأنا قُدّامه؛ وإذا رجلٌ مستلّم الرّكن، فقلت له: تنحّ، فقد جاء أمير المؤمنين؛ مرتين^(١) أو ثلاثاً؛ فلم يبرح حتى رَمَقَه المنصور، وسمعه وهو يقول: اللهمّ إنّي أشكو إليك ظهور الجور والبُغي والفساد في الأرض، وما يحول بين المرء وقلبه من الطّمع! فلَمّا سمعه، قال لي: يا مسيّب، عليّ بالرجل! فقلت له: أمّا إذ قد ابتليت بك، فأجب. قال: حتى أتمّ طوافي.

فلما أتمّ طوافه، قلت له: أجب الآن، فقد فرغت من طوافك، قال: حتّى أصليّ ركعتين، قلت: نعم فصلّ، فصلّي ركعتين، ثم أدخلته على المنصور، فلَمّا رآه قال: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته؛ قال: وعليك السّلام، ما هذا الكلام الذي سمعتك تلفظ^(٢) به آنفاً عند الركن؟ قال: أوَسَمِعْتُهُ يا أمير المؤمنين! قال: نعم، قال: هو ذلك، ألسن ابن عمّ رسول الله ﷺ! ألسن الخليفة، ما بقيت غاية إلا وقد بلغت! أنطمع أن تنال ما عند الله جلّ وعزّ بما أنت فيه! - قال: وفيه أنا؟ قال: أخبرك بما لا تقدر أن تدفعه، قال: وما هو؟ قال: عمّدت إلى الطين، فأوقدت عليه، فصيّرت منه الآجر، ثم عمّدت إلى الرّمل وأوقدت عليه، فصيّرت منه الجصّ، وصيّرت بعضه فوق^(٣) بعض، فبنيت لك منها الحصون المشيّدة، والقصور العالية، ثم غلّقت عليها أبواب الحديد، فاحتجبت عن الناس أجمعين، ثم أقعدت على الأبواب أقواماً عبدوك من دون الله!

فلما قال له ذلك استوى جالساً، ثم قال: أنا! قال: نعم، أنت! أما سمعت الله جلّ ذكره يقول: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، ما صلّوا لهم ولا صاموا؛ ولكنهم أمروهم فأطاعوهم في كلّ ما أرادوا، ولم يخالفوهم، فكانت تلك ربوبيّتهم، ثم اتّخذت بطانةً يسيرة وقلت: لا يدخل عليّ إلا فلان وفلان، فرفع أولئك إليك من أمور المسلمين ما هان عليهم، وخفّ عليك؛ فإذا جاء المظلوم إلى الباب لم يصلّ إليك، فصار إلى بعض مَنْ يصلّ إليك، فقال: ارفع قصّتي هذه إلى أمير المؤمنين، قال: نعم، فدفعها إليه، فإذا هو يتظلم من بعض مَنْ يصلّ إليك، فأرسل إليه الظالم الذي ظلم صاحب القصّة:

(١) كذا في ك، وفي ل: «كرتين».

(٢) ك: «تقول».

(٣) ك: «على».

والله لئن رفعت قصّة فلان إلى أمير المؤمنين؛ لأرفعن قصّة فلان الذي ظلمته في كذا وكذا، فأمسك القصّة ولم يرفعها، فعند ذلك اقتطعت حقوق الناس دونك، وأنت محصور في قصرِكَ؛ تظنّ أنّك في شيء أو على شيء، والناس وراء بابك يُقتلون ويؤكلون. والله لقد دُفِعْتُ إلى جزيرة من جزائر البحر؛ وإذا ملك تلك البلاد مُشرك، وصنمه في كمّه - وتسمّى البلاد الصين - فرأيت ذات يوم وهو يبكي في مجلسه، فقام إليه وجوه مملكته، فقالوا: ما يبكيك؟ أدام الله ملكك، وأعزّك أيّها الملك! أليس قد مكّن الله لك! أليس قد مهّد الله لك! قال: أبكي لصمم قد اعتراني، أخاف ألا أسمع صوت مظلوم وصارخ بالباب. ألا وقد آليت عليكم ألا يركب منكم الفيل، ولا يلبس ثوباً أحمر إلا مظلوم، حتى أعرفه. قال: فلقد - والله - رأيته يركب بالعداء والعشيّ، يتصفّح الوجوه، هل يرى مظلوماً فينصفه؟ فهذا لا يعرف الله جلّ وعزّ، ولا يريد بذلك رفعةً عند الله جلّ وعزّ، ولا زُلْفى لديه، ولا رجاء ثواب، ولا مخافة عقاب، ولكن شفقةً على مُلكه، خوفاً من أن ينتشر عليه أمره فيخاف أن يذهب ملكه، مشرك يفعل هذا ويتفقّده من نفسه ورعيّته، وأنت ابن عم رسول الله ﷺ، وكنت أوّلَى بهذا الفعل من ذلك المشرك!

قال: صدقت، قد عرفت الذي قلت، وفهمت ما وصفت؛ والأمر على ما ذكرت؛ ولكن كيف أصنع، وقد بُليْتُ بأمر الأمة، ودعوت الفقهاء، فلاناً وفلاناً، على أن أستعين بهم على ما أنا فيه فهربوا مني.

قال: إنهم لم يهربوا منك؛ ولكن لم يعلموا أنّك تريد لهم للعمل بالحق، وكان العمل معك أو معونتك أوجبَ عليهم من الصلاة والصيام والحج والنوافل؛ ولكنهم هَرَبُوا خوفاً على أبدانهم من عذاب الله؛ وذلك أنهم تخوّفوا أن تحملهم على مثل رأيك.

قال المنصور: فهذا عمّي عيسى بن عليّ الضامن عليّ، إنك إن أتيتني بهم أطلّقت أيديهم في إنصاف الناس ولا أخالف أمرهم. فقال الرجل: أكذا يا عيسى، أنت الضامن على ما قال الخليفة؟ قال: نعم. قال: الله! حتى قالها ثلاثاً، قال: وأقيمت الصلاة فافترقنا، فلما صلّينا طُلب الرجل فلم يوجد، فكانوا يرون أنه الخضرُ عليه السلام، أو ملك أرسل إليه.



وحكي عن الحجاج قال: حججت فنزلت ضربةً، فإذا أعرابي قد كور عمامته على رأسه، وتنكبّ قوسه، وصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيّها

الناس؛ إنما الدنيا دارٌ ممرٌ، والآخرة دارٌ مقرٌ، فخذوا من ممرِّكم لمقرِّكم، ولا تهتكوا أستاركم عند من يعلم أسراركم. أما بعد:

فإنه لم يستقبل أحدٌ يوماً من عمره إلا بفراق آخر من أجله، فاستصلحوا لأنفسكم ما تقدمون عليه بما تظعنون عنه، وراقبوا من ترجعون إليه، فإنه لا قوًى أقوى من خالق، ولا ضعيف أضعف من مخلوق، ولا مهرب من الله إلا إليه. وكيف يهرب من يتقلب في يدي طالبه! ﴿وإِنَّمَا تُوفُونَ أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِجَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾^(١) [آل عمران: ١٨٥].



وقال بعض الأعراب: إن الموت ليتقحم على الشيب تقحم^(٢) الشيب على الشباب، ومن عرف الدنيا لم يفرح فيها برضاء، ولم يحزن فيها على بلوى، ولا طالب أغشم من الموت، ومن عطف عليه الليل والنهار أرياه، ومن وكل به الموت أفناه.



وقال أعرابي: كيف تفرح بعمرٍ تنقصه الساعات، وسلامة بدن معرض لآفات! ولقد عجبت من المؤمن يفر من الموت وهو سبيله إلى الثواب، ولا أرى أحداً إلا سيذكره الموت وهو منه آبق.



وقال عتيق بن عبد الله بن عامر بن الزبير: كنت عند سليمان بن عبد الملك، فدخل عليه عمر بن عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين، بالباب أعرابي له حزمٌ ودينٌ ولسان، فقال: يؤذن له، فلما دخل قال له سليمان: تكلم، قال: يا أمير المؤمنين، إنني مكلمك بكلام فاحتمله إن كرهته؛ فإن وراءه ما تحب. قال: يا أعرابي، إنا لنحتمل ممن لا ينصح، وأنت الناصح جيباً، والمأمون غيباً. فقال: أما إذا أمنت بادره غضبك؛ فإني سأطلق من لساني ما خرس عنه الألسن؛ تأدية لحق الله جل ذكره، وحق إمامتك يا أمير المؤمنين. إنه قد تكتفك قوم قد أسأؤوا الاختيار لأنفسهم، فابتاعوا دنياك بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في

(١) الخبر في معجم البلدان ٥: ٤٣٢، وفي آخره: «ثم قال: المخطوب له من قد عرفتموه، ثم نزل عن المنبر».

(٢) ك: «تقحم».

اللَّهُ ولم يخافوا اللَّهَ فيكَ، حربٌ لِلآخرةِ سلّمٌ لِلدنيا، فَلَا تَأْتَمْنَهُمْ عَلَى ما ائْتَمَنَكَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ، فَإِنَّهُمْ لَا يَأْلُونَ لِلأمانةِ تَضْيِيعاً، وَلِلأمةِ خَسْفاً وَعَسْفاً، وَأَنْتَ مَسْؤُولٌ مُحاسِبٌ عَلَى ما اجْتَرَحْتَ، فَلَا تَصْلَحْ دَنِيَّاهُمْ بِفَسَادِ آخِرَتِكَ، فَإِنَّ أَعْظَمَ النَّاسِ غَبْناً بِائِعِ آخِرَتِهِ بِدُنْيَا غَيْرِهِ.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ: يَا أَعْرَابِي، إِنَّ لِسَانَكَ لَأَقْطَعُ مِنْ سَيْفِكَ، قَالَ: أَجَلُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، هُوَ لَكَ لَا عَلَيْكَ! فَقَالَ لَهُ: هَلْ لَكَ حَاجَةٌ فِي ذَاتِ نَفْسِكَ؟ قَالَ: لَا حَاجَةٌ لِي فِي شَيْءٍ خَاصٍّ دُونَ عَامٍّ.



وَعَنْ أَبِي بَكْرٍ الْهَذَلِيِّ، قَالَ: بَعَثَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ إِلَى الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ وَابْنِ سِيرِينَ وَالشَّعْبِيِّ. فَقَدِمُوا عَلَيْهِ وَهُوَ بِوَاسِطٍ - وَكَانَ رَجُلًا يَحِبُّ حَسْنَ السَّيْرَةِ، وَيَسْمَعُ مِنَ الْفُقَهَاءِ - فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ أَلْفَفَهُمْ وَأَمَرَ لَهُمْ بِنَزْلِ^(١) وَحَسَنَ ضِيَاةٍ، فَأَقَامُوا عَلَى بَابِهِ شَهْرًا، فَعَدَا عَلَيْهِمْ حَسَنُ بْنُ هُبَيْرَةَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَقَالَ: إِنَّ الْأَمِيرَ دَاخِلٌ عَلَيْكُمْ، فَجَاءَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عُكَّازٍ لَهُ حَتَّى دَخَلَ، فَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ يَزِيدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَبْدٌ مِنْ عَبِيدِ اللَّهِ، أَخَذَ عَهْدَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ عَهْدَهُ؛ كَيْ يَسْمَعُوا لَهُ وَيَطِيعُوا، وَإِنَّهُ يَأْتِينِي مِنْهُ كُتُبٌ أَعْرِفُ فِي تَنْفِيذِهَا الْهَلَكَةَ، فَإِنْ أَطَعْتَهُ عَصَيْتَ اللَّهَ، فَمَاذَا تَأْمُرُونَ؟

فَقَالَ الْحَسَنُ: يَا بَنَ سِيرِينَ، أَجِبِ الْأَمِيرَ، فَسَكَتَ، فَقَالَ لِلشَّعْبِيِّ: أَجِبِ الْأَمِيرَ، فَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ هُبِيَّةٍ.

فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا تَقُولُ؟ فَقَالَ: أَمَّا إِذْ سَأَلْتَنِي فَإِنَّهُ يَحِقُّ عَلَيَّ أَنْ أَجِيبَكَ، إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ مَانِعُكَ مِنْ يَزِيدٍ، وَلَنْ يَمْنَعَكَ يَزِيدٌ مِنَ اللَّهِ، وَإِنَّهُ يَوْشُكَ أَنْ يَنْزِلَ بِكَ مَلَكٌ مِنَ السَّمَاءِ فَيَسْتَنْزِلُكَ مِنْ سَرِيرِكَ وَسَعَةِ قُصُورِكَ إِلَى بَاحَةِ دَارِكَ، ثُمَّ يَخْرِجُكَ مِنْ بَاحَةِ دَارِكَ إِلَى ضَيْقِ قَبْرِكَ، ثُمَّ لَا يَوْسَعُ عَلَيْكَ إِلَّا عَمَلُكَ.

يَابْنَ هُبَيْرَةَ، إِنِّي أَنُهَاكَ عَنِ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ، فَإِنَّمَا جَعَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ السُّلْطَانَ نَاصِرًا لِعِبَادِهِ وَدِينِهِ، فَلَا تَرْكَبُوا عِبَادَ اللَّهِ بِسُلْطَانِ اللَّهِ فَتَذْلُوهُمْ، فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ.

يَابْنَ هُبَيْرَةَ، لَا تَأْمَنْ أَنْ يَنْظُرَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ إِلَيْكَ عِنْدَ أَقْبَحِ مَا تَعْمَلُ فِي طَاعَتِهِ نَظْرَةً مُقْتَبَةً، فَيَغْلِقَ عَنْكَ بَابَ الرَّحْمَةِ.

(١) النزل: ما هيئ للضيف.

يابن هبيرة، إني قد أدركت أناساً من صدور هذه الأمة، كانوا فيما أحلّ الله لهم أزهّد منكم فيما حرّم الله عليكم، وكانوا لحسناتهم ألاّ تُقبل أخوف منكم لسيئاتكم ألاّ تغفر، وكانوا لثواب الآخرة أبصر منكم لمتاع الدنيا بأعينكم، وكانوا عن الدنيا وهي عليهم مقبلة أشدّ إدباراً من إقبالكم عليها وهي عنكم مُدبرة. يا عمر، إني أخوفك مقاماً خوّفك الله جلّ وعزّ من نفسه، فقال: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِي﴾ [إبراهيم: ١٤]. يا عمر، إن تكن مع الله على يزيد يكفك الله بائقته، وإن تكن مع يزيد على الله يكلك إليه.

قال: فبكى ابن هبيرة، وقام في عبرته وانصرف، وأرسل إليهم من الغد بجوائزهم، وأعطى الحسن أربعة آلاف درهم، وابن سيرين والشعبيّ ألفين ألفين. فخرج الشعبيّ إلى المسجد وقال: مَنْ قدر منكم أن يؤثر الله جلّ وعزّ على خلقه فليفعل؛ فإن ابن هبيرة أرسل إليّ، وإلى الحسن وابن سيرين، فسألنا عن أمر، والله ما علم الحسن شيئاً جهلته، ولا علمت شيئاً جهله ابن سيرين، ولكننا أردنا وجه ابن هبيرة، فأقصانا الله جلّ وعزّ وقصّر بنا، وأراد الحسن وجه الله؛ فحياه تبارك اسمه وزاده!



وعن المدائنيّ، عن عليّ بن حرب، قال: قال الشعبيّ: جَمَعْنَا عَمْرُ بْنَ هَبِيرَةَ بَوَاسِطَ، وَفِينَا الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ، فَقَالَ: أَنَا وَلِيُّ هَذِهِ الرَّعِيَّةِ؛ وَرَبَّمَا كَانَ مَتْنِي الشَّيْءِ الَّذِي لَا أَرْضَاهُ، وَأُمُور تَرُدُّ عَلَيَّ مِنْ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَكْرَهَ إِمْضَاءِهَا وَإِنْفَازِهَا، فَقَالَ الشَّعْبِيُّ:

لَا عَلَيْكَ أَيُّهَا الْأَمِيرُ! إِنَّمَا الْوَالِي وَالِدٌ يَخْطِئُ وَيَصِيبُ، وَمَا يَرُدُّ عَلَيْكَ مِنْ رَأْيِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ؛ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَرُدَّهُ فَارُدَّهُ؛ وَإِلَّا فَلَا ضَيْرَ عَلَيْكَ.

فقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال الحسن: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اسْتَرَعَاهُ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ رَعِيَّةً فَلَمْ يَحْطُ مِنْ ورائِهَا بِالنَّصِيحَةِ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ». وأما رأي أمير المؤمنين، فإذا ورد عليك، فاعرضه على كتاب الله، فإن وافقه فأْمُضِهِ، وإن خالفه فاردده، فإن الله جلّ وعزّ يَمْنَعُكَ مِنْ يَزِيدَ، وَلَنْ يَمْنَعَكَ يَزِيدَ مِنْ اللَّهِ.

ثم أقبل الحسن على الشعبيّ، فقال: ويلك يا شعبيّ! يقول الناس: إنّ الشعبيّ فقيه أهل الكوفة، فدخل على جَبَّارٍ مِنَ الْجَبَابِرَةِ فزَيَّنَ لَهُ الْمَعْصِيَةَ! فقال: والله يا أبا سعيد، لقد قلتُ وأنا أعلم ما فيه، قال: ذلك أوكد للحجّة عليك، وأبعد لك من العذر.

قيل: ووجد في كتب بُزُرْجُمهر صحيفة فيها: إِنَّ حَاجَةَ اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ إِلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْرِفُوهُ، فَمَنْ عَرَفَهُ لَمْ يَعْصِهِ طَرْفَةَ عَيْنٍ، كَيْفَ الْبَقَاءُ بَعْدَ الْفَنَاءِ! كَيْفَ يَأْسَى الْمَرْءُ عَلَى مَا فَاتَهُ وَالْمَوْتَ يَطْلُبُهُ؟ فَقَالَ^(١) كَسْرَى: لَمْ يَكُنْ مِمَّنْ حُقَّ عَلَيْهِ أَنْ يُقْتَلَ؛ وَأَنَا نَادِمٌ عَلَى ذَلِكَ.



قيل: وحضرت الوفاءُ رجلاً من حكماء فارس، فقليل له: كَيْفَ حَالُكَ؟ فَقَالَ: كَيْفَ يَكُونُ حَالُ مَنْ يَرِيدُ سَفْراً بَعِيداً بِغَيْرِ زَادٍ، وَيَقْدِمُ عَلَى مَلِكٍ عَادِلٍ بِغَيْرِ حِجَّةٍ، وَيَسْكُنُ قَبْراً مُوحِشاً بِغَيْرِ أَنْيْسٍ!

(١) كذا في ط وفي الكلام نقض.

مساوي المواعظ

قال: لَمَّا مات عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، جَزَعَ عليه عمرُ جزعاً شديداً، فقال ذات يوم لمن حضره: هل مِنْ منشِدٍ شعراً أتعزّي به، أو واعظٍ يخفّف عني فأتعزّي وأتسلّى؟ فقال رجلٌ من أهل الشام: يا أمير المؤمنين، كلّ خليل مفارقٌ خليله؛ بأن يموت، أو بأن^(١) يذهب إلى مكان. فتبسّم عمر رحمه الله، ثم قال: ويحك! مصيبي فيك زادتني مصيبة.



قيل: وأصيبَ الحجاجُ بمصيبةٍ وعنده رسول عبد الملك بن مروان، فقال: ليت أنّي وجدت إنساناً يخفّف عني مصيبي! فقال رجل ممّن حضر: أقول؟ قال: قل، فقال: كلّ إنسان يفارق صاحبه؛ يموت، أو يصلّب، أو يقع من فوق البيت، أو يقع البيت عليه، أو يسقط في بئر، أو يُغشى عليه، أو يكون شيء لا يعرفه. فضحك الحجاج وقال: مصيبي في أمير المؤمنين أعظم حيث وجّه بمثلك رسولاً!

(١) كذا في المحاسن والأضداد، وفي ك، ل «أم».

محاسن ما قيل في المراثي

قال أبو عبيدة مَعْمَر بن المَثَنَّى التيمي: أحسن ما نطق الشعراء، المراثي والبكاء على الشَّيب، وكان بنو مَرَوَان لا يقبلون الشاعر إلا أن يكون راويةً للمراثي؛ ويقولون: إنَّ فيها ذكر معالي الأمور.

وقيل لأبي عبيدة: ما أجود الشعر؟ فقال: النَّمَط الأوسط - يعني المراثي.

قال: وسألتُ أعرابياً، ما أجود الشعر عندكم؟ قال: ما رثينا به آباءنا وأولادنا، وذلك أنا نقولها وأكبادنا تحترق.



قيل: وقال المأمون لبعض جلسائه: ما أحسن ما قيل في المراثي؟ فقال: قوله:

فَتَى لَمْ تَكْذِبْ مَوْتَهُ نَادِبَاتُهُ بِمَا قَلَنْ فِيهِ لَا وَلَا الْمَادِحُ الْمُطْرِي
فَتَى لَمْ يَزَلْ مُذْ شَدَّ عَقْدَ إِزَارِهِ مُشِيدَ الْمَعَالِي أَوْ مَقِيمًا عَلَى ثَغْرِ



قال الأصمعيُّ: قدم علينا أعرابيٌّ فأقام عندنا أياماً، ثم رجع إلى البادية، فسأل عن إخوانه وأترابه، فأخبر أن الدهر أبادهم وأفناهم، فبكى وأنشأ يقول:

أَلَا يَا مَوْتَ، لَمْ أَرْ مِنْكَ بُدًّا أَتَيْتَ فَمَا تَحِيدُ وَلَا تُحَابِي
كَأَنَّكَ قَدْ هَجَمْتَ عَلَى مَشِيبِي كَمَا هَجَمَ الْمَشِيبُ عَلَى شَبَابِي



قال أبو العيْناء ابن أبي طاهر أشعر الناس في بيتيه حيث يقول:

اذهبَا بي إِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمَا عَقْدُ رُّ إِلَى تُرْبِ قَبْرِهِ فاعقراني
وأنْضَحَا مِنْ دَمِي عَلَيْهِ فَقَدْ كَا نَ دَمِي مِنْ نَدَاهُ لَوْ تَعْلَمَانِ

وقال في مثله :

إِذَا مَا الْمَنَايَا أَخْطَأَتْكَ وَصَادَفَتْ حَمِيمَكَ فاعلم أنها ستَعُودُ
وَإِنَّ أَمْرًا يَنْجُو مِنَ النَّارِ بَعْدَمَا تَزُودَ مِنْ أَعْمَالِهَا لَسَعِيدُ



عبد الرحمن بن عيسى بن حمّاد الهمدانيّ في حَمَوِيهِ، كاتب أحمد بن عبد العزيز :

حَسُنْتَ لِفَقْدِكَ كَثْرَةُ الْأَحْزَانِ بَلْ هَانَ بَعْدَكَ نَائِبُ الْحَدَثَانِ
مَا كَانَ حَقُّكَ أَنْ تُصِيرَ إِلَى الْبَلَى وَأَعِيشْ، لَوْلَا قَسْوَةُ الْإِنْسَانِ!
وَلَا خَرُ:

إِذَا مَا الدَّهْرُ جَرَّ عَلَى أَنْاسٍ كَلَاكِلُهُ أَنْأَخَ بَاخِرِينَا
فَقُلْ لِلشَّامَتَيْنِ بِنَا: أَفِيقُوا سَيَلْقَى الشَّامَتُونَ كَمَا لَقِينَا



ولعبدة بن الطيب في قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ:

عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا
سَلَامُ أَمْرِيءٍ أَوْلَيْتَهُ مِنْكَ نِعْمَةً إِذَا زَارَ عَنْ شَحْطِ بِلَادِكَ سَلَمَا
فَمَا كَانَ قَيْسٌ هُلُكُهُ هَلَكَ وَاحِدٍ وَلَكِنَّهُ بَنِيَانُ قَوْمٍ تَهْدَمَا



البَسَامِيّ، يرثي عبيد الله بن سليمان بن وهب:

قَدْ انْقَضَى الْعِيشُ وَمَاتَ الْكَمَالُ وَقَالَ صَرَفُ الدَّهْرِ: أَيْنَ الرِّجَالُ!
هَذَا أَبُو الْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ قَوْمُوا انْظُرُوا كَيْفَ تَزُولُ الْجِبَالُ!
وَلَهُ فِيهِ:

لَسْتُ مُسْتَسْقِيًّا لِقَبْرِكَ غِيثًا كَيْفَ يَظْمَا وَقَدْ تَضَمَّنَ بَحْرًا
أَنْتَ أَوْلَى بِأَنْ تُعَزَّى مِنَ النَّاسِ سِ؛ فَقَدْ مَاتَ بَعْدَكَ النَّاسُ طُرًّا



ولأبي الحسين بن أبي البغل^(١):

بَعَدْتُ ديارُكَ غيرَ أَنِّي مَوْجَعٌ والهِمُّ مِنِّي فِي الحِشامِ مُتَدَانِي
فَاذْهَبْ فَقَدْ عَمَرْتُ بِشَخْصِكَ حَفْرَةً فَضَلْتُ عَلَى مَتَشَامِيخِ البَنِيانِ
وَلئنْ صَبَرْتُ فَمَا صَبَرْتُ تَسْلِيًّا لَكِنَّ ذلِكَ غَايَةُ الوَلْهَانِ

(١) في ط بعدها: «ورجى أن يكون في المحاسن من هذا الباب، فغلط به، وينقل إليه إن شاء الله». وقد نقلته إلى موضعه هنا.

مساوي ما قيل في المراثي

القاسم بن عبيد الله عند موته :

لا تأمنن الدهر إني أمنتُهُ
قتلتُ صناديدَ الرجالِ فلم أدعُ
وأفنيْتُ دارَ الملكِ من كلِّ بارع
فلَمَّا بلغتُ النّجمَ عزّاً ورفعةً
رَماني الرّدى سهماً فأخمدَ جمرَتي
ولم يُغن عني ما جمعتُ ولم أجِدْ
ولبعضهم في القاسم بن عبيد الله :

خرجتَ من الدنيا ذميماً إلى القبرِ
وترتَ رسولَ الله في أهل بيته
فلا أحدٌ يأسى ، ولا عبْرَةٌ تجري
فكيف رأيتَ الله طالِبَ بالوثرِ !



الجاحظ ، قال : مررتُ بقبرين مكتوب على أحدهما : أنا ابن سافك الدماء ، وعلى الآخر : أنا ابن ساجن الريح . فسألت عنهما ، فقليل : كان أحدهما حجّاماً ، والآخر حداداً .



قال الكسروي : مررت بناووس في الري ، فإذا عليه مكتوب :

وما نارٌ بمحرقة جواداً
ورأيت على ناووس ، ذكر أنه ناووس مهيار بن مهيروز :

أيا ميّتاً قد كان في أهل دينه
لقد كنت أرجو الدهر أن يسعف الثوى
فإن بخست آمالنا فيك ضلّة
وعوفيت من غم التراب فيا لها
مكان سنان الرمح لمّا تقدماً
وأرجو المنيا أن توافيك مسلماً
فقد عشت في الدنيا حميداً مكرماً
سعادة جدّ ما أجل وأعظماً !



محاسن ما قيل في الشيب

قال: دخل المنصور النَمِرِيُّ^(١) على الرّشيد فأنشده:

ما كنتُ أوفي شبابي كُنْهَ عِزَّتِهِ حتى مَضَى فإذا الدُّنيا له تَبَعُ
فبكى الرشيد وقال: يا نَمِرِيُّ^(١)، لا خيرَ في دنيا لا يُخْطَرُ فيها بحلاوة
الشباب. ويستمتع بأيّامه!
وأنشد:

وَلَوَّانَ الشَّيْبَ رُزْءَ حَلٍّ بِي وقتَ ما استحققتُ شيباً لم أُبْلُ
بَلْ أَتَانِي وَالصُّبَا يَرْمُقُنِي مثلَ ما يأتي الكبيرَ المكتَهْلُ
وأنشد:

حَسَرْتُ عَنِّي الْقِنَاعَ ظُلُومُ وتولّت ودَمَعُهَا مَسْجُومُ
أُنْكَرْتُ مَا رَأَتْ بِرَأْسِي فَقَالَتْ أَمْشِيْبٌ أَمْ لَوْلُوْ مَنْظُومُ!
قُلْتُ شَيْبٌ وَلَيْسَ عِيْباً فَأَنْتُ أَنَّةَ يَسْتَثِيرُهَا الْمَهْمُومُ
وَإِكْتَسَتْ لَوْنَ مِرْطِهَا ثُمَّ قَالَتْ هَكَذَا مَنْ تَوَسَّدَتْهُ الْهَمُومُ!
إِنَّ أَمْرًا جَنَى عَلَيْكَ مَشِيْبَ الرَّ أَسْ فِي جَمْعِهِ لِأَمْرٍ عَظِيْمُ
شَدَّ مَا أُنْكَرْتُ تَصْرُفَ دَهْرٍ لَمْ يُدَاوِمْ، وَأَيُّ شَيْءٍ يَدُومُ!



لابن المعتز:

لَمَّا رَأَتْ شَيْباً يَلُوحُ بَعَارِضِي صَدَّتْ صُدُودَ مَغَاضِبٍ مَتَحَمِّلِ^(٢)
نَظَرْتُ إِلَيَّ بَعِيْنَ مَنْ لَمْ يَغْدِلِ لَمَّا تَمَكَّنَ طَرْفُهَا مِنْ مَقْتَلِي
مَا زِلْتُ أَطْلُبُ وَضَلَهَا بِتَذَلُّلِ وَالشَّيْبُ يَغْمِزُهَا بَأَلَا تَفْعَلِي

(١) ط: «النميري» تصحيف، وهو ينتمي إلى النمر بن قاسط.

(٢) الأبيات في العقد ٤٣:٣، منسوبة إلى أبي تمام.

ولابن المعتز أيضاً في الشيب:

قالت وقد راعها مشيبي
واستهزأت بي فقلت أيضاً
كُفّي ولا تُكثري ملامي
من شاب أبصرته الغواني
لو قيل لي اختر عمي وشيباً
ولآخر:

رأت طالعا للشيب أغفلت أمره
فقلت أشيباً ما أرى قلت شامة
ولآخر:

شكوت من الشيب حتى ضجرت
وسود وجهي فسودته
ولآخر:

إذا راقه خدين الشباب
وإن هُنَّ عاينَ ذا شيبة
فويح الشباب ويح المشيب
لابن المعتز:

صرحت بالجفاء أم حباب
قلت لم ذا وقد رأيتك حيناً
قالت الشيب قد أتاك فأقصر
فتعللت بالخضاب لأحظى
فرأته فأعرضت ثم قالت
ولابن المعتز أيضاً:

رفعت طرفها إليّ عبوساً

كنت ابن عم فصرت عمّا
قد كنت بنتاً فصرت أمّا
ولا تزيد العليل سُقماً
بعين من قد عمي وصمّا
أيهما شئت! قلت: أعمى

ولم تتعهذه كُف الخواضب
فقلت لقد شامتك بين الحباب!

فدبّ إلى عارضي واشتعل
فعلت به مثل ما قد فعل

عطفن كما تعطف الوالد
فيالك من مُقل زاهدة!
عدوان دارهما واحدة!

حينَ باشرتُها ببعض الخطاب^(١)
لا تملّينَ عِشرتي وعتابي!
عن عتابي فليست من أصحابي
عندها ساعةً بلون الخضاب
سترُ سوءٍ على خرابِ يباب

واستثارت من المآقي الرّسيسا^(٢)

(١) ك: «الخضاب».

(٢) الرسيس: أول الحب.

ورأتني أسرَّجُ العاج بالعا
ليس شيبني إذا تأملت شيباً
ج فظلت تستحسنُ الآبئوسا
إنما الشيب ما أشاب النفوسا
وله أيضاً:

ضحكت إذ رأْتُ مَشِيبِي قد لا
قلتُ إنَّ الشبابَ فيَّ لَباقٍ
ح وقالتُ قد فُضِّضَ الآبئوس
بعدُ، قالتُ: هذا شبابٌ لبيسُ



قال: استقبل يونس النحويَّ عدوًّا له، وهو يتهاذى في مَشِيبِهِ ويقارب خَطْوَهُ، فقال: يا يونس، بلغت ما أرى! فقال: هذا الذي كنت آملُه فقد بلغتُه - فلا بلغتُه! فاستحسن ابن الزيات قوله، فجعله شعراً، وقال:

وعائبُ عابني بشيبٍ
فقلتُ إذ عابني بشيبٍ:
لم يَعدُ لَمَّا أَلَمَ وقتَه
يا عائبَ الشيبِ لا بَلِغَتَه!
ولغيره:

إن المشيبَ رداءُ الحلم والأدبِ
تعجبتُ إذ رأْتُ شيبِي فقلتُ لها
كما الشبابُ رداءُ الجهل واللَّعبِ
لا تعجبي، مَنْ يَطلُ عمرٌ به يشبُ
وليسَ فيكُنْ بعدَ الشَّيبِ من أَرَبٍ
وشيبُكُنْ لَكُنَّ الذَّلُّ فاكتئبي
شيبُ الرجالِ لهم عَزٌّ ومكرُمةٌ
ولاخر:

الشَّيبُ في رأسِ الفتى حِلْمٌ به
والخالُ في خدِّ الفتى عَيْبٌ به
والشَّيبُ في رأسِ الفتاةِ قُبِيحٌ
والخالُ في خدِّ الفتاةِ مَلِيحٌ

محاسن الورع

محمد بن الحسين^(١)، عن أبي همام، وكان يخدم^(٢) ضيغماً، قال: كنتُ معه في طريق مكة، فلما صرنا في الرَّمْل نظر إلى ما تلقى الإبل من شدة الحر فبكى، فقلت له: لو دعوت الله أن يُمطر علينا كان أخفَّ على هذه الإبل! قال: فنظر إلى السماء وقال: إن شاء ربِّي فعل، فوالله ما كان إلا أن تكلم حتى نشأت سحابة وهطلت^(٣).



وعن عطاء [بن يسار]^(٤)، أن أبا مسلم الخولاني خرج إلى السوق بدرهم يشتري لأهله دقيقاً، فعرض له سائل، فأعطاه بعضه، ثم عرض له آخر، فأعطاه الباقي، وأتى إلى التجارين فملاً مزودَهُ من نُشارة الخشب، وأتى به منزله، وخرج هارباً من أهله، فأخذت المرأة المزود، فإذا دقيق حواري^(٥) فعجنته وخبزت، فلما جاء قال: من أين هذا؟ قالت: الدقيق الذي جئت به^(٦).



وعن أبي عبد الله القرشي، عن رجل، قال: دخلتُ بئر زمزم، فإذا أنا بشخص ينزع الدلو ممّا يلي الركن، فلماً شرب أرسل الدلو فأخذته، فشربت فضلته، فإذا هو سويق^(٧) لوّز لم أر سويقَ لوّزٍ أطيب منه. فلما كانت القائلة في ذلك الوقت، دخل الرجل وقد أسبل ثوبه على وجهه ونزع الدلو وشرب، وأرسل

(١) المحاسن والأضداد: «الحسن».

(٢) المحاسن والأضداد: «عرف».

(٣) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٨١.

(٤) من المحاسن والأضداد.

(٥) الحواري: الدقيق الأبيض؛ وهو لباب الدقيق.

(٦) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٨١.

(٧) السويق: الناعم من الدقيق.

الدُّلو فأخذته وشربت فضَّلته، فإذا هو ماء مضروب بالعسل، لم أشرب شيئاً قطُّ
أطيبَ منه، فأردت أن آخذ طرف ثوبه، فأنظر مَنْ هو؟ ففاتني، فلمَّا كان في السَّنة
الثالثة قعدت قُبالة زمزم، فلمَّا كان في ذلك الوقت جاء الرجل وقد أسبل ثوبه على
وجهه فدخل، فأخذت طرفَ ثوبه، فلمَّا شرب من الدلو وأرسلها قلت: يا هذا،
أسألك برَبِّ هذه البنية، مَنْ أنت؟ قال: تكتم عليَّ حتى أموت؟ قلت: نعم، قال:
أنا سفيان - وهو الثوري - فتناولت فضَّلته، فإذا هو ماء مضروب بالسكر
الطبرزد^(١)، لم أر قطُّ أطيبَ منه، فكانت تلك الشَّربة تكفيني إذا شربتها إلى مثلها
من الوقت، لا أجد جوعاً ولا عطشاً^(٢).



وقال الأصمعيّ: رأيت أعرابياً يكدح جبينه بالأرض يريد أن يجعل
سجّادة، فقلت: ما تصنع؟ قال: إنِّي وجدتها نَعْم الأثر في وجه الرجل
الصالح.



وممّا قيل من الشَّعر في هذا الفنّ، منهم بشار، حيث يقول:

كَيْفَ يَبْكِي لِمَحَبَسٍ فِي طُلُولٍ مَنْ سَيَقْضِي لِيَوْمٍ حَبَسٍ طَوِيلٍ!
إِنَّ فِي الْبُعْثِ وَالْحَسَابِ لَشُغْلًا عَنْ وَقُوفٍ بِرَسْمِ دَارِ مَحِيلٍ
ولمحمد بن يسير:

وَيْلٌ لِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ اللَّهَ وَمَنْ تَكُونُ النَّارُ مَثْوَاهُ!
يَا حُسْرَتَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَتَى يُذَكِّرُنِي الْمَوْتَ وَأَنْسَاهُ!
كَأَنَّهُ قَدْ قِيلَ فِي مَجْلِسٍ قَدْ كُنْتُ أَتِيهِ وَأَغْشَاهُ:
صَارَ الْيَسِيرِيُّ إِلَى رَبِّهِ يَرْحَمُنَا اللَّهُ وَإِيَّاهُ!
ولجبر:

إِنَّ الشَّقِيَّ الَّذِي فِي النَّارِ مَنْزِلُهُ وَالْفَوْزُ فَوْزُ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ
يَا رَبِّ قَدْ أَسْرَفْتُ نَفْسِي وَقَدْ عَلِمْتُ علماً يقيناً، لقد أحصيت آثارِي
فاغفر ذُنُوباً إِلَهِي قَدْ أَحْطَتْ بِهَا رَبِّ الْعِبَادِ؛ وَزَخِرْخَنِي عَنِ النَّارِ!

(١) الطبرزد: السكر الأبيض الصلب.

(٢) الخبر في المحاسن والأضداد: ١٨٢.

ولذي الرُّمَّة بيت :

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة
ولا آخر :

أستغفرُ اللهَ مما يعلمُ اللهُ
هَبُّهُ تجاوزَ لي عن كلِّ سيئةٍ
ولإسماعيل بن القاسم :

تعصى الإلهَ وأنتَ تظهرُ حُبَّهُ
لو كانَ حُبُّكَ صادقاً لأطعتهُ
ولا آخر :

أيَا عجباً كيفَ يعصي الإلهَ
وفي كلِّ شيءٍ له قُدْرَةٌ
وللهِ في كلِّ تحريكةٍ
ولأبي نواس الحسن بن هانئ :

سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْخَلْقَ
يَسْوَقُهُمْ مَنْ قَرَارٍ
يَحُورُ خَلْقاً فَخَلَقاً
حتى بدت حركاتُ
ولا آخر :

أخي ما بالُ قلبك ليسَ يَتَقَى
ألا يابنَ الذينَ مضوا وبادوا
وما لكَ غيرُ تقوى اللهَ زادُ
ولا آخر :

يا قلبُ مهلاً وكن على حذرٍ
مالك بالثُّرَهِاتِ مشغلاً
فقد لعمري أمرتَ بالحدَرِ
أفي يدَيك الأمانُ من سَقَرِ!

(١) هو أبو العتاهية، ديوانه: ٦٩، ٧٠.

ولآخر:

إِنْ كُنْتَ تُوقِنُ بِالْقِيَمِ أَمَةٍ وَاجْتَرَأْتَ إِلَى الْخَطِيئَةِ
فَلَقَدْ هَلَكْتَ، وَإِنْ جَحَدُ تَ فَذَلِكَ أَعْظَمُ لِلْبَلِيَّةِ

ولآخر:

وَأَفْنِيَةُ الْمُلُوكِ مُحَجَّبَاتٌ وَبَابُ اللَّهِ مَبْذُولُ الْفِنَاءِ
فَمَنْ أَرَجَوْهُ سِوَاهُ لِكَشْفِ ضَرٍّ وَبَلَوَى حِينَ أَجْهَدُ فِي الدَّعَاءِ!
وَشَكَّوْنِي إِلَى مَلِكٍ عَظِيمٍ جَلِيلٍ لَا يَصَمُّ عَنِ الدَّعَاءِ

مساوي من لم يتورع

ابن أبي العرْجاء قال: أراد موسى بن داود بن علي بن عبد الله بن العباس الخروج إلى الحج، فدعا بأبي دُلّامة فقال له: تهيأ حتى تخرج معنا، وأعطاه عشرة آلاف درهم وقال: خَلَّفْ لعيالك ما يكفيهم - وإنما أراد موسى أن يأنس به في طريقه، ويحدثه بنوادره ومُلَحَّه، ويسامرَه بالليل والنَّهار، وينشده الأشعار، وكان أبو دُلّامة يفي بذلك كُلَّه، مع ظرفٍ كان فيه ولُطف، وكان من أبراز^(١) الملوك - فلما حضر خروج موسى هرب إلى السَّواد بالكوفة، فجعل يشرب من خَمْرِها، ويتمتع في نزهتها، وقد سأل عنه موسى ف قيل له: استتر. فطلبه تحت كلِّ حَجَرٍ فلم يقدِرْ عليه، فخاف أن يفوتَه الحج، فلما أيس منه قال: اتركوه إلى نار الله وحرِّ سَقَره. وخرج.

فلما شارف القادسيّة نظر إلى أبي دُلّامة قد خرج من قرية يريد أُخرى، فبصّروا به وأتوه به، فقال: قَيِّدوه وألقوه في المحمل، ففعل به ذلك، وأنشأ يقول:

يا معشر النَّاس قولوا أجمعين معاً:	صَلَّى الإله على موسى بن داود
أَمَّا أَبوكَ فَعَيْنُ الجودِ تَعْرِفُهُ	وَأَنْتَ أَشْبَهُ خَلْقِ اللَّهِ بِالْجودِ
نُبِّئْتُ أَنَّ طَرِيقَ الْحَجِّ مَعْطِشَةٌ	مِنَ الطَّلَاءِ وَمَا شَرِبِي بِتَضْرِيدِ ^(٢)
وَاللَّهِ مَا بِي مِنْ خَيْرٍ فَتَطْلُبُهُ	فِي الْمُسْلِمِينَ وَلَا دِينِي بِمَحْمودِ
كَأَنَّ دِيْبَاجَتِي خَدَّيْهِ مِنْ ذَهَبٍ	إِذَا تَكَسَّرَ فِي أَثْوَابِهِ السُّودِ
إِنِّي أَعُوذُ بِدَاوُدَ وَتَرَبَّتُهُ ^(٣)	مَنْ أَنْ أَحُجَّ بِكُرِّهِ يَا بَنَ دَاوُدِ

فقال موسى: ألقوه من المحمل عليه لعنة الله، ودعوه يذهب إلى سقر الله! فألقني عن المحمل، ومضى موسى لوجهه؛ فما زال أبو دُلّامة بالسَّواد يشرب

(١) كذا في ك، وفي اللسان: «رجل برز: طاهر الخلق عفيف».

(٢) الطلاء: الخمر، وفي الأغاني: «من الشراب».

(٣) الأغاني: «وأعظمه».

من خمرها، ويتمتع في نزهتها، حتى أتلف العشرة الآلاف الدرهم مع إخوانه ونُدَمائه.

وانصرف موسى، فدخل عليه أبو دُلَامَة يهتُّه، فلمَّا بَصُرَ به قال: يا محارَف^(١)، أتدري ما فاتك! فقال: واللَّه يا سيدي، ما فاتني ليلٌ ولا نهار – يعني اللهو والقصف – ثم أنشده مديحاً له فيه، فاستحسنه وأمر له بجائزة^(٢).



قيل: وكان جنديٌّ بَقَزوين يصلي في بعض المساجد، فافتقده المؤذن أياماً، ففرع عليه الباب، فخرج إليه، فقال له المؤذن: أبو مَنْ؟ قال: أبو الجحيم. قال: بَسْ، ردَّ يا هذا الباب^(٣).



قال: وقيل للقيني: ما أيسر ذنبك؟ قال: ليلة الدَّير، قيل: وما ليلة الدَّير؟ قال: نزلتُ بديرانية^(٤) فأكلتُ عندها طَفَيْشلاً^(٥) بلحم خنزير، وشربت خمرها، وفجرتُ بها، وسرقت كساءها وخرجت^(٦).



قال: وأتى خمسة من الفتيان قرية، فنزلوا على باب خانٍ، فقام أحدهم يصلي والباقون جلوس، فمرَّت بهم نَبْطِيَّة، فقالوا: أتدليننا^(٧) على قَحْبة^(٨)؟ قالت: نعم، كم أنتم؟ قالوا: نحن أربعة، فأوماً الذي يصلي بيده: سبحانه الله! إنِّي أنا الخامس^(٩).



(١) المحارف: المحروم المحدود الذي إذا طلب رزقاً لا يرزق؛ وهو خلاف قولك: «يا مبارك».

(٢) الخبر في الأغاني ١٠: ٤٥، ٢٤٦، مع اختلاف في الرواية.

(٣) المحاسن والأضداد: ١٨٤.

(٤) المحاسن والأضداد: «بدير نصرانية».

(٥) في القاموس: «الطفيشل. نوع من المرق».

(٦) المحاسن والأضداد: ١٨٤، ١٨٥.

(٧) المحاسن والأضداد: «دلينا».

(٨) القحبة: الفاجرة.

(٩) المحاسن والأضداد: ١٨٥.

ما قيل فيه من الشعر

بشار :

وإنني في الصلاة أحضرها
أقعدُ في سجدة إذا ركعوا
أسجدُ والقومُ راكعونَ معاً
فلسْتُ أدري إذا إمامُهم
ضحكةُ أهلِ الصلاةِ إن شهدوا
وأرفعُ الرأسِ إن هم سجّدوا
وأسرعُ الوثبِ إن هم قعدوا
سَلَمَ كم كان ذلك العَدُو!

ولآخر :

نعم الفتى لو كان يعرفُ ربّه
عدلت مشافره الدنان وأنفه
وابيض من شرب المدامة وجهه
ويقيم وقتَ صلاته حمّاداً!
مثلُ القدومِ يسُنُّه الحدّادُ
فبياضه يوم الحسابِ سوادُ

آخر :

إن قرأ «العاديات» في رجبٍ
بل هو لا يستطيعُ في سنةٍ
فليس يأتي بها إلى رجبٍ
يختم «تبّت يدا أبي لهب»

محاسن صفة الدنيا

قال علي بن أبي طالب: الدنيا دارُ صدقٍ لمن صدقها، ودار عافية لمن فهم عنها، ودار غنى لمن تزود منها. مسجد أنبياء الله، ومهبط وحيه، ومُصلّى ملائكته، ومتجر أوليائه، اكتسبوا فيها الرحمة، وربحوا فيها الجنة، فمن ذا يذمها وقد آذنت ببيئها ونادت بفراقها، ونعت نفسها! فشوقت بسرورها إلى السرور، وببلائها إلى البلاء؛ تخويفاً وتحذيراً، وترغيباً وترهيباً!

فيأتيها الداءُ للدنيا، والمتعلل بتغيرها، متى غرّتك؟ أ بمصارع آبائك في البلى، أم بمضاجع أمهاتك في الثرى! كم علّلت بكفّيك؛ وكم مرّضت بيديك! تبتغي لهم الشفاء وتستوصف لهم الأطباء، وتلتمس لهم الدواء! لم ينفعهم تطلبك ذلك، ولم يشفهم دواؤك، مثلت لك الدنيا مصرعك ومضجعك؛ حيث لا ينفعك بكاؤك، ولا يغني عنك أحباؤك.

ثم وقف على أهل القبور فقال: يا أهل الثروة والعزّ، إن الأزواج بعدكم قد نُكحت، والأموال قد قُسمت، والدور قد سُكنت، فهذا خبر ما عندنا، فما خبر ما عندكم؟

ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما والله لو أذن لهم لقالوا: إن خير الزاد التقوى.

وفي خبر، أنّ علياً وقف على المقابر ثم قال: اعتبروا يا أهل الديار، التي نطق بالخراب فناؤها، وشيّد في التراب بناؤها، فمحلّها مقترّب، وساكنها مغترّب، لا يتزاوون تزوار الإخوان، ولا يتواصلون تواصل الجيران، قد طحنهم بكلّك البلى، وأكلتهم الجنادل والثرى.

ثم قال: إن الأزواج بعدكم قد نُكحت... إلى آخر الخبر.

مساوي صفة الدنيا

قال الحسن البصري: بينا أنا أطوف بالبيت، إذا أنا بعجوز متعبدة، فقلت: مَنْ أنت؟ فقالت: من بنات ملوك غسان، قلت: فمن أين طعامك؟ قالت: إذا كان آخر النهار في كل يوم تجيئني امرأة متزينة، فتضع بين يدي كوزاً من ماء ورغيفين، قلت لها: أتعرفين المرأة؟ قالت: اللهم لا. قلت: هذه الدنيا خدمت ربك جل وعز، فبعث إليك بالدنيا فخدمتك على رغم أنفسها.



وزعموا أن زياد ابن أبيه مرّ بالحيرة فنظر إلى دير هناك، فقال لحاجبه: ما هذا؟ قال: دير حُرقة بنت النعمان بن المنذر، فقال: ميلوا بنا إليها نسمع كلامها. فجاءت إلى وراء الباب، فكلّمها الخادم، فقال لها: كلمي الأمير؛ فقالت: أوجز أم أطيل؟ قال: بل أوجزي، قالت: كنّا أهل بيت طلعت الشمس وما على الأرض أعزّ منا، فما غابت تلك الشمس حتى رحّمنا عدونا، قال: فأمر لها بأوساق^(١) من شعر، فقالت: أطعمتك يد شبعى جاعت، ولا أطعمتك يد جوعى شبع! فسرّ زياد بكلامها، وقال لشاعر: قيّد هذا الكلام لا يدرس، فقال:

سَلِ الْخَيْرَ أَهْلَ الْخَيْرِ قَدْماً وَلَا تَسَلِ فَتَيَّ ذَاقَ طَعْمَ الْخَيْرِ مُنْذُ قَرِيبِ



وفي مثل هذا قول أعرابي وقد دعا لرجل برّه: مَسَّتْكَ يَدُ أَصَابَتِ فَقْراً بَعْدَ غِنًى؛ وَلَا مَسَّتْكَ يَدُ أَصَابَتِ غِنًى بَعْدَ فَقْرٍ.



ويقال: إن فروة بن إياس بن قبيصة انتهى إلى دير حُرقة بنت النعمان، فألفاها وهي تبكي، فقال لها: ما يبكيك؟ فقالت: ما من دار امتلأت سروراً إلا امتلأت ثبوراً، ثم قالت:

فَبَيْنَا نَسُوسُ النَّاسَ وَالْأَمْرُ أَمْرُنَا إِذَا نَحْنُ فِيهِمْ سُوقَةٌ نَتَقَسَّمُ

(١) الوسق: ستون صاعاً.

وقالت :

فأفَّ لَدُنْيا لا يدومُ نعيمُها وأفَّ لِعيشٍ لا يزالُ يَهْضَمُ!



قال : وقالت حرقة بنت النعمان لسعد بن أبي وقاص : لا جعل الله لك إلى لثيم حاجةً، وعقد لك المنن في أعناق الكرام، ولا أزال بك عن كريمِ نعمةٍ، ولا أزالها بغيرك إلا جعلك السبب لردّها عليه!



قال : وقال عبد الملك بن مروان لسلمة بن زيد^(١) الفهمي : أيّ الزمان أدركتَ أفضل؟ وأيّ الملوك؟ فقال : أمّا الملوك فلم أرَ إلا ذاماً أو حامداً. وأمّا الزمان ؛ فيضع قوماً ويرفع آخرين، وكلّهم يذمّ زمانه ؛ لأنه يُبليّ جديدهم، ويَطوي أعمارهم، ويهرم صغيرهم، وكلّ ما فيه منقطع إلا الأمل . قال : فأخبرني عن فهم، قال : هم كما قال الشاعر :

درجَ الليل والنهارُ على فهم مِ بن عمرو فأصبحوا كالرّميمِ
وخلت دارهم فأضحت ثياباً بعدَ عزٍّ وثروةٍ ونعيمِ
وكذاك الزمانُ يذهبُ بالنّا سِ، وتبقى ديارهم كالرُسومِ
قال : فمن يقول منكم :

رأيت الناسَ مُذْ خُلِقوا وكانوا يُحبُّون الغنيّ من الرجالِ
وإن كان الغنيّ أقلَّ خيراً بخيلاً بالقليل من النّوالِ
فما أدري علام وفيهم هذا وماذا يرتجون من البخالِ!
أللدُّنيا، فليس هناك دنيا ولا يُرجى لحادثة الليالي
قال : أنا، وقد كتمتها^(٢).



قال : ولما دخل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه المدائنَ نظر إلى ديوان كسرى، فأنشده بعض مَنْ حضره قولَ الأسود بن يعفر :

ماذا أوّمل بعد آلٍ محرقٍ تركوا منازلهم وبعَدَ إيادٍ^(٣)

(١) المحاسن والأضداد: «سلم بن يزيد». (٢) المحاسن والأضداد: ١٧٦، ١٧٧.

(٣) المفصليات ٢١٧. ومحرق: لقب بعض ملوك العرب.

أهل الخوزنق والسدير وبارق والقصر ذي الشرفات من سنداد^(١)
 نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يسيل من أطواد^(٢)
 أرض تخيرها لطيب مقليلها كعب بن مامة وابن أم دؤاد^(٣)
 جرت الرياح على محل ديارهم فكأنما كانوا على ميعاد
 فأرى النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد
 فقال علي رضي الله عنه: أبلغ من ذلك قول الله جل وعز: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ
 * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٥ - ٢٨].



وقال عبد الله بن المعتز: أهل الدنيا كصورة في صحيفة، كلما نشر بعضها طوي بعضها.

وقال: أهل الدنيا كركب يسار بهم وهم نيام.

وقال بعضهم: طلاق الدنيا مهر الجنة.

وذكر أعرابي الدنيا فقال: هي جمّة المصائب، رنقة المشارب، لا تمتعك الدهر بصاحب.

وقال أبو الدرداء: من هوان الدنيا على الله جل وعز أنه لا يعصى إلا فيها، ولا ينال ما عنده إلا بتركها.

وقيل: إذا أقبلت الدنيا على امرئ أعارته محاسن غيره، وإذا أدبرت عنه سلبت محاسن نفسه.

ومما قيل فيه من الشعر

قال الأصمعي: ووجد في قبة لسليمان بن داود عليه السلام مكتوب:

ومن يحمّد الدنيا لشيء يناله فسوف لعمري عن قليل يلومها^(٤)
 إذا أدبرت كانت على الناس حسرة^(٥) وإن أقبلت كانت كثيراً همومها

(١) الخوزنق والسدير: قصران بالحيرة. بارق: ماء بالعراق. سنداد: نهر أسفل من الحيرة.

(٢) أنقرة: بلد بالحيرة قرب الشام، وهي غير أنقرة التي في بلاد الروم. الأطواد: الجبال.

(٣) كعب بن مامة الإباضي، أحد أجواد العرب في الجاهلية.

(٤) المحاسن والأضداد: ١٧٩، من غير نسبة.

(٥) المحاسن والأضداد: «على المرء حسرة».

وكان إبراهيم بن أدهم ينشد:

نُرَقِّعُ دُنْيَانَا بِتَمْزِيقِ دِينِنَا

وقال أبو العتاهية:

يَا مَنْ تَرَقَّعَ بِالدُّنْيَا وَزِينَتِهَا

إِذَا أَرَدْتَ شَرِيفَ الْقَوْمِ كُلِّهِمْ

وَلَاخِرُ:

هَبِ الدُّنْيَا تَسَاقُ إِلَيْكَ عَفْوًا

فَمَا تَرْجُو بِشَيْءٍ لَيْسَ يَبْقَى

محمود الوراق:

هِيَ الدُّنْيَا فَلَا يَغْرُوكَ مِنْهَا

أَقْلُ قَلِيلِهَا يَكْفِيكَ مِنْهَا

تَشِيدُ وَتَبْتَنِي فِي كُلِّ يَوْمٍ

وَمَنْ هَذَا الَّذِي يُبْقِي عَلَيْهَا

وَلَاخِرُ:

أَيَا دُنْيَا حَسَرْتَ لَنَا قِنَاعًا

دِيَارَ طَالَمَا مَا حُجِبَتْ وَعَزَّتْ

وَقَدْ كَانَتْ لَهَا الْأَيَّامُ دَلَّتْ

كَأَنَّ الْعَيْشَ فِيهَا كَانَ ظِلًّا

آخِرُ:

دُنْيَا تَدَاوَلَهَا الْعِبَادُ دَمِيمَةً

وَتَبَاتُ دُنْيَا لَا تَزَالُ مُلِمَّةً

وَلَاخِرُ، بَيْتُ:

حَتَّى مَتَى أَنْتَ فِي دُنْيَاكَ مُشْتَغَلٌ

أَبُو نَوَاسٍ:

دَعِ الْحِرْصَ عَلَى الدُّنْيَا

فَلَا دَيْنُنَا يَبْقَى وَلَا مَا نُرَقِّعُ^(١)

لَيْسَ التَّرَقُّعُ رَفَعَ الطِّينَ بِالطِّينِ

فَانْظُرْ إِلَى مَلِكٍ فِي زِيٍّ مَسْكِينٍ

أَلَيْسَ مَصِيرُ ذَاكَ إِلَى الزَّوَالِ!

وَشَيْكَأَ مَا تُغَيِّرُهُ اللَّيَالِي

مَخَايِلُ تَسْتَفْزُ ذَوِي الْعُقُولِ

وَلَكِنْ لَيْسَ تَقْنَعُ بِالْقَلِيلِ

وَأَنْتَ عَلَى التَّجَهُُّزِ وَالرَّحِيلِ

مَضَارِبُهُ بِمَدْرَجَةِ السُّيُولِ

وَكَانَ جَمَالُ وَجْهِكَ فِي النَّقَابِ

فَأَصْبَحَ إِذْنُهَا سَهْلَ الْحِجَابِ

فَقَدْ قُرِنْتَ بِأَيَّامِ صِعَابِ

يُقَلِّبُهُ الزَّمَانُ إِلَى ذَهَابِ

شَيِبَتْ بِأَكْرَهٍ مَنْ نَقِيعَ الْحَنْظَلِ

مِنْهَا فَجَائِعُ مِثْلُ وَقَعِ الْجَنْدَلِ

وَعَامِلُ اللَّهِ بِالرَّحْمَنِ مَشْغُولُ!

وَفِي الْعَيْشِ فَلَا تَطْمَعُ

(١) المحاسن والأضداد: ١٧٩، من غير نسبة.

ولا تجمع من المال فما تدرى لمن تجمع!
 ولا تدرى أفي أرض لك أم في غيرها تُصرع
 قال: وقال الأصمعي: قال أبو عمرو بن العلاء: بينا أنا أدور في بعض
 البوادي إذا أنا بصوت:
 وإن امرأ دنياه أكثر هممه لمستمسك منها بحبل غرور
 قال: فنقشته على خاتمي.



قال: وسمع يحيى بن خالد البرمكي بيت العدوي في صفة الدنيا، حيث
 يقول:
 حثوفها رصد، وعيشها نكد وشربها رنق، وملكها دؤل
 فقال: لقد انتظم في هذا البيت صفة الدنيا.



قيل: وسمع المأمون بيت أبي نواس:
 إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو في ثياب صديق
 فقال: لو سئلت الدنيا عن نفسها، لما وصفت كما وصفها به أبو نواس.



وقال أبو حازم: الدنيا طالبة ومطلوبة، وطالب الدنيا يطلبه الموت حتى
 يخرجها منها، وطالب الآخرة، تطلبه الدنيا حتى توفيه رزقه.



قال: وقيل للحسن البصري: ما تقول في الدنيا؟ فقال: ما عسى أن أقول
 فيها؛ وحلالها حساب، وحرامها عذاب!
 فقيل: ما سمعنا كلاماً أوجز من هذا، قال: بلى، كلام عمر بن عبد العزيز،
 كتب إليه عدي بن أرطاة؛ وهو على حمص: إن مدينة حمص قد تهدمت
 واحتاجت إلى إصلاح حيطانها؛ فكتب إليه: حصنها بالعدل، ونق طرقها من
 الظلم.

محاسنُ معرفة الأوائِل

حدَّثنا زيدُ بنُ أخزم، قال: حدَّثنا عبدُ الصَّمَد، عن سعيد، عن المغيرة، قال: سمعتُ سِمَاكُ بنَ سَلَمَةَ يقول: أوَّلُ مَنْ خَطَّ بالقلمِ إدرِيس عليه السلام، وهو أوَّلُ من خَاط الثيابَ ولَبَسَهَا، وكانوا من قبله يلبسونَ الجلود.

وأوَّلُ قرية بُنيت في الأرض قرية تسمَّى ثمانين، ابتناها نوح عليه السلام.

وأوَّلُ من عمل الصابون سليمان بن داود عليه السلام.

وأوَّلُ من باع فيمن يَزِيد حِلْسًا^(١) وقدحًا، رسول الله ﷺ.

وأوَّلُ من اتَّخَذَ القراطيس يوسف عليه السلام.

وأوَّلُ من خُبِزَ له الرُّقاق نُمرود بن كنعان، لعنه الله!

وأوَّلُ من حَكَمَ في الخُنْثَى عامر بن الظَّرْبِ العَدَوَانِي.

وأوَّلُ من خَضِبَ بالسَّوَادِ عبدُ المطلب بن هاشم.

أوَّلُ من سَنَّ الدِّيَةَ من الإبل أبو سَيَّارة العَدَوَانِي، وأقرَّه رسول الله ﷺ في الإسلام.

وأوَّلُ من خلع نعله لدخول الكعبة الوليد بن المغيرة، فخلع الناس نعالهم في الإسلام. وهو أوَّلُ من قضى بالقَسامة في الجاهلية، فأقرَّها رسول الله ﷺ في الإسلام؛ وهو أوَّلُ من حرَّم الخمر على نفسه في الجاهلية، فأقرَّها رسول الله ﷺ في الإسلام. وهو أوَّلُ من قطع في السرقة في الجاهلية، فقطع رسول الله ﷺ في الإسلام.

وأوَّلُ من سُلِّمَ عليه بالإمرة، المغيرة بن شعبة.

وأوَّلُ من أَرَخَ الكتب، وختم على الطَّين عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وأوَّلُ من كتب بالعربية مرامر بن مروة، من أهل الأنبار، فانتشر من الأنبار في الناس.

(١) الحلس: كساء على ظهر البعير تحت البردعة، ويبسط في البيت. وانظر المعارف ٢٤٢.

وأوّل من مشت الرجال معه وهو راكب الأشعث بن قيس .
وأوّل من اتّخذ المقصورة في المسجد معاوية بن أبي سفيان، وذلك أنه أبصر
كلباً على منبره .

وأوّل من لبس الخفاف وثياب الكتّان، زياد بن أبي سفيان .
وأوّل من لبس الطيلسان جبّير بن مُطعم .
وأوّل من لبس الخزّ الطارونيّ عبد الله بن عامر، فقال الناس : لبس الأمير
جلد دُبّ .

وأوّل من نقش على الدراهم عبد الملك بن مروان، وهو أوّل من سُمّي
عبد الملك .

وأوّل من ابتنى مدينة في الإسلام الحجاج بن يوسف، بنى مدينة واسط،
وهو أوّل من قعد على سرير في حرب . وأوّل من اتّخذ المحامل فقال فيه حميد
الأرقط :

أَخْزَى إِلَهُ عَاجِلاً وَآجِلاً أوّل عبدٍ عملَ المحاملاً
عَبْدَ ثَقِيفٍ ذَاكَ أَزْلاً آزْلاً

وهو أوّل من علّق له الخيش، ونُقِلَ له الثلج .
وأوّل من أطعم على ألف مائدة، على كلّ مائدة عشرة رجال، وأجاز بألف
ألف درهم، ولبس الدّرايع السُّود، المختار بن أبي عبيد .
وأوّل من حذا النعال جَذيمة الأبرش، وهو أوّل من وضع المنجنيق، ورفعت
له الشموع، ونادَمَ الفرقدَيْن^(١) .

وأوّل من حدا رجل من مُضَر .
وأوّل رأس حُمِلَ من بلدٍ إلى بلدٍ رأس عمرو بن الحَمِقِ الخُزاعيّ .
وأوّل من عُملَ له النعش زينب بنت جحش، زوجة رسول الله ﷺ، فقال
عمر بن الخطاب : نعم خِباء الظعينة !

وأوّل من قطع نهر بلخ سعيد بن عثمان بن عثمان بن عفّان .
وأوّل من ضرب بسيفه باب قسطنطينية وأذن في بلاد الروم عبد الله بن

(١) في لطائف المعارف : وترفع عن منادمة البشر فنادم الفرقدَيْن، وكان يشرب كأساً، ويصب لهما
كأسين إلى أن وجد مالكاً وعقيلاً قديمين، فاتخذهما نديمين .

كلب، من بني عامر بن صعصعة، وكان مع مسلمة بن عبد الملك، فأراد قيصر قتله، فقال: واللّه لئن قتلتنني لا تبقى بيعة في بلدان الإسلام إلا هُدمت فكفّ عنه. وأوّل من جمّع جمعةً مُضَعَب بن عُمير، جمّعهم بالمدينة، وكانوا اثني عشر رجلاً.

وروى أبو هلال، عن أبي حمزة قال: أوّل من رأينا بالبصرة يتوضأ بالماء عبید اللّٰه بن أبي بكرة، فقلنا: فانظروا إلى هذا الشيخ يلوط استه، أي يستنجي بالماء.

وأوّل مولود ولد في الإسلام عبد اللّٰه بن الزبير.

وأوّل من رشا في الإسلام المغيرة بن شعبة.

وأوّل رام رمى في الإسلام سعد بن أبي وقاص.

وأوّل قاضٍ قضى أبو قرّة الكندي.

وأوّل من اتخذ الجَمَازات أمّ جعفر.

مساوي الأوائل

أَوَّل مَنْ اتَّخَذَ الْعُودَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ لَمَكٌ، وَلَدَ لَهُ عَلَى كَبَرِ سَنَةِ ابْنٍ فَأَصِيبَ بِهِ، وَاشْتَدَّ وَجَدُهُ عَلَيْهِ، فَعَمَدَ إِلَى عُودٍ، وَاتَّخَذَ كَهَيْئَةَ الصَّبِيِّ شَبَّهَ صَدْرَ الْعُودِ بِالْفَخْذِ وَإِبْرِيْقَهُ بِالْقَدَمِ، وَالْمَلَاوِي^(١) بِالْأَصَابِعِ، وَالْأُوتَارَ بِالْعُرُوقِ! ثُمَّ ضَرَبَ بِهِ، وَكَانَتْ لَهُ ابْنَةٌ يُقَالُ لَهَا: «مَلَاهِي»، وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ اتَّخَذَتْ الْمَعَازِفَ وَالطُّبُولَ.

وَأَوَّلُ مَنْ عَمَلَ الطَّنَابِيرَ قَوْمُ لُوطٍ، كَانُوا يَسْتَمِيلُونَ بِهَا الْغُلَمَانَ الْمُرْدَ، وَأَمَّا الزَّمَرُ وَشَبَّهَهُ فَلِلرَّعَاءِ وَالْأَكْرَادِ.

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ غَنَّى مِنَ الْعَرَبِ جَذِيمَةُ بْنُ سَعْدِ الْخَزَاعِيِّ، وَذَلِكَ بَعْدَ جِرَادَتِي عَادٍ، وَكَانَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ صَوْتًا، فَسَمِّيَ الْمَصْطَلِقُ، فَغَنَّى بِالرَّكْبَانِيَّةِ.

وَيُقَالُ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ غَنَّى بِالْيَمَنِ رَجُلٌ مِنْ حَمِيرٍ يُقَالُ لَهُ: عَنَسٌ.

وَأَوَّلُ مَنْ غَنَّى بِالْحَرَمِينَ طُوَيْسٌ.

وَأَوَّلُ امْرَأَةٍ قَطَعَتْ يَدُهَا فِي الْإِسْلَامِ فِي السَّرَقِ بِنْتُ سَفْيَانَ بْنِ عَبْدِ الْأَسَدِ، مِنْ بَنِي مَخْزُومٍ، قَطَعَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: لَوْ كَانَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ مُحَمَّدٍ لَقَطَعْتُهَا، وَمِنْ الرِّجَالِ الْخِيَارُ بْنُ عَدِيِّ بْنِ نُوْفَلٍ.

(١) الملاوي: جمع ملوى، وهو ما تلوى به الأوتار وتربط. شفاء الغليل ٢٥٤.

محاسن الدلائل

روي عن النبي ﷺ، أنه قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إنَّ المؤمن إذا أتت عليه ستون سنة، أحبه أهل السماء والأرض، وإذا أتت عليه سبعون سنة كُتبت حسناته، ومُحيت سيئاته. وإذا أتت عليه ثمانون سنة، غفر له ما تقدّم من ذنبه، وإذا أتت عليه تسعون سنة، شفع في أهل بيته وأهله».

وإذا أتت عليه مائة سنة، كُتب اسمه عند الله عز وجل: «أسير الله في أرضه».

وقال عمرو بن العاص: يتغيّر الغلام لسبع، ويحتلم لأربع عشرة سنة، ويتم خلقه لإحدى وعشرين، ويجتمع عقله لثمان وعشرين، وما بعد ذلك فتجارب.

وقال وهشabor: يُستحبُّ من الربيع الزهر؛ ومن الخريف الخصب؛ ومن الغريب الانقباض، ومن القارئ البيان، ومن الغلام الكياسة، ومن الجارية الملاحاة.



ومنه باب آخر:

قيل: إذا جارت الولاة قحطت السماء، وإذا منعت الزكاة هلكت الماشية. وإذا ظهر الربا ظهر الفقر والمسكنة، وإذا خُفرت الذمة أُدِيل العدو.

وعن ابن عباس، قال: إذا رأيتُم السيوف قد أُعْرِيت. والدماء قد أريقَتْ. فاعلموا أن حكم الله جلّ وعزّ قد ضيّع، وانتقم من بعضهم ببعض، وإذا رأيتُم الرِّياء قد فُشا، فاعلموا أن الرِّبا قد فشا، وإذا مُنعت القطر؛ فاعلموا أن الناس قد منَعوا ما عندهم من الزكاة، فمنع الله جلّ وعزّ ما عنده.

محاسن المشورة

كان يقال: إذا استخار الرجل ربّه، واستشار نصيحَه، وأجهد رأيَه، فقد قضى ما عليه، ويقضي الله جلّ وعزّ في أمره ما يُحبّ.

وقال آخر: حسن المشورة من المشير قضاء لحقّ النعمة.

وقيل: إذا استشرت فأنصح، وإذا قدرت فاصفح.

وقال آخر: مَنْ وعظ أخاه سراً زانه، ومن وعظه علانيةً شانه.

وقال آخر: الاعتصام بالمشورة نَجاة.

وقال آخر: نصف عقلك مع أخيك فاستشره.

وقال آخر: إذا أراد الله بعبدٍ هلاكاً أهلكه برأيه.

وقال آخر: إن المشورة تقوّم اعوجاج الرأي.

وقال: إياك ومشورة النساء؛ فإنّ رأيهنّ إلى الأفنّ، وعزْمهنّ إلى الوهنّ.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه؛ أنه قال: كان بين العباس بن عبد المطلب وعليّ بن أبي طالب رضي الله عنهما مباحدة، فلقيت عليّاً رحمه الله، فقلت له: إن كان لك في النّظر إلى عمّك حاجة فأتيه - وما أراك تلقاه - فوجم لها ثم قال: تقدّمني، فتقدمته، فأذن له، فاعتنق كل واحدٍ منهما صاحبه، وأقبل عليّ على يده ورجله يقبلهما، ويقول: يا عمّ، ارض عمّي رضي الله عنك! قال: قد رضيت عنك.

ثم قال: يابن أخِي، قد كنتُ أشرتُ عليك بأشياء فلم تقبل منّي، فرأيت في عاقبتها ما كرهت، وها أنا أشيرُ عليك برأي آخر، فإن قبلته وإلا نالك ما نالك، فقال: وما الذي كنتُ أشرتُ به يا عمّ؟ قال: أشرتُ عليك لمّا قبض رسولُ الله ﷺ أن تسأله، فإن كان الأمر فينا أعطانا؛ وإن كان في غيرنا أوصى بنا؛ فقلت: إن منعناه لم يُعطنا أحدٌ بعده. فمضتُ تلك.

فلمّا قبض رسولُ الله ﷺ أتانا أبو سفيان بن حرب تلك الساعة، فدعوناك إلى أن نبايعك، فقلت: أبسط حتّى نبايعك، فإنّا إن بايعناك لم يختلف عليك منافئ، وإن

بايعك بثو عبد مناف لم يختلف عليك قرشي، وإن بايعتُك قریش لم يختلف عليك أحد من العرب. فقلت: في جهاز رسول الله ﷺ شغل، وليس عليّ فوّت، فلم نلبث أن سمعنا التكبير من سقيفة بني ساعدة، فقلت: ما هذا يا عم؟ فقلت: هذا ما دعوناك إليه فأبيته، قلت: سبحان الله! ويكون هذا! قلت: وهل ردّ مثل هذا!

ثم أشرت عليك حين طعن عمر رحمه الله ألا تدخل نفسك في الشورى، فإنك إن اعتزلتهم قداموك، وإن ساويتهم تقدّموك، فدخلت معهم، فكان ما رأيت، وها أنا أقول لك الآن: أرى هذا الرجل - يعني عثمان بن عفان رحمه الله - يأخذ في أمور، ولكأني بالعرب قد سارت إليه حتى يُنحر كما يُنحر الجزور، والله لئن كان ذاك وأنت بالمدينة، ليرميئك الناس بدمه، ولئن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئاً إلا بشرّ لا خير معه.

قال ابن عباس: فلما قُتل عثمان رضي الله عنه، خرج عليّ وهو على بغلة رسول الله ﷺ وأنا عن يمينه، وابن القارئ عن يساره، وكان من أمر طلحة والزبير ما كان، وقُتل طلحة عشية ذلك اليوم، وأنا أرى الكراهية في وجه عليّ رضي الله عنه، فقال: أما والله؛ لقد كنت أكره أن أرى قریشاً صرعى تحت بطون الكواكب، ولكن نظرت إلى ما بين الدفتين فلم أَرِ يسعني إلا قتالهم أو الكفر، ولئن كان قال هؤلاء ما سمعت في طلحة، لقد كان كما قال أخو جعفي:

فتى كان يُدنيه الغنى من صديقه إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر
ورحم الله عمي! فكأنما يطّلع إلى الغيب من ستر رقيق، صدق والله! ما نلت من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شرّ لا خير معه.

قال: وقال ابن عباس لعليّ رضي الله عنه: اجعلني السفير بينك وبين معاوية في الحكمين، فوالله لأفتلنّ له حبلاً لا ينقطع وسطه، ولا ينتشر طرفاه.

قال عليّ رحمه الله: لست من كيدك وكيد معاوية في شيء؛ والله لا أعطيه إلا السيف حتى يدخل في الحق.

قال ابن عباس: وهو والله لا يعطيك إلا السيف حتى يغلب بباطله حقك.
قال عليّ رضي الله عنه: وكيف ذاك؟ قال: لأنك تطاع اليوم وتُعصى غداً، وإنه يطاع فلا يعصى، فلما انتشر على عليّ رضي الله عنه أصحابه - وابن عباس بالبصرة - فقال: لله ابن عباس! إنه لينظر إلى الغيب من ستر رقيق.



ومثله خبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين قال لأصحابه: دُلُونِي عَلَى رَجُلٍ أَسْتَعْمِلُهُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ أَهَمَّنِي؛ قالوا: فلان، قال: لا حاجة لنا فيه، قالوا: فمن تريد؟ قال: أريد رجلاً إذا كان في القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجلٌ منهم، قالوا: ما نعرف هذه الصفة إلا في الربيع بن زياد الحارثي، قال: صدقتم! فولاه.



ومنه خبر صاحب الأمين، فإنه حُكي أنه كان بمدينة السلام شيخ من الكتّاب مُسِنًَّ قد اعتزل الأمور، وكان يوصفُ بجودة الرأي، فدعاه محمد الأمين وشاوره في أمر أخيه المأمون، وما ينبغي أن يعامله به حتى يقع في يده، فقال: إن استعجلت لم تنتفع بفعل ولا رأي. وإن تمهلّت وقبلت مشورتي تمكّنت من أخيك، وذلك أنك تدعو بحجّاج خراسان إذا قدموا مدينة السلام، وتجلس مجلساً حافلاً وتقول لهم: إنّ أخي كتب إليّ يحمّدكم، ويذكر سمعكم وطاعتكم وجميل مذهبكم، وتجزّيهم الخير ثم تقول: قد أسقطتُ عنكم خراج سنة، وأخوك في بلد رجال بلا مال، وليس له في نقض قولك حيلة، وسيناله من ذلك خلل شديد حتى ينتقض أكثر أمره، ثم تفعل مثل ذلك في السنة المقبلة، وترفع عنهم خراج سنتين، فإن لم يأتوك بأخيك في وثاق وكنّت حياً، فاضرب عنقي.

فلم يقبل الأمين ذلك للأمر المقدور، والقضاء السابق، وعجّل إلى خلع المأمون في عقد الأمر لابنه، حتى كان ما كان؛ وليس يبلغ في الملك والدولة خاصّة مبلغ الرأي، لأنّ الرأي لا يحتاج إلى السلاح، والسلاح يحتاج أهله إلى الرأي، وإلا كانت عدّتهم عليهم ضرراً إذا لم يصيبوا في استعمالها وجه الرأي.

مساوي من يستشير

قال بعض أهل العلم: لو لم يكن في المشورة إلا الاستحقار من صاحبها لك، وظهور فقرِك إليه، لوجب أطراح ما تفيده المشورة، وإلقاء ما تُكسبه الإنسان، وما استشرتُ أحداً قطُّ إلا كُبر عندي، وتضاغرتُ له، ودخلته العزّة، ودخلتني الذلّة. فأياك والمشورة؛ وإن ضاقت بك المذاهب، واختلفت عليك المسالك، وأذاك الاستبهاج إلى الخطأ الفادح! فإن صاحبها أبداً مستذلٌّ مستضعف، وعليك بالاستبداد؛ فإن صاحبها أبداً جليل في العيون، مهيبٌ في الصدور، ولن تزال كذلك ما استغنيت عن [ذوي]^(١) العقول، فإذا افتقرت إليها حقرتك العيون، ورجفت بك أركانك، وتضعضع شأنك، وفسد تدبيرك، واستحقرتك الصغير، واستخفّ بك الكبير، وعُرفت بالحاجة إليهم، وقد قيل: نعم المستشارُ العلم، ونعم الوزير العقل.



وممن اقتصر على رأيه دون المشاورة أبو جعفر المنصور؛ فإنه لما حَدث من أمر إبراهيم ومحمد - ابني عبد الله بن الحسن - ما حَدث، أمسك المنصور عن المشاورة، واستبدَّ برأيه، وأقبل على السَّهر والخلوة، ولم يذكر أمرهما لأحدٍ من أهله [وخاصته]^(١)، وكان تحته مُصلًى قد تفزَّر لَحْمَتُهُ وسَدَاه، وكان جلوسه ومبيته عليه فلم يغيّره، وعليه جبّة خزّ دُكْناء، قد درن جيّها، فلم يغيّرها حتى ظفّر، وكان يقول في تلك الحال: إياك والمشورة! فإنّ عثرتها لا تُستقال؛ وزلتها لا تُستدرَك، فكم قد رأيتُ من نصيح^(٢) عاد نصحه غشّاً.



ومنهم الرّشيد، فإنّه حُكي عنه أنه بعث ذات ليلة إلى جعفر بن يحيى: إنّي قد سهرت فوجّه إليّ بعض سُمارك، فوجّه إليه بسمير له كوفيّ، فسامرهِ ليلته، فلمّا

(١) من ك.

(٢) ل: «نصح» تحريف.

أَنْ رَجَعَ سَأَلَهُ جَعْفَرُ عَنْ خَبْرِهِ؛ فَقَالَ: سَامَرْتُهِ لَيْلَتِي كُلَّهَا، فَأَنْشَدْتُهُ فَمَا رَأَيْتُهُ اسْتَحْلَى إِلَّا بَيْتَيْنِ مِنْ شَعْرِ أَنْشَدْتُهُمَا إِيَّاهُ، فَإِنَّهُ أَوْلَعَ بِهِمَا، وَمَا زَالَ يَأْمُرُنِي بِتَكَرِيرِهِمَا عَلَيْهِ حَتَّى حَفَظَهُمَا، فَقَالَ جَعْفَرُ: وَمَا هُمَا؟ قَالَ:

لَيْتَ هِنْدًا أَنْجَزْتَنَا مَا تَعِدُ وَشَفَّتْ أَنْفُسَنَا مِمَّا نَجِدُ^(١)
وَاسْتَبَدَّتْ مَرَّةً وَاحِدَةً إِنَّمَا الْعَاجِزُ مَنْ لَا يَسْتَبِدُّ
فَقَالَ لَهُ جَعْفَرُ: أَهْلَكْتَنِي وَاللَّهِ وَأَهْلَكَتَ نَفْسَكَ. قَالَ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: إِنَّهُ
كَانَ يَرَى أَنْ لَا غِنَى بِهِ عَنِّي وَعَنْ مَشُورَتِي، وَلَمْ يَكْرَرْ الْبَيْتَيْنِ إِلَّا وَقَدْ عَزَمَ عَلَى تَرْكِ
مُشَاوَرَتِي، وَالْإِسْتِبْدَادَ بِالرَّأْيِ. فَقَتَلَهُ بَعْدَ حَوْلٍ؛ وَقَالَ الشَّاعِرُ فِي مِثْلِهِ:

بِدِيهْتُهُ وَفَكَرْتُهُ سَوَاءً إِذَا مَا نَابَهُ الْخَطْبُ الْكَبِيرُ
وَأَحْزَمُ مَا يَكُونُ الدَّهْرَ رَأْيًا إِذَا عَمِيَ الْمَشَاوِرُ وَالْمَشِيرُ
وَصَدْرُ فِيهِ لِلْهَمِّ اتَّسَاعٌ إِذَا ضَاقَتْ بِمَا فِيهَا الصُّدُورُ



وَمِنْهُمْ الشَّعْبِيُّ: فَإِنَّهُ ذَكَرَ أَنَّهُ كَانَ صَدِيقًا لِابْنِ^(٢) أَبِي مُسْلَمٍ، كَاتِبِ الْحِجَاكِ،
وَأَنَّهُ لَمَّا قُدِّمَ بِهِ عَلَى الْحِجَاكِ لَعَنَهُ فَقَالَ لَهُ: أَشِيرْ عَلَيَّ، فَقَالَ: مَا أَدْرِي بِمِ أَشِيرُ!
وَلَكِنِّي أَعْتَذِرُ بِمَا قَدَرْتُ عَلَيْهِ. وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِذَلِكَ جَمِيعُ أَصْحَابِهِ.
قَالَ الشَّعْبِيُّ: فَلَمَّا دَخَلْتَ خَالَفْتَ مَشُورَتَهُمْ، وَرَأَيْتَ وَاللَّهِ غَيْرَ الَّذِي قَالُوا.
فَسَلَّمْتَ عَلَيْهِ بِالْإِمْرَةِ^(٣) ثُمَّ قُلْتَ:

أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ! إِنَّ النَّاسَ قَدْ أَمَرُونِي أَنْ أَعْتَذِرَ بِغَيْرِ مَا يَعْلَمُ اللَّهُ أَنَّهُ الْحَقُّ،
وَأَيْمُ اللَّهِ لَا أَقُولُ فِي مَقَامِي هَذَا إِلَّا الْحَقَّ! قَدْ جَهَدْنَا وَحَرَّضْنَا، فَمَا كُنَّا بِالْأَقْوِيَاءِ
الْفَجْرَةِ، وَلَا بِالْأَتْقِيَاءِ الْبَرَّةِ، وَلَقَدْ نَصَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا، وَأَظْفَرَكَ بِنَا، فَإِنْ سَطَوْتَ
فَبَذَنُونَا، وَإِنْ عَفَوْتَ فَبِحَلْمِكَ، وَالْحِجَّةُ لَكَ عَلَيْنَا.

فَقَالَ الْحِجَاكِ: أَنْتَ وَاللَّهِ أَحَبُّ إِلَيْنَا قَوْلًا مِمَّنْ يَدْخُلُ عَلَيْنَا وَسِيفُهُ يَقْطُرُ مِنْ
دِمَائِنَا، وَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا فَعَلْتَ وَمَا شَهِدْتَ؛ أَنْتَ آمِنٌ يَا شَعْبِيُّ. فَقُلْتَ: أَيُّهَا
الْأَمِيرُ، اكْتَحَلْتُ وَاللَّهِ بَعْدَكَ السَّهْرَ، وَاسْتَحْلَسْتُ الْخَوْفَ، وَقَطَعْتَ صَالِحَ
الْإِخْوَانِ، وَلَمْ أَجِدْ مِنَ الْأَمِيرِ خَلْفًا، فَقَالَ: صَدَقْتَ فَاَنْصَرَفَ، فَاَنْصَرَفْتُ^(٤).

(١) لعمر بن أبي ربيعة، ديوانه: ٣: ٢.

(٢) الطبري: «لأبي مسلم». (٣) ك: «الإمارة».

(٤) الخبر في تاريخ الطبري ١١١٢: ٢ (طبع أوروبا).

محاسن كتمان السرّ

قال: كان المنصّور يقول: الملوك تحتل كل شيء من أصحابهم إلا ثلاثاً: إفشاء السرّ، والتعرّض للحرم، والقّدح في الملك.
وكان يقول: سرّك من دمك، فانظر مَنْ تملكه^(١).
وكان يقول: سرّك لا يطلع^(٢) عليه غيرك. إنّ من أنفذ البصائر كتمان السرّ حتى يبرم المبرم.



وقيل لأبي مُسلم صاحب الدولة: بأي شيء أدركت هذا الأمر؟ فقال:
ارتديت بالكتمان، واتزّرت بالحزم، وحالفت الصّبر، وساعدت المقادير، فأدركت
ظني، وحزّت حدّ بُغيّتي، وأنشد:

أدركت بالحزم والكتمان ما عجزت	عنه ملوك بني مروان إذ حشدوا ^(٣)
ما زلت أسعى عليهم في ديارهم	والقوم في غفلة بالشّام قد رقدوا
حتى ضربتهم بالسيف فانتبهوا	من نومة لم ينسها قبلهم أحد
ومن رعى غنماً في أرض مسبعة	ونام عنها، تولى رعيها الأسد



قال: وقال عبد الملك بن مروان للشعبيّ لما دخل عليه: جنبني خصلاً
أربعاً: لا تُطريني في وجهي، ولا تجرين عليّ كذبةً، ولا تغتابنّ عندي أحداً، ولا
تفشينّ لي سرّاً.



وقال النبي ﷺ: «استعينوا على [قضاء] حوائجكم بالكتمان، فإن كل ذي نعمة
محسود».

(١) المحاسن والأضداد: «تملكه».

(٢) المحاسن والأضداد: «تطلع».

(٣) المحاسن والأضداد: ٢٩.

وأنشد المنقري^(١) في ذلك :

النجمُ أقربُ من سرٍّ إذا اشتملتُ مِنِّي على السرِّ أضلاغٌ وأحشاء^(٢)
وقال غيره :

ونفسك فاحفظها ولا تُفش للورى من السرِّ ما يُطوى عليه ضميرُها^(٤)
فما يحفظُ المكتوم من سرٍّ أهله إذا عُقِدُ الأسرار ضاعَ كثيرُها!
من القومِ إلّا ذو عفافٍ يُعينُهُ على ذاكَ منه صدقُ نفسٍ وخيرُها



قال : وقال معاوية بن أبي سفيان : أعِثْتُ على عليٍّ رضي الله عنه في أربع خصال : كان رجلاً ظهراً عُلتاً - أي لا يكتُم سرّاً - وكنت كتوماً لأمرِي ، وكان لا يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأةً ، وكنت أبادر إلى ذلك ، وكان في أخْبث جنْدٍ وأشدَّهم خلافاً^(٣) ، وكنتُ في أطوع جنْدٍ ، وأقلَّهم خلافاً . وكنت أحبُّ إلى قريش منه ، فنلتُ^(٤) ما شئتُ ، [فلله]^(٥) من جامع إليّ ومفرِّق عنه^(٦) !

وكان يقال : لكاتم سرِّه من كتمانهِ إحدى خصلتين وفضيلتين : الظُّفر بحاجته ، والسلامة من شرِّه من أحسن فليحمد الله ، وله المِنَّة عليه ، ومن أساء فليستغفر الله جلَّ وعزَّ ، وله الحجَّة عليه .



وقال بعضهم : كتمانك سرِّك يعقبك السَّلامة ، وإفشائك سرّاً يعقبك التَّبعة^(٧) ، والصبر على كتمان السرِّ أيسر من الندم على إفشائه^(٨) .



وقال بعضهم : ما أقبح بالإنسان أن يخاف على ما في يده اللصوص فيخفيه ، ثم يمكن عدوّه من نفسه بإفشاء سرِّه إليه ، وإظهار ما في قلبه له ، أو أن يظهره على

(١) المحاسن والأضداد : «اليزيدي» .

(٢) المحاسن والأضداد : ٣٠ .

(٣) ك : «ختلاً» .

(٤) كذا في المحاسن والأضداد . . . ، وفي الأصول : «فبات» .

(٥) زيادة من المحاسن والأضداد .

(٦) المحاسن والأضداد : ٣٠ .

(٧) المحاسن والأضداد : «الندامة» .

(٨) المحاسن والأضداد : ٣١ .

سرَّ أخيه. ومَنْ عجز عن تقويم أمره، فلا يلومَنَّ من لا يستقيم له.



وكان معاوية يقول: ما أفشيت سرِّي إلى أحدٍ إلا أعقبني طولُ النَّدَمِ وشدةُ الأسفِ، ولا أودعته جوانحَ صدري فخطمته^(١) بين أضلاعي إلا أكسبني^(٢) ذلك مجدداً وذكراً، وسناء ورفعة، فقليل له: ولا ابن العاص! فقال: ولا ابن العاص^(٣)! وكان يقول: ما كنتَ كاتمهُ من عدوِّك فلا تظهرْ عليه صديقك.



وقال النبي ﷺ: «مَنْ كتم سرَّه كانت الخيرة في يده، ومَنْ عرَّض نفسه للثَّهمة فلا يلومَنَّ مَنْ أساء به الظَّنَّ. وضعَّ أمر أخيك على أحسنه، ولا تظنَّ بكلمة خرجت منه سوءاً إذا كنتَ واجداً لها في الخير مذهباً، وما كافأتُ مَنْ عصى اللهَ فيك بأكثر من أن تطيع اللهَ جلَّ ذكره فيه. وعليك بإخوان الصدق، فإنهم زينةٌ عند الرِّخاء، وعِصمةٌ عند البلاء»^(٤).



وحدَّث إبراهيم بن عيسى، قال: ذكرت المنصور ذات يومَ أمرَ أبي مسلم وصونه لذلك السرِّ حتى فعل ما فعله؛ فقال:

تَقَسَّمَنِي أَمْرَانِ لَمْ أَقْتِجْهُمَا	بَحْرُصٍ وَلَمْ تَعْرُكْهُمَا لِي الْكَرَاكُرُ
وَمَا سَاوَرَ الْأَحْشَاءَ مِثْلُ دَفِينَةٍ	مِنْ الْهَمِّ رَدَّتْهَا إِلَيْكَ الْمَقَادِرُ
وَقَدْ عَلِمْتُ أَفْنَاءَ عَدْنَانِ أَتْنِي	لَدَى مَا عَرَا مَقْدَامَةً مُتَجَاسِرُ ^(٥)

وقال غيره:

ضُنَّ السَّرَّ بِالْكَتْمَانِ يُرْضِيكَ غِبُّهُ	فَقَدْ يُظْهِرُ السَّرَّ الْمَضِيْعُ فَيَنْدَمُ ^(٦)
وَلَا تُفْشِيَنَّ سَرّاً إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ	فَيُظْهِرُ خَرْقُ السَّرِّ مِنْ حَيْثُ يُكْتَمُ
وَمَا زِلْتُ فِي الْكَتْمَانِ حَتَّى كَأَنَّني	بَرَجَّعَ جَوَابَ السَّائِلِي عَنْكَ أَعْجَمُ

(١) المحاسن والأضداد: ٣١: (فحكمته).

(٢) كذا في ك والمحاسن والأضداد.

(٣) المحاسن والأضداد: ٣١.

(٤) المحاسن والأضداد: ٣٢ «على مثلها مقدمة متجاسر».

(٥) المحاسن والأضداد: ٣٢.

(٦) الكامل بشرح المرصفي ٩٦: ٦.

سَلِمَتْ، وهل حيٌّ على الناس يَسْلَمُ!

وَحَظَّيَ فِي سَتْرِهِ أَوْفَرُ!
نَظَرْتُ لِنَفْسِي كَمَا تَنْظُرُ

وَدَمَعِي نَمُومٌ لِسَرِّي مُذِيعُ
وَلَوْلَا الْهَوَى لَمْ تَكُنْ لِي دُمُوعُ

فَسِرُّكَ عِنْدَ النَّاسِ أَفْشَى وَأَضْيَعُ

وَدَاوِ أَحْزَانَكَ بِالْكَاسِ
أَرْأَفَ بِالنَّاسِ مِنَ النَّاسِ

وقال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ السرّ ما روي لأمير المؤمنين

فَإِنَّ لِكُلِّ نَصِيحٍ نَصِيحاً^(١)
لِ لَا يَتْرُكُونَ أَدِيمًا صَحِيحًا

مَحَارِيقُ نِيرَانٍ بَلِيلٌ تُحَرِّقُ
ثِيَاباً مِنَ الْكُتْمَانِ مَا تَتَخَرِّقُ
فَأَسْرَارُ نَفْسِي بِالْأَحَادِيثِ تَغْرَقُ
فَإِنَّكَ إِنْ أَوْدَعْتَهُ مِنْهُ أَحْمَقُ
مِنَ الْقَوْلِ مَا قَالَ الْأَدِيبُ الْمَوْفُوقُ
فَصَدْرُ الَّذِي يُسْتَوْدَعُ السَّرَّ أَضْيَقُ^(٢)

حَرَكَاتُهُ لِلنَّاسِ عَنْ كُتْمَانِهِ^(٢)

لَأَسْلَمَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ وَتَسْلَمِي
وَلَا آخِرَ:

أَمِيتِي تَخَافُ انْتِشَارَ الْحَدِيثِ
وَلَوْ لَمْ أَصْنُهُ لِبُقْيَا عَلَيْكَ
وَلَا آخِرَ:

لِسَانِي كَتُومٌ لِأَسْرَارِكُمْ
فَلَوْلَا الدَّمُوعُ كَتَمْتُ الْهَوَى
آخِرَ:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَحْفَظْ لِنَفْسِكَ سِرَّهَا
أَبُو نَوَاسَ:

لَا تُفْشِ أَسْرَارَكَ لِلنَّاسِ
فَإِنَّ إِبْلِيسَ عَلَى مَا بِهِ

وقال المبرد: أحسن ما سمعت في حفظ السرّ ما روي لأبي طالب رضي الله عنه:

فَلَا تُفْشِ سِرَّكَ إِلَّا إِلَيْكَ
فَإِنِّي رَأَيْتُ بَغَاةَ الرَّجَا
وَقَالَ الْعَتَبِيُّ:

وَلِي صَاحِبٌ سَرِّي الْمَكْتَمُ عِنْدَهُ
عَطَفْتُ عَلَى أَسْرَارِهِ فَكَسَوْتُهَا
فَمَنْ تَكُنْ الْأَسْرَارُ تَطْفُو بِصَدْرِهِ
فَلَا تُودِعَنَّ الدَّهْرَ سِرَّكَ جَاهِلًا
وَحَسْبُكَ فِي سِتْرِ الْأَحَادِيثِ وَاعْظًا
«إِذَا ضَاقَ صَدْرُ الْمَرْءِ عَنْ سَرِّ نَفْسِهِ
آخِرَ:

وَلَرَبَّمَا اكْتَتَمَ الْوَقُورُ فَصَرَّحْتُ

(٢) الكامل بشرح المرصفي ٩٦: ٦.

(١) المحاسن والأضداد: ٣٢.

ولربّما رزقَ الفتى بسكوته ولربّما حرمَ الفتى ببيانه
آخر:

لا يكتُم السرَّ إلا كلُّ ذي خَطرٍ والسرُّ عندَ كرامِ الناسِ مكتومٌ^(١)
والسرُّ عندي في بيتٍ له غَلَقٌ قد ضاعَ مفتاحُه والبابُ مردومٌ



قال: ودخل أبو العتاهية على المهديّ، وقد ذاع شعره في عُتْبة، فقال: ما أحسنتَ في حُبِّك، ولا أجملت في إذاعة سرِّك! فقال أبو العتاهية:

من كان يزعمُ أن سيكتُم حَبَّهُ أو يستطيعُ السترَ فهو كذوبٌ
وإذا بدا سرُّ اللَّبيبِ فلأنَّه لم يبدُ إلا والفتى مغلوبٌ
الحبُّ أغْلَبُ للرجالِ بقَهْرِهِ من أن يُرى للسرِّ فيه نصيبٌ
إني لأحسُدُ ذا هوىٍّ مستحفظاً لم تَتَّهَمُهُ أعيُنٌ وقلوبٌ

فاستحسن المهديّ شعره وقال: قد عذرناك في إذاعة سرِّك، ووصلناك على حُسْنِ عذرِكَ، على أن كتمان ذلك أحسن من إذاعته.



وقال المهلب بن أبي صُفرة: ما ضاقت صدور الرجال عن شيءٍ كما ضاقت عن السرِّ.

وقال زياد: لكل مستشير ثقة، ولكل سرّ مستودع، وإنَّ الناس قد أبدعت بهم خصلتان: إذاعة السرِّ، وترك النصيحة. وليس موضع السرِّ إلا أحد رجلين: رجل آخريّ يرجو ثواب الله، ورجل دُنياويّ له شرف في نفسه، وعقل يصون به حسبَه؛ وهما معدومان في هذا الدهر.

(١) المحاسن والأضداد: ٣٣.

محاسن حفظ اللسان

قال أكتهم بن صيفي: مقتل الرجل بين فكيه - يعني لسانه .

وقال الشاعر:

رأيت اللسان على أهله إذا ساسه الجهل ليثاً مغاراً

ومنه قول أكتهم: ربّ قولٍ أشدّ من صول .

وقوله: لكل ساقطةٍ لاقطةٌ . الساقطة من الكلام، له لاقطة من الناس .

وقال المهلب لبنيه: اتقوا زلة اللسان، فإنّي وجدت الرجل تعثر قدمه فيقوم من عثرته، ويزلّ لسانه فيكون فيه هلاكه .

وقال يونس بن عبيد: ليست خلّة من خلال الخير تكون في الرجل؛ هي أخرى أن تكون جامعةً لأنواع الخير كلّها من حفظ اللسان .

وقال قسامة بن زهير: يا معشر الناس، إنّ كلامكم أعثر من صمتكم، فاستعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الصواب بالفكر .



وقال الجاحظ: جرى بين شهرام المروزي، وبين أبي مسلم كلامٌ، فما زال أبو مسلم يقاوله إلى أن قال شهرام: يا لقيط! فصمت أبو مسلم، وندم شهرام، فما زال مقبلاً عليه معتذراً وخاضعاً متنصلاً، فلما رأى ذلك أبو مسلم قال: لسانٌ سبق، ووهم أخطأ، وإنّما الغضب شيطان، وما جرّأك غيري بطول احتمالي . فإن كنت متعمداً للذنوب فقد شاركتك فيه، وإن كنت مغلوباً فالعذرُ سبقك، وقد غفرنا لك على كلّ حال .

فقال شهرام: أيّها الأمير، عفوّ مثلك لا يكون غروراً . قال: أجل! قال: فإنّ عظم ذنبي لا يدع قلبي أن يسكن . ولجّ في الاعتذار، فقال أبو مسلم: يا عجباً! كنت تسيء وأنا أحسن، فإذا أحسنت أسيء!



وشتّم رجل المهلّب، فلم يُجبه، فقليل له: حلّمت عنه، فقال: لم أعرف مساوئّه، فكرهت أن أبهتّه بما ليس فيه.



سلمة بن القاسم، عن الزبير، قال: حُمِلْتُ إلى المتوكّل، فأدخلت عليه، فقال: يا عبد الله، الزم أبا عبد الله - يعني المعتزّ - حتى تعلّمه من فقه المدينيين. فأدخلت إلى حُجرة، فإذا أنا بالمعتزّ قد أتى، وفي رجله نعلٌ من ذهب، فعثر حتى دميت رجله. فأُتيَ بإبريق من ذهب، وطست من ذهب، وجعل يغسل ذلك الدم وهو يقول:

يُصابُ الفتى من عشرةٍ بلسانه وليس يُصابُ المرء من عشرةِ الرّجل^(١)
وعثرته من فيه ترمي برأسه وعثرته في الرجل تبرا على مهل
فقلت في نفسي: ضِمتُ إلى مَنْ أريد أن أتعلّم منه.
وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يحفظ لسانه كما يحفظ موضع قدمه.
وقيل: من لم يحفظ لسانه، فقد سلّطه على هلاكه.
وقال الشاعر:

عليك حفظ اللسان مجتهداً فإنّ جُلّ الهلاك في زلّيه
ولآخر:

وجرحُ السيفِ تُدْمِلُهُ فَيَبْرَأ وجرحُ الدّهر ما جرح اللسان
جراحات الطّعان لها التّئام ولا يلتام ما جرح اللسان
ولآخر:

وجرحُ اللسان كجرح اليد*^(٢)

ولآخر:

وجرحُ السيفِ يأسوه المُداوي وجرحُ القولِ طوّل الدّهر دامي

(١) المحاسن والأضداد: ٢٧.

(٢) لامرئ القيس: ديوان ١٨٥ وصدره:

* وَلَوْ عَنْ نَشَا غَيْرِهِ جَاءَنِي *

مساوي جناية اللسان

أحمد بن إبراهيم الهاشمي، قال: لمّا عفا أبو العباس السفّاح، عن سليمان بن هشام بن عبد الملك وعن ابنه، قريتهم وأدناهم وبسطهم حتى كانوا يسمّرون عنده بالليل، وكان سليمان إذا دخل ثنّيت له وسادة، وكذلك لابنيه، وربّما طُرحت لهم نمارق^(١)، ونصبت لهم كراسي، فإنهم عنده ذات ليلة - أو ذات يوم - إذ دخل إليه أبو غسان الحاجب، فقال: يا أمير المؤمنين، بالباب رجل مثلثم أناخ راحلته وقال: استأذن لي على أمير المؤمنين، فقلت: ضع عنك ثياب سفرك، فقال: لا أخطّ رجلي ولا أسفر عمّتي حتى أنظر في وجه أمير المؤمنين.

فقال أبو العباس: فهل سألته من هو؟ قال: قد فعلت، فذكر أنه سديف مولاك، فقال: سديف! سديف! ائذن له. فدخل رجل أحّم طويل يتشّى، عليه ممطر^(٢) خزّ، ومعه محجن يتوكأ عليه، فلمّا نظر إلى أبي العباس سَفَرَ عن وجهه؛ ثم سلّم ودنا وقبل يده، ثم انصرف إلى خلفه، فقام مقام مثله وأنشده:

أصبح المُلْكُ ثابتَ الأساسِ	بالبَهاليل من بني العباسِ
لا تقبلنَّ عبدَ شمسٍ عِشاراً	واقطعن كلَّ رَقْلَةٍ وغراس ^(٣)
ولقد ساءني وساء سوائي	قُرْبُهُم من نمارقٍ وكراسي
أنزلوها بحيثُ أنزلها اللّـ	هُ بدارِ الهوانِ والإتعاسِ
واذكروا مصرعَ الحسينِ وزيدٍ	وقتيلاً بجانبِ المِهْراسِ ^(٤)
والقتيلَ الذي بحرّانِ أمسى	ثاويّاً بين غُربةٍ وتناسي ^(٥)

(١) النمرقة: وسادة صغيرة يتوكأ عليها.

(٢) الممطر: ما يلبس من الثياب يتقي به المطر.

(٣) الرقلة: النخلة الطويلة.

(٤) يعني زيد بن علي بن الحسين؛ وكان قد خرج على هشام بن عبد الملك، وقتله يوسف بن عمر الثقفي، وصلبه بالكناسة عرياناً هو وأصحابه. والقتيل الذي بجانب المِهْراس هو حمزة بن عبد المطلب، والمِهْراس ماء بأحد.

(٥) قتيل حرّان، هو إبراهيم بن محمد بن علي، وهو الذي يقال له: الإمام.

نَعَمْ شَبْلُ الْهَرَّاشِ مَوْلَاكَ لَوْلَا أَوْدُ مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ^(١)
 فقام سليمان بن هشام فقال: «يا أمير المؤمنين، إنَّ مولاك هذا مثل بين
 يديك» يبعثك على قتلي، وقتل ابني، ويحدوك على طلب ثأرك منَّا، وقد بلغني
 أنك تريد اغتيالني! فقال أبو العباس: واللَّهِ ما كان عزمي أن أقتلك؛ ولا أسيء
 بك، ولا أطالبك بشيء مما طالبتُ به أهل بيتك، فأما إذ قد وقع في خلدك أني
 أغتالك، فيا جاهل؛ مَنْ يحول بيني وبين قتلك حتى أغتالك! ثم أمر بقتله، وقتل
 ابنه. فقال سليمان لقاتله أبي الجهم: إنك قد أمرت بأمر لا بد لك من إنفاذه؛
 وحاجتي إليك أن تقدّم ابني حتى أحتسبهما. ففعل، وخرج سُديف وقد وصله أبو
 العباس بخمسة آلاف دينار؛ وهو يقول: قد قرّت العينان واشتفتا! فللَّهِ الحمد
 والشُّكر!.



وحكي عن شيرويه بن أبرؤيز: أنَّ رجلاً من الرّعيّة وقف له يوماً وقد خرج
 من المَيْدَانِ؛ فقال: الحمد لله الذي قتل أبرؤيز على يدك، وملّكك ما كنت أحقّ به
 منه؛ وأراح آل ساسان من جبريَّته وعُتُوّه وبخله ونكده، فإنه كان يأخذ بالإحنة،
 ويقتل بالظَّنِّ، ويخيفُ البريء، ويعملُ بالهوى.

فقال شيرويه لبعض حُجّابه: احمله إليّ، فحمل. فقال له: كم كانت أرزاقك
 في حياة أبرؤيز؟ قال: كنتُ في كفاية من العيش، قال: فكم رزقك اليوم؟ قال: ما
 زيد في رزقي شيء. قال: فهل وُترك أبرؤيز فانتصرت منه بما سمعت من كلامك؟
 قال: لا، قال: فما دعاك إلى الوقوع فيه، ولم يقطع عنك مادّة رزقك، ولا وُترك
 في نفسك! وما للعامة والوقوع في الملوك وهم رعيّة! وأمر أن ينزع لسانه من قفاه،
 وقال: حقّ ما يقال: الخرس خير من البيان بما لا يجب.



وقال بعض الشعراء في مثله:

يا ليت أني لا أموتُ بغصّتي حتى أرى رجلاً يقول فيصدّق
 احفظ لسانك لا تقول فتبتلى إنَّ البلاءَ موكلٌ بالمنطق

(١) الخبر والأبيات في الكامل ٤: ٨، ٩، مع نسبة الأبيات إلى شبل عبد الله، ورواية هذا البيت
 هناك:

نَعَمْ شَبْلُ الْهَرَّاشِ مَوْلَاكَ شَبْلُ لَوْنَجَا مِنْ حَبَائِلِ الْإِفْلَاسِ!

ولآخر:

لعمرك ما شيء علمت مكانه
على فيك مما ليس يعنك قوله
ولآخر:

إذا الأمر أعياء اليوم فانظر به غداً
ولا تبدي قولاً من لسانك لم يرض
ولا تصر من جبل امرئ في رضا امرئ
لعل عسيراً في غد يتيسر!
مواقعه من قبل ذاك التفكير
فيتصلاً يوماً وحبلك أبتُر

محاسن الصدق

قال بعض الحكماء: عليك بالصدق، فما السيف القاطع في كف الرجل الشجاع بأعز من الصدق؛ والصدق عز وإن كان فيه ما تكره، والكذب ذل، وإن كان فيه ما تحب، ومن عرف بالكذب اتهم في الصدق. وقيل: الصدق ميزان الله الذي يدور عليه العدل. والكذب مكيال الشيطان الذي يدور عليه الجور.

وقال ابن السماك: ما أحسبني أوجر على ترك الكذب، لأنني أتركه أنفة. وقال الشعبي: عليك بالصدق حيث ترى أنه يضرك فإنه ينفعك، واجتنب الكذب حيث ترى أنه ينفعك فإنه يضرك.

وعن أسماء بنت أبي بكر؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا يصلح الكذب إلا في ثلاث: كذب الرجل لأهله ليرضيها، وإصلاح بين الناس، وكذب في حرب». وقال بعض الحكماء: الصدق عز، والكذب خضوع. وقال آخر: لو لم يترك العاقل الكذب إلا مروءة؛ لقد كان حقيقاً بذلك فكيف وفيه المأثم والعار!



ومن المعروفين بالصدق أبو ذر الغفاري، قال النبي ﷺ: «ما أظلت الخضراء، ولا أقلت الغبراء أصدق ذي لهجة من أبي ذر».



ومنهم العباس بن عبد المطلب، حدثنا الحكم بن عيسى، عن الأعمش، عن الشعبي، قال: أطلع العباس على النبي ﷺ؛ وعنده جبريل عليه السلام، فقال له جبريل عليه السلام: هذا عمك العباس، قال: نعم، قال: إن الله جل وعز يأمرك أن تقرأ عليه السلام، وتعلمه أن اسمه عبد الله الصادق، وأن له شفاعة يوم القيامة، فأخبره ﷺ بذلك، فتبسم العباس، فقال له النبي ﷺ: «إن شئت أخبرتك مم تبسمت! وإن شئت أن تقول فقل»، قال: بل تعلمني يا رسول الله، قال: «لأنك

لم تحلف يميناً في جاهلية ولا إسلام؛ برة ولا فاجرة، ولم تقل لسائل: لا». قال: والذي بعثك بالحق ما تبسمت إلا لذلك!.



ومنها علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال يوم التَّهْرَوَانِ لأصحابه: شدُّوا عليهم، فوالله لا يقتلون عشرة، ولا ينجو منهم عشرة. فشدُّوا عليهم، فوالله ما قُتِلَ من أصحابه تمام عشرة، ولا نجا منهم تمام عشرة. ثم قال: اطلبوا ذا الثَّدْيَةِ، فطلبوه، فقالوا: لم نجده، فقال: والله ما كذبت قط، ولا كذبت، والله لقد أخبرني رسول الله ﷺ: أنه يقتل مع شرَّ جيلٍ، يقتلهم خير جيل. ثم دعا ببغلة رسول الله ﷺ، فسار حتى وقفت على قلبٍ فيه قَتْلَى، فقال: اقلبوا القتلى، واطلبوه بينهم، فإذا هو سابع سبعة، فلما أخرجه قال: الله أكبر! لولا أن تنكّلوا فتركوا العمل لأخبرتكم بما جعل الله جلّ وعزّ لمن قتلهم على لسان نبيّه ﷺ.



ومن الأخبار في مثله، قيل: دخل هشام بن عروة على المنصور، فقال له: يا أبا المنذر، أتذكر حيث دخلتُ عليك أنا وأخي مع أبي الخلائف. وأنت تشرب سَوِيْقاً بقصية يراع؛ فلما خرجنا من عندك؛ قال أبي: استوصوا بالشيخ خيراً، واعرفوا حقّه؛ فلا يزال في قومكم بقيّة ما بقي؟ قال: ما أثبت ذلك يا أمير المؤمنين. فلامه بعض أهله، وقالوا: يذكرك أمير المؤمنين ما يُمُتُّ به إليك، وتقول له: لا أذكره! فقال: لم أذكره، ولم يعودني الله في الصدق إلا خيراً.



قال: قدم زياد على معاوية، فلما طال بهم المجلس، حدّثه زياد بحديث، فقال له معاوية: كذبت! فقال: مهلاً يا أمير المؤمنين، فوالله ما حللتُ للكلام حَبْوة إلا على بيعة الصدق، ولم أكذب، وحياة الكذب عندي موت المروءة. فاستحياه معاوية وقال: يغفر الله لك يا أخي! فكأنّي أرى بك حرب بن أميّة في جميل شيمه، وكرم أخلاقه.



قال: وكان الفضل بن الرِّبيع يخاطب الرشيد، فقال له الرشيد: كذبت. فقال: يا أمير المؤمنين، وجه الكذاب لا يقابل وجهك، ولسانه لا يقابل جوابك!

محاسن الكذب

روي عن المغيرة بن إبراهيم قال: لم يرخص لأحد في الكذب إلا للحجاج بن علاط، فإنه لما فتحت خيبر، قال لرسول الله ﷺ: إن لي عند امرأة من قريش وديعة، فإن أذن لي رسول الله ﷺ أن أكذب كذبة؛ فلعلني أن أستل وديعتي! قال: فرخص له، فقدم مكة، فأخبرهم أنه ترك رسول الله ﷺ أسيراً في أيديهم، يأترون فيه، قائل يقول: يُقتل؛ وقائل يقول: لا، بل يُبعث إلى قومه فيكون ذلك منته، فجعل المشركون يتباشرون بذلك، ويؤيسون العباس عليه السلام عم النبي ﷺ منه، والعباس يُريهم التجلد، وأخذ الرجل وديعته، فاستقبله العباس فقال: ويحك! ما الذي أخبرت به؟ فأعلمه السبب، ثم أخبره أن رسول الله ﷺ قد فتح خيبر، واستنكح صفية بنت حبي بن أخطب، وقتل أباه وزوجها! وقال له: اكتم علي اليوم وغداً حتى أمضي، ففعل ذلك، فلمّا مضى أخبرهم العباس بالذي أخبره فكتبوا.



وروي أن رجلاً أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إنني أسترّ بخلال أربع: الزنا، والسرقه، وشرب الخمر، والكذب؛ فأيهن أحببت تركته لك سرّاً، فقال: «دع الكذب». فمضى الرجل، فهمم بالزنا، فقال: يسألني رسول الله ﷺ؛ فإن جحدتُ نقضتُ ما جعلته له، وإن أقررتُ حُددتُ! فلم يزن، ثم هم بالسرقه، وبشرب الخمر، ففكر في مثل ذلك، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال له عليه السلام: «تركتهن أجمع».



ومن ملح الكذب، قيل؛ إنه كان بين يحيى بن خالد البرمكي، وبين عبد الله بن مالك الخزاعي عداوةً وتحاسدً، وكان كل واحدٍ منهما ينتظر لصاحبه الدوائر، فلمّا ولي عبد الله بن مالك أذربيجان وأرمينية، ضاق برجل من الدهاقين بالعراق الأمر، وتعدّرت عليه المطالب، فحمل نفسه على أن افتعل كتاباً على لسان

يحيى بن خالد إلى عبد الله بن مالك بالوصاة^(١) به، وأكد بمعاونته كل التأكيد، ولم يعلم ما بينهما من التباعد، فشخص من مدينة السلام إلى أذربيجان، وصار إلى باب عبد الله بن مالك بالكتاب، فأوصله الحاجب، فقال له عبد الله: أَدْخِلْ صاحب هذا الكتاب، فأدخله، فقال له عبد الله: إِنَّ كتابك هذا مفتعل، ولكنك قد تجسّمت هذه الشُّقة البعيدة، ولسنا نخيّبك، فقال الرجل: أمّا كتابي فليس بمفتعل، وإن كنت إنما تقصده بهذه التهمة لتصرفه؛ فالله جلّ وعزّ حسبي وعليه أتوكل. فقال عبد الله: أفترى أن تُحبس في دارٍ وتزاح علّتك إلى أن أكتب وأستطلع الرأي وأعرف نبأ هذا الكتاب، فإن كان مزوراً عاقبتك، وإن كان صحيحاً خيّرتك بين الصّلات والولايات، فأيتها اخترت سوّغتُكه! قال: نعم. فأمر عبد الله بحبسه وإزاحة علّته.

وكتب إلى وكيله بالعراق: إِنَّ رجلاً يسمّى فلان ابن فلان، أورد عليّ كتاباً من أبي عليّ يحيى بن خالد البرمكيّ، فتعرّف لي أمر هذا الكتاب، واكتب إليّ بالحال فيه. فصار الوكيل بكتاب عبد الله إلى يحيى بن خالد، فقرأه عليه، فدعا بالدّواة، وكتب إليه بخطه: فلان من أخصّ منّ يليني وأوجههم حقاً، وقد أخبرني صاحبك بشكك في أمره؛ فأزل - جعلتُ فداك - الشك؛ وليكن صرفه إليّ معجلاً بما يشبهك.

فلما خرج الوكيل، قال يحيى لأصحابه: ما تقولون في رجل افتعل عليّ كتاباً إلى عبد الله بن مالك، وصل به من مدينة السلام إلى أذربيجان؟ فقالوا جميعاً: نرى أن تفضحه وتكشف ستره، وتعلن أمره ليرتدع به غيره، ويصير نكالا وأحدوثة للعالمين. قال: لا والله! وهذا رأيكم! قالوا: نعم، فقال: قَبَحَ اللهُ هذا من رأي! فما أقلّه وأنذله! ويحكم! هذا رجل ضاق به الرزق، فأمل فيّ خيراً، ووثق بي، وشخص إلى أذربيجان مع بُعد شُقَّتْها وصعوبة طريقها، أتشيرون عليّ أن أحرّمه ما أمّله فيّ حتى يسيء ظنّه بي! وقد عرفتم قدر عبد الله وحاله عند أمير المؤمنين، وأني لم أكن أحتال لهذه المنزلة إلا بالحظير من المال، أفتريدون أن أردّ الأمر بيني وبينه بعد الألفة الواقعة، إلى الحشمة! هذا والله النّكد طول الأبد وغاية الضعف، ونهاية أسباب الانتكاس! ثم أخبرهم بما كتب به إلى عبد الله، فتعجبوا من كرمه، واحتماله الكذب.

(١) ك: «بالوصاية».

وورد الكتاب بخطه على عبد الله، فدعا بالرجل وقد سقط في يده لاعتراض سوء الظن بقلبه، فلمّا دخل عليه، قال: هذا كتاب أخي قد ورد عليّ بصحّة أمرك، وسألني تعجيل صرفك إليه، فدعا له بمائتي ألف درهم، وبما يتبعها من الدوابّ والبغال، والجواري والغلمان، والخلع وسائر الآلة ثم أصدره.

فلما حضر باب يحيى بن خالد أدخل ذلك أجمع إليه، وعرضه عليه، فأمر له يحيى بمثل ذلك، وأثبتته في خاصته.



قيل: وكان رجالٌ من أهل المدينة؛ من فقيه، وراوية، وشاعر، يأتون بغداد، فيرجعون بحظوة وحال حسنة، فاجتمع عدّة منهم يوماً، فقالوا لصديق لهم لم يكن عنده شيء من الآداب: لو أتيت العراق فلعلّك كنت تصيب شيئاً! فقال: أنتم أصحاب آداب تلتمسون بها، قالوا: نحن نحتال لك، فجهّزوه، وقدم بغداد، وطلب الاتصال بعليّ بن يقطين بن موسى، وشكا إليه الحاجة، فقال: ما عندك من الأدب؟ قال: ليس عندي من الآداب شيء؛ غير أنّي أكذب الكذبة، فأخيّل إلى مَنْ سمعها أنني صادق - وكان ظريفاً مليحاً - فأعجب به، وعرض عليه مالاً فأبى أن يقبله، وقال: لست أريد منك إلا أن تُسهّل إذني وتُدني مجلسي، قال: ذاك لك، فكان من أقرب الناس إليه مجلساً حتى عُرف بذلك.

وكان المهديّ غضب على رجل من القوادر حتى استصفى ماله، فكان يختلف إلى عليّ بن يقطين رجاء أن يكلم له المهديّ، وكان يرى قرب المدنيّ منه ومكانه، فأتى المدنيّ القائدَ عشاء وقال له: ما البشريّ؟ قال: لك البشريّ وحُكمك، قال: قد أرسلني إليك عليّ بن يقطين وهو يقرئك السّلام، ويقول: قد كلّمتُ أمير المؤمنين في أمرك، ورضيَ عنك، وأمر بردّ مالك وضياعك، ويأمرُك بالغدوّ عليه، لتغدوّ معه إلى أمير المؤمنين متشكّراً. فدعا له الرجل بألف دينار وثياب وكسوة وحُملان ودفعها إليه، وغدا على عليّ مع جماعة من وجوه العسكر متشكّراً. فقال له عليّ: وما ذاك؟ فقال: أخبرني أبو فلان - وهو إلى جنبه - بكلامك لأمر المؤمنين في أمري، ورضاه عني. فالتفت إلى المدنيّ فقال: ما هذا؟ فقال: أصلحك الله! هذا بعض ذلك المتاع نشرناه.

فضحك عليّ وقال: عليّ بدابّتي، فركب إلى المهديّ وحَدّثه بالحديث،

فضحك المهدي وقال لعليّ: فإننا قد رضينا عن الرجل، ورددنا عليه ماله، فأجرى على المدني رزقاً واسعاً، واستوصى به خيراً. فأجرى عليه ووصله، وكان يُعرف بكذاب الخليفة.



قال: وكتب عبد الملك بن مروان إلى عمر بن محمد صاحب البلقاء: أن أخطب عليّ الشقراء بنت شبيب بن عوانة^(١) الطائيّة، وهو يومئذٍ في بادية له، ومعه عدّة من أصحابه، فأرسل إليه عمر: إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أخطب عليه الشقراء ابنتك، فاحضر. فأرسل إليه، فقال: ما لنا إليكم حاجة، فإن كانت لأمر المؤمنين إلينا حاجة فليأت. أو يرسل رسولاً، فقال عمر: سيروا بنا إليه، فسار في جماعة من وجوه البلقاء، قال: فدفعنا إلى أعرابيّ بفناء خيمته، فسلمنا، فردّ السلام، وتكلّم عمر، فقال الأعرابيّ: أرسول أمير المؤمنين أنت؟ قال: نعم؛ قال: فإننا قد زوجناه على صداق^(٢) نساننا مائة من الإبل وما يتبعها من الثياب والخدم. فقلت: نعم، ثم جاءنا بثلاث جفان من كُسور خبز ولبن، فأكلنا، ثم انصرفنا.

فكتبْتُ إلى عبد الملك بن مروان، فأرسل إليه بمائة من الإبل وعشرة آلاف درهم، وما يتبع ذلك من الطيب والخدم والأثاث، فجهّزها، ثم حملها إلى عبد الملك وما معها من ذلك شيء إلا البعير الذي ركبته، ومعها نسوة من بنات عمّها، فلمّا وافت عبد الملك، أمر فأدخلت إلى دارٍ، فأقامت أياماً.

ثم إن عبد الملك بنى بها، فكان كثيراً ما يقول: ما رأيت مثل هذه الأعرابية؛ ظرفاً وخلقاً ومنطقاً، فاشتدّ ذلك على عاتكة بنت يزيد بن معاوية، فأرسلت إلى رَوْح بن زنباع - وكان من أخصّ الناس بعبد الملك - فقالت: يا أبا زُرعة، قد علمت رأيي أمير المؤمنين معاوية كان فيك، ورأي يزيد [ولده] من بعده وإن أمير المؤمنين قد أعجبه أمر هذه الأعرابية، وغلبت على قلبه، فشأنك في إفساد ذلك عنده. قال: نعم ونعمة عين! ثم خلا بعبد الملك، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف ترى الأعرابية؟ قال: قد جمعت ما جمع النساء؛ الحاضرة والبادية، قال: يا أمير المؤمنين، إنك من الأعرابية كما قال الأوّل:

وَإِذَا تَسُرُّكَ مِنْ تَمِيمٍ خَلَّةٌ فَلَمَّا يَسُوءُكَ مِنْ تَمِيمٍ أَكْثَرُ

(١) تاريخ الطبري ٢: ١١٧٤ (طبع أوروبا): «شقراء بنت سلمة».

(٢) ك: «مهر».

فقال له: لا تقل ذلك، قال: كأنك بها قد حالت^(١) إلى غير ما هي عليه. فكثر ذلك منه.

ثم إن عبد الملك دخل عليها فقال: يا شقراء، أعلمت أن روحاً قال لي كذا وكذا؟ قالت: ولم ذاك؟ وحال عشيرتي وعشيرته كما تعلم! قال: هو على ما قلت لك، وإن أحببت أسمعك ذلك منه؛ فقالت: قد أحببت. فأمرها أن تجلس خلف الستر، وأرسل إلى روح؛ فلمّا دخل عليه قال: هيه يا أبا زُرعة! واللّه لقد وقع كلامك متي موقعاً، قال: نعم، يا أمير المؤمنين، إنّ الأعرابية تنتكث كانتكاث الحبل، ثم لا تدري ما أنت عليه منها! فعجلت، ورفعت الستر، وقالت: أنت! فلا حيّاك الله، ولا وصل رحمك! قد كان يبلغني هذا عنك، فما كنتُ أصدق، فوثب روح وقال: يا هذه، إنّ هذا أرسل إليّ فأعلمني أنك خلف الستر، وعزم عليّ أن أتكلّم بهذا، فلم أجد بداً من أن أبرّ عزيمة، وأمّا أنت فلا يسوءك الله! قالت: صدق واللّه ابن عمّي، وأنت الذي حملته عليّ ما قال! فقال عبد الملك: ويلك يا شقراء! لا تقبلي منه، قالت: هو عندي أصدق منك، وجعل روح يقول وهو مول: هو والله الحق كما أقول، فخرج ووقع الكلام بينهما.



وقال خالد بن صفوان: دخلت على أبي العباس - وهو خالي - المجلس، فقلت: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تأمر بحفظ الستر؛ لألقي إليك^(٢) شيئاً أنصحك به - أو قال فيه - فأمر بذلك، فقلت: يا أمير المؤمنين، فكّرت في هذا الأمر الذي ساقه الله إليك، ومنّ به عليك، فرأيتك أبعد الناس من لذّاته، وأتعب الخلق فيه، قال: وكيف ذاك يا خالد؟ قلت: باقتصارك من الدنيا على امرأة واحدة، وتركك البيضاء المشتهاة لبياضها، والخضرة التي تراد^(٣) لخضرتها، والسّمينة المشتهاة لوطائها، وذكرت الرّشيقة الرّخيمة، والجعدة السّبطة، فقال: يا خالد، هذا أمرٌ ما مرّ بسمعي، واستأذن في الانصراف، فأذن له. وخرجت إليه أمّ سلمة وهو ينكت بالقلم على دواة بين يديه، فقالت: يا أمير المؤمنين، أراك مفكراً، انتقض عليك عدوّ؟ قال: كلاً، ولكن كلام ألقاه إليّ خالد بن صفوان فيه نصيحتي، وشرح ذلك لها.

(١) ك: «وقد حالت».

(٢) ك: «عليك».

(٣) ك: «تراد».

قالت: فما قلت لابن الزانية؟ قال: ينصحنني وتشتمينه! فقامت عنه، وبعثت إلى مائة من مواليها، فقالت: لهذا اليوم اتخذتكم وأعددتكم، امضوا إلى خالد بن صفوان، فحيث وجدتم خالداً فأهؤوا إلى أعضائه عضواً عضواً فرؤوها. فطلبت ومررت بقوم أحدثهم؛ إذ أقبل القوم فدخلت في جملتهم، ولجأت إلى دار، ووقعت البغلة فرضوها بالأعمدة. وبقيت لا تظلني سماء، ولا تقلني أرض.

فإني جالس^(١) ذات يوم؛ إذ هجم عليّ قوم، فقالوا: أجب أمير المؤمنين؛ فقمتم ولا أملك من نفسي شيئاً، حتى دخلت عليه وهو في ذلك المجلس، وأنا أسمع حركة من وراء السّتر، فقلت: أم سلمة والله!

فقال: يا خالد، من أين ترى؟ قلت: كنت في غلة لي، ثم قال: الكلام الذي كنت ألقينه إليّ في بعض الأيام، أعده عليّ. قلت: نعم يا أمير المؤمنين، إن العرب اشتقت اسم الضرة من الضرتين، وإن الضرائر شرّ الذخائر، والإماء آفة المنازل، ولم يجمع رجل بين امرأتين إلا كان بين جمرتين: تحرقه واحدة بنارها، وتلحقه الأخرى بشرارها^(٢)! قال: ليس هذا هو! قلت: بلى. قال: ففكر، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، وأخبرتُك أن الثلاث إذا اجتمعن كنّ كالأثافيّ المحرقة، وأن الأربع يتغايرن فلا يصبرن، ويتعالين فلا يهوين، وإن أعطين لم يرضين.

قال: لا والله، ما هو هذا. قلت: يا أمير المؤمنين، وأخبرتُك أن الأربع همّ ونصب، وضجر وصخب، إنما صاحبهنّ بين حاجة تطلب، وبلية تترقب، إن خلا بواحدة منهنّ خاف شرّ الباقيات، وإن أثرها كنّ له أعدى من الحيات. وأخبرتُك أن الجوّاري رجال لا خصى لهنّ، وخزق لا حياة معهنّ، قال: لا والله ما هو هذا! قلت: بلى؛ إن بني مخزوم ريحانة العرب، وكنانة بيت قريش، وعندك ريحانة الرّياحين، وسيّدة نساء العالمين، وحدثني أنّك تهّم بالتزوّج، فقلت لك: هيهات! تضرب في حديد بارد! ليس ذلك بكائن آخر الزمان المعايين، قال: ويلك! أتستعمل الكذب؟ قلت: فمع السيوف لعب! قال: فاذهب، فإنك أكذب العرب. قلت: فأيهما أصلح؟ أكذب أم تقتلني أم سلمة؟ فاستلقى ضاحكاً وقال: اخرج. قبحك الله! وارتفع الضحك من وراء السّتر، وانصرف إلى منزلي، فإذا خادم لأم سلمة ومعه خمس بدر، وخمس تخوت، وقال: الزم ما سمعناه منك.



(١) ك: «لجالس».

(٢) كذا في ك، وفي ل «يشررها».

قال الأصمعيّ: قال الخليل بن سهل: يا أبا سعيد، أعلمت أن طول رمح رُسْتَم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت في غلظ الراقود^(١)! قال: فقلت: هاهنا أعرابيُّ له معرفة، فاذهب بنا إليه نحدّثه بهذا، فذهبت به إلى الأعرابيِّ، فقال له ذلك. فقال الأعرابيُّ: قد سمعنا بهذا وقد بلغنا أن رستم هذا وإسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية، فوجداه نائماً ورأسه في حجر أمّه، فقالت لهما: ما شأنكما؟ فقالا: بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه، فانتبه فزعاً من كلامهما فنفخهما، فألقاهما إلى إصفهان، فقبورهما اليوم بها.

فقال الخليل: قبحك الله! ما أكذبك! فقال: يابن أخي، ما بيننا شيء إلا وهو دون الراقود!



قيل: وقدم بعض العمّال من عمل فدعا قوماً إلى طعامه، وجعل يحدثهم بالكذب، فقال أحدهم: نحن كما قال الله عزّ وجل: ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَلُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة: ٤٢].

وممن ذمّ الكذب

وقيل: إنه وجد في كتب الهند: ليس لكذوب مروءة، ولا لضجور رياسة، ولا لملول وفاء، ولا لبخيل صديق.

وقال قتيبة بن مسلم لبنيه: لا تطلبوا الحوائج من كذوب، فإنه يقربها وإن كانت بعيدة، ويبعدها وإن كانت قريبة، ولا إلى رجل قد جعل المسألة مأكلة، فإنه يقدم حاجته قبلها، ويجعل حاجتك وقايةً لها، ولا من أحقق فإنه يريد نفعك فيضرك!



وقيل: أمران لا ينفكان من كذب: كثرة المواعيد، وشدة الاعتذار.

وقال: كفاك موبخاً على الكذب علمك بأنك كاذب.

وقال رجل لأبي حنيفة: ما كذبت قطّ، فقال: أمّا هذه فواحدة!



(١) الراقود: دن كبير يطلى داخله بالفار.

وفي المثل: هو أكذب من أسير السند، وذلك أنه يؤخذ الخسيس منهم فيزعم أنه ابن الملك.

ويقال: هو أكذب من الشيخ الغريب، وذلك أنه يتزوج في الغربية وهو ابن سبعين سنة، فيظن أنه ابن أربعين سنة.
وقيل: هو أكذب من مسيلمة.



ومما قيل في ذلك من الشعر:

حَسْبُ الكَذُوبِ مِنَ البَلِيِّ مَا إِنْ سَمِعْتَ بِكَذْبَةٍ
بَعْضُ مَا يُحْكَى عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِهِ تُسَبِّتُ إِلَيْهِ
آخر:

لَقَدْ أَخْلَفْتَنِي وَحَلَفْتَ حَتَّى أَلَا لَا تَحْلِفَنَّ عَلَى يَمِينِ
إِخَالُكَ قَدْ كَذَبْتَ وَإِنْ صَدَقْتَ فَأَكْذِبُ مَا تَكُونُ إِذَا حَلَفْتَ
آخر:

كَلَامُ أَبِي خَلْفٍ كُلُّهُ وَلَيْسَ وَإِنْ كُنَّ يُشْبِهْنَهُ
نِدَاءُ الْفَوَاحِشِ جَاءَ الرُّطْبُ يُقَارِبُنْهُ أَبَدًا فِي الْكَذِبِ
آخر:

قَدْ كُنْتُ أَنْجِزُ دَهْرًا مَا وَعَدْتُ إِلَى فَإِنْ أَكُنْ صَرْتُ فِي وَعْدِي أَخَا كَذِبٍ
أَنْ أَتْلَفَ الْوَعْدُ مَا جَمَعْتُ مِنْ نَشَبٍ فَنَصْرُهُ الصَّدَقِ أَفْضَتْ بِي إِلَى الْكَذِبِ



محاسن فضل المنطق

سئل بعض الحكماء عن المنطق والصمت، فقال: إنَّك تمدح الصَّمت بالمنطق ولا تمدح المنطق بالصَّمت، وما عبَّر عن شيء فهو أفضل منه.

وسئل آخر عنها فقال: أخزى الله المساكته! فما أفسدها للسان، وأجلبها للعي والحصر! والله للمُماراة في استخراج حقٍّ أسرع في هدم^(١) العيِّ من النار في يابس العرفج، فقليل له: قد عرفت ما في المماراة من الذمِّ! فقال: إنَّ ما فيها أقلُّ ضرراً من السكته التي تورث عللاً، وتولّد أدواءً أيسرها العيِّ.

وقال بعض الحكماء: اللسان عضو فإن مرَّنته مرَّن، وإن ترَّكته حرَّن.

(١) المحاسن والأضداد: «أهدم للعي».

محاسن الصمت

الهيثم بن عدي: قال بعض الحكماء: تكلم أربعة من الملوك بأربع كلمات؛ رُميت عن قوس واحدة، فقال كسرى: أنا على ردّ ما لم أقلّ أقدرُ منّي على ردّ ما قد قلت. وقال ملك الهند: إذا تكلمت بالكلمة ملكثني، وإن كنت أملكها. وقال قيصر: لا أندم على ما لم أقلّ، وقد أندم على ما قد قلت. وقال ملك الصين: عاقبة ما قد جرى به القول أشدّ من الندم على ترك القول.



وقال بعضهم: من حَصافة الإنسان أن يكون الاستماع أحبّ إليه من المنطق؛ إذا وجد مَنْ يكفيه، فإنّه لن يعدم في الاستماع والصمت سلامة وزيادة في العلم. وقال بعض الحكماء: مَنْ قدر أن يقول فيحسن قادر أن يصمت فيحسن، وليس كلّ مَنْ صمت فأحسن قادر أن يقول فيحسن. وقال أبو عبيد الله كاتب المهديّ: كن على التماس الحظّ بالسكوت، أحرص منك على التماسه بالكلام.

وكان يقال: مَنْ سكت فسلم؛ كان كمن قال فغنم. وقال عليّ بن عبيدة: الصمت أمانٌ من تحريف اللفظ، وعصمةٌ من زيغ المنطق، وسلامة من فضول القول.

وقال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ يَكْرَهُ الانْبِعَاقَ فِي الْكَلَامِ، فَرَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَوْجَزَ فِي كَلَامِهِ، واقتصر على حاجته».

قيل: وكلّم رجل سقراط بكلام أطاله، فقال: أنساني أوّل كلامك طولُ عهده، وفارق آخره فهمي بتفاوتته.

قيل: ولما قدّم ليقتل بكت امرأته فقال: ما يبكيك؟ قالت: تقتلُ ظلماً، قال: وكنت تحبّين أن أقتل حقاً!

قيل: ودخل رجل على معاوية ومعه ابن له يتوكأ عليه؛ فقال: مَنْ هذا الغلام معك؟ قال: ابنٌ لي يتيماً، قال: حقٌّ لِمَن كنت أباه أن يكون يتيماً.

محاسن الكلام في الحكمة

اصبر محتسباً مأجوراً، وإلاً صبرت مضطراً مأزوراً.
 المصيبة بالصبر أعظم المصيبتين؛ إن بقيت لم يبق الهم.
 إذا حضر الأجل افتضح الأمل.
 الأمل يتخطى الأجل.
 مَنْ شارك السلطان في عزّ الدنيا شاركه في ذلّ الآخرة.
 لا يُسَبِّطُ الدعاء بالإجابة، وقد سُدَّتْ طريقه بالذنوب.
 واجد لا يكتفي، وطالب لا يجد.
 الحاسد مغتاظٌ على من لا ذنب له.
 بخيل بما لا يملكه.
 شكرك نعمة سالفه، يقتضي لك نعمة مستأنفة.
 مَنْ قَبِلَ عطاءك؛ فقد أعانك على الكرم.
 لولا من يقبل الجور لم يكن مَنْ يَجُور.
 مَنْ مدحك بما ليس فيك، فحقيق بأنْ يذُمَّكَ بما ليس فيك.
 من تكلف ما لا يعنيه، فاتّه ما يعنيه.
 من أحس بضعف حيلته عن الاكتساب بخل.
 عالم معاندٌ، خير من جاهل منصف.
 أطع مَنْ هو أكبر منك ولو بليلة.
 حافظ على الصديق ولو في حريق.
 أعظم المصائب انقطاع الرجاء.
 إذا كفيته فاكتف.

الليل أخفى للويل .
عين عرفت فذرفت .
لم يفت من لم يمت .
أصدعُ الفراق بين الرفاق .

مَحَاسِنُ الْبَلَاغَةِ

يقال في المثل: هو أبلغ من قُسٍّ. وكان من حكماء العرب، وهو أوَّل من كتب: «من فلان إلى فلان»، وأقرَّ بالبعث من غير نبيٍّ، وأوَّل من قال: البيِّنة على المدَّعي واليمين على المدَّعى عليه.
وقال فيه الأعشى:

وأبلغُ من قُسٍّ وأجرى من الذي بذى الغيل من حَفَّانٍ أصبحَ خادِرًا
قال: وسئل أرسطاطاليس عن البلاغة فقال: أن تجعل في المعنى الكثير كلاماً قليلاً، وفي القليل كلاماً كثيراً.
ووصف آخر بلاغة رجلٍ فقال: كيف قادهم الله بأزمة أنوفهم، إلى مصارع حُتُوفهم!

وقال اليونانيّ: البلاغة تصحيح الأقسام واختيار الكلام.
وقال الروميّ: البلاغة حسن الاقتصاد عند البديهة، والإقلال عند الإطالة.
وقال الهنديّ: البلاغة وضوح الدلالة، وانتهاز الفرصة، وحسن الإشارة.
وقال الفارسيّ: البلاغة أن تعرف الفصل من الوصل.
وقال إبراهيم الإمام: يكفي من حظّ البلاغة أن يؤتى السامع من سوء إفهام الناطق، ولا يؤتى الناطق من سوء إفهام السامع.
وسئل آخر عن البلاغة، فقال: أن تجعل بينك وبين الإكثار سورة للاختصار.
وقال أحنف: الوقوف عند الكفاية وبلوغ الحاجة بالاقتصاد.
وقال معاوية لصُحارِ العبديّ: ما البلاغة؟ فقال: أن تجيب فلا تبطئ، وتقول ولا تخطئ.

وقيل لبعضهم: ما البلاغة؟ فقال: ألاّ تُبطئ ولا تخطئ.
وقيل: البليغ مَنْ أغناكَ عن التفسير.
وقال خالد بن صفوان: ليست البلاغة بخفة اللسان، ولا كثرة الهديان، ولكنها إصابة المعنى، والقصد للحجّة.

محاسن الأدب

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كفى بالأدب شرفاً أنه يدّعيه مَنْ لا يُحسنه، ويفرح إذا نُسب إليه، وكفى بالجهل خمولاً أنه يتبرأ منه وينفيه عن نفسه مَنْ هو فيه، ويغضب إذا نُسب إليه. فأخذ بعض المولدين معنى قوله فقال:

ويكفي خُمولاً بالجهالة أنني أراعُ متى أنسب إليها وأغضبُ
وقال رحمة الله عليه: «قيمة كل امرئ ما يُحسن». فرواه بعض المحدثين شعراً، فقال:

قال علي بن أبي طالب وهو اللبيب الفطن المتقن
كل امرئ قيمته عندنا وعند أهل العلم ما يُحسن
وأشد أبو الحسن بن طباطبا العلوي لنفسه:

حسودٌ مريض القلب يخفي أنيته ويضحى كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رحت في العلم راغباً وأجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أباكاز الكلام وعونها وأحفظ مما أستفيد عيونه
ويزعم أن العلم لا يجلب الغنى ويحسن بالجهل الدميم ظنونه
فيا لائمي دعني أغالي بقيمتي فقيمة كل الناس ما يحسنونه
وقيل: الأدب حياة القلب، ولا مصيبة أعظم من الجهل.

وأشدنا الكسروي:

عِي الشریف يشين منصبه وترى الوضيع يزينه أدبه
قال: وسمع بعض الحكماء رجلاً يقول: إنني غريب، فقال: الغريب مَنْ لا أدب له.

وكان يقال: مَنْ قعد به حسبُه، نهض به أدبه.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: العلم خير من المال، لأن العلم

يحرُسك، وأنت تحرس المال، والمال يُبيدُه الإنفاق، والعلم يزكو على الإنفاق، والعلم حاكم، والمال محكوم عليه.

وقيل لبزرجمهر: الأدب أفضل أم المال؟ قال: بل الأدب، قيل له: فما بالُ الأدباء بباب الأغنياء، ولا نرى الأغنياء بباب الأدباء؟ فقال: لعلم الأدباء بمقدار فضل المال، وجهل الأغنياء بمقدار الأدب.

وقال بعض الحكماء: إن كان الرزق لا بدَّ مطلوباً بسبب، فأفضلُ أسبابه ما افتتح بالأدب، ونظرنا فلم نره اجتمع لشيءٍ من أصناف الصناعات كما اجتمع للكتابة، لأنها لا تكمل لأحد حتى يبتدئها بريضة نفسه في الأدب، فينفذ في الخطِّ والبلاغة في الكتُب، والفصاحة في المنطق، والبصر بصواب الكلام من خطابه، والعلم بالشرعة وأحكامها، والمعرفة بالسياسة والتدبير.

المناظرات في الأدب

حدّثنا أبو ناظرة البصريّ، عن المازنيّ قال: بينا أنا قاعدٌ في المسجد إذا صاحبٌ بريدٌ قد دخل، وهو يسأل عنيّ ويقول: أيُّكم المازنيّ؟ فأشار الناس إليّ، فقال: أجِبْ. قلت: ومن أجيب؟ قال: الخليفة، فدُعِرْتُ منه - وكنتُ رجلاً فاطمياً - فظننتُ أن اسمي رُفِعَ فيهم، فقلت: أصلحك الله! تأذن لي أن أدخل منزلي فأودّع أهلي، وأتأهّب لسفري؟ فقال: افعل. فعلمت أنه لو كان شراً لما أذن لي، فسكنتُ إلى قوله، ودخلت المنزل فودّعتهُم، وخرجت إليه، فحملني على دابةٍ من دوابّ البريد حتى وافى بي باب الواثق، فما كان إلّا قليلاً حتى أذن لي. فدخلت إلى بهو، وإذا رجلٌ قاعد وعلى رأسه سبعون وصيفاً، فذهبت أسلم عليه بالخلافة، فقبل لي: هذا بُغا، ثمّ تقدّمت إلى بهو آخر، فإذا رجلٌ قاعد على كرسيّ، وبين يديه سبعون وصيفاً، فذهبت أسلم عليه بالخلافة، فقبل: هذا وصيف؛ حتى دفعت إلى السّتر، فما زال يقول: اذهب، ادنْ، ادنْ؛ حتّى حاذاني بسريره، ثم قال: ما اسمُك؟ قلت: بكر بن محمّد، قال: ممّن سمعتها؟ يعني اللغة، قلت: من مُزاحم العقيليّ، فقال: حدّثني، فلم أدُرْ بِمَ أحدثه! وقلت: لعلّ حديثي على البديهة يعجبه، قلت: يا أمير المؤمنين، قال رؤية العجاج^(١):

لَا تَقْلُوَاهَا وَادْلُوَاهَا دَلُوَا إِنَّ مَعَ الْيَوْمِ أَخَاهُ غَدُوا^(٢)

فكانه فطنَ لما أردت، فقال: أجل، أتدري لم دعوناك؟ قلت: لا، قال: وقع بيني وبين جارية لي شجار في بيت أردتُ لها إعرابه، فامتنعت عليّ وقالت: سلّ المازنيّ، قلت: فأسمِعني يا أمير المؤمنين، قال: نعم، وأوماً إلى خادم بين يديه، فضرب ستارة كادت عيني تلتمع من كثرة ذهبها، ثم سمعت وراءها نقراً، لولا جلاله أمير المؤمنين لرقصتُ عليه، ثم غنّت:

أَظْلِمُ إِنْ مُصَابَكُمْ رَجُلًا أَهْدَى السَّلَامَ تَحِيَّةً ظُلُمُ

(١) كذا ذكره المؤلف؛ والرجز ليس في ديوانه؛ وهو في اللسان (دلا، غدا) من غير نسبة.

(٢) قال في اللسان: «الغدو: أصل الغد، وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك، فحذفت لامه، ولم يستعمل تاماً إلّا في الشعر».

فقال: كيف ما سمعت؟ قلت: صواب. قال: فقد أخطأنا إذا! قلت: وكيف قال أمير المؤمنين؟ قال:

أَظْلُومُ إِنَّ مَصَابِكُمْ رَجُلٌ أَهْدَى السَّلامَ تَحِيَّةً ظَلُمٌ^(١)
فقلت: وأصاب أمير المؤمنين، قال: فكاد يقوم إليّ فرحاً، ثم أدخل رأسه في الستارة، فأولماً إليّ الخادم في الخروج، فخرجت، فناولني صُرَّةً فيها خمسمائة دينار، وحملت على البريد، حتى رددت إلى منزلي بالبصرة.
والشعر لأبي دُهبل الجُمحي، يقول فيه:

عُقِمَ النِّسَاءُ فَلَا يَلِدْنَ شَبِيهَهُ إِنَّ النِّسَاءَ بِمِثْلِهِ عُقْمٌ



وحدثنا علي بن يزيد، عن إسحاق بن المسيب بن زهير، قال: حدثني المفضل قال: كنت يوماً عند الصّراة ببغداد، وكنت في الصّحابة، فأتاني رسول المهديّ، فقال لي: أجب، فخفت أن يكون ساع سعى بي، فدخلت منزلي ولبست ثيابي، وهممت أن أخبر أهلي، ثم قلت: لَمْ أَعْجَلْ لَهُمُ الْهَمَّ! إن كان خيراً سيأتيهم، وإن كان غير ذلك فلا أكون عجّلته لهم! فمضيت حتّى دخلت عليه، وأنا مرعوب، فسلمت عليه وردّ السلام، وإذا عنده الفضل بن الربيع، وعليّ بن يقطين وغيرهما، فقال: إِنَّ هَؤُلَاءِ زَعَمُوا أَنَّكَ أَعْلَمُ النَّاسَ بِالشَّعْرِ، فأخبرني ما أشعر بيت قالته العرب؟ فوقع في شيء لم أدر كيف هو! فجهدت والله أن أنشده بيتاً من شعر، فما قدرت عليه، فقال لي: ما لك لا تتكلم! فجرى على لساني ذكر الخنساء، فقلت: لقد أحسنت الخنساء في قولها:

وإنَّ صَخْرًا لَمَوْلَانَا وَسَيِّدُنَا وإنَّ صَخْرًا إِذَا نَشْتُو لَنَحَارُ

(١) كذا في الأصول؛ والوجه في بقية الخبر ما ذكره صاحب درة الغواص ٤٣: «فاختلف من بالحضرة في إعراب: «رجل» فمنهم من نصبه وجعله اسم «إن»، ومنهم من رفعه على أنه خبره، والجارية مصرّة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب، فأمر الواصل بإشخاصه...». إلى أن قال: ما تقول في قول الشاعر.

* أَظْلُومُ إِنَّ مَصَابِكُمْ رَجُلًا *

أترفع رجلاً أم تنصبه؟ فقلت: بل الوجه النصب يا أمير المؤمنين قال: ولم ذلك؟ قلت: «إن مصابكم» مصدر بمعنى «إصابتكم»... هو بمنزلة قولك: إن ضربك زيدا ظلم، فرجلاً مفعول «مصابكم» ومنصوب به، والدليل عليه أن الكلام معلق إلى أن تقول: «ظلم»، فيتيم كلامه، «فاستحسنه الواصل»، وانظر أنباه الرواة ١: ٢٤٩، وطبقات الزبيدي: ٩٨.

وإنَّ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةَ بِهِ كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارٌ
قال: فاستبشر بذلك، وسرَّ سروراً شديداً، ثم قال: أنت والله أعلم النَّاسِ،
وقد قلت هذا لهؤلاء فأبوا عليَّ، فقال القوم: كان أمير المؤمنين أولى بالصواب،
فقال لي: يا مفضل، أسهرتني البارحة أبياتُ حسين بن مطير الأسدي، قلت: وأي
أبياته؟ قال: قوله:

وَقَدْ تَعْدِرُ الدُّنْيَا فَيُضْحِي غَنِيُّهَا فَقِيرًا وَيُغْنِي بَعْدَ بُؤْسٍ فَقِيرُهَا
وَكَمْ قَدْ رَأَيْنَا مِنْ تَغْيِيرِ عَيْشَةٍ وَأُخْرَى صَفًا بَعْدَ اكْثَرَارِ غَدِيرِهَا
قلت: مثل هذا فليسهرُك يا أمير المؤمنين، زادك الله توفيقاً وتسديداً! قال:
حدَّثني يا مفضل، قلت: أيَّ الأحاديث تحبُّ؟ قال: أحاديث الأعراب، فما زلت
أحدِّثه حتى بلغت الشَّمْسُ منه، ثم قال: ما لك؟ قلت: يا سيدي، ما تسأل عن
رجل مأخوذ بعشرة آلاف درهم ليست عنده؟ قال: عليك عشرة آلاف درهم؟
قلت: نعم. فقال: يا ربيع، احمل إليه عشرة آلاف درهم لقضاء دينه، وعشرة
آلاف يبني بها داره، وعشرة آلاف ينفقها على عياله. فرجعت ومعني ثلاثون ألف
درهم.



وقال النَّضْرُ بن شُمَيْل: دخلت على المأمون بمرو وهو في بهو له في يوم
صائف، وعليّ قميص مرقوع، فقال: يا نضر، تدخل على أمير المؤمنين في خلْقان
ثيابك! فقلت: يا أمير المؤمنين، حرُّ مرو [كما ترى]^(١)؛ وأنا شيخ كبير، لا
أحتمل الحرَّ ولا البرد! ثم أنشدته:

لَوْ يُشْتَرَى الشَّبَابُ لِاشْتَرَيْتُهُ شَبَابِي النَّضْرُ الَّذِي أَبْلَيْتُهُ
بِكُلِّ مَالِي ثُمَّ مَا اسْتَغْلِيْتُهُ
ثم أجرينا الحديث، فقال: يا نضر، أيُّ النساء أحبُّ إليك؟ قلت: البيضاء
الفرعاء المديدة.

فقال [المأمون]: حدَّثني هُشَيْم بن بَشِير، عن مُجَالِد، عن الشَّعْبِيِّ، عن ابن
عَبَّاس، قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لَدِينِهَا وَجَمَالِهَا؛ كَانَ لَهُ
فِيهَا سَدَادٌ مِنْ عَوَزٍ»، قلت: صدق هُشَيْم! حدَّثني عوف عن الحسن، عن علي بن

(١) من طبقات الزبيدي.

أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وجهه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا تَزَوَّجَ الرَّجُلُ الْمَرْأَةَ لَدِينَهَا؛ كَانَ لَهُ فِيهَا سِدَادٌ مِنْ عَوَزٍ».

قال: يا نضر، و«السِّدَادُ» خطأ! قلت: خطأ، يا أمير المؤمنين، قال: وما يُدريك؟ قلت: السِّدَادُ بالفتح، القَصْدُ في الدين، وفي السبيل، والسِّدَادُ البُلْغَةُ، وكلُّ شيء سَدَدْتُ به شيئاً فهو سِدَادٌ، قال: أتعرف العرب ذلك؟ قلت: نعم، هذا العَرَجِيُّ، من ولد عثمان بن عفَّان رحمه الله حيث يقول:

أضاعُونِي وَأَيَّ فَتَى أَضَاعُوا لِيَوْمَ كَرِيهَةٍ وَسِدَادٍ تُغْرِ^(١)
فَاسْتَوَى جَالِساً وَقَالَ: قَبَّحَ اللهُ مَنْ لَا أَدَبَ لَهُ! ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: أَخْبِرْنِي
بِأَخْلَبِ بَيْتِ قَالَتِهِ الْعَرَبِ، قلت: قول ابن بِيض^(٢) فِي الْحَكَمِ بْنِ مِرْوَانَ:

تَقُولُ لِي وَالْعَيُونُ هَاجِعَةٌ أَقِمْ عَلَيْنَا يَوْمًا فَلَمْ أَقِمْ
أَيَّ الْوُجُوهِ انْتَجَعَتْ قَلْتُ لَهَا لَأَيَّ وَجْهِ إِلَّا إِلَى الْحَكَمِ!^(٣)
مَتَى يَقُلُ صَاحِبُ السُّرَادِقِ هـ إِذَا ابْنُ بِيضٍ بِالْبَابِ يَبْتَسِمُ^(٤)
قَدْ كُنْتُ أَسْلَمْتُ فِيكَ مَقْتَبَلًا فَهَاتِ أَدْخُلْ وَأَعْطِنِي سَلَمِي
قال: لقد أحسن وأجاد! فأخبرني بأنصف بيت قالته العرب؛ قال: قول أبي عروبة:

إِنِّي وَإِنْ كَانَ ابْنُ عَمِّي وَاعِلًا^(٥) لِمُدَاهِنٍ مِنْ خَلْفِهِ وَوَرَائِهِ
وَمُفِيدُهُ نَصْرِي وَإِنْ كَانَ امْرَأً مُتَبَاعِداً مِنْ أَرْضِهِ وَسَمَائِهِ
فَأَكُونُ وَالْيَ سِرَّهُ وَأَصُونُهُ حَتَّى يَحِينَ عَلَيَّ وَقْتُ أَدَائِهِ
وَإِذَا الْحَوَادِثُ أَجَحَفَتْ بِسَوَامِهِ قَرَّبْتُ جَلَّتْنَا إِلَى جَرْبَائِهِ^(٦)
وَإِذَا دَعَا بِاسْمِي لِيَرْكَبَ مَرْكَبًا صَعْبًا رَكِبْتُ لَهُ عَلَى سَيْسَائِهِ^(٧)

(١) البيت من أصوات الأغاني (١: ٤١٣ طبعة دار الكتب)؛ وبعده:

كَأَنِّي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ وَسِيطًا وَلَمْ تَكُنْ نِسْبَتِي فِي آلِ عُمُرُو

(٢) هو حمزة بن بيض؛ من شعراء الدولة الأموية.

(٣) لم يرد هذا البيت في ط، وأثبتته من الأغاني وطبقات الزبيدي.

(٤) في الأغاني والزبيدي: «متى يقل صاحباً سرادقه».

(٥) في الأغاني: «غائباً»، الزبيدي: «واغراً».

(٦) الأغاني، والزبيدي: «قرنت صحيحتنا إلى جربائه».

(٧) السيساء في الأصل: منتظم فقار الظهر؛ وهذه الرواية توافق ما في الزبيدي ورواية الأغاني بعد هذا البيت:

وَإِذَا أُنِيَ مِنْ وَجْهِهِ بِطَرِيقَةٍ لَمْ أَطْلَعْ فِيَمَا وَزَاءَ خِبَائِهِ

وإذا رأيت عليه بُرداً ناضراً لم يُلفني متمنياً لردائه
فقال: لقد أحسن وأجاد! فأخبرني عن أعز بيت قالته العرب، قلت: قول
راعي^(١) الإبل [حيث يقول]^(٢):

أطلب ما يطلب الكريم من الـ	رُزق لنفسي وأجمل الطلب
وأحلب الثرة الصفوي ولا	أطلب في غير خلفها حلباً ^(٣)
إنني رأيت الفتى الكريم إذا	رغبته في صنعة رغباً
والنذل لا يطلب العلاء ولا	يعطيك شيئاً إلا إذا رهبا
مثل الحمار الموقع السوء لا	يحسن مشياً إلا إذا ضرباً ^(٤)

فقال: والله لقد أحسن وأجاد! ودعا بالدواة، فما أدري ما يكتب، ثم قال: يا
نضر، كيف تقول من الإتراب؟ قلت: أقول: «إتراب القرطاس»، والقرطاس متروب،
قال: فلم كسرت الألف؟ قلت: لأنها ألف وصل تسقط في التصغير، قلت: فكيف
تقول من الطين؟ قلت: طن الكتاب، والكتاب مطين، قال: هذه أحسن من الأولى،
ثم دفع ما كتب إلى خادم، ووجهه معي إلى ذي الرياستين؛ الحسن بن سهل.

فقال لي ذو الرياستين: ما الذي جرى بينك وبين أمير المؤمنين؟ فقد أمر لك
بخمسين ألف درهم، فقصصت عليه القصة، فقال: ويحك! لحت أمير المؤمنين!
قلت: معاذ الله! بل لحت هُشيماً، لأنه كان لحانة، فوقع لي أيضاً من عنده بثلاثين
ألف درهم، فانصرفت بثمانين ألف درهم في حرف واحد: «سداد» و«سداد»^(٥).



وإذا ارتدى ثوباً جميلاً لم أقل ياليت أن علي حسن ردائه!
(١) هو حصين بن معاوية المعروف بالراعي؛ شاعر إسلامي، ونسب صاحب الأغاني هذه الأبيات
إلى الحكم بن عبد الله الأسدي، وأورد قبلها:

إني امرؤ لم أزل وذاك من اللـ	قديماً أعلم الأديبا
أقيم بالدار ما اطمأنت بي الدأ	ر، وإن كنت نازحاً طرباً
لا أجتوي حلة الصديق ولا	أتبع نفسي شيئاً إذا ذهباً

(٢) من طبقات الزبيدي.

(٣) الثرة: الناقة الغزيرة اللبن، وكذلك الصفي، ورواية الأغاني: «ولا أجهد أخلاف غيره حلباً».

(٤) التوقيع: الجرح يصيب الدابة في ظهرها، ورواية البيت في الأغاني:

كئيل غير موقع هو لا يحسن مشياً إلا إذا ضرباً

(٥) الخبر والشعر في طبقات الزبيدي ٥٣ - ٥٩، والأغاني (١٥: ٢٠ - ٢١ طبعة الساسي)، ونزهة
الألباء ١١٠ - ١١٦، ومعجم الأدباء ١٩: ٢٣٨ - ٢٤٣ مع اختلاف في الروايات.

قال أبو سعيد الضّرير: سمعتُ ابنَ الأعرابيِّ يقول: بعث إليّ المأمون، فصرّت إليه وإذا هو مع يحيى بن أكثم، يطوفان في حديقة، فلما نظر إليّ ولّاني ظهره، فجلستُ؛ فلما أقبل قمت قائماً، فأسرّ إلى يحيى بشيء ما فهمتُ كله إلّا ما قال: ما أحسن أدبه! وقد أقبل إلى مجلسه، ثم التفت إليّ فقال: يا محمد بن زياد، مَنْ أشعر العرب في وصف الخمر؟ فقلت: الذي يقول:

تريك القذى من دُونِها وهي دُونه إذا ذاقَها مَنْ ذاقَها يَتمطّقُ^(١)

فقال: أحسن الناس قولاً في صفة الخمر الذي يقول:

فتمشّت في مفاصلِهم كتمشي البرء في السقم^(٢)

فعلت في البيت إذ مُزجت مثل فعل الصبح في الظلم

فاهتدى ساري الظلام بها كاهتداء السّفَرِ بالعلم

قلت: فائدة يا أمير المؤمنين، ثم قال: ما معنى قول هند^(٣):

نحنُ بناتُ طارق نمشي على النّمارق

إن تُقبلوا نعانق أو تُدبروا نفارق

فراق غير وامق

ففكرت في نسبها ونسب أبيها، فلم أجد طارقاً، فقلت: ما أعرف طارقاً يا أمير المؤمنين، فقال: إنما قالت إنها في العلو والشرف بمنزلة الطارق وهو النجم، من قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَالنَّجْمُ وَالطَّارِقُ﴾ [الطارق: ١]، قلت: فائدة يا أمير المؤمنين ثانية، ثم التفت إلى يحيى بن أكثم فقال: أنا بُؤبؤ^(٤) هذا الأمر وابن بُؤبئه، فلم أدر ما قال، وقمتُ لأخرج، فلما نظر إليّ وقد قمت، رمى إليّ بعبرة كانت في يده، بعثها بخمسة آلاف درهم.

قال: فرجعت إلى كُتبي، فنظرت فيها لأعرف ما قال، فوقعت على هذه الأبيات لبعض الأعراب:

كأنما بنتُ أبي المحيريه قاعدة في إثبها لؤيليه

قد فاقت البؤبؤ والبؤبييه

(١) التمتطق بالشفيتين: أن تضم إحداهما بالأخرى مع صوت يكون منهما وهو والتلمظ بمعنى واحد.

(٢) هو أبو نواس، ديوانه: ٢٣٤.

(٣) الأبيات في تاريخ الطبري ٢: ١٥٣، منسوبة إلى امرأة من عجل.

(٤) بؤبؤ الرجل: أصله. وانظر اللسان ١: ١٧.

فعلمت أنه عَنَى به السيّد وابن السيّد .



قال أبو عبد الله الأسواريّ: دخلت على المأمون في حديقة له وفي يده مِقْرَاض ذهب، وهو يقرض به ما طال من أوراق تلك الرُّوضَة، ويقوّم ما بدا من أغصانها، فسَلَّمْتُ، وقلت: يا أمير المؤمنين، جعلت فداك! إنك لمستَهتر بهذه الحديقة؛ حتى إنك لا تأمن عليها أحداً! قال: نعم يا أسواريّ، فهل يحضرك في ذلك شيء؟ قلت: نعم، وأنشدته:

أَوَائِلُ رُسُلٍ لِلرَّبِّيعِ تَقَدَّمَتْ	عَلَى طَيْبِ وَجْهِ الْأَرْضِ خَيْرَ قُدُومِ
فَرَأَيْتُ لَهَا بَعْدَ الْمَمَاتِ حَدَائِقُ	كَوَاسٍ، وَكَانَتْ مِثْلَ ظَهَرِ أَدِيمِ
إِذَا اقْتَصَّهَا طَرْفُ الْبَصِيرِ بِلَحْظِهِ	تَوَهَّمَهَا مَفْرُوشَةً بِرُقُومِ
كَأَنَّ اخْضِرَارَ الزَّهْرِ وَالرَّوْضِ طَالَعُ	عَلَيْهِ، سَمَاءٌ زُيْنَتْ بِنَجُومِ
تَرَدَّتْ بِظِلِّ دَائِمٍ فَتَضَاكَكَتْ	كَضِحِكَ بُرُوقٍ فِي بَكَاءِ غُيُومِ
وَأَوْرَدَهَا فَحْلُ السَّحَابِ عَرَائِيسًا	ضِعَافَ الْقُوَى مِنْ مُرْضِعِ وَقَطِيمِ
إِذَا بَرَزَتْ مِنْهُنَّ بِكُرِّ حَسْبَتِهَا	تَرَاكَ - وَإِنْ أَضَحَّتْ - بَعِينَ سَقِيمِ
كَمِثْلَ نَشَاوَى الرَّاحِ يَلْتَمُّ ذَاكَ ذَا	أَوِ الرِّيحِ جَادَتْ بَيْنَهَا بِنَسِيمِ
تَخَالُ وَقُوعَ الطَّلِّ فِيهِنَّ أَدْمَعًا	رَنْتَ بِعُيُونٍ غَيْرِ ذَاتِ سُجُومِ

قال: أحسنت يا أسواريّ! يا غلام؛ اسقنا على هذا، ثم جلس على كرسيّ مُغَشًّى بالحرير، وإذا غلامٌ قد أقبل يهتَزُّ كأنّه القضيّب المائل، حين اخْضَرَ شاربه، وبدا عذاره، وفي يده كأس وإبريق، فصبّ في الكأس من الإبريق، ثم مزجّه وناوله إيّاه، فأخذه في يده ساعةً، وجعل ينظر إلى الغلام ما يردّ بصره عنه، ثم قال: يا أسواريّ، هل يحضرك في صفة مثل هذا شيء؟ قلت: نعم يا سيدي، وأنشدته:

نَجَّاجُ مُزْنٍ تَجَّ كَأَسَ رَحِيقِ	رَيْقُ الْمَهْفَهْفِ فِيهِ أَعْدَبُ رَيْقِ
أَذْرَى لَخُوفِ الْبَيْنِ حُرَّ مَدَامِعِ	فِي دُرِّ خَدِّ فِيهِ دَوْبُ عَقِيقِ
هُوَ فِي تَنَاهِي صِدْقِ حَسَنِ فَائِقِ	فِي حُسْنِ صُورَةِ يُوسُفَ الصَّدِيقِ
قَامَتْ عَلَى رَجُلٍ بِهِ الدُّنْيَا لَنَا	إِنْ قَامَ بِالْمَنْدِيلِ وَالْإِبْرِيقِ
فَرَأَى عَلَى قَلْبِي لَوَاحِظَ طَرْفِهِ	وَتَلَا كِتَابَ الْحُبِّ بِالتَّحْقِيقِ
إِنْ دَامَ ذَا فِي حُسْنِهِ أَبَدًا لَنَا	سُمِّيَ فَقِيَهُ الْعَصْرِ بِالزُّنْدِيقِ

قال: فقال المأمون: أحسنت، ويحك! فمن صاحب هذه الأبيات؟ قلت:

فلان، يا أمير المؤمنين، فقال: أشعر والله منه في هذا المعنى شيخ الشعراء أبو نواس حيث يقول:

كُفِّي فلستُ لعاذِلٍ بمطيقٍ قطعَ الهوى فرطَ الشَّبابِ بباطِلٍ
وجداولُ موصولَةٌ بجداولٍ تكسو مدامعهُ الرياضَ عرائساً
باكرتها قبلَ الصباحِ بسُحرةٍ من كفٍّ أحورَ ذي عذارٍ أخضرٍ
فكأنَّ ما في الكأسِ من إبريقهِ وكأنَّها والماءُ يأخذُ جِسمَها
وتَضوُّعُ مسكاً في الزَّجاجةِ أذفرأ قمرٌ عليه من البدائعِ حُلَّةُ
ما طابَ عيشُ فتى يطيبُ بغيرها يُغنيكَ عن وَرْدِ الرياضِ وزهرها

قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، قد حضرني في هذا المعنى شيء، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في إنشاده! قال: هات. فقلت:

جِسْمٌ مُرْكَبُهُ في العينِ إنسيُّ ما يعرفُ الطَّرْفُ من أعراضِ جوهره
وكلُّ مَنْ غاصَ في إدراكِ صورته حازَ المحاسِنَ والأنوارَ أجمعها
إذا العُيونُ تراءتُهُ تراهقها ما دَبَّ في فطنِ الأوهامِ من حَسَنِ
كأنَّ جبهتهُ من تحتِ طُرتهِ كأنَّ عَينيه خِرطاً جزعتي يمن
كأنَّ صُدغيه قافاً كاتبٍ مُشَقّاً كأنما الشَّجرُ منه في تبسُّمه
كأنما الرَّدْفُ منه إذ يَميسُ به

وفي اللَّطافَةِ والأجناسِ عَذْبِي
إِلَّا الَّذِي يخبرُ الفكرَ القياسيُّ
فإنما نطقُهُ في ذاكَ وهَمِي
فالحسَنُ مَنْ حُسْنِهِ في الخلقِ جزئي
من حَسَنِ صورته اللَّحْظُ الظَّلَامِي
إِلَّا وَكانَ له الحِظُّ الخِصْوصِي
بَدَرٌ يُتَوَجَّهُ الليلَ البهيمي
من كلِّ حافتها سهمٌ صِيابي
من فوقِ ياقوتَةٍ والخدُّ وردي
درُّ تفلَّقَ عنه البحرُ لُجِّي
مَوْجٌ يكفكفُهُ الريحُ الجنوبي

لَوْ مَسَّ أَجْبَالَ مَا هَانِ لَفَجَّرَهَا
أَوْ لَامَسَ الْمَاءَ لَانْسَابَتْ أَنَامِلُهُ
جَنَسِي نُّورٍ عَلَى كُنْهِي جَوْهَرَةٍ
يَسْقِي بِجَوْهَرَةٍ فِي جَوْفِ جَوْهَرَةٍ
مَاءٌ وَمَاءٌ؛ وَفِي مَاءٍ يَدِيرُهُمَا
قَدْ جَلَّ عَنْ طَيْبِ أَهْلِ الْأَرْضِ عَنَبْرُهُ
إِذَا رَأَتْهُ عَيُونُ الْخَلْقِ أَحْسَرَهَا
كَادَتْ مَحَاسِنُهُ مِنْ لُطْفِ رِقَّتِهِ
سُبْحَانَ خَالِقِهِ مَاذَا أَرَادَ بِهِ
إِذَا أَدَارَ عَلَيْنَا الْكَأْسَ جَمَّشُهُ
مَصَوِّرَ طَرَفَتْ عَيْنُ الزَّمَانِ بِهِ
بِالْمَاءِ يُسْعِدُهُ الظِّلُّ الْغَمَامِيُّ
كَالثَّلَجِ حَلَّ بِهِ الْوَدْقُ الشُّخَامِيُّ
مِنْ رُوحِ قُدْسٍ أَوْ الْأَنْوَارِ بَرِّي
مِنْ نُورِ جَوْهَرَةٍ وَاللُّونُ جَنَسِي
مَاءٌ خِلَافُهُمَا وَالطَّيْبُ تِيهِي
وَمَسْكُهُ فَهُوَ الطَّيْبُ السَّمَائِيُّ
نُورًا وَلا حَظَّهَا الْحَسَنُ الْهَوَائِيُّ
تَصِيرُ عَيْبًا وَمَا لِلْعَيْبِ كَيْفِي
لَوْلَاهُ لَمْ يَكُنِ الْفَعْلُ السَّرِيرِيُّ!
مِنْ وَدِّ أَسْرَارِنَا وَدِّ حَقِيقِي
وَكَتَنَتْهُ مِنْ جَنَاحِ الْخَفْضِ عُلوِي
قال: فَتَبَسَّمُ الْمَأْمُونُ وَقَالَ: أَحْسَنْتُ وَاللَّهِ يَا أَسْوَارِي! فَلَمَنْ هَذَا وَيْحَكَ!
قلت: لِعَبْدِكَ النَّظَّامُ، فَقَالَ: أَحْسَنَ فِيمَا وَصَفَ، وَأَحْسَنْتَ فِي تَعْبِيرِكَ عَنْهُ، ثُمَّ
سَقَانِي، وَأَمَرَ لِي بِخَمْسِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ وَأَمَرَ لِلنَّظَّامِ بِمِثْلِهَا.



أَحْمَدُ بْنُ الْقَاسِمِ، قَالَ: كُنْتُ أَنَا وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ طَاهِرٍ عِنْدَ الْمَأْمُونِ، وَهُوَ
مُسْتَلْقٍ عَلَى قَفَاهُ، فَقَالَ لِعَبْدِ اللَّهِ: يَا أَبَا الْعَبَّاسِ، مَنْ أَشْعَرُ النَّاسِ فِي زَمَانِنَا؟ فَقَالَ:
أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ أَعْرَفَ بِهَذَا مَنِّي، قَالَ: قُلْ عَلَى كُلِّ حَالٍ، قَالَ: الَّذِي يَقُولُ:
أَيَا قَبْرٍ مَعْنٍ كُنْتَ أَوَّلَ حُفْرَةٍ مِنْ الْأَرْضِ خُطَّتْ لِلْمَكَارِمِ مَضْجَعاً^(١)
قال أحمد: فقلت: أشعرهم الذي يقول:
أَشْبَهْتَ أَعْدَائِي فَصَرْتُ أَحِبُّهُمْ إِذْ كَانَ حَظِّي مِنْكَ حَظِّي مِنْهُمْ^(٢)
فقال المأمون: أَيْنَ أَنْتَ عَنْ قَوْلِ أَبِي نَوَاسٍ:
يَا شَقِيقَ النَّفْسِ مِنْ حَكَمٍ نِمْتُ عَنْ لَيْلِي وَلَمْ أُنِمِ



(١) هو الحسين بن مطير الأسدي، مولاهم؛ من كلمة له في ديوان الحماسة ٢: ٩٣٤ - بشرح المرزوقي.

(٢) لأبي الشيص، من كلمة له في العقد ٥: ٣٧٤.

قال: وقال المأمون لعبد الله بن طاهر في الحلبّة، وقد ارتفعت أصوات العامّة: يا أبا العباس، سكّن العامة، قال عبد الله: فوثبتُ أنا ومن معي، فارتفع من أصواتنا وضجيجنا أكثر مما كان، فقال لي: أتدُلُّ بالرياسة، ولا بصر لك بالسياسة؟ هكذا تسكّن العامّة! هلا ناديت الأقربين لينادي الأقربون الأبعدين! قال: فوالله ما ميّزت بين تأديبه وبين نعرانه^(١).



قال: وقال الحسن بن الفضل بن الربيع: خرج علينا المهديّ متفكراً ومعه الربيع والمسيّب بن زهير، يطوف في الأسواق إذ نظر إلى أعرابيّ ينشد، فقال الربيع: أخبرني عن أرق بيت قالته العرب، قال: بيت امرئ القيس بن حُجر: وما ذرّفتُ عيناكِ إلّا لتضربي بسهميكِ في أعشارِ قلبٍ مُقتل فقال المهديّ: بيت قد داسته العامّة وفيه غلظٌ، ثم قال للمسيّب: هات ما عندك، فقال:

ومما شجاني أنها يوم أعرضتْ تولّت وماء العين في الجفن حائر^(٢)
فلمّا أعادت من بعيدٍ بنظرةٍ إليّ التفاتاً - أسلمتها المحاجر
و«سلمتها» أيضاً. فقال: وإنّ هذا قريبٌ من ذاك، وخلفهم شابٌ من أهل المدينة له أدب وظرف، وكان قدم متظلماً، فطال مُقامه على باب المهديّ، فلما سمع ذلك منهم حمله ظرف الأدب على أن أدخل نفسه بينهم، واتّصل بهم، وقال: أتأذنون أن أخوض معكم فيما أنتم فيه! قالوا: ماذا؟ قال: قال الأصوص: إذا قلتُ إنني مُشتَفٍ بلقائِها فحُمّ التّلاقي بيننا زادني وجدا
فقال المهديّ: أحسنت يا فتى! فمن أنت؟ قال: أنا رجلٌ من أهل المدينة، قال: وما أقدمك العراق؟ قال: مظلّمة لي أنا مقيم عليها باب الخليفة منذ كذا وكذا، وقد أضرب بي ذلك، فقال للربيع: عليك بالرجل، فأخذه معه، وسأمره أياماً، ثم أمر بردّ مظلّمته، وقضى حوائجه، وأمر له بصلة عشرة آلاف درهم.



قال التّضر بن شُميل: حدثني الفراء، عن الكسائيّ، قال: دعاني الرّشيد ذات

(١) النّغران: الغضب.

(٢) الجيل، ديوانه: ٨٢.

يوم وما عنده إلا حاشيته؛ فقال: يا عليّ، أتحب أن ترى محمداً وعبد الله؟ قلت: ما أشوقني إليهما يا أمير المؤمنين، وأسرّ شيء إليّ معاينة نعمة الله جلّ وعزّ على أمير المؤمنين فيهما وبهما! فأمر بإحضارهما، فأقبلا كأنهما كوكبا أفق، يزينهما هديهما ووقارهما، قد غضا أبصارهما وقاربا خطوهما؛ حتى وقفا بباب المجلس، فسلما بالخلافة، ثم قالوا: تمّم الله على أمير المؤمنين نعمه، وشفعها بشكره، وجعل ما قلده من هذا الأمر أحمد عاقبة بما يؤول إليه أمره حمداً اختصّه به، وأخلصه له بالبقاء، وكثره لديه بالنماء! ولا كدر عليه منه ما صفا، ولا خالط سروره الردى، فقد صرت للمسلمين ثقة ومستراحاً، إليك يفرعون في أمورهم، ويقصدون في حوائجهم.

فأمرهما بالدنو، وصير محمداً عن يمينه، وعبد الله عن يساره، ثم التفت إليّ فقال: يا عليّ، ما زلت ساهراً مفكراً في معاني أبيات قد خفيت عليّ، قلت: إن رأى أمير المؤمنين أن يُنشديها! فأنشدني:

قد قلت قولاً للغراب إذ حَجَلٌ عليك بالقُدِّ المسانيفِ الأوّل
تَعَدَّ ما شئت على غير عَجَلٍ

فقلت: نعم، يا أمير المؤمنين، إن العير إذا فصلت من خير وعليها التمر، يقع الغراب على آخر العير، فيطرده السواق، يقول هذا: تقدّم إلى أوائل العير فكلّ على غير عَجَلٍ، والقُدِّ: الطوال الأعناق، والمانيف: المقدمة، ثم أنشدني:

لعمري لئن عَشَرْتُ من خَشْيَةِ الرّدى نُهاقَ الحِمَارِ إِنّني لَجَهول^(١)

قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، كان الرجل من العرب إذا دخل خير، أكب على أربع، وعشر عشير الحمار، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خير. ثم أنشدني قول الآخر:

أجَاعِلُ أَنْتَ بيقوراً مُضَرَّمةً ذريعةً لك بين الله والمطر^(٢)!

قلت: نعم، كانت العرب إذا أبطأ المطر تشدّ العُشرَ والسَّلْعَ - وهما ضربان من النَّبْتِ - في أذنان البقر، وألهبوا فيه النار، وشرّدوا البقر؛ تفاعلاً بالبرق والمطر. ثم أنشدني:

لعمرك ما لآم الفتى مثل نفسه إذا كانت الأحياء تُفرى ثيابها^(٣)

(١) هو عروة بن الورد، ديوانه: ٩٩، وروايته: «إنني لجزوع».

(٢) الصحاح ٥٩٤، ونسبه في الحاشية إلى الورل الطائي.

(٣) تفرى ثيابها: تشق.

وَأَذَنٌ بِالتَّصْفِيقِ مَنْ سَاءَ ظَنُّهُ فَلَمْ يَدْرُ مَنْ أَيِّ الْيَدَيْنِ جَوَابُهَا
قلت: نعم يا أمير المؤمنين، كان الرجل إذا ضلَّ في المفازة، قلب ثيابه وصاح
كأنه يومئ إلى إنسان، ويشتدَّ شدَّةً، ويصفق بيديه، فيهتدي إلى الطريق، ثم أنشدني:
قُدُوءًا تَمْلِكُ رَحْلَهَا مِثْلُ الْيَتِيمِ مِنَ الْأَرَانِبِ
قلت: نعم، يقول: هذه ناقة مثل اليتيم من الآكام، واليتيم الواحد من كلِّ
شيء، والأرانب الآكام. ثم أنشدني لآخر أيضاً:

إِلَى اللَّهِ أَشْكُو هَاجِمَةً هَجَرِيَّةً تَعَاوَرَهَا مَرُّ السِّنِينَ الْعَوَابِرِ
فَعَادَتْ رِزَايَا تَحْمِلُ الطِّينَ بَعْدَمَا تَكُونُ قَرَى لِلْمَعْتَفِينَ الْمَفَاغِرِ
قلت: هذا رجل في بستانه نخيل أتى عليها الدهر، فجفت، فقطعها وصيرها
أجزاءً، وسقف بها البيوت، فقال: هذه الأجزاء كانت تحمل الرطب، فأكل
وأطعم الأضياف، فجفت، فقطعتها، وسقفت بها البيوت، فهي تحمل الطين -
يعني ما فوقها من اللبن والتراب، وغير ذلك.
ثم أنشدني لرجل آخر:

وَسِرْبٍ مَلَّاحٍ قَدْ رَأَيْتُ وُجُوهَهُمْ إِنَاثٌ أَذَانِيهِ، ذَكُورٌ أَوَاخِرُهُ
يعني الأضراس.
ثم أنشدني لآخر:

فَإِنِّي إِذَا كَالثُورِ يُضْرَبُ جَنْبُهُ إِذَا لَمْ يَعْفَ شُرْبًا وَعَافَتْ صَوَاحِبُهُ
قلت: نعم، كانت العرب إذا أوردت البقر الماء فشربت الثيران وأبت البقر،
ضربت الثيران حتى تشرب البقر، وهو كما قال:
كَالْثُورِ يُضْرَبُ لَمَّا عَافَتْ الْبَقَرُ
ثم أنشدني:

وَمِنْ حَدِيرٍ مَنْ رَأْسِ بَرْقَاءِ حَطَّهْ مَخَافَةُ بَيْنٍ أَوْ حَبِيبٍ مُزَايِلُ
قلت: نعم. يعني الدموع، والبرقاء العين؛ لأن فيها سواداً وبياضاً، حطَّهْ:
أسأله. حبيب: محبوب. مزاييل: مفارق.

قال: فوثب الرشيد، ف جذبني إلى صدره وقال: لله درَّ أهل الأدب! ثم دعا
بجارية فقال لها: احملي إلى منزل الكسائي خمس بدر، على أعناق خمسة أعبد
يلزمون خدمته.

ثم قال : استنشدهما - يعني ابنه - فأنشدني محمد الأمين :

وإني لعفُّ الفقيرِ مشتركُ الغنى
وشكليّ شكلٌ لا يقومُ بمثله
ولي نيقةٌ في المجد والبذل لم يكنْ
وأجعلُ مالي دونَ عرضي جنةً
وأنشدني عبد الله المأمون :

بكرتْ تلومُكَ مطلعَ الفجرِ
ما إنْ ملكْتُ مصيبةً نزلتْ
ملكُ الملوكِ عليّ مقتدرٌ
فلربّ مغتبطٍ بمُرزئةٍ
ومُكاشحٍ لي قد مددتْ له
حتى يقولَ لنفسه لهفأ
وترى قناتي حينَ يغمزها^(٤)
ولقد تلومُ بغير ما تدرى
إذ لا يحكم طائعاً أمري
يُعطي إذا ما شاء من يُسرِ
ومُفَجِّع بنوائبِ الدهرِ
نحراً بلا ضرع ولا غمر^(٣)
في أيّ مذهبٍ غايةٍ أجري!
غمزُ الثَّفافِ بطيئة الكسرِ

فقال : يا عليّ ، فكيف تراهما؟ فقلت :

أرى قمرِي أفقٍ وفرعي بشامة^(٥)
يسُدَّانِ آفاقَ السماءِ بشيمةٍ
سليلي أمير المؤمنين وحائزي
يزينُهُما عِرْقُ كريمٍ ومحتدٌ
يؤيِّدها حِزْمٌ وعَضْبٌ مُهَنَّدٌ
مواريث ما أبقي النَّبيُّ محمدٌ

ثم قلت : يا أمير المؤمنين^(٦) ، زرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنتْ عروقه ، وعذبت مشاربه ، غذاهما ملك أعز ، نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم والقدر ، علاهما فعلياً ، وحكمهما فتحكماً ، وعلمهما فتعلماً ، فهما يطولان بطوله ، ويستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان في سعادته ؛ فما رأيتُ أحداً من أبناء الخلفاء أذربَ منهما لساناً ، ولا أعذبَ كلاماً ، ولا أحسنَ ألفاظاً ، ولا أشدَّ اقتداراً

(١) لحاتم الطائي ، ديوانه : ١٢٥ .

(٢) الديوان : « لا يقوم بمثله » . والنيقة : اسم من التنوق ، وهو التأنيق في الملبس والمطعم .

(٣) الضرع بالتحريك الضعف ، والغمر : الحقد .

(٤) في المسعودي : « يعمدها » .

(٥) في المسعودي : « وفرعي خلافة » .

(٦) في المسعودي : « هما زرع » .

على تأدية ما حفظا ورويا. فأسأل الله أن يزيدهما الإيمان تأييداً وعزاً، ويمتّع أمير المؤمنين بهما، ويمتعهما بدوام قُدرته وسلطانه، ما بقي ليل وأضاء نهار! فضمّهما إلى صدره، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت دموعه تتحادر على صدره رقةً عليهما وإشفاقاً، ثم أمرهما بالخروج.

قال: ثم أقبل علينا، وقال: كأنكم بهما وقد نجم القضاء، ونزلت مقادير السماء، وبلغ الكتاب أجله، وانتهى الأمر إلى وقته المحدود، وحينه المسطور؛ الذي لا يدفعه دافع، ولا يمنع منه مانع، وقد تشتت أمرهما، وافترقت كلمتهما، وظهر تعاديهما، وانقطعت الرقة بينهما؛ حتى تسفك الدماء، وتكثر القتلى، وتهتك ستور النساء؛ ويتمنى كثير من الأحياء أنهم بمنزلة الموتى.

قلت: يا أمير المؤمنين، أو كائن ذلك؟ قال: نعم، قلت: لأمر رأيتُه أو رؤيا أريتُها، أو شيء تبين لك في أصل مولدهما، أم لأثر^(١) وقع^(٢) لأمر^(٣) المؤمنين في أمرهما! قال: بل أثر واجب صحيح، حملته العلماء عن الأوصياء، وحملته الأوصياء عن الأنبياء، عليهم السلام^(٤).



قال: وحدث الأصمعيّ أنه دخل ذات يوم على أمير المؤمنين الرّشيد - وكان لا يحجب عنه، وكان في فردّ رجله خُفّ؛ وفي الأخرى جَوْرَبٌ؛ لعلّة كان يجدها - فسأله ساعةً، ثم نهض ليخرج، فقال له الرّشيد: يا أصمعيّ، ماذا تشتهي أن يتخذ لك ليتقدم [لك]^(٥) فيه، وتتغذى معنا؟ فقال: أشتهي رُقاقاً وجَوْزلاً سَمِيناً، فلم يعرف الرّشيد ما قاله الأصمعيّ، وكره أن يسأله عنه، فتقدّم إلى الطباخ أن يتبعه ويسأله^(٦) من تلقاء نفسه، ويؤهمه أنه تقدّم إليه فيه فلم يعرفه، فقال له: الرّقاق معروف، والجوزل: الفرخ السمين، فمضى الطباخ وعرف الرّشيد ذلك، وأصلح للأصمعيّ ما طلبه، وعاد فتغذى مع الرّشيد، فلمّا أكل أمر بأن يحمل معه عشرون ألف درهم.



(١) المسعودي: «أم لأمر».

(٢) ل: «وقع».

(٣) المسعودي: «لأمر».

(٤) الخبر في مروج الذهب للمسعودي ٣: ٣٦٠، ٣٦١.

(٥) أي ليؤمر لك به.

(٦) ك: «ويسأله عنه».

وحدّث الأصمعيّ: قال: دخلت ذات يوم على الرشيد، فقال لي: اكتب يا أصمعيّ ولو على تكتك أو طرف ثوبك:

كن مُوسِراً إن شئت أو مُعسِراً لا بُدّ في الدنيا من الهمِّ
وكُلِّما زادك في نعمة زاد الذي زادك في الغمِّ
قال: فكتبت البيتين.



قال: وقال الأصمعيّ: بينا أنا ذات يوم قد خرجت في الهاجرة، والجو يلتهب ويتوقّد حرّاً، إذ أبصرتُ جارية سوداء قد خرجت من دار المأمون، ومعها جرة فضّة تستقي فيها ماء، وهي تردّد هذا البيت بحلاوة لفظ، وذراية لسان:

حرٌّ وجدٍ، وحرٌّ حجرٍ، وحرٌّ أيّ عيشٍ يكون من ذا أمر!

قال: فقلتُ لها: يا جارية، ما شأنك؟ فقالت: إنّي من دار أمير المؤمنين المأمون، وأنا أحبّ عبداً له أسود، وإنّه قد هجرني، ولا أحسن أن أخرج سريّ إلى أحد.

قال: فمضيتُ، واستأذنت على المأمون، فإذا هو نائم، فأذن لي - وقد كان أمر ألاّ أحجّب عنه على أيّ حال كان - فدخلت عليه وهو في مرقده، فقال: ما جاء بك يا أصمعيّ في هذا الوقت؟ قلت: يا أمير المؤمنين، تهبّ لي جاريتك السوداء، وعبدك الأسود فلاناً؟ فقال: قد فعلت ذلك، وهما لك، افعل بهما ما شئت. فخرجت من عنده، وأحضرتُهما، وجمعت من أهل الدار مَنْ حضر وأعتقتُهما، وزوّجت الجارية من العبد، ثمّ عدتُ إلى المأمون، فقلت: يا أمير المؤمنين، إنّي فعلت كيت وكيت، وإنّي أريد الآن ما أجهزُهما به. فأمر لكل واحدٍ منهما بعشرة آلاف درهم، وأمر لي بمثل ذلك، وخرجت من عنده، وعاد هو إلى نومه.



وحدّثنا عبد الله بن سلام، قال: لما وُلد العباس بن الفضل دخل النَّاس على الفضل بن يحيى يهنّونه به، وفيهم أبو النّضير، فوقف بين يديه وهو يقول:

ويفرحُ بالمولود من آل برمكٍ بُغاة النّدى والسيّف والرّمح والتّصلِ
وتنبسطُ الآمالُ فيه لفضله

فأرتج عليه، ووقف لا يمكنه أن يُجيزه، فقال له الفضل: يا أبا التّضير، تمّم، قال: أعزّ الله الأمير! قال: ويحك! فقل:

ولا سيّما إن كان من ولد الفضل

قال: هذا والله - أصلح الله الأمير - طلبته فلم أقدر عليه، وتعلّلت بغيره.



قال: وقيل لأبي العيّن: ما بال العمى قد صار في صغاركم وكباركم حتى إنّه يلحق الطفل منكم؟ فقال: نعم الطينة الملعونة، والدعوة المشؤومة! وذلك أنه سلّم بعض الخلفاء رجلاً من آل أبي طالب إلى جدنا الأكبر فقتله، ودعا عليه، فلحقنا دعوته، فما تراه بنا فهو من تلك الدعوة.



واجتاز أبو العيّن ذات يوم فسمع غناء لم يعجبه، فسأل أبو العيّن عن صاحب الغناء، فلما قيل له: إنه أبو الحمار، قال: صدق الله، ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصَوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩]. وكان عمّاً لمحمد بن أحمد بن يحيى بن أبي البغل.



قيل: ولما صدر المعتصم بالله عن بلاد الروم، وصار بناحية الرّقة قال لعمر بن مسعدة: يا عمرو، أشرت عليّ بالرّخجيّ فولّيته الأهواز، فقد قعد في سلة الدنيا يأكلها خضماً وقضماً، فقلت: يا أمير المؤمنين، فأنا أوجه إليه رسولا يبعث إليك بالأموال ولو على أجنحة الطير، قال: كلا، ولكن اشخص إليه بنفسك كما أشرت به.

قال: ففكرت في أن أنزل عن الوزارة، وأصير مستحثاً على عامل! فقلت: يا أمير المؤمنين، أنا أقع إليه! قال: فضع يدك على رأسي؛ أنك لا تقيم ببغداد إلا يوماً واحداً حتى تلحق به!

فوضعت يدي على رأسي، وحلفت له وانحدرت إلى بغداد، فسلمت على أهلي وإخواني، وأخذت زلاًّ فعلقت عليه الخيش، وبسط لي فيه الطبري، وملاّته بالثلج، وسرنا، فلمّا صرنا بين دير العاقول^(١)، ودير هرقل^(٢)، إذا أنا برجل على الشطّ يصيح: يا ملاح، رجل غريب أريد دير العاقول، فاحملني يا جرك الله!

(١) دير العاقول: بين مدائن كسرى والعمانية؛ بينه وبين بغداد خمسة عشر فرسخاً.

(٢) دير هرقل: دير مشهور بين البصرة وعسكر مكرم.

فقلت: احمलो، فقال: يا مولاي، هذا رجل من هؤلاء الشحاذين يؤذيك ويقذّر عليك زلالك، فقلت: احمله، ويلك! فقرب إليه الزلال فحملة في مؤخره، وحضر الغداء فتحوّبت ألا أدعوه، فقلت له: هلم! فقام حتّى جاء فأكل أكل جائع نهم؛ إلا أنه كان نظيف الأكل؛ فلما فرغ من الغداء، أردت منه ما تفعله العامة بالخاصة؛ أن يقوم فيغسل يده ناحية، فلم يفعل، فغمزه الغلام وسائر الغلمان فلم يقم؛ فتناومت عليه، فلم يقم، فقلت له: ما صناعتك؟ قال: حائك جُعلت فداك! فقلت: هذا أنا فعلته بنفسي! فقال لي: وأنت فما صناعتك؟ فقلت: كاتب؛ فقال: الكتاب خمسة، فأيهم أنت؟ فأورد عليّ شيئاً عجبت منه، فقلت: عدّهم؛ قال: كاتب رسائل يجب أن يعرف الوصول، والفصول، والترغيب والترهيب، والجوابات. قلت: نعم.

قال: وكاتب خراج يجب أن يعرف المساحة، والذراع، والأشول^(١)، والتقسيط. قلت: نعم.

قال: وكاتب قاض يجب أن يعرف الحرام والحلال، والتأويل والتنزيل، والمحكم والمتشابه، والمقالات والاختلافات. قلت: نعم.

قال: وكاتب جندٍ يجب أن يعرف الحليّ والشّيّات. قلت: نعم.

قال: وكاتب شُرطة، يجب أن يعرف الشّجاج والجراحات.

فأيهم أنت؟ قلت: كاتب رسائل، قال: فصديق لك تكاتبه في المحبوب والمكروه، تزوّجت أمّه، كيف تكتب إليه؟ تهنّئه أو تعزيّه؟ قلت: هو والله إلى التعزية أقرب. قال: فكيف تعزيّه؟ قلت: لا أجد إلى ذلك سبيلاً، قال: فلست بكاتب رسائل.

قلت: أنا كاتب خراج، قال: فولّك أمير المؤمنين بلدة، وأمرك بالنفوذ، فخرجت إلى عملك، ورّبت عمّالك في العمل، فجاء إليك قوم يتظلمون من عامل زاد عليهم في المساحة، فخرجت معهم، فوقفوا على قراح^(٢) كأنه قابل قشاً، كيف تمسحه؟ قلت: أضرب وسطه في طرفيه؛ قال: تتثنّى عليك القطوع، قلت: فكيف أمسحه؟ قال: لست بكاتب خراج.

قلت: أنا كاتب قاض، قال: فإن رجلاً خلف حرّة حاملاً، وسريّة^(٣) حاملاً،

(١) الأشول: جمع أشل، وهو حبل بمقدار معلوم.

(٢) القراح: المزرعة التي ليس عليها بناء ولا فيها شجر.

(٣) السريّة: الأمة التي أنزلتها بيتاً.

فولدتا في ليلة واحدة: الحرّة جارية، والسُرّيّة غلاماً، فلما علمت الحرّة بذلك حملتها العيّرة على أن وضعت الجارية في مهد السُرّيّة، وأخذت الابن، فقالت السُرّيّة من الغد: الابنُ لي، فتحاكما في ذلك إلى القاضي، وأنت حاضر، فقال لك: اقض بينهما، بمَ كنت تقضي؟ قلت: لا علم لي بذلك. قال: لست بكاتب قاض.

قلت: أنا كاتب جندٍ، قال: الله أكبر! تقدّم إليك رجلان من أهل عملك - أو من أهل عسكريك - اسماهما واحدٌ، يقال لهذا أحمد، ولهذا أحمد؛ هذا مشقوق الشّفة من فوق، وهذا من أسفل، كيف تحليهما^(١)؟ قلت: أكتب: أحمد الأعلّم، وأحمد الأعلّم. قال: إذاً يأخذ هذا عطاء هذا، وهذا عطاء هذا، قلت: فكيف أصنع! قال: لست بكاتب جند.

قلت: أنا كاتب شرطة، قال: تقدّم إليك رجلان، قد شُجّ أحدهما مُوضحة^(٢)، وشُجّ الآخر مأمومة^(٣)، كم بينهما من الإبل؟ قلت: لا أدري، قال: لست بكاتب شرطة.

فقلت: فسّر ما قلت...

قال: أمّا الرجل الذي تزوجت أمّه، فتكتب إليه: إنّ الأقدار تجري بخلاف محابّ المخلوقين. وسترٌ في عافية خير من شائنة في أهلها، والله يختار للعباد، فخار الله لك في قبضها إليه، فإنّ القبور أكرم الأكفاء!

وأما القراح فتمسح اعوجاجه، ثم تنظر مبلغ الطرفين، فتضرب بعضه في بعض، فإذا استوى في يدك عقده، رجعت إلى المُستوي فضربته فيه، حتى يخرج سواءً.

وأما الحرّة والسُرّيّة، فيذاق لُبْنهما، فأَيُّهما كانت أحرَّ لبناً، فالابن لها.

وأما الجند، فتكتب: هذا أحمد الأعلّم^(٤)، وهذا أحمد الأفلح^(٥).

وأما الشجّة: ففي المأمومة ثلاثة وثلاثون من الإبل، وفي الموضحة خمسة من الإبل، فتدّ عليه ما بين ذلك.

(١) تحليهما: تصفهما.

(٢) الموضحة: الشجّة التي تبدي وضح العظام.

(٣) المأمومة: التي أصابت أم دماغه.

(٤) العلم بفتحتين: شق في الشفة العليا.

(٥) الفلح بفتحتين: شق في الشفة السفلى.

قلتُ: ألسْتَ تزعم أنك حائك؟ قال: أنا حائك كلام، قعد بي الدهر، فخرجت أريد بعض القَرابة، فصادفته قد صُرف عن العمل، فبقيت على هذه الحالة.

قال: فدعوت الحِجَام فنظفَه، ودعوت له بثلاث خلع، وصرت به إلى الرُّخْجِيّ، وكَلَّمته في أمره، فوهب له خمسين ألف درهم، وحمله على ثلاثة من الظَّهر، ورجعت إلى أمير المؤمنين بالأموال، فقال: يا عمرو، ما رأيت في طريقك؟ فأخبرته بقصة الرّجل، فأطال التعجُّب منه، وقال: ما فعل؟ قلت: يصير إليّ في كلِّ يوم، قال: لم يصلح من الأعمال؟ قلت: للهندسة، قال: فوله. قال عمرو: فنظرت إليه بعد ذلك وهو يركب في موكب عظيم.



البيهقيّ، قال البحتريّ: كنت قاعداً مع المتوكّل؛ إذ مرّت سحابة فقال: قل فيها، فقلت:

ذاتُ ارتجاعٍ بحنينِ الرّعدِ	جَرورةُ الدَّيْلِ صَدُوقُ الوعدِ ^(١)
مَسفوحَةُ الدَّمعِ بغيرِ وُجدِ	لَهَا نَسِيمُ كَنَسِيمِ الوَرْدِ
ورثةٌ مثلُ زَيْبِرِ الأسدِ ^(٢)	ولمَعُ بَرْقُ كُسيُوفِ الهِنْدِ
جاءت به رِيحُ الصَّبَا من نَجْدِ	فانتثرتْ مثلُ انتثارِ العِقْدِ
فأضحت الأرضُ بعيشِ رُعدِ	كأنما غَدْرانُها في الوَهْدِ
يلعبُن من حبابها بالترْدِ	

ثم أنشدته لمروان بن أبي حفصة:

لَمَّا سَمِعْتُ ببيعَةَ لمحمدٍ	شَفَتِ النفوسَ وأذهبتْ أحزانها
بايعتُ مغتبطاً ولو لم تنبسطُ	كفّي لبيعته قطعَ بنانها
حتى انتهيت إلى قوله:	

رجحت زُبيدة والنساء شوائلُ واللّه أرجح بالتُّقى ميزانها
فصاح بي صيحةً؛ فقال: كذبت وأثمت؛ يا عريضة، قل: رجحت قبيحة، ثم قال: أنشدني، فأنشدته للطائي:

لستُ لِرَبْعِ عَفَا ولا قِدَمِهِ	ولستُ من كاتبٍ ولا قَلَمِهِ
----------------------------------	-----------------------------

(١) ديوانه: ١: ٢٠٠، وفيه: «ذات ارتجاع».

(٢) كذا في الديوان: وفي الأصل: «رنين».

فَإِنَّ مَنْ يَفْخَرُ الْمَلُوكُ بِهِ وَيَسْتَعِيرُ الْكَرِيمُ مِنْ كَرَمِهِ
أَلْحَقَنِي بِالْمَلُوكِ مُعْتَصِمٌ بِاللَّهِ وَالْمُسْلِمُونَ فِي عِصْمِهِ
خُلِقْتَ مِنْ طِينَةٍ مَبَارَكَةٍ فَالْبُرُّ مِنْ خِيَمِهِ وَمِنْ شِيَمِهِ
مَا زَالَ إِحْسَانُهُ وَنِعْمَتُهُ عَلَيَّ حَتَّى غَرَقْتُ فِي نِعَمِهِ
فَأَسْأَلُ اللَّهَ فَضْلَ نِعْمَتِهِ وَالْأَمْنَ مِنْ بَأْسِهِ وَمِنْ نَقَمِهِ

فلما سمعها ارتاح وقال: أحسنت والله! وما جزاؤك إلا أن أقطعك من موضعك إلى حيث تبلغ أمنيّتك؛ فسل تُعْطَ، قال: ففكرت ساعة، ثم قلت: تعطيني فترا في فتر من قلبك، فقال: أحسنت أحسنت! أنت والله في هذا أشعر من الطائي في شعره. ثم قال: أنشدني، فأنشدته للحسين بن الضحّاك:

كَمْ لَكَ لَمَّا احْتَمَلَ الْقَطِينُ مِنْ زَفَرَةٍ يَتْبَعُهَا الْأَنِينُ
وَعَبْرَةٍ تَحْدُرُهَا الشَّوْونُ إِنِّي بِبَغْدَادَ لِمُسْتَكِينُ
حَطُّ الْغَرِيبِ الشَّوْقُ وَالشَّجُونُ يَا لَائِمِي لِكُلِّ يَوْمٍ هَوْنُ
إِلَيْكَ عَنِّي إِنِّي مَفْتُونُ الشَّعْرُ مِنِّي كَاسِدٌ وَدُونُ
وَحَانَ مِنْ تَحْرِيكِهِ تَسْكِينُ قَدْ رَكَبْتُ أَرْبَابَهَا الدِّيُونُ
بِضَاعَةٍ أَكْسَدَهَا الْمَأْمُونُ إِمَامٌ عَدْلٌ لَلتَّقَى أَمِينُ

قال: أحسنت يا أبا عبادة، فماذا فعل به المأمون بعد إذ هجاه؟ قلت: أعيدك بالله، من أن يجسر على هجاء المأمون! قال: فمن القائل فيه:

وَلَا فَرَحَ الْمَأْمُونُ بِالْمَلِكِ بَعْدَهُ وَلَا زَالَ فِي الدُّنْيَا طَرِيداً مُشْرِدَاً
قلت: يا أمير المؤمنين، دعاه الموقُّ والحين إلى هذا، قال: لا بأس، فإنه قد تلا في هذا الكلام قوله:

رَأَى اللَّهَ عَبْدَ اللَّهِ خَيْرَ عِبَادِهِ فَمَلَّكَهُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالْعَبْدِ
قال: فقلت: يا أمير المؤمنين، أثقلت ظهري بالفوائد، فقال: إنّا نأخذ ونعطي، ونأتي بما يحيي المُهْجَ.

مساوي من ذم الأدب

قال بعضهم: كثرة الأدب في غير طاعة الله قائمة الذنوب.

وقال: ما أحد زید في عقله إلا انتقص من رزقه. وأنشد في ذلك:

ثنتان من أدوات العلم قد ثنتا	عنان شأوي عما رمت من هممي
أما الدواة فأضنى حُبها بدني	وقلّل المال منّي حرفة القلم
والعلم يعلم أني حين أندبهُ	لدفع نائبة خلو من العصم
ولآخر - وقيل: إنه للخليل بن أحمد:	

ما ازددت في أدبي حرفاً أسرّ به	إلا تبينّت حرفاً تحته شوم
إنّ المقدم في حذق بصنعيته	أنّي توجه فيها فهو محروم

مَسَاوِي اللَّحْن

قال يونس بن حبيب النحوي: أَوَّلُ مَنْ أَسَّسَ الْعَرَبِيَّةَ، وَفَتَحَ بَابَهَا، وَنَهَجَ سَبِيلَهَا، أَبُو الْأَسْوَدَ الدَّؤَلِيَّ، وَاسْمُهُ ظَالِمُ بْنُ عَمْرٍو، قَالَ لَهُ الْحَجَّاجُ: أَتَسْمَعُنِي أَلْحَنَ عَلَى الْمَنْبَرِ؟ قَالَ: كَلَّا، الْأَمِيرُ أَفْصَحَ الْعَرَبِ! قَالَ: أَقَسَمْتَ عَلَيْكَ! قَالَ: حَرْفًا وَاحِدًا تَلْحَنُ فِيهِ، فَقَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: فِي الْقُرْآنِ، قَالَ: ذَاكَ أَشْنَعُ لَهُ! فَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَقُولُ: ﴿إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ حَتَّى تَبْلُغَ ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة: ٢٤] تَقْرُؤُهَا بِالرَّفْعِ، قَالَ: فَقَالَ لَهُ: لَا جَرَمَ! لَا تَسْمَعُ لِي لِحْنًا أَبَدًا، فَنفَاهُ إِلَى خُرَاسَانَ وَعَلَيْهَا يَزِيدُ بْنُ الْمَهْلَبِ، فَكُتِبَ يَزِيدُ إِلَى الْحَجَّاجِ: إِنَّا لَقَيْنَا الْعَدُوَّ، وَفَعَلْنَا وَصَنَعْنَا، وَاضْطَرَرْنَا إِلَى عُرْعُرَةِ^(١) الْجَبَلِ، فَقَالَ الْحَجَّاجُ: مَا لَابْنُ الْمَهْلَبِ وَلِهَذَا الْكَلَامُ! فَقِيلَ: ظَالِمُ بْنُ عَمْرٍو هُنَاكَ، قَالَ: فَذَاكَ إِذَا^(٢).



قال: وقال المأمون - وقد سمع من بعض ولده كلاماً أسرع فيه اللحن إلى لسانه: ما على أحدكم أن يتعلم العربية فيقيم بها أودّه، ويزين مشهده، ويتملك مجلس سلطانه، بظاهر بيانه، ويفلّ حجج خصمه بسنان حكمته؛ أو يسرّ أحدكم أن يكون لسانه كلسان عبده وأمته، ولا يزال أسير كلمته! قاتل الله القائل حيث يقول:

أَلَمْ تَرِ مِفْتَاحَ الْفَوَادِ لِسَانَهُ إِذَا هُوَ أَبْدَى مَا يَقُولُ مِنَ الْفَمِ
وَكَائِنَ تَرَى مِنْ صَامِتٍ لَكَ مُعْجَبٍ زِيَادَتُهُ أَوْ نَقْصُهُ فِي التَّكَلُّمِ
لِسَانُ الْفَتَى نَصْفٌ وَنَصْفُ فَوَادِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا صُورَةُ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ

وفي الحديث المرفوع: «رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَصْلَحَ لِسَانَهُ».

قيل: وكتب [أبو]^(٣) غَسَّانُ بْنُ رُفَيْعٍ إِلَى أَبِي عَثْمَانَ بَكْرِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْمَازَنِيِّ النُّحَوِيِّ:

(١) عُرْعُرَةُ الْجَبَلِ: رَأْسُهُ.

(٢) الْخَبَرُ فِي نَزْهَةِ الْأَلْبَاءِ ١٩ - ٢١؛ وَفِيهَا أَمْرُ الْحَجَّاجِ مَعَ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، وَهُوَ الصَّوَابُ.

(٣) هُوَ أَبُو غَسَّانَ رَفِيعُ بْنُ سَلَمَةَ الْمَعْرُوفُ بِدِمَازٍ، وَانْظُرْ طَبَقَاتُ الزُّبَيْدِيِّ ١٢٨، وَإِنْبَاءُ الرُّوَاةِ ٢: ٣.

تفكرت في النحو حتى مللت وأتعبت نفسي به والبدن^(١)
 وأتعبت بكراً وأصحابه بطول المسائل في كل فن
 فكنت بظاهره عالماً وكنت بباطنه ذا فطن
 خلا أن باباً عليه العفا ء للفاء، ياليت له لم يكن!
 وللوأب إلى جنبه من المقت أحسبه قد لعن
 إذا قلت هاتوا لماذا يُقا ل: «لست بآتيك أو تأتين؟»
 أجيبوا لم قيل: هذا كذا على النصب؟ قالوا: لإضمار أن^(٢)



قال: وكان الوليد بن عبد الملك لحانةً، فدخل عليه أعرابيٌّ، فقال: مَنْ ختنك؟ قال: رجل من الحي لا أعرف اسمه، فقال عمر بن عبد العزيز: إن أمير المؤمنين يقول: مَنْ ختنك؟ فقال: ها هو ذا بالباب، فقال الوليد لعمر: ما هذا؟ فقال: النحو الذي كنت أخبرك عنه.

فقال: لا جرم! لا أصلي بالناس حتى أتعلّمه.



وسمع أعرابيٌّ رجلاً يقول: أشهد أن محمداً «رسول» الله، فقال: يفعل ماذا؟



قال: وقال مولى لزياد: «أيها الأمير، أخذوا لنا «همار وهش»، فقال له: ما تقول ويحك! فقال: أخذوا لنا «إيراً»، فقال زياد: الأول خير.

قال: وجاء رجل إلى زياد، فقال: إن «أبيناً» هلك، وإن «أخينا» غصبنا على ميراثنا من «أبانا»، فقال زياد: ما ضيعت من نفسك أكثر مما ضيعت من ميراثك، فلا رحم الله أباك حيث ترك ولدك مثلك!

قال: وعزم رجلٌ من أهل الشام على لقاء المأمون، فاستشار رجلاً من

(١) الأبيات في إنباه الرواة ٢: ٣، وعيون الأخبار ٢: ١٥٦، وأمالى القالي ٣: ١٨٦، والعقد ٢: ٤٨٦، مع اختلاف في الرواية.

(٢) بعده في إنباه الرواة:

وما إن رأيت لها موضِعاً فأعرف ما قيل إلا بظن
 فقد خفت يا بكر من طول ما أفكر في أمر «أن» أن أجن

أصحابه، فقال: على أيّ جهة أصلح أن ألقى أمير المؤمنين؟ قال: على الفصاحة. قال: ليس عندي منها شيء، وإني لألحن في كلامي كثيراً، قال: فعليك بالرفع، فإنّه أكثر ما يستعمل. فدخل على المأمون فقال: السلام عليك يا «أمير» المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فقال: يا غلام، اصفع فصفع.

قال: «بِسْمِ اللَّهِ» فقال: ويلك! من صَبَّكَ على الرفع! قال: وكيف لا أرفع من رفع الله؟ فضحك وقضى حاجته.



قال: واختصم رجلان إلى عمر بن عبد العزيز، فجعلا يلحنان، فقال الحاجب: «كما فقد أوديتما أمير المؤمنين»، فقال عمر: أنت والله أشدّ إيذاءً إليّ منهما!



وعن أبي دواد قال: أرسل المعتصم إلى أشناس، فطلب منه كلبَ صيد، فوجه به إليه فردّه وهو يعرج، فكتب إليه أشناس بشعر قاله:

الكلبُ أخذتَ جيّدٌ مكسورَ رجلٍ جبتَ
رُدّ جيّدٌ كما كلبٌ كنتَ أخذتَ
فكتب إليه المعتصم:

الكلبُ كان يعرُجُ يومَ الذي به بعثتَ
لو كان جاء مخبراً خبّرَ رجلٍ كلبٍ أنتَ



قال: وقال بشر المريسي - وكان كثير اللحن: قضى لكم الأمراء على أحسن الوجوه، «وأهنؤها»، فقال القاسم التمار: هذا على قوله:

إنّ سُليماً واللّه يكلؤها ضنّت بشيء ما كان يرزؤها
فكان احتجاج القاسم أطيّب من لحن بشر.



قال: وكان زياد النبطي شديد اللكنة، وكان نحوياً، فدعا غلامه ثلاثاً، فلما أجابه قال: فمن لدن «دأوتك»؟ فقلت لي: إلى أن «جيتني» ما كنت «تصناً»، يريد «دعوتك» «وتصنع».

قال: ومَرَّ ماسرجويه الطبيب بمعاذ بن سعيد؛ فقال: يا ماسرجويه، إني أجد في حلقي بَحْحًا، قال: هو من عمل بُلْغَم^(١)، فلمَّا جاوزَه قال: تراني لا أحسن أن أقول «بُلْغَم»! ولكنَّه قال له بالعربية، فأجبتَه بخلافه^(٢).

وقال ثُمَامَة: بَكَرَ أحمد بن أبي خالد يوماً يَعْرِضُ القِصَصَ على المأمون، فمرَّ بقِصَّةِ فلان اليزيدي، وكان جائعاً فصَحَّفَ وقال: «فلان الثريدي»، فضحك المأمون وقال: يا غلام، ثريدة ضخمة لأبي العباس، فإنه أصبح جائعاً، فخجل أحمد وقال: ما أنا بجائع يا سيدي، ولكن صاحب القصة أحمق، وضع على نسبته ثلاث نقاط كأثافي القَدْر، قال: دع هذا، فالجوع اضطرَّكَ إلى ذكر الثريد والقَدْر، فجاءوه بصحفة عظيمة كثيرة العُراق والودك، فاحتشم أحمد. فقال المأمون: بحياتي عليك إلا عدلت نحوها، فوضع القِصَصَ ومال إلى الثريد فأكل حتى انتهى، فلما فرغ دعا بطشت فغسل يده، ورجع إلى القِصَصَ، فمرَّ بقِصَّةِ فلان الحمصي، فقال: فلان «الخبيصي»، فضحك المأمون وقال: يا غلام، هات جاماً فيه خبيص، فإنَّ طعام أبي العباس كان مثبوراً. فخجل أحمد، وقال: يا أمير المؤمنين، صاحب هذه القصة أحمق، فتح الميم فصارت كأنها ثنتان، قال: دع عنك هذا، فلولا حمفُّه وحمق صاحبه مَثُّ جوعاً، فجاءوه بجام فيه خبيص، فأتى عليه، وغسل يده، وعاد إلى القِصَصَ فما أسقط بحرف حتى فرغ.



حدَّثنا العباس بن جرير قال: كان للمهدي خصيٌّ كان به معجباً، فضمَّ إليه مُعَلِّماً نحوياً يَعْلَمُه القرآن، وكان الخصيُّ عجمياً لا يُفصح، فقال في «هل أتى» «يوماً عبوساً كمتريراً»^(٣) وقال في الجنِّ. «نكعد منها مكاعد للسمع».

فقال النحوي:

وَلَثَقُلُ الْجِبَالِ أَهْوُنُ مِمَّا كَلَّفُونِي مِنَ الْخَصِيِّ نَجَاحِ
نَقَرَ النَحْوَ حِينَ مَرَّ بِلَحْيِي هِ فَأَلْفَيْتُهُ شَدِيدَ الْجَمَاحِ

(١) كذا ورد مضبوطاً في البيان والتبيين بضم الباء على الخطأ.

(٢) البيان والتبيين ٢: ٢١٨.

(٣) يريد ﴿قمطيراً﴾ الإنسان، الآية: ٧٦.

قال في «هل أتى» فأوجع قلبي «كم تريراً» وكده بالصُّيَّاح



وقال رجل من الصالحين: لئن أعربنا في كلانا حتى ما نلحن، لقد لحننا في أعمالنا حتى ما نَعُرب. وأنشد في مثله:

أما تراني وأثوابي مُقاربةً لئست بخرٍّ ولا من خَزٍّ كَتَّانِ
فإنَّ في المجدِ همَّاتي وفي لغتي علويَّةٌ، ولساني غيرُ لَحَّانِ

محاسن الشعراء

قال الخليل بن أحمد: الشعراء أمراء الكلام، يجوز لهم شق المنطق وإطلاق المعنى، ومدّ المقصور، وقصر الممدود.

وقال معمر بن المثنى أبو عبيدة: افتتح الشعر بامرئ القيس، وختم بـابن هرمة. وقال أبو عبيدة: الشعراء في الجاهلية من أهل البادية، أهل نجد؛ منهم امرؤ القيس، والنابعة، وزهير، ودريد بن الصمة، ومنهم كثير في الإسلام، فهؤلاء الشعراء الفحول الذين مدحوا وفخروا، وذموا، ووصفوا الخيل والمطر والديار وأهلها.

وأشعر أهل المدن أهل يثرب، وأهل الطائف، وعبد القيس، وليس في بني حنيفة شاعر.

وأشعر الشعراء ثلاثة: امرؤ القيس، والنابعة، وزهير. ثم الأعشى. وأشعر الفرسان ثلاثة: عنتر بن شداد، ودريد الصمة، وعمرو بن معديكرب.

وأشعر الشعراء المقلين ثلاثة: المتلمس، والمسيب بن علس، وحصين بن حمام المُرِّي.

وأشعر العرب واحدة طويلة جمعت جودة مع طول؛ ثلاثة: طرفة بن العبد في قوله:

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالَ بِرُقَّةَ تَهْمَدٍ^(١)

والحارث بن حلزة في قوله:

آذَنْتُنَا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ^(٢)

(١) بقيته:

* تَلَوَّحُ كظَاهِرِ الْوَشْمِ فِي الْيَدِ *

(٢) بقيته:

* رَبِّ نَاوٍ يُمَلِّ مِنْهُ التَّوَاءُ *

وعمرو بن كلثوم في قوله :

أَلَا هُبِّي بِصَحْنِكَ فَاصْبَحِينَا^(١)

وأشعر أهل زماننا ثلاثة : جرير ، والفرزدق ، والأخطل .

قيل : وسئل الأخطل : أيكم أشعر؟ فقال : أفخرنا الفرزدق ، وأمدحنا وأوصفنا للخمير أنا . وأسهبنا وأنسبنا وأسبنا ، جرير .

وأرجز الرّجّاز في الإسلام وقبله العجّاج ، فإنه فتح أبواب الرّجّز ، واستوقف ، ووصف الدّيار وأهلها ، ووصف الخيل والمطر ، ومدح وذم ، فذهب في الرّجّز مذهب امرئ القيس في القصيد ، وهو أرجز الرّجّاز ، وقد قيل : أرجز الرّجّاز ثلاثة : العجّاج ، وابنه رؤبة ، وحُميد الأرقط ، وقال بعضهم أبو النجم العجلي .

وأجود الأراجيز قول رؤبة :

وقائِمِ الأعماقِ خاويِ المخترقِ

وقول أبي النجم :

الحمدُ لله الوهوبِ المجزِلِ



قيل : وقال مسلمة بن عبد الملك لخالد بن صفوان : صف لنا جريراً والفرزدق والأخطل ، فقال : أصلح الله الأمير ! أمّا أعظمهم فخراً ، وأبعدهم ذكراً ، وأحسنهم غزلاً ، وأحلاهم معاني وعلاً ، الطامي إذا زخر ، والحامي إذا زار ، والسامي إذا نظر ؛ الذي إن هدر قال ، وإن خطر صال ، وإن طلب نال ؛ الفصيح اللسان ، السباق في الرهان ، فالفرزدق .

وأما أمتكهم سترأ ، وأغزهم بحرأ ، وأرقهم شعراً ، والأغرّ الأبلق ؛ الذي إن طلب لم يسبق ، وإن طلب لم يلحق ، الواصف للفرسان ، الناعت للأطعان ، بحلاوة وبيان ، فجرير .

وأما أحسنهم نعتاً ، وأقلهم فوتاً ، وأمدحهم بيتاً ، الذي إن هجا وضع ، وإن مدح رفع ، وإن حاز أقطع ، البعيد المتان ، الماضي الجنان ، الممدح للسُلطان ، فالأخطل . وكلهم - أصلح الله الأمير - طويل النجاد ، رفيع العماد ، ذكي الفؤاد .

(١) بقيته :

* ولا تبقي خمور الأندرينا *

قال: فصف لنا الشعراء العشرة، فقال: قصّتهم مفسّرة:
 أما أحسنهم نسباً وتشبيهاً، وأشدّهم تأليفاً، فامرؤ القيس.
 وأما أفحلهم مقالاً، وأنبّلهم رجلاً، وأكرمهم فعلاً، فزهير.
 وأما أرجحهم كلاماً، وأنبّلهم مقاماً، وأشرفهم أيّاماً، فأوس بن حجر.
 وأما أفصحهم لساناً، وأثبتهم بنياناً، وأشدّهم إذعائاً، فالنابغة.
 وأما أطردهم للصّيد، وأجحشهم في الكيد، وأدرجهم في القيد، فعدي بن زيد.

وأما أوصفهم للسّلاح، وأنعتهم للقداح، والحرب ذات الكفاح، فابن مّقبل.
 وأما أوصفهم للسنين، وأكسبهم للمئين، وأمدّهم أجمعين، فالحطيئة.
 وأما أهجّاهم للرّجال، وأبدّهم في المقال، وأضربهم للأمثال، فطرفة.
 وأما أعفّهم عن الكاس، وأحضّهم على الباس، وأصدقهم عند الناس،
 فسلامة بن جندل.



قال: وقال العتّابيّ في ذكر أبي نّواس، لو أدرك الخبيث الجاهليّة ما فضّل
 عليه أحد.
 وقال أبو عمرو بن العلاء: أشعر الناس في صفة الخمر ثلاثة: الأعشى،
 والأخطل، وأبو نّواس.
 وقال إبراهيم النّظام: كأنما كشف لأبي نّواس عن معاني الشعر، فاختر
 أحسنها.
 وقال أبو عبيدة: أبو نّواس للمحدّثين كامرئ القيس للأوائل، هو فتح لهم
 هذه الفِطن، ودلّهم على المعاني.



وفي مدح الشعراء

قال: لما قال حسّان بن ثابت للحارث بن عوف المريّ وهو مشرك:
 وأمانة المريّ حيث لقيته مثل الزّجاجة صدّعها لم يجبر^(١)

(١) من أبيات في ديوانه: ٢١٠، ٢١٢ يهجو فيها الحارث بن عوف المري.

قال الحارث للنبي ﷺ: يا محمد، أجزني من شعر حسان فوالله لو مُزج به البحر لمزجه .

قال: وكان كعب بن مالك يُنشد رسول الله ﷺ^(١):

قَضِينَا مِنْ تِهَامَةٍ كُلِّ نَحْبٍ^(٢) وَخَيْبَرٍ ثُمَّ أَجْمَعْنَا السُّيُوفَا^(٣)

نَخْبِرُهَا وَلَوْ نَطَقَتْ لَقَالَتْ قَوَاطِعُهُنَّ دَوْسًا أَوْ ثَقِيفَا^(٤)

فقال رسول الله ﷺ: «لَهُوَ أَسْرَعُ فِيهِمْ مِنَ السَّهْمِ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ»^(٥).

قال: ولما أنشد عبد الله بن رواحة رسول الله ﷺ:

فثَبَّتَ اللَّهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنِ ثَبِيتَ مُوسَى وَنَضْرًا كَالَّذِي نَصْرَا^(٦)

أقبل عليه رسول الله ﷺ ثم قال: «وإياك، فثبت الله» وهو الذي يقول يوم مؤتة^(٧):

أَقْسَمْتُ يَا نَفْسُ لَتَنْزِلَنَّهُ طَائِعَةً أَوْ لَتُكْرَهَنَّه^(٨)

مَا لِي أَرَاكَ تَكْرَهِينَ الْجَنَّةَ

قال: وحدا رجل برسول الله ﷺ وهو يقول:

تَاللَّهِ لَوْ لَا اللَّهُ مَا اهْتَدَيْنَا وَلَا تَصَدَّقْنَا وَلَا صَلَّيْنَا

فَأَنْزَلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا وَثَبَّتَ الْأَقْدَامَ إِنْ لَا قَيْنَا

وَالْمَشْرُكُونَ قَدْ بَعَّغُوا عَلَيْنَا إِذَا أَرَادُوا فَتَنَنَا أَبْيُنَا

فقال رسول الله ﷺ: «من يقولها؟» قال: أبي، قال: «يرحمه الله».

(١) العقد لابن عبد ربه ٥: ٢٧٨.

(٢) النحب: النذر.

(٣) العقد: «أغمدنا السيوف».

(٤) العقد: «قواضبهن».

(٥) كذا في ط؛ وفي العقد: وقال ابن سيرين: بلغني أن دوسا إنما أسلمت فرقا من كعب بن مالك صاحب النبي ﷺ حيث يقول... وأورد البيهقي.

(٦) العقد ٥: ٢٧٨، ورواية الشطر الثاني فيه:

* فَفُوتَ عَيْسَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَالْقَدَرِ *

(٧) سيرة ابن هشام ٤: ٢١.

(٨) بعده في ابن هشام:

* إِنْ أَجْلَبَ النَّاسُ وَشَدُّوا الرَّئَةَ *

مَسَاوِي الشُّعْرَاء

قيل: ليس أحدٌ من الناس آكلٌ للسُّحت، وأنطقَ بالكذب، ولا أُوْضِع ولا أطمع، ولا أقلّ نفساً، ولا أَدْنَى هِمَّةً من شاعر، ولذلك قال أبو سَعْدِ المَخْزُومِي: الكلبُ والشاعرُ في حالةٍ ياليتَ أنِّي لَمْ أَكُنْ شاعراً هل هو إلاّ باسطٌ كَفَّهُ يستطعمُ الواردَ والصادراً!



قال: ولما قال الهذيل الأشجعيّ في عبد الملك بن مروان: إذا ذات دُلَّ كَلَمَتُهُ بِحَاجَةٍ فهِمَّ بِأَنْ تُقْضَى تَنْحَنَحَ أَوْ سَعَلَ قال عبد الملك: أخزاه الله! فلربّما جاءني السَّعْلَةُ والتَّحْنُحَةُ وأنا وحدي في المتوضّأ، فأذكر قوله فأردّها.



قال: ولما قال الشاعر في شهر بن حوشب: لقد باعَ شهرٌ دينَه بخريطةٍ فمن يَأْمَنُ القُرَّاءَ بعدَكَ يا شهرُ! فحلف لا يمسُّ خريطةً حتى مات. قال: وقال الفرزدق: ما دخلتُ مسجداً قطّ أريد الصلاة ونظرت إلى سواريه إلاّ ذكّرتُ قولَ جرير:

وَدَّتْ قُفَيْرَةُ أَنَّ مَسْجِدَ قَوْمِهَا كَانَتْ سَوَارِيَهُ أُيُورُ بَغَالٍ^(١)
وَأَنَّهُ لَمْ يَنْظُرْ فِي الْمَرَاةِ إِلَّا ذَكَرَ قَوْلَهُ:
لَهَا بَرَصٌ بِجَانِبِ إِسْكَتِيهَا كَعَنْفَقَةِ الْفَرَزْدَقِ حِينَ شَابَا^(٢)
يُروى: «تري برصاً».



(١) ديوانه: ٤٧١، وفيه: «ودت سكيغة».

(٢) ديوانه: ٦٩ والعنققة: ما ثبت تحت الشفة السفلى من الشعر.

وقال كعب بن جُعيل: مكثتُ دهرًا أُهْجُو النَّاسَ ولا أُهْجَى، حتى انبرى لي غلام من تَغْلِب، فقال:

تَسَمَّيْتَ كَعْباً بِشَرِّ الْعِظَامِ وكان أبوك يُسَمِّي الْجُعْلَ
وأنت مكائنك من وائلٍ مكان القُرَادِ من اسْتِ الْجَمْلِ
فما رفعتُ رأسي حتى الساعة.

ذكر من كره الشعر

قال إسحاق بن سليمان الهاشمي: دخلتُ على المنصور يوماً والإيوان قد غَصَّ بأهله، فقال: بلغني أنك تقول الشعر، قلت: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأنشدني شيئاً منه، فأنشدته قصيدة طويلة فيها مدح، فلما فرغتُ قال: يا بُنَيَّ، ما لك وللمديح! إياك وإياه! واخذر الهجاء، فإنَّهما لا يُشبهانك؛ وعليك من الشعر بالبيتين والثلاثة، تقول ذلك تطرباً، وتذكر فيه فضلاً وتحبباً.



قال: وقال معاوية بن أبي سفيان لعبد الرحمن بن الحَكَم: يابن أخي، إنك قد لهجتَ بالشَّعر، وإياك والتَّشبيب! فتهجَّن به كريماً، والهجاء فتثير به لئماً، وإياك والمدح فإنه كسبُ الخسيس، ولكن افخر بمآثر قومك، وقل من الأمثال ما تزيِّن به نفسك، وتودِّب به غيرك، فإن لم تجد بُدّاً من المديح، فقل كما قال الأول:

أَحَلَلْتُ رَحْلِي فِي بَنِي ثَعْلٍ إِنَّ الْكَرِيمَ لِلْكَرِيمِ مَحَلٌ^(١)
قيل: وسئل رجل عن الشَّعر فقال: أسرى مروءة الدني، وأدنى مروءة السري.

في ذم الشعر

قال الأصمعي: أنشد رجلُ بشاراً العُقيليَّ بيتَ الطرماح:
فَمَا لِلنَّوَى لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي النَّوَى وَهَمُّ لَنَا مِنْهَا كَهَمَّ الْمَبَايِنِ
فقال: إن هذا البيت لو وثبت عليه الشَّاة لأكلته - يعني إعادته النوى في

(١) لامرئ القيس، ديوانه: ١٩٩، من أبيات يمدح فيها أبا حنبل.

البيت مرتين، فقلت: صدق بشار! إعادة الأسماء في بيت أكثر من مرة عي.



قال: وكتب محمد بن أبي عون إلى محمد بن عبد الله بن طاهر:
 قد بعثنا بزهرة البُستان بِكْرَ ما قد أتى من الرِّيحانِ
 ياسميناً ونرجساً قد بعثنا وبعثنا بسوسن البُستانِ
 فقرأهما محمد وقال: ثلاث مرات «قد»!
 وكتب إليه:

عَوْنُ دَقِّ الإلهُ من فيك أدنَا هُ وأقصاهُ يا عَيِّي اللِّسانِ
 حَشْوُ بَيْتِيكَ فيه «قد» و«قد» قَدَّكَ اللهُ بالحُسامِ اليماني!

ومنه مضاحيك الشعر

قيل: دخل رجلٌ على الرّشيد، فقال: يا أمير المؤمنين، إني هجوت
 الرّوافض. قال: هات، فقال:

شمساً ورغماً وزيتوناً ومظلمةً مِنْ أَنْ ينالوا من الشيخين طُغياناً
 فقال: فسّر؛ فقال: يا أمير المؤمنين، أنت في مائة ألف، لا تفهم هذا،
 أفأفهمه وأنا وحدي! فضحك وأمر له بصلة.



الحمدوني، قال: أتاني رجلٌ فقال: قلت شعراً أحبُّ أن أعرضه عليك،
 فقلت: هات، فقال:

إِنَّ لِي حُبّاً شديداً لَيْسَ يُنْجِيهِ الْفِرَاءُ
 فقلت: نعم، هو شعر، فقال:

إِنَّ مَنْ أَفْلَتَ مِنْهُ لَا بَسَّ ثُوبَ الْمُخَازِي
 فقلت: ذاك راء، وهذا زاي! قال: لا تنقطه. فقلت: فهبني لم أنقطه؛ ذاك
 مرفوع، وهذا مخفوض، قال: يا أحمق، أنا أقول: لا تنقطه، وأنت تعجمه!



قال: وجاء رجل إلى حاجب إبراهيم بن إسماعيل عامل المدينة، فقال:

أدخلني عليه فإني قد مدحته، ولك نصف ما يصلني منه، فقال: أنشدني ما قلت فيه، فقال: لا أفعل، قال: لا أدخلك، قال: فإني أنشدك، قال: هات. قال: قلت:

كاد الأمير على تَكْرُمِهِ أَلَّا يَكُونَ لَأُمِّهِ بَظْرُ
فقال الحاجب: يا عاضَ بظر أمه، كان يعطيك ستمائة سوط، لي منها ثلاثمائة؛ امض إلى حَرَقِ اللَّهِ وناره!

محاسن المخاطبات

قال: ذكروا أن ابن القريّة دخل على عبد الملك بن مروان، فبينما هو عنده إذ دخل بنو عبد الملك عليه، فقال: مَنْ هؤلاء الفتية يا أمير المؤمنين! قال: ولد أمير المؤمنين، قال: بارك الله لك فيهم كما بورك لأبيك فيك، وبارك لهم فيك كما بورك لك في أبيك، فحشا فاه درّاً.



قال: وقال عُمارة بن حمزة لأبي العباس، وقد أمر له بجوهر نفيس: وصلك الله يا أمير المؤمنين وبرك! فوالله لئن أردنا شكرك على إنعامك ليقصّرَن شكرنا عن نعمتك، كما قصر الله بنا عن منزلتك.



قال: ودخل شبيب بن شيبه على المهديّ فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ الله جلّ وعزّ حيث قسم الدنيا لم يرض لك إلا بأرفعها وأشرفها، فلا ترض لنفسك من الآخرة إلا بمثل ما رضي لك من الدنيا، وأوصيك يا أمير المؤمنين بتقوى الله، فإنها عليكم نزلت، ومنكم قبلت، وإليكم تُردّ.

قال: وقال إبراهيم الموصليّ للهادي، وقد غنّاه صوتاً أعجبه: إن من كان محلّه من الانبساط وتقارب التّدام محلّي، جرّاه البسّط على الطلب، وبعثته المُنادمة على الرّجاء، وقد نصب لي أمير المؤمنين لقربي منه مشارع^(١) الرغبة، وحسّني مكان حالي عنده على الكروع في النّهل من يده^(٢). فقال له: سل حاجتك شفاهاً؛ فإنّي جاعل فعلي إجابتك إليه حاضراً. فسأله قيمة خمسمائة ألف درهم، فأعطاه ألف ألف درهم.



قيل: ودخل إسحاق بن إبراهيم الموصليّ على الرّشيد، فقال: كيف حالك؟ فقال:

(١) ك: «شارع».

(٢) ك: «يديه».

سَوَامِي سَوَامٍ الْمَكْثَرِينَ تَجْمُلًا وَمَالِي كَمَا قَدْ تَعْلَمِينَ قَلِيلُ
وَأَمْرَةٌ بِالْبَخْلِ قَلَّتْ لَهَا اقْصُرِي فَلِذَلِكَ شَيْءٌ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
وَكَيْفَ أَخَافُ الْفَقْرَ أَوْ أَحْرَمُ الْغِنَى وَرَأَيْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيلُ
أَرَى النَّاسَ خُلَّانَ الْجَوَادِ وَلَا أَرَى بَخِيلًا لَهُ فِي الْعَالَمِينَ خَلِيلُ

فقال الرشيد: هذا والله الشعر الذي صحت معانيه، وقويت أركانه، ولذ على أفواه القائلين، وأسماع السامعين؛ يا غلام، احمل إليه خمسين ألف درهم. قال إسحاق: كيف أقبل صلتك يا أمير المؤمنين وقد مدحت شعري بأكثر مما مدحتك! قال الأصمعي: فعلت أنه أصيد للدرهم مني.



قال: وقال المأمون لإبراهيم بن المهدي: شاورت في أمرك، فأشاروا عليّ بقتلك؛ فقال: أمّا أن يكونوا نصحوك فيما جرث به السياسة، وحكمت به الرياسة، فقد فعلوا؛ ولكنك تأبى أن تستجلب النصر إلا من حيث عودك الله، فإن عاقبت فلك نظير، وإن عفوت فليس لك نظير، وإن جُرمتي يا أمير المؤمنين أعظم من أن أنطق فيه بعذر، وعفو أمير المؤمنين أجل من أن يفني به شكر.

فقال المأمون: مات الحقد عند هذا العذر. فاستعبر إبراهيم وبكى. فقال له المأمون: ما لك؟ قال: الندم؛ إذ كان ذنبي إلى من هذه صفته في الإنعام عليّ!



وحدثني سعيد بن مسلم، قال: قال المأمون لإبراهيم بن المهدي بعد المؤانسة، وإخراج ما كان في قلبه عليه: يا عم، ما الذي حملك على منازعة من جرى^(١) قدر الله عز وجل له بتمام أمره، وإصلاح شأنه؟ قال: طلب صلاح حالي يا أمير المؤمنين، وتوفر ما تتسع به يدي على خاصتي وعامتي، قال: فقدّر ما شئت، وهو لك مشاهرة، قال: إذا تجدني بحيث تحب، ويجري حكمك عليّ وفيّ كما يجري في أحد عبيدك، وقد قلت في ذلك:

أَرَى الْحَرَّ عَبْدًا لِلَّذِي سَيَّبُ كَفَّهُ شَرَاهُ بِمَا قَدْ غَاظَهُ غَايَةَ الْحَمْدِ
عَلَى أَنَّ مِلْكَ الْحَرَّ أَسْمَى ذَرِيعَةً إِلَى الْمَجْدِ مِنْ مَالٍ يُصَانُ وَمِنْ عَبْدٍ
وَإِنْ خَصَّ بَيْعَ مِلْكَ حُرٍّ بِنِعْمَةٍ إِذَا قُوبِلَتْ بِالشُّكْرِ قَارِنُهَا الْمَجْدُ^(٢)

(١) ك: «أجري».

(٢) في البيت إقواء.

فقال: لئن كان ذلك كذلك، إنِّي لأهْلُ أن أرفعَكَ بموادةِ نعمتي عليك، عن أن يقال هذا فيك، أو تمتهنك عينُ أحدٍ بذلةٍ.



قال: ودخل المأمون ذات يوم إلى الديوان، فنظر إلى غلام جميل، على أذنه قلم، فقال: مَنْ أنت يا غلام؟ قال: يا أمير المؤمنين، النَّاشئُ في دولتك، والمتقلَّب في نعمتك، والمؤمِّل لخدمتك، الحسن بن رجاء.

فقال المأمون: بالإحسان في البديهة، تتفاضل العقول. يُرفع عن مراتب الديوان إلى مراتب الخاصَّة، ويعطى مائة ألف درهم معونةً له. ففعل به ذلك.



قال: ودخل يزيد بن جرير على المأمون - وكان وجد عليه - فقال: أيزيد! قال: نعم يا أمير المؤمنين، غِذِي نعمتك، وخَرِيج صنيعتك، وعَرَس يدك؛ الذي لم يشركك فيه مصطنع، ولم يسبقك إلى تخريجه أحد، ولم أزل يا أمير المؤمنين بعفوك بعد سخطك راجياً؛ وببصيرة رأيك في الانفراد بردي إلى ما عودتني واثقاً، حتى أقامني الله جلَّ وعزَّ هذا المقام الذي فيه إدراك أُملي، ونيل محبَّتي؛ فإن رأى أمير المؤمنين أن يشهرني برضاه كما شهرني بسخطه، فعل؛ إن شاء الله.

فقال: قد رضي عنك أمير المؤمنين!



قال: ووصف يحيى بن خالد الفضل بن سهل - وهو غلام على المجوسية - للرشيد، وذكر أدبه، وحسن مذهبه، وجودة معرفته، فعمل على ضمِّه إلى المأمون. فقال يوماً ليحيى: أدخل إليَّ هذا الغلام المجوسي حتى أنظر إليه.

ففعل يحيى ذلك، فلمَّا مثَّل بين يديه، وقف وتحيَّر، وأراد الكلام، فأرتج عليه، وأدركته كبوة، فنظر الرشيد إلى يحيى نظر منكرٍ لما كان تقدَّم من تقريظه إياه. فانبعث الفضل، فقال: يا أمير المؤمنين، إنَّ من أبين الدلالة على فَرَاهة المملوك، شدة إفراط هيئته لسيِّده.

فقال له الرشيد: أحسنت والله! لئن كان سُكُوتُكَ لتقول هذا إنَّه لحسن، وإن

كان هذا شيء أدركك عند انقطاعك، إنَّه لأحسن وأحسن. ثم جعل لا يسأله عن شيء إلاَّ رآه مقدماً فيه مبرزاً، فضمه إلى المأمون في ذلك اليوم.



وقال الفضل بن سهل للمأمون - وقد سأله حاجة لبعض أهل بيوتات دهاقين سَمَرَقَنْد، ووعده تعجيل إنفاذها، فتأخَّر ذلك عليه: يا أمير المؤمنين، هبْ لوعدك تذكراً^(١) من نفسك، وهنئ سائلك حلاوة نعمتك، واجعل ميلك إلى ذلك في الكرم حائلاً على اصطفاء شُكْرِ الطالبين؛ لتشهد^(٢) القلوب بحقائق الكرم، والألسن بنهاية الجود: فقال: قد جعلت إليك إجابة سُؤالي عني بما ترى فيهم، وأخذتك بالتقصير فيما يلزم لهم، من غير استثمار، ولا معاودة في إخراج الصَّكَّاء، مَنْ أحضر المال متناولاً.

قال: إذا لا تُجدي في معرفتي بما يجب لأمر المؤمنين الهنأ بما يديم له حسن الثناء، ومن دعائهم طول البقاء.



قال: وقال الفضل بن سهل للمأمون: يا أمير المؤمنين، اجعل نعمتك صائنةً لماءٍ وجوه خدمك عن إراقتة في غضاضة السؤال. فقال المأمون: واللَّه لا كان ذلك إلا كذلك.



قال: ودخل العتَّابي على المأمون فقال: يا أبا كُلثوم، خُبرت بوفاتك فغمَّتي، ثم جاءني وفادتك فسرَّتي، فقال: يا أمير المؤمنين، كيف أمدحك! أو بماذا أصفك! ولا دين إلا بك، ولا دُنْيا إلا معك! فقال: سلني عمَّا بدا لك، قال: يداك بالعطية أطلق من لساني بالمسألة^(٣).



قال: وتكلَّم المأمون يوماً فأحسن؛ فقال يحيى بن أكثم: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك! إنَّ خُضنا في الطبِّ فأنت جالينوس في معرفته، أو في النِّجم فأنت هُرمس في حسابهِ، أو في الفقه فأنت عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه في

(١) المحاسن والأضداد: «مداكراً».

(٢) المحاسن والأضداد: «تشهد».

(٣) المحاسن والأضداد: ١١، ١٢.

عَلَّمَهُ؛ وَإِنْ ذَكَرَ السَّخَاءَ كُنْتَ حَاتِمًا فِي جُودِهِ، أَوِ الصَّدَقَ فَأَنْتَ أَبُو ذَرٍّ فِي صِدْقِ
لَهْجَتِهِ، أَوِ الْكَرَمَ فَأَنْتَ كَعْبُ بْنُ مَامَةَ فِي إِثَارِهِ عَلَى نَفْسِهِ، أَوِ الْوَفَاءَ فَأَنْتَ
السَّمُوءُ بْنُ عَادِيَاءَ فِي وَفَائِهِ.
فَاسْتَحْسِنْ قَوْلَهُ، وَتَهَلَّلْ وَجْهَهُ.



قال: وقال إبراهيم بن المهديّ للمأمون: يا أمير المؤمنين، ليس للعافي بعد
القدرة عليه ذنب، وليس للمعاقب بعد الملْك عُذْر، قال: صدقت؛ فما حاجتك؟
قال: فلان، قال: هو لك.



قال: وقال الواثق يوماً لأحمد بن أبي دواد، وقد تَضَجَّرَ بكثرة حوائجه: قد
أَخْلَيْتَ بِيوت الأموال بَطْلَبَاتِكَ لِلْأَثْدِينِ بِكَ، وَالْمَتَوَصِّلِينَ إِلَيْكَ! فقال: يا أمير
المؤمنين نتائجُ شُكْرُهَا مَتَّصِلٌ بِكَ، وَذَخَائِرُ أَجْرِهَا مَكْتُوبٌ لَكَ، وَمَا لِي مِنْ ذَلِكَ
إِلَّا عَشَقُ الْأَلْسُنِ لَخُلُودِ الْمَدْحِ فِيكَ. فقال: يا أبا عبد الله، واللَّهِ لَا مَنَعْتُكَ مَا يَزِيدُ
فِي عَشْقِكَ، وَتَقَوَّى بِهِ مُتُّكَ إِذْ كَانَا لَنَا دُونُكَ.
وَأَمْرٌ فَأَخْرَجَ لَهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ دِينَارٍ يَفْرَقُهَا فِي الزَّوَارِ.



قال: وقدم أبو وجزة السُّلَمِيُّ عَلَى الْمَهْلَبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ
الْأَمِيرَ! إِنِّي قَطَعْتُ إِلَيْكَ الدَّهْنَ^(١)، وَضَرَبْتُ إِلَيْكَ أَكْبَادَ الْإِبِلِ مِنْ يَثْرَبٍ. فقال: هل
أَتَيْنَا بَوْسِيلَةَ أَوْ قَرَابَةَ أَوْ عَشِيرَةً؟ قال: لا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُكَ لِحَاجَتِي أَهْلًا، فَإِنْ قَمَتَ بِهَا
فَأَهْلُ ذَلِكَ أَنْتَ، وَإِنْ يَحُلْ دُونَهَا حَائِلٌ، لَمْ أَذْمُمْ يَوْمَكَ، وَلَمْ أَيْأَسْ مِنْ غَدِكَ.
فَقَالَ الْمَهْلَبُ: يُعْطَى مَا فِي بَيْتِ الْمَالِ، فَوُجِدَ فِيهِ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ، فَدَفَعَتْ
إِلَيْهِ، فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

يَا مَنْ عَلَى الْجُودِ صَاغَ اللَّهُ رَاحَتَهُ فَلَيْسَ يُحْسِنُ غَيْرَ الْبَذْلِ وَالْجُودِ
عَمَّتْ عَطَايَاكَ مَنْ بِالْشَرْقِ قَاطِبَةٌ وَأَنْتَ وَالْجُودُ مِنْحَتَانِ مِنْ عُودِ^(٢)



(١) الدهناء: الوادي الذي بين ديار تميم وبين البصرة.

(٢) المحاسن والأضداد: ١١، ١٢.

قال: ودخل الكوثر بن زُفر على يزيد بن المهلب فقال: أصلحك الله! أنت أعظمُ قدراً من أن يُستعان عليك، ويستعان بك؛ لست تفعل من المعروف شيئاً إلا وهو أصغر منك، وليس من العجب أن تفعل، ولكن العجب ألا تفعل! قال: سل حاجتك. قال: تحمّلت عن قومي عشر دياتٍ، وقد نهكتني.

قال: قد أمرنا لك بها، وأضعفناها بمثلها، فقال الكوثر: إنَّ ما سألتك بوجهي لمقبول منك، وأما ما بدأتني به فلا حاجة لي فيه، قال: ولم؛ وقد كفيتك ذل السؤال! قال: لأتني رأيته الذي أخذته مني بمسألتني إياك أكثر مما نالني من معروفك، فكرهتُ الفضل على نفسي، قال يزيد: فأنا أسألك بحقك علي فيما أمّلتني له من إنزالك إليّ إلا قبلتها! فقبلها.



مَسَاوِي المَخَاطَبَات

قيل: دخل أبو عَلْقَمَةَ النَحْوِيُّ عَلَى أَعْيَنَ الطَّبِيبِ، فَقَالَ لَهُ: إِنِّي أَكَلْتُ مِنْ لَحُومِ هَذِهِ الْجَوَازِي^(١)، فَطَسَيْتُ طَسَاءً^(٢)، فَأَصَابَنِي وَجَعٌ مَا بَيْنَ الْوَابِلَةِ^(٣) إِلَى دَأْيَةِ^(٤) الْعَنْقِ، وَلَمْ يَزَلْ يَرْبُو وَيَنْمُو حَتَّى خَالَطَ الْخَلْبَ^(٥) وَالشَّرَاسِيفَ^(٦)، فَهَلْ عِنْدَكَ دَوَاءٌ؟ قَالَ: نَعَمْ، خَذْ خَرْفَقًا وَسَلْفَقًا فَرَقِّقْهُ وَاغْسِلْهُ بِمَاءِ رَوْثٍ وَاشْرِبْهُ، قَالَ: لَا أَدْرِي مَا تَقُولُ! قَالَ: وَلَا أَنَا أَدْرِي مَا تَقُولُ!



وَقَالَ لَهُ آخَرٌ: إِنِّي أَجِدُ مَعْمَعَةً فِي بَطْنِي وَقَرَقَرَةً، فَقَالَ لَهُ: أَمَّا الْمَعْمَعَةُ فَلَا أَعْرِفُهَا، وَأَمَّا الْقَرَقَرَةُ، فَهُوَ ضُرَاطٌ لَمْ يَنْضَجْ.



قِيلَ: وَأَتَى رَجُلٌ إِلَى الْهَيْثَمِ بْنِ عَرِبَانَ بِغَرِيمٍ لَهُ قَدْ مَطْلَهُ فِي حَقٍّ لَهُ، فَقَالَ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرُ! إِنَّ لِي عَلَى هَذَا حَقًّا قَدْ غَلِبَنِي عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ الْآخَرُ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ! إِنْ هَذَا بَاعَنِي عُتْجِدًا^(٧)، وَقَدْ اسْتَنْسَأْتَهُ حَوْلًا، وَشَرَطْتَ أَنْ أُعْطِيَهُ مُيَاوِمَةً، فَهُوَ لَا يَلْقَانِي فِي لَقَمٍ^(٨) إِلَّا اقْتَضَانِي، فَقَالَ لَهُ الْهَيْثَمُ: أَمِنْ بَنِي شَيْبَةَ أَنْتَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَمِنْ بَنِي هَاشِمٍ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَمَنْ أَكَفَائِهِمْ مِنَ الْعَرَبِ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: وَيَلِي عَلَيْكَ! انْزِعْ ثِيَابَهُ يَا حَرَسِي، فَلَمَّا أَرَادُوا أَنْ يَنْزِعُوا ثِيَابَهُ قَالَ: أَصْلَحَكَ اللَّهُ! إِنْ إِزَارِي مُرْعِبِلًا^(٩)، فَقَالَ: دَعُوهُ، فَلَوْ تَرَكَ الْغَرِيبَ فِي مَوْضِعٍ لَتَرَكَهُ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ.



(١) الْجَوَازِي: جَمْعُ جَاوِزَةٍ؛ وَهِيَ الَّتِي اسْتَغْنَتْ عَنِ الرُّطْبِ بِالْمَاءِ.

(٢) يَقَالُ: طَسَيْتُ فُلَانًا؛ إِذَا غَلَبَ الدِّسَمُ عَلَى قَلْبِهِ.

(٣) الْوَابِلَةُ: لَحْمَةُ الْكَتِفِ. (٤) الدَأْيَةُ: خَرْزُ الْعَنْقِ.

(٥) الْخَلْبُ، بِالْكَسْرِ: حِجَابُ الْقَلْبِ.

(٦) الشَّرَسُوفُ: غَضْرُوفٌ مَعْلَقٌ بِكُلِّ ضِلْعٍ؛ مِثْلُ غَضْرُوفِ الْكَتِفِ.

(٧) الْعَنْجِدُ: الزَّبِيبُ؛ وَقِيلَ حَبُّ الْعَنْبِ.

(٨) اللَّقْمُ بِالتَّحْرِيكِ: مَعْظَمُ الطَّرِيقِ، أَوْ وَسْطُهُ.

(٩) مُرْعِبِلٌ: مَمْزَقٌ.

قال: ومراً أبو علقمة ببعض الطرق، فهاجت به مرة فوثب عليه قوم وأقبلوا يعضون إبهامه، ويؤذنون في أذنه، فأفلت من أيديهم وقال: ما لكم تتكأؤون عليّ كما تتكأؤون على ذي جنة^(١)! افرنقوا^(٢) عني، فقال رجل منهم: دعوه، فإن شيطانه هندي يتكلم بالهندية^(٣).

وقال مرة لحجّام يحجمه: أشدد قصب الملازم^(٤)، وارهف ظبة المشارط، وخفف الوضع، وعجل التزع، وليكن شرطك وخزاً، ومصك نهزاً، ولا تكرهنّ أبيعاً، ولا تردنّ أتياً. فوضع الحجّام محاجمه في جوثته^(٥) ومضى.

(١) الجنة: الجنون.

(٢) افرنقوا: انصرفوا.

(٣) الخبر في البيان والتبيين ١: ٣٧٩.

(٤) الملازم: جمع ملزم؛ وهما خشبتان مشدود وسطهما بحديدة تجعل في طرفيهما.

(٥) الجونة: سلة مستديرة مغطاة أدماً.

محاسن المكاتبات

قال: وقال كعب العبسي لعروة بن الزبير: قد أذنبت ذنباً إلى الوليد بن عبد الملك، وليس يُزيل غضبه شيء، فكتب إليه، فكتب:

لو لم يكن لكعب من قديم حرمة، ما يغفر له عظيم جريرته، لوجب بألاً تحرمه التفيؤ بظل عفوك الذي تأمله القلوب، ولا تعلق به الذنوب، وقد استشفع بي إليك، فوثقت له منك بعفو لا يخلطه سخط، فحقق أمله في، وصدق ثقتي بك؛ مغتنماً للشكر، مبتدئاً بالنعمة.

فكتب إليه الوليد: قد شكرت رغبته إليك، وعفوت عنه لمعوله عليك، وله عندي الذي تحب، إن لم تقطع كتبك عني في أمثاله، وفي سائر أمورك.



قال: وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه: أما بعد، فقد عاقني الشك عن عزيمة الرأي، ابتدأتني بلطف من غير خبرة، ثم أعقبتني جفاء من غير ذنب، فأطمعني أولك في إخائك، وآيسني آخرك من وفائك، فلا أنا في غير الرجاء مجمع لك أطراحاً، ولا في غد أنتظره منك على ثقة، فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي فيك؛ فإمّا أقمنا على اتلاف، أو افترقنا على اختلاف!



قال: وسخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم، فعزله عن شرطة الكوفة، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز، فكتب إليه: إن من حفظ نعم الله رعاية حق ذوي الأسنان، ومن إظهار شكر الموهوب له صفح القادر عن الذنوب، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع، واستتمام الصنائع، وقد كنت أودعت العريان نعمة من نعمك، فسلبتها عجلة سُخطك، وما أنصفتَه إذ أغضبتَه، على أن وليته ثم عزلته وخليته، وأنا شفيعه، فأحب أن تجعل له من قلبك نصيباً؛ ولا تخرجه من حسن رأيك؛ فيضيع ما أودعته، ويتوى^(١) ما أقدته.

(١) يتوى: يذهب ويضيع.

فعفا عنه .



قال: وغضب سليمان بن عبد الملك على أبي عبيدة مولاة؛ فشكا إلى سعيد بن المسيب ذلك؛ فكتب إليه:

أما بعد؛ فإن أمير المؤمنين في الموضع الذي يرتفع قدره عن أن تعصيه رعيته، وفي عفو أمير المؤمنين سعة للمسلمين.

فرضي عنه .



قال: وطلب العتابي من رجل حاجة، فقضى له بعضها ومأطله ببعض، فكتب إليه:

أما بعد، فقد تركتني منتظراً لرؤيتك، وصاحب الحاجة محتاج إلى «نعم» هنيئة، أو «لا» مريحة، والعذر الجميل أحسن من المظل الطويل . وقد كتبت:

بسّطت لساني ثم أوثقت نصفه فنصف لساني بامتدادك مُطلَق

فإن أنت لم تنجز عِداتي تركتني وباقي لسان الشكر باليأس مُوثَق



قال: ولما بنى المهدي بريرة ابنة أبي العباس، كتب إليه علي بن سعيد بن قيس الأنصاري:

أدام الله لك جميل عاداته عندك، وأوتر ما يجري به القدر لك، ولا زالت يد الله تحوطك في المحبوب، وتدرأ عنك المكروه، وهنت بهذه النعمة ومليتها أمناً من زوالها بطول البقاء والمدة، فقالت له ربيعة: ما لهذا الكلام ثمن؟ فقال: كيف ونحن أطلقنا بإحساننا إليه وإنعامنا عليه لسانه فينا، وسنزيده من الثواب لثناؤه علينا!



قال: وأمر الرشيد جعفر بن يحيى أن يعزل أخاه الفضل بن يحيى عن الخاتم، ويقبضه إليه قبضاً لطيفاً، فكتب إلى أخيه:

قد رأى أمير المؤمنين أن تنقل خاتم خلافته عن يمينك إلى شمالك .

فكتب إليه الفضل: ما انتقلت عني نعمة صارت إليك، ولا خصتك دوني .



أحمد بن يوسف الكاتب، قال: أمرني المأمون أن أكتب إلى الآفاق في الاستكثار من المصاييح في المساجد، فلم أدر كيف أكتب، لأنه شيء لم أسبق إليه فأسلك طريقته ومعناه، فأتاني آت في منامي وقال لي اكتب:

فإن فيها أنساً للمجتهدين، وإضاءة السائلين، ونفياً لمكانم الرّيب، وتنزيهاً لبيوت الله عز وجل عن وحشة الظلم.

فكتب بذلك.



قال: وكتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون في رجل من بني ضبة يستشفع إليه في زيادة في منزلته، وجعل كتابته تعريضاً:

أما بعد؛ فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين، لتطولك في إلحاقه بنظر أنه من الخاصة فيما يرتزقون، فأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين، وفي ابتدائه بذلك تعدي طاعته. والسلام.

فكتب إليه المأمون: قد عرفنا توطئتك له، وتعريضك لنفسك، وأجبتك إليهما، ووافقناك عليهما.



وحدثنا عبد الله بن ميمون، قال: تأخر الجاري من الرزق لإبراهيم بن إسحاق الموصلي عنه في أيام المأمون، فكتب إليه:

يا أمير المؤمنين، ما فوق جودك في العاجلة مرتقى لآمالنا، ولا إلى غير دولتك متطلع لقلوبنا، فلم تتأخر الإفادات عنا، ويعسر نيل المحبوب علينا!

فقال المأمون: ما سمعت في التصريح والإشارة بالطلب أحسن من هذا! وأمر بإخراج فائه^(١)، وبجائزة ثلاثمائة ألف درهم.



قال: وأولم المأمون على بعض ولده، فكتب إليه إبراهيم بن المهدي: لولا أن البضاعة تقصّر عن الهمة لأتعبت السابقين إلى البر، وخفت صحيفتها وليس لي فيها ذكر، فبعثت بالمبتدأ به ليمنه وبركته، والمختوم به لنظافته وطيبه، جراب ملح وجراب أشنان.



(١) يريد بالفات هنا إعطاء ما فاته من الرزق عن المدة الماضية.

وكتب إبراهيم بن المهديّ إلى صديق له بعث إليه بهديّة: لو كانت التُّحفة على حسب ما يوجبه حَقُّكَ، لأَجَحَفَ بنا أداء حَقِّكَ، ولكنّه على ما يخرج من حدّ الحشمة، ويوجب الأُنس، وقد بعثت إليك بكذا.



وحدثنا أبو الودغ قال: أوّل كتاب ورَدَ على المأمون بالخلافة. كتاب الحارث بن سباع الخراسانيّ، فإنه كتب إليه: قد أظننا أمير المؤمنين بخلافته تحت جناح الطُمأنينة، وبلغنا بها مدى الأُمْنِيّة، فأدام الله من كرامته ما يتطامن له أقاصي وأداني رعيّته، وجعله أعزّ خليفة، وجعلنا أسمع وأطوع رعيّة.

فقال المأمون للفضل بن سهل: أتعرف ما قيمة هذا الكلام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: وما هي؟ قال: تلقّيك له بالسرور. فأعجبه قوله واستحسنه.



قال: وكتب عبد الله بن طاهر إلى المأمون من خُراسان: بعدت داري عن أمير المؤمنين، وعن ظلّ جناحه وعن خِدْمته، وإن كنت حيث تصرّفت لا أتفيّاً إلّا به، وقد اشتدّ شوقي إلى النّظر إلى رؤيته المباركة، والتزيّن بحضور مجلسه، وتلقيح عقليّ بحُسن رأيه، فلا شيء عندي آثر من قربهِ، وإن كنت في سعة من عيش وهبه الله جلّ ذكره لي به. فإن رأى أمير المؤمنين أن يأذن لي في المصير إلى دار السلام، لأحدِث عهداً بالنعم عليّ، وأتهنّأ بالنعمة التي أقرّها لديّ، فعل.

فأجابه المأمون:

قُربك إليّ يا أبا العباس حبيبٌ، وأنا إليك مشتاق، وإنّما بعدت دارك عن أمير المؤمنين بالنّظر لك، والتخيير لحسن العاقبة، فالزم مكانك، واتّبع قول الشاعر:

رأيتُ دُؤو الدار ليسَ بنافعي إذا كان ما بين القلوب بعيدا



وحدثنا خَصِيف بن الحارث عن أبي رجاء، قال: قدم مع المأمون رجل من دهاقين الشّاش وعظمائهم، على عدّة سلفت من المأمون له من تولّيته بلداً، وأن يضمّ إليه مملكته. فطال على الرّجل انتظار خروج المأمون وأمره له بذلك، فقصد عمرو بن مسعدة، وسأله إنفاذ رقعة إلى المأمون من ناحيته. فقال عمرو: اكتب ما

شئت، فإنني أوصله، قال: فتولّ ذلك عني، تكن لك عليّ نعمتان. فكتب عمرو: إن رأى أمير المؤمنين أن يفكّ أسر عبده من ربة المطل بقضاء حاجته، أو يأذن له في الانصراف إلى بلده، فعل إن شاء الله تعالى. فلما قرأ المأمون الرقعة، دعا عمرًا، فجعل يعجبه من حسن لفظها، وإيجاز المراد فيها، قال عمرو: فما نتیجتها يا أمير المؤمنين؟ قال: الكتاب له في هذا الوقت بما سأل، لثلاثين تأخر فضل استحساننا كلامه، وبجائزة مائة ألف درهم، صلة عن دناءة المطل، وسماجة الإغفال. ففعل عمرو ذلك.



وحدّثنا إسماعيل بن أبي شاعر، قال: لما أصاب أهل مكة سنة ثمان ومائتين السيل الذي شارف^(١) الحجر، ومات تحت هدمه خلق كثير، كتب عبد الله بن الحسن العلوي - وهو والي الحرّمين - إلى المأمون:

يا أمير المؤمنين، إنّ أهل حرم الله وجيران بيته، وألوف مسجده، وعمرة بلاده، قد استجاروا بفيء معروفك من سيل تراكمت أحداثه في هدم البنيان، وقتل الرجال والنسوان، واجتياح الأموال، وجرف الأمتعة والأثقال؛ حتى ما ترك طارفاً ولا تالداً يرجع إليهما في مطعم وملبس. قد شغلهم طلب الغذاء عن الاستراحة إلى البكاء على الأمّهات والأولاد، والآباء والأجداد، فأجزهم يا أمير المؤمنين بعطفك عليهم وإحسانك إليهم، تجد الله مكافئك عنهم، ومثيبك عزّ الشكر لك منهم.

قال: فوجه إليهم المأمون بالأموال الكثيرة، وكتب إلى عبد الله:

أمّا بعد، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم مكة إلى أمير المؤمنين، فتلافاهم الله بفضل رحمته، وأنجدهم بسبب نعمته، وهو مُتَّبِع ما أسلفه إليهم بما يخلفه عليهم عاجلاً وآجلاً، إن أذن الله جلّ وعزّ في تثبيت عزمه على صحّة نيّته فيهم. قال: فكان كتابه هذا أسرّ إلى أهل مكة من الأموال^(٢) التي أنفذهما إليهم.



قال أحمد بن يوسف: دخلت على المأمون يوماً ومعه كتاب يعجب به، كتبه إليه عمرو بن مسعدة، فالتفت إليّ وقال: أحسبك مفكراً فيما رأيت! قلت: نعم، وقى الله أمير المؤمنين المكروه! قال: إنّه ليس بمكروه، ولكني قرأت كلاماً نظيراً

(١) في الأصول: «شارك».

(٢) المحاسن والأضداد: «الأصول».

لخبر خبرني به الرشيد، سمعته يقول: البلاغة التقرب من معنى البغية، والتباعد من حشو الكلام، ودلالة بالقليل على الكثير. فلم أتوهم أن هذا الكلام يسببك على هذه الصيغة حتى قرأت هذا الكتاب. والله لأفضين حق هذا الكلام - وكان الكتاب استعطافاً على الجند، فيه:

كتابي إلى أمير المؤمنين، ومن قبلي من أجناده وقواده في الطاعة والموالاة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة جند وقد تأخرت أرزاقهم، واختلت أحوالهم.

قال: فأمر بإعطائهم لثمانية أشهر.



قال: ولما بعث طاهر بن الحسين برأس محمد الأمين، كتب إليه: أتى الله أمير المؤمنين من شكره ما يزيد به في نعمته عليه، وأياديه لديه، فقد كان من قدر الله جلّ وعزّ في إعانة أمير المؤمنين على الظفر بحقه، وسلامة الأولياء، ووفاة محمد بن الرشيد، ما لا دافع له من القضاء في الخلق، والاستبداد بالأمر؛ لنفوذ مشيئته فيما أحبّ من إعزاز وإجلال؛ وموت وحياء، فليهنئ أمير المؤمنين فوائد تطول الله عليه، وليعزه عن أخيه الرضا بما يؤول إليه أهل الأرض والسماء، من الانقراض والفناء.

فكان المأمون يقول: والله لسروري بتعزيته أوقع بقلبي من تهنئته.



قال: وكتب إليه الفضل بن سهل:

أما بعد، فإن المخلوع - وإن كان قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة - فقد فرق الكتاب بينه وبينه في الولاية والحرمة، لقول الله جلّ وعزّ فيما اقتصّ علينا من نأ نوح، حيث يقول: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، ولا صلة لأحد في معصية الله، ولا قطيعة فيما إذا كانت القطيعة في ذات الله، وكتبت إلى أمير المؤمنين وقد قتل الله جلّ وعزّ المخلوع وردّاه رداء نكته، وعجل لأمر المؤمنين ما كان ينتظر من وعده؛ فالحمد لله الذي ردّ إلى أمير المؤمنين معلوم حقه؛ وكبت المكاييد له في حفز عهده، ونقض عقده، حتى ردّ بذلك أعلام الدين إلى سبيلها بعد دروسها؛ والسلام.



قال: وكتب المعتصمُ إلى عبد الله بن طاهر:

أما بعد، فإنّ المأمون - أحله الله دار كرامته - رآك لأكثر الذي أنت له فيه أهلاً، وقد جمع الله لك إلى حُسن رأيه - كان فيك - جميل رأيي لما محضته من حُسن الطاعة، وكرم الوفاء وشكر الإحسان، وقد اتّصلت الأخبار بأنك في كفاية من أولياء أمير المؤمنين، وأموال خراسان، وفي منعة من خاصّتك وعامّتك عن أن ينالك عدوك، أو أحد ممّن يخالفك بسوء، فاكْتُبْ بشرح ذلك إلى أمير المؤمنين ليعرفه؛ إن شاء الله.

فلما وصل كتابه، قال عبد الله لكتابه إسماعيل بن حمّاد: ما تقول في هذا الكتاب؟ قال: كتاب تعريض بأنك خارج من طاعته، مالك أمر نفسك دونه، قال: فأجبه عنه، فكتب إليه:

أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فإنّ حزب الله وإن قلوا، وأنصار المؤمنين وإن ضَعُفُوا، هم الغالبون، وما أنا بشيء في ملاقة عدوّ أوثق مني بعزّ دولة أمير المؤمنين، فأما الأيدي قليلة، والأموال فنزرة، وفي الله وفي أمير المؤمنين أعظم الغنى. فقبل عذره وحسن موقع كتابه منه.



قال: وكتب أحمد بن إسرائيل إلى الواثق، وقد عزّله عن ديوان الخراج، وأمر بتقييده ليصحّ حساباته:

يا أمير المؤمنين، بَمَ يستحق الإذلال من أنت بعد الله ورسوله مؤثّل عزّه، وإليك مفزع أمله! ولم تزل نفسه راجية لابتداء إحسانك إليه، وتتابع نعمك لديه، وعينه طامحة إلى تطوّلك عليه، ورفعك منه، والزيادة في الصنعة إليه. فهبّ له يا أمير المؤمنين ما يزينك، واعف عمّا لا يشيئك، فما به عنك معدل، ولا على غيرك معوّل. فأمر بإطلاقه.



قال: وكتب جعفر بن محمد بن الأشعث إلى يحيى بن خالد يستعفيه من العمل:

شكري لك على ما أريد الخروج منه، شكرٌ من نال الدُخول فيه.



وكتب عليّ بن هشام إلى إسحاق بن إبراهيم الموصليّ :
ما أدري كيف أصنع! أعيب فأشتاق، وألتقي فلا أشتفي، ثم يُحدث لي اللقاء
نوعاً من الحرقة، للوعة الفرقه!



وكتب معقل إلى أبي دلف :
فلان جميل الحال، عند كرام الرجال، وأنت إن لم ترتبطه بفضلك عليه،
غلبك فضل غيرك عليه.



وكتب رجل إلى أخ له :
أما بعد، فقد بان لنا من فضل الله جلّ وعزّ ما لا نحصيه، لكثرة ما نعصيه،
وما ندري ما نشكر! أجميل ما نُشر، أم قبيح ما سُتر! أم عظيم ما أُملي، أم كثير ما
عفا! غير أنّه يلزمنا في الأمور شكره، ويجب علينا حمده، فاستزد الله من حسن
بلائه، بشكر إياه على حسن آلائه.



وكتب رجل إلى أخ له :
أوصيك بتقوى الله الذي ابتدأك بإحسانه. وأتمّ عليك نعمه بأفضاله، وصبر
عليك مع اقتداره. ولا يغورك إمهاله؛ فإنه ربّما كان استدراجاً، عافانا الله وإياك
من الاغترار بالإمهال، والاستدراج بالإحسان!



قال : وكتب أبو هاشم الحرّاني إلى بعض الأمراء :
عَوْضي من أمل الأمير متأخّر، والصبر على الحرمان متعذر.



وكتب رجل إلى محمد بن عبد الله :
إنّ من النعمة على المُثني عليك ألا يخاف الإفراط، ولا يأمن التقصير، ولا
يحذر أن تلحقه نقيصة الكذب، ولا ينتهي من المدح إلى غاية إلا وجد في فضلك

عوناً على تجاوزها. ومن سعادة جَدَّكَ أَنَّ الدَّاعِيَ لك لا يعدم كثرة المادحين، ومساعدة من النية على ظاهر القول.



وكتب رجلٌ إلى أبي عبد الله بن يحيى:

رأيتُني فيما أتعاطاه مِنْ مدحك كالمخبر عن ضوء النهار الباهر، والقمر المضيء الزاهر؛ الذي لا يخفى على ناظر. وأيقنت أنني حيث أنتهي من القول منسوبٌ إلى العجز، مقصّر عن الغاية. فانصرفت عن الثناء عليك إلى الدعاء لك، ووكلتُ الإخبار عنك إلى علم النَّاس بك.



قال: وكتب المهلب بن أبي صفرة إلى عبد الملك بن مروان لما هزم الشَّرة:

أما بعد، فإننا لقينا المارقة ببلاد الأهواز. وكانت للناس جولة، ثم تاب أهل الدِّين والمروءة. ونَصَرْنَا اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ عليهم، ونزل القضاء بأمرٍ جاوزتِ النُّعمة فيه الأمل، فصاروا دَرِيَّةً^(١) رماحنا^(٢)، وضرائب^(٣) سيوفنا، وقتل رئيسهم في جماعة من حُماتهم وذوي الثَّبات منهم، وجلا الباقون عَنْ عسكرهم. وأرجو أن يكون آخر هذه النعمة كأولها تماماً وكمالاً^(٤). والسلام.



وكتب المهلب إلى الحجاج في فتح الأزارقة:

الحمد لله الكافي بالإسلام ما وراءه، الذي لا تنقطع موادَّ نعمته؛ حتى تنقطع من خلقه موادُّ الشُّكر، وإنا كنا أَعْطِينَا من الله جَلَّ وَعَزَّ على عدونا حاليين، يسرُّنا منهم أكثر ممَّا يسوءنا، ويسوءهم ممَّا أكثر مما يسرُّهم، فلم يزل الله جَلَّ وَعَزَّ يزيدنا وينقصهم، ويعزُّنا ويخذلهم؛ حتى بلغ الكتاب أجله، وقُطِع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين.



(١) ط: «درية».

(٢) ك: «أرماحنا».

(٣) ك: «ضراب».

(٤) في ك بعدها: «إن شاء الله».

أخبرنا ابن أبي السرح؛ أَنَّ الحَجَّاجَ أَغْزَى جَيْشاً فَظَفَرُوا، وَأَنَّ صَاحِبَ جَيْشِهِ كَتَبَ إِلَيْهِ:

الحمد لله الذي جعل لأوليائه أمام نصره موعداً قَوِيَ به قلوبهم، وقَدَّم إلى أعدائه بين يديه خذلانه إياهم وعيداً، أَرَعَبَ به مفاصلهم، وزعزع معه قلوبهم. فلَمَّا بلغ هذا الموضع طَوَى ما كان نَشَره من الكتاب، ولم يقرأ ما بعده، ثم التفت إلى الرسول فقال: خَبَرْنَا هذا الكلام المبتدأ به أَنَّ العدوَّ وَلَّى من غير حرب. فقال: صدق الأمير، صدق الله ظنَّه! وأصاب. أصاب الله رأيه!.



قال: وكتب مروان بن محمد إلى عبد الله بن عليّ يوصيه بحُرْمه، فكتب إليه عبد الله:

يا مائق، إن الحق لنا في دمك، والحق علينا في حُرْمك!



وكتب عليّ رضوان الله عليه إلى زياد ابن أبيه: لئن بلغتني عنك خيانة، لأشدنّ عليك شدةً أدعك فيها قليل الوفّر، ثَقِيل الظهر.



قال: وكتب رجل إلى أبي مسلم حين خرج: أحسن الله لك الصُحبة، وعصمك بالتقوى، وألهمك التوفيق، ﴿إِنَّكَ الْأَرَضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨]. فسرّ فيها راغباً إلى الله ورسوله والرّضا من هذه الأمة بالكتاب والسنة.

واعلم أَنَّ التقوى أَسُّ ما تبني عليه أمرُك، فإن ضعف الأساس تداعى البنيان، ودخل الأعداء من كل مكان، فتألّف الأعلام من الرجال وسرواتهم^(١)، وتصفّح عقولهم ومروءاتهم، فكلّموا ارتضيت رجلاً ففرّ عنه عزائم رأيه، واصرف نظرك إلى تصرف حاله، فإن وجدته على خلاف ما أنت عليه، فلا تعجلْ باللقاء أمرُك إليه، فتدخله الوحشة منك، والنفور عنك؛ لكن اقرعه بالحجة في رفق، وسقه إلى شرك المحجة في لين، حتى يتكشف لك ثوب الظلمة عن النور، وتظهر لك وجوه

(١) سروات الناس: أشرافهم.

الأمر، فإنه سيكثر أعوانك على الحق، ويسهل لك منهاج الطُّرُق، فإذا كثرت العدة من أصحابك، وأمكنك الشدة على أعدائك، فحارب الفئة الباغية، والأئمة الطاغية؛ الذين أباحوا جَمَى المسلمين، وأجرؤا عليهم أحكام الفاسقين، وقادوهم بجرائر المَحَن، واستذلّوهم في البرِّ والبحر.

واعلم أن من عرف الله جلَّ وعزَّ لم يرَ لأهل البغي جماعة، ولا لأئمة الضلالة طاعة، وكلّما غلبت على بلدة فأمسك عن القتل، وأظهر في أهله العدل؛ لتسكن إليك النفوس، ويثوب نحوك الناس، وينتشر فعلك في الخاصّة والعامة، فتسترعي أهواءها، وتستميل آراءها، وتهشّ إليك من الآفاق نفوس عرّانين الكرم، ومصاييح الظُّلم، من ذوي الأحساب الكريمة، والبيوت القديمة التي شرَّفها الإسلام، وزينها الإيمان، لتزرع بذلك المحبّة في قلوب العباد، ويكونوا لك دواعي في نواحي البلاد. تَمَّ الله أمرك، وأعلى كعبك!



قال: ولَمَّا استقامت المملكة لأبرؤيز، وانقضى ما بينه وبين بهرام جويين أمر أن تكتب تلك الحروب والوقائع إلى منتهاها، ففعلت الكتبة ذلك وعرضته على أبرؤيز، فلم يرض صدره، فقال غلام من أولاد الكتّاب: إن أمر الملك كتبت صدره، فقال: شأنك! فتناول القلم وكتب:

إنّ الدهر لم يَخُلْ في تارات عقبه وتصرُّفه، ووجوه تنقله في حالات من العجائب، ولم تنصرم فيه فنونُها على طول مداه، ولم يزل في تقلُّب عصره وصفحات أزمنته وطبقات أحيائه، تحدث فيه جلائل الأمور وغرائب الأنباء، وتنجم فيه قرون، وتعقب فيه أعقاب بعد أسلاف، وتعفو آثار؛ وله في تلونه تصريف أنباء معجبة، وأحاديث فيها معتبر، وعظة ومختبر، ومن أعاجيب ذلك أمرُ بهرام بن بهرام، ولقبه «جويين».

فعرضه على أبرؤيز، فأعجبه ذلك، وأمر برفع درجته وتقديمه وتعظيمه.

مساوي المكاتبات

قال الجاحظ: كتب ابنُ المراكبيّ إلى بعض ملوك بغداد: جعلت فداك برحمته^(١).

وقرأت على عنوان كتاب لأبي الحسن السّمرّي: للموت أنا قبله^(٢).

وقرأت أيضاً على عنوان كتاب: إلى ذاك الذي كتب إليّ.

وكتب بعضهم إلى ابن له عليل: يا بنيّ، اكتب إليّ بما تشتهي. فكتب إليه: أشتهي قلنسوة، فكتب إليه: إنما سألتك أن تكتب لي بما تشتهي من الغذاء. فكتب إليه: أشتهي دهن خلّ وزبيب. فكتب إليه: أنزل الله عليك الموت، فإنك ثقیل! قال: ونقش بشر بن عبد الله على خاتمه: «بشر بن عبد الله بالرحمن لا يشرك»، فقال أبوه: هذا والله أقبح من الشُّرك.

(١) كذا في المحاسن والأضداد: ٢٠، وفي ط. «ترجمته».

(٢) المحاسن والأضداد: «لنا قبلة».

محاسن الخطب

قال: خطب خالد بن صفوان خطبةً نكاح؛ فقال:
الحمد لله جامعاً للحمْد كلّه، وصلى الله على محمد وآله، أمّا بعد، فقد
قلتم ما سمعنا، وبذلتم فقبلنا، وخطبتُم فأنكحنا، فبارك الله لنا ولكم!



قال: وخطب محمد بن الوليد بن عتبة إلى عمر بن عبد العزيز أخته،
فزوجّه وخطب، فقال:
الحمد لله ذي العزّة والكبرياء، وصلى الله على محمد خاتم الأنبياء، وقد
زوَّجْتُكَ على ما في كتاب الله جلّ وعزّ: ﴿فَإِمْسَاكُ مَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾ [البقرة:
٢٢٩].



وخطب عبد الله بن جعفر، فقال:
الحمد لله الذي ليس من دونه احتراز، ولا لذهاب عنه مجاز، السميع
المنيع، ذي الجلال الرفيع، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في
سلطانه، ولا سميّ له في برهانه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ.
أما بعد، فإن لكلّ شيء سبباً مضت به الأقدار، وأُخْصِيَتْ فيه الآثار على
وقوع أقضيته، وحلول مُدَّتّه، والصُّهْرُ نسبٌ شابك يجمع المختلف، ويقرب
المؤتلف، وفلان ابن فلان قد بذل لكم الموجود، ووعدكم الوفاء المحمود،
فأجيبوه إلى ما رغب فيه تَحْمَدُوا العاقبة، وتذخروا الأجر للآخرة.



وخطب أبو عبيدة خطبة نكاح بالبصرة - وحضره أعرابي - فقال:
الحمد لله أكثر ممّا حمِدْتُم، وربُّنا أعظم ممّا وصفتُم، ندع^(١) الفُضُول،

(١) ك: «يدع».

ونَتَّبِعُ الأصول، كفعل ذوي العقول. وقد سمعنا مقالَكم، وشَفَّعنا خاطِبَكم، وقبلنا ما بذلتُم، والسلام عليكم.



وخطب أعرابيٌّ إلى قوم، فقال:

الحمد لله ولِيَّ الإنعام، وصَلَّى اللهُ على محمد خير الأنام، وعلى آله وسلَّم، أمَّا بعد، فَإِنِّي إِلَيْكُمْ معشر الأكفاء خاطِبٌ، وفي سبب الألفة بيننا وبينكم راغِبٌ، ولكم عليٌّ فيمن خطبت أحسن ما يجب للصاحب على الصاحب، فَأَجِيبُونِي جواب مَنْ يرى نفسه لرغبتِي مَحَلًّا، ولما دعَنتِي الطَّلِبَةُ إليه أهلاً. فأجابه أعرابيٌّ آخر: أمَّا بعد، فقد تَوَسَّلْتَ بِحُرْمَةٍ، وذكَّرت حَقًّا، وأَمَلْتَ مَرَجُوءًا؛ فحُبُّكَ مَوْصُول، وعِرْضُكَ مَقْبُول، وقد أَنَكَحْنَا وسلَّمْنَا، والحمد لله على ذلك.



قال: وكان الحسن البصريُّ يقول في خطبة النكاح بعد حمد الله والثناء عليه:

أما بعد؛ فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ جمع بهذا النكاح الأرحام المنقطعة، والأنساب المتفرقة، وجعل ذلك في سُنَّةٍ من دينه. ومنهاج واضح من أمره، وقد تزوَّج فلان ابن فلان بفلانة ابنة فلان، وبذل لها من الصداق كذا وكذا، فاستخيروا الله، وردُّوا خيرًا.



قال: وحضر المأمون إمامًا^(١)، فسأله بعض من حضر أن يخطب، فقال:

الحمد لله، والمصطفى رسول الله، عليه وعلى آله السلام، وخير ما عمل به كتاب الله، قال الله جل وعز: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٢]. ولو لم يكن النكاح آية منزلة، وسنة متبعة؛ إلا لما جعل الله جل اسمه في ذلك؛ من تأليف البعيد وإدناء القريب - لسارع إليه العاقل المصيب، وبادر إليه المختار اللبيب. وفلان من قد عرفتموه، في نسب لم تجهلوه؛ يخطب إليكم فتاتكم فلانة، ويبدل لها من الصداق كذا، فشَفَّعُوا شافعنا، وأنكحوا خاطِبَكم، وقولوا خيرًا تحمدوا عليه وتؤجروا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

(١) الإمام: حفل الزواج.

مَسَاوِي الخطب

قيل: واستعمل الوليدُ بنُ عبد الملك أعرابياً على بعض مدن الشام، فلمَّا صعد المنبر، قال:
الحمد لله، أحمده وأستعينه، مَنْ يهده الله فليس بضالًّا، ومَنْ يضلُّ فأبعده الله.

أما بعد، فوالله لقد ذكر لي أنكم تأتون الأندرين^(١) فتشربون من خُمورها. وما الذي عرّضكم - أخزاكم الله - لما يشين أعراضكم! فإن كنتم لا بدّ فاعلين، فليشرب الرّجلُ قعباً أو قعبين أو ثلاثة إن كان طيباً. ولقد بلغني أنكم تأتون بالليل النساء اللواتي قد غاب أزواجهنَّ، وإتي أعطي الله عهداً، أني لا أجد رجلاً يأتي امرأة ليلاً إلاّ قطعت ظهره بالسّيّاط، فإذا قدم عليهنَّ أزواجهنَّ فأتوهن حلالاً، وأيما رجل أصاب في بيته رجلاً، فليأخذ سلبه.

فقال له كاتبه: أيّهما يأخذ سلب صاحبه أيها الأمير؟ فقال: أيّهما غلب! فكانت المرأة تقول لزوجها: قد أحلّ لنا الأمير الزنا!

وحكي عن جحا أن أباه قال له: دع ما أنت عليه من الجنون والمجون والخلاعة، وترزّن حتى أخطب لك بعض بنات أهل الثروة والشرف، فقال: نعم، يا أبتاه! فتزّين وتبخّر، وصار إلى مجمع الناس فقعد وهو صامت، وقد حضر أشراف الناس وعظماؤهم، فقال له أبوه: تكلم يا بني، فقال: الحمد لله، أحمده وأستعينه، ولا أشرك به. حيّ على الصلاح؛ حيّ على الفلاح! فقال أبوه: يا بني، لا تُقيم الصلاة فإنّي على غير وضوء!

(١) أندرين: اسم قرية في جنوبي حلب اشتهرت بالخمر.

محاسن الأمثال

«آتيه في البردَيْن» يعني قبل أن يشتدَّ الحرَّ وبعدما يسكن، والمعنى فيه أيضاً: بالغدَاة والعشيَّ.

قال الشاعر:

يَسِرُّنَ اللَّيْلَ وَالْبَرْدَيْنِ حَتَّى إِذَا أَظْهَرَ رَفْعَ الظُّلَا



وقولهم: «هَمَّكَ فِي الْأَحْمَرَيْنِ»، يعنون اللحم والخمر.



وقولهم: «إِنَّهُ لَطَوِيلُ النَّجَادِينَ»؛ يريدون كماله وتمامه في جسمه.



وقولهم: «إِنَّهُ لَغَمْرُ الرِّدَاءِ»؛ أي كثير المعروف، وأنشد الأصمعي:

غَمْرُ الرِّدَاءِ إِذَا تَبَسَّمَ ضَاحِكاً غَلِقَتْ لَضَحْكَتِهِ رِقَابُ الْمَالِ^(١)



وقولهم: «إِنَّهُ لَسَبْطُ الْبَنَانِ»، إذا كان شجاعاً سخياً.



وقولهم: «شَدِيدُ الْجَفْنِ»، إذا كان صبوراً على السَّهَرِ.



وقولهم: «إِنَّهُ لَطَيِّبُ الْحُجْزَةِ»، إذا كان عفيفاً، قال النابغة:

رِقَاقُ النَّعَالِ طَيِّبٌ حُجْزَاتُهُمْ يُحَيُّونَ بِالرَّيْحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ^(٢)



(١) صحاح الجوهري: ٢٧٢، ونسبه إلى كثير.

(٢) ديوانه: ٩، وأصل الحجة . الوسط.

وقولهم: «إنه لطاهر الثياب»، أي ليس في قلبه غشٌّ، وقد روي في تفسير قول الله جلّ وعز: ﴿وَيَأْتِكَ فَطَهَّرْ﴾ [المدر: ٣]؛ أي طهر قلبك، وأنشد:

ثيابُ بني عوفٍ طهّارَى نقيّةٌ وأوجُهُهُم بيضُ المشافرِ غُرَانُ^(١)
يعنون بثيابهم قلوبهم.

وقولهم: «إنه لطيب الأثواب»، أي طاهر الأخلاق.

قال بعض الأنصار:

ومواعظُ من ربّنا تهدي لنا بلسان أزهى طيب الأثوابِ



وقولهم: «تحسبها حمقاء وهي بأحسن»، يضرب لمن يُظنّ به الجهل، فإذا اختبرته وجدته عاقلاً.

وقولهم: «من أجذب انتجع»، أي من احتاج طلب.



ويقال: إن صعصة بن صوحان كان يأكل مع معاوية، فجعل معاوية يأكل من دجاجة بين يديه، فمدّ صعصة يده فجذب الدجاجة، فقال له معاوية: انتجعت! فقال: من أجذب انتجع.



وقولهم: «من لي بالسائح بعد البارح!»، يضرب مثلاً لرجل يسيء إليه إنسان، فيقال له: احتمل فإنّه سيحسن فيما بعد؛ وأصل ذلك أنّ رجلاً مرّت به ظباء بارحة، فتطير منها، فقبل له: لا تتطير، فإنها سوف تسنح لك، فقال: من لي بالسائح بعد البارح! وذلك أنّ العرب كانت إذا خرجت فمرت بها ظباء عن يمينها، قالت: يئمن وبركة؛ فإذا مرّت عن يسارها تشاءمت بها، وقالت: هذا يوم نحس. والسائح: ما جاء عن يمينك، والبارح: ما جاء عن يسارك، والعقيد ما جاء من ورائك، والناطح ما استقبلك.

(١) لامرئ القيس، ديوانه: ٨٣، والغران: جمع أغر؛ وهو الأبيض.

مَسَاوِي الْأَمْثَالِ

وقولهم: «ذهب منه الأطيبان»، يعنون الشباب والطَّعم، وقالوا: هو الأكل والنكاح.

وقولهم: «نعوذ بالله من الأمرين». يعنون الفقر والهزم.
ويقال: «وُقِيَتْ شرّ الأجوفين». يعنون البطن والفرج.



وقولهم: «أماطَلُهُ العصرين»، يعنون الغداة والعشي.
وقال الشاعر:

أماطَلُهُ العصرَيْنِ حتّى يملّني ويرضى بنصف الدّين والأنفُ راغمٌ
وقولهم: «أفناه المَلَوان»، يعنون الدَّهر ومقاساة الغم.



وقولهم: «أبلاه الجديدان»، يعنون الليل والنهار.
وقال الشاعر:

إنَّ الجديدين في طولِ اختلافهما لا ينقصان ولكنْ ينقصُ الناسُ



وقولهم: «فلان قصير يد سرباله»، أي أنه قليل المعروف.
وأنشد الأصمعيّ:

ولا تنكحي إنْ فرّق الدهرُ بيننا قصيرَ يدِ السربالِ مثلَ أبانٍ



وقولهم: «إنه لجعد البنان»؛ أي هو بخيل.



وقولهم: «الحُمى أضرعتني لك وإليك»؛ يقول: الحاجة أذلَّتني إليك ولك.

وقولهم: «مَنْ مدحنا فليقصد»، يقول: مَنْ مدحنا فليقل الحق، فإنَّ المادح بالباطل غير ممتدح.



وقولهم: «إِنَّكَ تشجّ وتأسو»، أي إِنَّكَ تصلح وتفسد، وتأسو وتداوي.
قال الشاعر:

يَدُ تَشْجُ وَأُخْرَى مِنْكَ تَأْسُونِي



وقولهم: «سَكَتَ أَلْفًا وَنَطَقَ خَلْفًا». يضرب مثلاً للرجل العيّي الذي يُسكته العيّي عن الكلام، والخلفُ من الكلام الذي يشين صاحبه، مثل خَلْفِ السوء؛ يقال: فلان خَلَفُ من أبيه إذا كان صالحاً، فإذا كان رديئاً قيل: خَلَفَ؛ قال لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ^(١)



وقولهم: «شَرُّ الرَّأْيِ الدَّبْرِيُّ». يروى ذلك لأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وهو أن يعرف الرجل وجه نجاح حاجته بعد فَوَاتِ الحاجة.



وقولهم: «أَحْشُكَ وَتَرُوْثَنِي!». أي أوليك خيراً وتولينني شراً، والأصل في ذلك أن رجلاً كان يحتشُّ لفرسه، وفرسه بقربه فراث على رأسه، فقال له: «أَحْشُكَ وَتَرُوْثَنِي!».



وقولهم: «إِنَّ الْخَبِيثَ عَيْنَهُ فَرَارُهُ»؛ أي يتبيّن الخبيث في الخبيث من غير اختبار.

وقد قيل: إِنَّ الْجَوَادَ عَيْنَهُ فَرَارُهُ، أي تتبيّن فيه الجودة من غير اختبار. يقال: فرس جوادٌ بيّن الجودة.

(١) ديوانه: ٢٨: ١.

ونظر أعرابي إلى صيَّاد فقال :

إِن الْخَبِيثَ عَيْنُهُ فَرَارُهُ فِي فَمِهِ شَفَرَتُهُ وَنَارُهُ
مَمْشَاهُ مَمَشَى الْكَلْبِ وَازْدِجَارُهُ أَطْلَسُ يُخْفِي شَخْصَهُ غُبَارُهُ



ويقال : إن رجلاً ضاف امرأة بالبادية ، وللمرأة ابنةٌ فقالت لها : يا أمّه ، لا تضيفيه ، فإن الخبيث عينه فراره ، فلما أظلم الليل ، راود المرأة عَنْ نفسها - وكانت عفيفة - فقالت له أمُّها : لولا حَقَّ الضيافة لانقلبت محروبا^(١) ، فاستحيا الرجل ، فولّى وهو يقول :

تَقُولُ أُمُّ عَامِرٍ لِلْغُمْرِ : قِلْ فَإِنْ تَقِلْ فَعِنْدَنَا مَاءٌ وَظِلٌّ
وَلَبِنٌ تَنْهَلُ مِنْهُ وَتَعِلْ أَمَّا الَّذِي سَأَلْتَنَا فَلَا يَحِلُّ



وقولهم :

خَلَا لِكَ الْجَوْ فَبِضِي وَاصْفِرِي وَنَقَّرِي مَا شِئْتَ أَنْ تَنْقَرِي
قَدْ رُفِعَ الْفَخُّ فَمَاذَا تَحْذَرِي

قيل : كان طَرْفَةُ بَنُ الْعَبْدِ الْبَكْرِيِّ مع عمّه وهو صغير في بعض أسفارهما ، فنزلا على ماء ، فنصب طرفة فَخَّهَ للقنابر وقعد لها - وهنَّ يحذرن الفخَّ وينقرن مما حوله - فقال :

قَاتِلْكُنَّ اللَّهَ مِنْ قَنَابِرٍ مِنْتَبِذَاتٍ فِي الْفَلَا نَوَافِرٍ
وَأَخْذَ فَخَّهَ ، وَرَجَعَ إِلَى عَمِّهِ ، فَلَمَّا تَحَمَّلُوا أَقْبَلَتِ الْقَنَابِرُ تَلْتَقُطُ مَا كَانَ أَلْقَاهُ
لَهُنَّ مِنَ الْحَبِّ ، فَالتَفَتَ فَرَاهَنَ فَقَالَ :

يَا لِكَ مِنْ حُمَرَةٍ بِمَعْمَرٍ خَلَا لِكَ الْجَوْ فَبِضِي وَاصْفِرِي
وَنَقَّرِي مَا شِئْتَ أَنْ تَنْقَرِي



وقولهم : «لَوْ تَرَكْتُ الْقَطَا لَنَامَ» . كانت حَذَامُ بِنْتُ الرِّيَّانِ ملكَ معدٍّ . وإنَّ رجلاً من حِمِيرٍ سارَ إِلَى أَبِيهَا فِي حَمِيرٍ ، فَلَقِيَهُمُ الرِّيَّانُ فِي أَحْيَاءِ رَبِيعَةٍ ، فَالتَقُوا فِي أَرْضِ

(١) المحروب : المسلوب المال .

تَدَعَى الْمَرَامَةَ، فَاقْتَتَلُوا يَوْمَيْنِ وَلَيْلَتَيْنِ، ثُمَّ رَجَعَ الْحَمِيرِيُّ إِلَى عَسْكَرِهِ، وَهَرَبَ الرِّيَّانُ وَسَارَ يَوْمَهُ وَلَيْلَتَهُ، فَلَمَّا أَصْبَحَ الْحَمِيرِيُّ رَأَى عَسْكَرَ الرِّيَّانِ فِي طَلَبِهِ، وَجَعَلُوا يَمْرُونُ وَيُثِيرُونَ الْقَطَا، وَجَعَلَتِ الْقَطَا تَمَرُّ عَلَى عَسْكَرِ الرِّيَّانِ، فَانْتَبَهَتْ ابْنَتُهُ، فَقَالَتْ لِقَوْمِهَا:

أَلَا يَا قَوْمَنَا ارْتَحَلُوا وَسِيرُوا فَلَوْ تَرَكِ الْقَطَا لَيْلًا لَنَامَا
فَارْتَحَلُوا وَاعْتَصَمُوا بِرُؤُوسِ الْجِبَالِ، وَرَجَعَ الْقَوْمُ، فَفِي ذَلِكَ يَقُولُ حُمَيْدُ:
إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامُ

محاسن الجواب

قيل: دخل رجل على كسرى أبرويز، فشكا عاملاً له غصبه ضيعةً له، قال كسرى: مُنْذُ كم هي في يدك؟ قال: مُنْذُ أربعين سنة، فقال: أنت تأكلها منذ أربعين سنة، ما عليك أن يأكل منها^(١) عاملي سنة! فقال: ما كان على الملك أن يأكل بهرام جوراً المُلْك سنة واحدة! فقال: ادفَعُوا في قفاه، وأخرجوه فأخرج، فأمكنته التفاتةً، فقال: دخلتُ بمظلمة وخرجتُ باثنتين!

فقال كسرى: ردّوه؛ وأمر بردّ ضيعته وجعله في خاصّته.



ويقال: إن سعيد بن مرّة الكنديّ حين أتى^(٢) معاوية قال له: أنت سعيد؟ فقال: أمير المؤمنين سعيد، وأنا ابن مرّة.



قيل: ودخل السيّد بن أنس الأزديّ على المأمون فقال: أنت السيّد؟ فقال: أنت السيّد يا أمير المؤمنين، وأنا ابن أنس.



وقيل للعبّاس بن عبد المطلب: أنت أكبر أم رسول الله ﷺ؟ فقال: هو عليه السلام أكبر منّي، ووُلِدْتُ قبله. وقيل إنه قال: وأنا أسنّ منه.



قيل: وقال الحجاج للمهلب: أنا أطول أم أنت؟ فقال: الأمير أطول، وأنا أبسط قامةً.



قال: ووقف المهديّ على امرأة من بني ثعل، فقال لها: ممّن العجوز؟

(١) ك: «يأكلها».

(٢) ك: «أتى إلى معاوية».

قالت: من طيئ، قال: ما منع طيئاً أن يكون فيها آخر مثل حاتم؟ فقالت: الذي منع العرب أن يكون فيها آخر مثلك! فأعجب بقولها ووصلها.



قال: وقدم وفد من العراق على عمر بن عبد العزيز، فنظر عمر إلى شاب فيهم يريد الكلام، فقال عمر: أولو الأسنان أولى! فقال الفتى: يا أمير المؤمنين، إن الأمر ليس بالسن، ولو كان كذلك لكان في المسلمين من هو أسن منك! فقال: صدقت! تكلم: قال: يا أمير المؤمنين، إننا لم نأتك رغبة ولا رهبة، أما الرغبة فقدمت علينا في بلادنا، وأما الرهبة فقد آمننا الله بعدلك من جورك، قال: فما أنتم؟ قال: وفد الشكر. قال: لله أنت! ما أحسن منطقك!



وقيل: إنه لما استوثق أمر العراق لعبد الله بن الزبير، وجه مصعب إليه وفداً، فلما قدم عليه الوفد قال: وددت أن لي بكل خمسة منكم رجلاً منهم! فقال رجل من أهل الشام: بل وددت أن لي بكل عشرة منكم رجلاً منهم! فقال رجل من أهل العراق: يا أمير المؤمنين، علّقناك وعلقت أهل الشام، وعلق أهل الشام آل مروان، فما أعرف لنا ولك مثلاً إلا قول الأعشى:

عُلِّقَتْهَا عَرَضاً وَعُلِّقَتْ رَجُلًا غَيْرِي وَعُلِّقَ أُخْرَى غَيْرَهَا الرَّجُلُ^(١)
فما وجدنا جواباً أحسن من هذا.



وقيل: إنه عزم الفضل بن الربيع على تطهير بعض ولده، فأتى الرشيد فقال: يا سيدي، قد عزم عبدك على تطهير ولده خادمك، فإن رأى أمير المؤمنين أن يزيّن عبده بنفسه، ويصل نعمته هذه بنعمه المتقدمة، ويتم سروره، فعل متفضلاً على عبده، متمنناً بذلك! فقال: نعم. فغدا إليه وقد أصلح جميع ما يحتاج إليه، ووضعت الموائد، وقعد الناس يأكلون، وأقبل الرشيد يدور في داره، فرأى صبيّاً صغيراً أول ما نطق، فقال: يا صبي، أيما أحسن، داركم هذه أم دار أمير المؤمنين؟ فقال: دارنا هذه أحسن ما دام

(١) ديوانه: ٤٣.

أمير المؤمنين فيها، فإذا صار أمير المؤمنين إلى داره فداره أحسن!
فضحك منه الرشيد، وتعجب من نجابته، ووهب له عشر قريات ومائة ألف
درهم.



وقال مسلمة بن عبد الملك: ما شيء يؤتاه العبد بعد الإيمان بالله، أحب إليّ
من جواب حاضر، فإن الجواب، إذا تعقّب لم يك شيئاً.
وأنشد في مثله في مالك بن أنس صاحب الفقه:
يأبى الجوابَ فما يُراجِعْ هيبَةً والسائلون نواكسُ الأذقانِ
هذا التقيُّ وعزّ سلطان التقي فهو المطاعُ وليسَ ذا سلطانِ

مَسَاوِي الْجَوَاب

قيل: إنه اجتمع عند رسول الله ﷺ الزبيرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم، فذكر عمرو الزبيرقان فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! إنه لمطاع في أدانيه، شديد العارضة، جواد الكف، مانع لما وراء ظهره.

فقال الزبيرقان: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! والله إنه ليعرف مني أكثر من هذا، ولكنه يحسدني؛ فقال عمرو: والله! يا نبي الله، إنه لزمير^(١) المروءة، ضيق العطن، لئيم العم، أحمق الخال، والله ما كذبت في الأولى ولقد صدقت في الأخرى؛ ولكني رضيت فقلت بأحسن ما أعلم، وسخطت فقلت بأسوأ ما أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «إن من البيان لسحراً»^(٢).



وذكروا أن الوليد بن عتبة قال لعقيل بن أبي طالب: غلبك أبو تراب على الثروة والعدد، فقال له: نعم، وسبقني وإياك إلى الجنة.

فقال الوليد: أما والله إن شديك لمتوضمتان من دم عثمان؛ فقال عقيل: ما لك ولقريش، وإنما أنت فيهم كمنيح^(٣) الميسر! فقال الوليد: والله إنني لأرى لو أن أهل الأرض اشتركوا في قتله لوردوا صعوداً، فقال له عقيل: كلاً ما ترغب له عن صحبة أبيك!

قال: وقال المنصور لقواده: صدق القائل: «أجع كلبك يتبعك»، فقال أبو العباس الطوسي: يا أمير المؤمنين، أخاف أن يلوح له رجل برغيف فيتبعه ويدعك.



(١) زمر المروءة: قليلها.

(٢) مجمع الأمثال للميداني ١: ٧؛ قال: «ومعنى السحر إظهار الباطل في صورة الحق. والبيان اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسن، وإنما شبه بالسحر لحدة عمله في سامعه، وسرعة قبول القلب له».

(٣) المنيح: أحد القداح الأربعة التي ليس لها غنم ولا غرم.

قال: وقال رجل من قريش لخالد بن صفوان بن الأهتم: إن اسمك لكذب، ما أنت بخالد، وإن أباك لصفوان، وهو حَجَر، وإن جَدَّكَ لأهتم، والصحيح خير من الأهتم، فقال له خالد: من أي قريش أنت؟ قال: من بني عبد الدار، من هاشم؛ قال: لقد هشمتك هاشم، وأمتك أمية، وجَمَحَت بك جُمَح، وخَزَمَتك مخزوم، وأقَصَتك قصي؛ فجعلتك عبدا وعبد دارها، تفتح إذا دخلوا، وتغلق إذا خرجوا.



قيل: ومَرَّ الفرزدق بالمربد؛ فرأى خليفة الشاعر، فقال للفرزدق: يا أبا فراس، مَن القائل:

هُوَ الْقَيْنُ وَابْنُ الْقَيْنِ لَا قَيْنَ مِثْلُهُ لِفَطْحِ الْمَسَاحِي أَوْ لَقَدَّ الْأَدَاهِمِ^(١)
فقال الفرزدق: الذي يقول:

هُوَ اللَّصُّ وَابْنُ اللَّصِّ لَا لِصَّ مِثْلُهُ لِقَطْعِ جِدَارٍ أَوْ لِصَرِّ دِرَاهِمٍ
والدراهم أيضاً.



قيل: ودخل أبو العتاهية على المأمون حين قدم العراق، فأنشده شعراً يمدحه به، فأمر له بمال، وأقبل عليه يحدثه، إذ ذكر أبو العتاهية القَدَرِيَّة، فقال: يا أمير المؤمنين، ما في الأرض فئة أجهل ولا أضعف حُجَّةً من هذه العصابة! فقال المأمون: أنت رجل شاعر، وأنت بصناعتك أعلم، فلا تتخطأها إلى غيرها، فلست تعرف الكلام. فقال: إنَّ جَمَعَ أمير المؤمنين بيني وبين رجل منهم وقف على ما عندي من الكلام.

قال ثُمَامَة: فوجَّه إليَّ رسولاً، فلمَّا دخلتُ قال: يا ثُمَامَة، زعم هذا أَنَّهُ لَا حُجَّةَ لكَ وَلَا لِأَصْحَابِكَ، قلت: فليسل عَمَّا بدا له، فقال المأمون: سلْه يا إسماعيل، قال: أَقْطَعُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِحَرْفٍ وَاحِدٍ؟ قال: شَأْنُكَ!

فأخرج أبو العتاهية يده من كمِّه وحَرَكْهَا، وقال: يا ثُمَامَة، مَنْ حَرَكْ يَدِي هَذِهِ؟ قلت: حَرَكْهَا مَنْ أُمُّهُ زَانِيَةٌ! فضحك المأمون حتى فحص برجله، وتمرَّغَ على فراشه، فقال: زعمت أنك تقطعه بكلمة واحدة! قال أبو

(١) لجريز، ديوانه: ٥٥٨.

العتاهية : شتمني يا أمير المؤمنين ، قلت : ناقضتَ يا عاضٍ بظر أمه .
 قال : فعاد المأمون في الضحك حتى خفتُ عليه من ضحكه وشدة ما ذهب
 به ، ثم قلت : يا جاهل ، تحرّك يدك وتقول مَنْ حرّكها ! فإن كنت أنت المحرّك لها
 فهو قولِي ، وإن تكن الأخرى ، فما شتمتُك .
 فقال المأمون : يا إسماعيل ، عندك زيادة في الكلام ؟ فإنّ الجواب قد مضى
 فيما سألت . فما نطق بحرف حتى انصرف .



قال : وقالت عاتكة بنت الملاءة لرائض : أما وجدت عملاً شراً من عملك !
 إنما كسبُك باستك ، فقال : جعلت فداك ! ليس بين ما أكسب وبين الذي تكسبين به
 إلا إصبعان ، قالت : ويلي عليك ! خذوه ، فطلبه حَسْمُها ففاتَهُمْ رَكْضاً .

محاسن المسيرة

قال - فيما يحكى عن أنوشروان: إنّه بينا هو في مسيرة له - وكان لا يسايره أحدٌ من الخلق مبتدئاً، وأهل المراتب على مراتبهم، فإن التفت يميناً دنا منه صاحب الحرّس، وإن التفت شمالاً دنا منه المؤبد، فأمره بإحضار مَنْ أراد مسيرته - فالتفت في مسيره هذا يميناً، فدنا منه صاحب الحرّس، فقال: فلان فأحضره. فقال: عرفت حديث أردشير حين واقع ملك الخزر؟ وكان الرجل قد سمع من أنوشروان هذا الحديث مرّة، فاستعجم عليه، وأوهمه أنه لا يعرفه؛ فحدّثه أنوشروان بالحديث وأصغى إليه الرجل بجوارحه كلّها، وكان مسيرهما على شاطئ نهر، وترك الرجل النظر إلى موطئ قوائم دابته لإقباله على حديث أنوشروان، فزلّت إحدى رجلي دابته، فمالت بالرجل إلى النهر، فوقع في الماء ونفرت دابته، فابتدراها حاشية الملك وغلمانته حتى أزالوها عن الرجل وجذبوه من تحتها وحملوه على أيديهم.

فاغتّم لذلك أنوشروان ونزل عن دابته، وبُسط له هناك، وأقام حتى تغدّى موضعه ذلك، ودعا للرجل بثياب من خاصّ كسوته، وألقيت عليه، وأكل معه، وقال: كيف أغفلت النظر إلى موطئ حافر دابتك! قال: أيّها الملك، إنّ الله جلّ وعزّ إذا أنعم على عبدٍ بنعمة قابله بمحنة، وإنه جلّ ذكره، أنعم عليّ نعمتين عظيمتين؛ منها إقبال الملك عليّ بوجهه من بين هذا السّواد الأعظم، ومنها هذه الفائدة، وإقبال^(١) هذا الجيش الذي حدّث فيه عن أردشير، حتى لو رحلت من حيث تطلع الشمس إلى حيث تغرب فيه كنت رابحاً. فلمّا اجتمعت عليّ هاتان النّعمتان الجليلتان في وقتٍ واحدٍ قابلتهما هذه المحنة، ولولا أساورة الملك وخدمه، كنت بعرض هلكة، ولو غرقت حتّى أذهب عن جديد الأرض؛ كان الملك قد أبقي لي ذكراً مخلّداً باقياً ما بقي الضياء والظلام.

فسرّ بذلك أنوشروان وقال: ما ظننتك بهذه المنزلة! فحشا فمه جَوْهرًا ودُرّاً ثميناً، واستبطنه حتى غلب على أكثر أمره.



(١) ك: «وتدبير».

وحكي عن يزيد بن شجرة الرهاوي، أنه بينا هو يسير مع معاوية - ومعاوية يحدثه عن خُزاعة ويومها، وبني مخزوم وقريش، وكلّ هذا قبل الهجرة، وكان يوم إشراف الفريقين على الهلكة؛ حتى جاءهم أبو سفيان، فارتفع ببعيره على رابية، ثم أوماً بكمّهم إلى الفريقين، فأنصرفوا - فبينما معاوية يحدث يزيد بن شجرة بهذا الحديث، إذ صك وجه يزيد حجرًا عائر^(١) فأدماه، وجعلت الدماء تسيل من وجهه على ثوبه ما يمسحه. فقال له معاوية: لله أنت! أما ترى ما نزل بك؟ قال: وما ذاك يا أمير المؤمنين؟ قال: هذا دم وجهك يسيل على ثوبك، فقال: أعتق ما أملك^(٢)، إن لم يكن حديث أمير المؤمنين ألّهاني حتى غمر فكري، وعطى على قلبي، فما شعرت بشيء حتى نبّهني له أمير المؤمنين! فقال له معاوية: لقد ظلمك من جعلك في ألف من العطاء، وأخرجك عن عطاء أبناء المهاجرين، وحُماة أهل صقّين! وأمر له بمائة ألف درهم، وزاد في عطائه ألف درهم. وجعله بين ثوبه وجلده^(٣).



وحكي عن أبي بكر الهذلي؛ أنه كان يسير أبا العباس السّفّاح، إذ تحدّث أبو العباس بحديث من أحاديث الفرس؛ فعصفت الريح، فرمت طستاً من سطح إلى طريق أبي العباس، فارتاع من معه ولم يتحرّك أبو بكر لذلك، ولم تزل عينه مطابقة لعين أبي العباس، فقال له: ما أعجب شأنك يا هذا! لم تُرع ممّا راعنا! فقال: يا أمير المؤمنين؛ إن الله جل وعزّ يقول: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤]؛ وإنما للمرء قلب واحد، فلمّا غمر السرور قلبي بفائدة أمير المؤمنين، لم يكن لحادث فيه مجال، وإنّ الله جلّ وعزّ إذا تفرّد بكرامة أحد، وأحبّ أن يبقى له ذكرها، جعل ذلك على لسان نبيّه أو خليفته. وهذه كرامة خُصّصَتْ بها، مال إليها ذهني، وشغل بها فكري، فلو انقلبت الخضراء على الغبراء ما أحسست بها!.

فقال أبو العباس: لئن بقيت لك لأرفعنّ منك ما لا تطيف به السباع. ولا تنحطّ عليه العقبان^(٤).

(١) حجر عائر: لا يدرى راميّه.

(٢) كذا في التاج، وفي ط: «عتق ما يملك».

(٣) الخبر في التاج في أخبار الملوك للجاحظ ٥٥ - ٥٧.

(٤) الخبر في التاج للجاحظ ٥٧، ٥٨.

وحكي عن قباد؛ أنه ركب ذات يوم والمؤبد يسايره إذ راث دابة المؤبد، وفطن قباد لذلك، فغم ذلك المؤبد؛ فقال له قباد في أول كلام مر: ما أول ما يستدل به على سُخْف^(١) الرَّجُل؟ قال: أن يعلف دابته في الليلة التي يركب الملك في صبيحتها! فضحك قباد؛ وقال له: لله أنت! ما أحسن ما ضمنت كلامك بفعل دابتك! وبحق ما قدمتك الملوك، وجعلت أحكامها في يدك! ووقف ودعا له بدابة من خاصّ مراكبه، وقال: تحوّل من ظهر هذا الجاني عليك^(٢) إلى ظهر هذا الطائع لك.



وحكي عن معاوية بن أبي سفيان أنه بينا هو يسير وشرحبيّل بن السَّمْط يسايره إذ راث دابة شرحبيّل، وساء ذلك، فقال معاوية: يا أبا يزيد، إنه كان يقال: إن الهامة إذا عظمت دلت على وفور الدماغ وصحة العقل، قال: نعم يا أمير المؤمنين، إلا هامتي فإنها عظيمة، وعقلي ضعيف ناقص! فتبسّم معاوية وقال: كيف ذاك! لله أنت! قال: لإعلافي دابتي مكوكين^(٣) من شعير. فتبسّم معاوية، وحمله على دابة من مراكبه.



ويقال: إن سعيد بن سلم بينا هو يساير موسى الهادي، وعبد الله بن مالك أمامه والحربة بيده، فكانت الريح تسفي التراب الذي تثيره دابة عبد الله في وجه موسى، وعبد الله في خلال ذلك يلحظ موضع مسير موسى، فيطلب أن يحاذيه، فإذا حاذاه ناله من ذلك التراب ما يؤذيه، حتى إذا كثر ذلك من عبد الله، قال موسى لسعيد: أما ترى ما لقينا من هذا الخائن في مسيرنا^(٤) هذا! فقال له سعيد: والله يا أمير المؤمنين ما قصّر في الاجتهاد، ولكنه حُرِمَ حظّ التوفيق.

(١) ك: «سُخِفَ عقل الرجل».

(٢) كذا في ك.

(٣) المكوك: مكيال معروف.

(٤) ك: «سيرنا».

مَسَاوِي الْمَسَايِرَةِ

ذكر عن عبد الله بن الحسن، أنه بينا هو يسير أبا العباس السفاح بظهر مدينة الأنبار، وهو ينظر إلى بناء قد بناه، إذ قال أبو العباس: هات ما عندك يا أبا محمد، وهو يستطعمه الحديث بالأنس منه؛ فأنشده:

أَلَمْ تَرَ حَوْشِباً أُمْسَى يُبْتَى بِنَاءً نَفَعُهُ لِبَنِي بُقَيْلَهُ^(١)
يُرْجَى أَنْ يُعَمَّرَ عَمْرَ نُوْحٍ وَأَمْرُ اللَّهِ يَحْدُثُ كُلَّ لَيْلَةٍ!
فتبسّم أبو العباس وقال: لو علمنا لاشرطنا حقّ المسايرة، فقال عبد الله: يا أمير المؤمنين، بوادر الخواطر، وإغفال المشايخ، قال: صدقت، خذ في غير هذا^(٢).



وذكر عن المدائنيّ قال: بينّا عيسى بن موسى يسير أبا مسلم في منصرفه عن أبي جعفر في اليوم الذي قتل فيه، إذ أنشد:

سَيِّأَتِيكَ مَا أَفْنَى الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ وَمَا حَلَّ فِي أَكْنَافِ عَادٍ وَجَرُهُمْ
وَمَنْ كَانَ أَسْنَى مِنْكَ عَزْأً وَمَفْخَرًا وَأَنْهَضَ بِالْجَيْشِ اللَّهَامِ الْعَرْمَرَمَ
فقال أبو مسلم: هذا مع الأمان الذي أعطيت! فقال عيسى: عتق ما يملك إن كان هذا الشيء من أمرك، وما هو إلا خاطر! قال: فيس والله خاطر!

(١) الأغاني ١٨: ٢٠٦ (طبعة الساسي).

(٢) انظر تاريخ الطبري ٣: ١٥٣ (طبع أوروبا).

محاسن المسامرة

قال الكِسائي: دخلتُ على الرَّشيد ذات يوم وهو في إيوانه، وبين يديه مالٌ كثير قد شقَّ عنه البدر شقًّا، وأمر بتفريقه في خَدَم الخاصَّة، ويدهم ذرهم تلوح كتابته وهو يتأمله، وكان كثيراً ما يحدثني؛ فقال: هل علمتَ مَنْ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ هذه الكتابة في الذهب والفضة؟ قلت: يا سيدي، هذا عبد الملك بن مروان، قال: فما كان السبب في ذلك؟ قلت: لا علم لي؛ غير أنَّه أَوَّلُ مَنْ أَحَدَثَ هذه الكتابة، فقال: سأخبرك، كانت القراطيس للرُّوم، وكان أكثرُ مَنْ بمصر نصرانيًّا على دين الملك، ملك الروم، وكانت تُطَرَّز بالروميَّة، وكان طرازها: «أباً وابناً وروحاً وقديساً»، فلم يزل كذلك صدر الإسلام كلُّه يمضي على ما كان عليه، إلى أن ملك عبد الملك، فتنبَّه عليه، وكان فطناً، فبينما هو ذات يوم، إذ مرَّ به قرطاس، فنظر إلى طرازه، فأمر أن يترجم بالعربية، ففعل ذلك، فأنكره وقال: ما أغلظ هذا في أمر الدين والإسلام أن يكون طراز القراطيس وهي تحمل في الأواني والثياب - وهما يعملان بمصر - وغير ذلك مما يطرز من ستور وغيرها من عمل هذا البلد، على سَعَتِهِ وكثرة ماله وأهله، تخرج منه هذه القراطيس لتدور في الآفاق والبلاد، وقد طرّزت بشركٍ مثبت عليها! فأمر بالكتاب إلى عبد العزيز بن مروان - وكان عامله بمصر بإبطال ذلك الطراز على ما كان يطرز به، من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك، وأن يأخذ صنّاع القراطيس بتطريزها بسورة التوحيد، و﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وهذا طراز القراطيس خاصَّةً إلى هذا الوقت لم ينقص ولم يزد، ولم يتغيّر.

وكتب إلى عُمال الآفاق جميعاً بإبطال ما في أعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الرُّوم، ومعاقبة من وُجِدَ عنده بعد هذا النهي شيء منها، بالضرب الوجيع والحبس الطويل. فلما أثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتَّوحيد، وحُمِلَ إلى بلاد الرُّوم منها، انتشر خبرها، ووصل إلى ملكهم، فترجم له ذلك الطراز فأنكره وغلظ عليه، واستشاط غضباً. وكتب إلى عبد الملك: إنَّ عمل القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للرُّوم، ولم يزل يطرز بطراز الروم؛ إلى أن أبطلته، فإن كان مَنْ تقدّمك

من الخلفاء قد أصاب فقد أخطأت، وإن كنت قد أصبت فقد أخطؤوا، فاختر من هاتين الخلتين أيُّهما شئت وأحببت. وقد بعثت إليك بهديّة تشبه محلّك، وأحببت أن تجعل ردّ ذلك الطراز إلى ما كان عليه في جميع ما كان يطرّز من أصناف الأعلام حاجةً أشكرك عليها، وتأمّر بقبض الهدية - وكانت عظمة القدر.

فلما قرأ عبد الملك كتابه، ردّ الرسول، وأعلمه أن لا جواب له، ولم يقبل الهدية. فانصرف بها إلى صاحبه، فلما وافاه، أضعف الهدية، وردّ الرسول إلى عبد الملك، وقال: إني ظننتك استقلّلت الهدية، وأنا أرغبُ إليك في مثل ما رغبت فيه؛ من ردّ هذا الطراز إلى ما كان عليه أولاً.

فقرأ عبد الملك الكتاب ولم يجبه، ورد الهدية.

فكتب إليه ملك الروم بما يقتضي أجوبة كتبه، ويقول: إنك قد استخففت بجوابي وهديتي، ولم تسعفني بحاجتي، فتوهّمْتُ استقلّلت الهدية فأضعفتها، فجريت على سبيلك الأول، وقد أضعفتها ثالثة^(١)، وأنا أحلف بالمسيح لتأمرن بردّ الطراز إلى ما كان عليه أولاً، أو لأمرن بنقش الدنانير في بلادي - ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الإسلام - فينقش عليها من شتم نبيك، ما إذا قرأته ارفضّ جبينك له عرقاً؛ فأحبّ أن تقبل هديتي، وتردّ الطراز إلى ما كان عليه، وتجعل ذلك هدية بررتني بها، وتُبقي على الحال بيني وبينك.

فلما قرأ عبد الملك الكتاب غلظ عليه وضاحت به الأرض، وقال: أحسبني أشأم مولود وُلد في الإسلام! لأنني جنيت على رسول الله ﷺ من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدَّهر، ولا يمكن محوُّه من جميع مملكة العرب؛ إذ كانت المعاملات تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم، وجمّع أهل الإسلام واستشارهم، فلم يجد عند أحدٍ منهم رأياً يعمل به، فقال له رَوْح بن زُبَاع: إنك لتعلم الرأي والمخرج من هذا الأمر، ولكنّك تتعمد تركه، فقال: ويحك! من؟ قال: الباقر من أهل بيت النبي ﷺ، قال: صدقت! ولكنّه أُرْتِج عليّ الرأي فيه. فكتب إلى عامله بالمدينة: أن أشخص إليّ محمد بن علي بن الحسين مكرّماً، ومتمّعه بمائتي ألف درهم لجهازه، وبثلاثمائة ألف درهم لنفقته، وأزجّ علّته في جهازه وجهاز مَنْ يخرج معه من أصحابه - واحتبس الرسول قبله إلى موافاته عليه.

فلما وافى أخبره الخبر، فقال له الباقر: لا يعظمُنّ هذا عليك؛ فإنه ليس

(١) ك: «ثالثاً».

بشيء من جهتين: إحداهما أن الله جلّ وعزّ لم يكن ليطلق ما يهدّدك به صاحب الرّوم في رسول الله ﷺ، والأخرى وجود الحيلة فيه، قال: وما هي؟ قال: تدعو في هذه الساعة بصنّاع يضربون بين يديك سِكْكَاً للدرهم والدنانير، وتجعل النقش عليها سورة التوحيد وذكر رسول الله ﷺ، أحدهما في وجه الدرهم والدنانير، والآخر في الوجه الثاني، وتجعل في مدار الدرهم والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه، والسّنة التي تضرب فيها تلك الدراهم والدنانير، وتعتمد إلى وزن ثلاثين درهماً عدداً من الثلاثة الأصناف التي العشرة منها عشرة مثاقيل، وعشرة منها وزن ستّة مثاقيل، وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل. فتكون أوزانها جميعاً واحداً وعشرين مثقالاً، فتجزئها من الثلاثين: فتصير العدّة من الجميع وزن سبعة مثاقيل، وتصبّ سَنَجات من قوارير لا تستحيل إلى زيادة ولا نقصان، فتضرب الدراهم على وزن عشرة، والدنانير على وزن سبعة مثاقيل - وكانت الدراهم في ذلك الوقت إنما هي الكسروية التي يقال لها اليوم: البغليّة، لأنّ رأس البغل ضربها لعمر بن الخطاب رحمه الله بسكّة كسروية في الإسلام، مكتوب عليها صورة الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية «نوش خُر». أي كلّ هنيئاً، وكان وزن الدرهم منها قبل الإسلام مثقالاً، والدراهم التي كان وزن العشرة منها وزن ستة مثاقيل، والعشرة وزن خمسة مثاقيل، هي السُميريّة الخفاف، والثقال، ونقشها نقش فارس.

ففعل عبد الملك ذلك، وأمره محمد بن علي بن الحسين أن يكتب السكك في جميع بلدان الإسلام، وأن يتقدّم إلى الناس في التعامل بها، وأن يتهدّدوا بقتل من يتعامل بغير هذه السكك من الدراهم والدنانير وغيرها، وأن تبطل وتردّ إلى مواضع العمل حتى تعاد على السكك الإسلامية.

ففعل عبد الملك ذلك، وردّ رسول ملك الروم إليه يعلمه ذلك ويقول: إن الله جلّ وعزّ مانعك ممّا قدّرت أن تفعله، وقد تقدّمت إلى عمّالي في أقطار الأرض بكذا وكذا، وبإبطال السكك والطراز الروميّة، ففعل لملك الروم: افعل ما كنت تهدّدت به ملك العرب، فقال: إنّما أردت أن أغيظه بما كتبت إليه؛ لأنني كنت قادراً عليه، والمال وغيره برسوم الروم، فأما الآن فلا أفعل، لأنّ ذلك لا يتعامل به أهل الإسلام، وامتنع من الذي قال، وثبت ما أشار به محمد بن علي بن الحسين إلى اليوم.

قال: ثم رمى بالدرهم إلى بعض الخدم، وقال: عليّ بالخازن، فأقبل الخازن فقال: ائتني بالحقّ، فأتاه بحقّ فيه خاتم ياقوت يتقدّ كأنه مصباح، فقال للخادم: ضع

لنا هذا على هذا الدرهم الذي معك، وليكن على مقدار إصبعي. ثم قال: أتعرف هذا الخاتم؟ فقلت: لا يا سيدي، قال: إن ملك الترك كان غزا في زمن أبي مسلم سَمَرْقَنْد، وعليها عامل له، يقال له: صبيح بن إسماعيل، ومع ملك الترك قائد لملك الصين كان جليلاً عنده، عظيم القدر، بمنزلة ولي العهد، أمده به لصهر كان بينهما في سبعين ألف رجل، وإن صبيح بن إسماعيل ظفر بعسكر التركي وهزمه، وغنم عامّة ما فيه، وأسر كافة رجاله، وأسر القائد الصيني فيمن أسر، فكان هذا الخاتم في إصبعه، فأخذه منه، وبعث به إلى أبي مسلم، فبعث به أبو مسلم إلى أبي العباس، فأعجب به إعجاباً شديداً، ودعا له مَنْ يبصّره من الجوهريين والمقومين، وسألهم عن قيمته، فلم يحسنوا أن يقوّموه، فلم يزل مرفوعاً في خزانته إلى أن مات، فلما أخرج ما كان في خزانته من الجواهر والذخائر لتباع، أخرج هذا الخاتم، فنودي عليه، وطلبه المنصور، وعيسى بن موسى، وتزايدوا عليه، فبلغ به المنصور أربعين ألف دينار، وحرص على شرائه، واشتدّت عليه مزايده عيسى إياه فيه. فلمّا رأى عيسى أن ذلك قد غاظه، أمسك عنّ مزايده، فاشتراه المنصور بأربعين ألف دينار، فما ظنّك بشيء يشتريه المنصور بهذه الجملة في ذلك الزمان!

وكان الدرهم أعزّ من الدينار في زماننا، فلم يزل في خزانته إلى أن ولي المهدي، فأخرجه، ووهبه لي من دون أخي الهادي، وذلك أنه جعل ولاية العهد له، فأرضاني عن ولاية العهد بهذا الخاتم وبأشياء آخر، فلمّا ولي الهادي طلب منّي الخاتم، فمنعته، ولجّ فيه لجاجاً شديداً، وبعث إليّ سعيد بن سلّم الباهليّ يدعوني، فعلمت لِمَ يدعوني! فأخذت هذا الخاتم وأخرجته من أصبعي، فلمّا توسّطت الجسر قلت لسعيد: انظر إلى هذا الخاتم، ثم رميت به في دجلة، ومضى سعيد إلى الدار فأخبر الهادي بما كان منّي، فبعث بالغواصين إلى الموضع الذي ألقيت فيه الخاتم، فطلبوه أشدّ طلب، فلم يقدرُوا عليه، فلمّا صار الأمر إلينا بعثنا بالغواصين، فأخرجوه، فها هوذا عندي! ثم قال: يا عليّ، أتعبناك بذكر هذه الأموال، وقد عوضناك لإصغائك إلينا بخمسين ألف درهم، فحملت بين يديّ.



وحكي بعد ذلك أن هذا الخاتم صار إلى المأمون، فوهبه لبوران بنت الحسن بن سهل ذي الرياستين، ثم صار إلى المعتصم، ثم إلى المعتزّ والمستعين، فنقشه المستعين، ثم صار كلّ خليفة ينقش عليه اسمه، حتى نقصت من قيمته، وهو الآن عند الخليفة المقتدر بالله.

مَسَاوِي الْمَسَامَرَةِ

عليّ بن محمد بن سليمان الهاشمي، قال: حدّثني أبي، عن سليمان بن عبد الله، قال: وفدت على أبي العباس، فكان يدعوني في كل ليلة مُقامي عنده، ويعقب بين أصحابه وأهل الأقدار والأدب^(١)، ومن يحضر بابه فيسامرونه، فإذا كانت الليلة التي يحضره فيها سعيد بن عمرو بن جعدة بن هبيرة المخزومي، وجدته أم هانئ بنت أبي طالب، وكانت قد كبرت سنّه^(٢)، وشهد عامة سلطان بني أمية - وكانت السنّ قد أرعشتُه - فقال له: يا سعيد، حدّث عن بني أمية، فإنّك لا تزال تحدّث عنهم وعن جواهرهم، فقال: يا أمير المؤمنين، حضرت الجمعة، ونحن مع الوليد بن يزيد، فمضيّنا نريد الجمعة، فإذا سراق قد ضمّت إليه سراقات، ومدّت الحجر في جنبتيه. ووضّع المنبر. وأخذ الناس يتطوّعون وينتظرون الفريضة، فلمّا زالت الشمس أذن المؤذن، فأذنه بالصلاة، فإذا أصوات الملاهي والمعازف والمزامير مقبلة من مضربنا نحونا، فما راعنا إلّا به على هذا الذي يسميه اللّعايون الداربازي، عليه غلالة وإزار مصبوغان بالزعفران، لا يواريان عورته، متّشح بإزار، وهو متخلّق، في فمه^(٣) مزمار؛ حتى أشرف علينا وهو يقول: «طوط. طوط.»! وحكاه الشيخ برعشته، فضحك أبو العباس حتى استلقى على فراشه^(٤)، وضرب مرفقه برجله.

(١) ك: «الأدب».

(٢) ك: «سنّا».

(٣) ك: «وفي فمه».

(٤) ك: «فغاه».

محاسن الإغضاء

حُكي عن بهرام جور، أنه خرج يوماً لطلب الصيد، فاحتمله فرسه حتى دفع إلى راع تحت شجرة، وهو حاقن؛ فقال للراعي: احفظ عليّ عنان فرسي حتى أريق ماءً، فأخذ بركابه حتى نزل، وقبض على عنان الفرس - وكان عنانه ملبساً ذهباً - فوجد الراعي غفلة من بهرام، فأخرج من خُفّه سكيناً فقطع به أطراف اللجام، فرفع بهرام رأسه؛ فنظر إليه فاستحيا، ورمى بطرفه إلى الأرض، وأطال الاستبراء ليأخذ الراعي حاجته من اللجام، وجعل الراعي يفرح بإبطائه عنه؛ حتى إذا ظن أنه قد فرغ، وأخذ من اللجام حاجته قال: يا راعي، قدم إليّ فرسي، فإنه سقط في عيني شيء، وغَمَضُ^(١) عينه لئلا يوهمه أنه يتفقد حليّة اللجام، فقرب الراعي منه فرسه فركبه، فلما ولى قال له الراعي: أيها العظيم، كيف أخذ إلى موضع كذا وكذا مكاناً بعيداً! قال بهرام: وما سؤالك عن هذا الموضع؟ قال: هناك منزلي، وما وطئت هذه الناحية قط غير يومي هذا، ولا أراني أعود إليه أبداً.

فضحك بهرام، وفطن لما أراده الراعي وقال: أنا رجل مسافر، وأنا أحقُّ بالآ أعود إلى هاهنا أبداً، ثم مضى، فلما نزل عن فرسه قال لصاحب مراكبه: إن معاليق اللجام وهبتها لسائل مرّ بي، فلا تتهم أحداً^(٢).



وحُكي عن أنوشروان أنه قعد في يوم نيرُوز أو مهرجان، ووضعت الموائد ودخل وجوه الناس - وكسرى بحيث يراهم ولا يروّنه - فلما فرغ الناس من الطعام وجيء بالشراب في آنية الفضة وجامات الذهب، شرب الأساورة وأهل الطبقة العالية في آنية الذهب، فلما انصرف الناس ورُفعت الموائد أخذ بعض أولئك القوم جام ذهب فأخفاه في قبائه - وأنوشروان يلحظه، فصرف وجهه عنه - وافتقد صاحب الشراب الجام، فصاح: لا يخرجنّ أحد من الدار حتى يفتش! فقال كسرى: لا يُعرَضَنَّ لأحد، وانصرف الناس.

(١) ك: «غض».

(٢) ك: «أحداً بها».

فقال صاحب الشراب: إِنَّا قد فقدنا بعض آنية الذهب، فقال الملك: صدقت، أخذها مَنْ لا يردُّها، ورآها مَنْ لا يخبرك بها.



وَحُكِّي عن مُعاوية بن أَبِي سُفيان، أَنَّهُ قعد لِلنَّاس في يوم عيد، ووُضعت الموائد وبَدُر الدَّراهم للجوائز والصَّلَات، فجاء رجلٌ من الجماعة فقعد على كِيس فيه دنانير، والنَّاس يأكلون، فصاح به الخدم: تنَحَّ، فليس لك هذا الموضع! فسمع معاوية، وقال: دَعُوا الرجل يقعد حيث أَحَبَّ، وأخذ الكيس وقام، فلم يجسُر أحدٌ أن يدنوَ منه، فقال الخدم: أصلح الله الأمير! إنه قد نقص من المال كِيسٌ فيه دنانير، فقال: أنا صاحبه، وهو محسوب عليَّ لكم!



وأحسنُ من هذا ما فعله جعفر بن سليمان بن عليٍّ، وقد عُثِر برجل أخذ دُرَّة رائعة ثمينة من بين يديه، فطُلب بعد أَيَّام فلم يُوجد، فباعها الرَّجُل ببغداد وقد كانت وصفت لأصحابِ الجواهر^(١)، فأخذ وحُمِل إلى جعفر، فلمَّا رآه وبَصُر به استحيا منه، وقال: أَلَمْ تكن طلبتَ هذه الدَّرَّة مِنِّي فوهبتها منك! قال: نعم، فقال: لا تعرِّضوا له. فباعها الرجل بألوف دنانير.

(١) ل: «الجواهر».

مَسَاوِي الإغضاء

قال: بعث زياداً إلى رجال من بني تميم، وجمع العُرفاء، فقال: أخبروني بصُلحاء كلِّ ناحية، فأخبروه، فاختر منهم رجالاً فضمَّهم الطريق، وحدَّ لكلِّ واحدٍ منهم حدّاً، فكان يقول: لو ضاع بيني وبين خراسان شيء لعلمت مَنْ أخذه! وكان يدفن النَّبَّاش^(١) حياً، وينزع أضلاع اللصوص.



قيل: وقال عبد الملك للحجاج: كيف تسير في النَّاس؟ قال: أنظر إلى عجوز أدركت زياداً فأسألها عن سيرته، ثم أعمل بها. قال عَوْفُ الأعرابي: فأخذ واللَّه بسَيِّئِ أخلاقه، وترك أحسنها.



قال: واختصم إلى زياد رجلان، فقال أحدهما: أصلح الله الأمير! هذا يُدِلُّ عليَّ بخاصَّة زعم أنها له منك، فقال: صدق، وسأخبرك، إن كان الحقُّ لك عليه قضيت عليه وقضيتُ عنه، وإن كان الحقُّ له عليك أخذتُك به أخذاً عنيفاً.

(١) النَّبَّاش: الذي ينبش القبور.

محاسن الثاني

قال بعض الحكماء: التَّوَدُّةُ يُمْنٌ، وفي اليَمْنِ النُّجْحُ. وأنشد في ذلك القطامي:
قد يُدرِكُ المتأنِّي بعضَ حاجَتِهِ وقد يكونُ مع المستعجِلِ الزَّلُّ
وقال النبي ﷺ: «من حُرِمَ الرِّفْقُ، فقد حُرِمَ الخير».



ولأَمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه:
أصبر على مَضَضِ الإدلاجِ بالسَّحَرِ وفي الرِّواحِ على الحاجاتِ والبُكَرِ
لا تُضَجِرَنَّ ولا يُعْجِزْكَ مَطْلِبُهَا فالنُّجْحُ يَتَلَفُ بينَ العَجْزِ والضَّجَرِ
إنِّي وجدْتُ وفي الأيامِ تجربةً للصَّبرِ عاقبةً محمودةً الأثرِ
وقل مَنْ جَدَّ في أمرٍ يُحاولُهُ فاستصحبَ الصبرَ إلَّا فاز بالظَّفَرِ
وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «عليك بالرفق، فإن الرفق لا يخالط
شيئاً إلَّا زانه، ولا يفارق شيئاً إلَّا شانه».

وخلق الله جل وعز السموات والأرض في ستّة أيام، ولو شاء جلّ وعزّ لقال
لها: كوني فكانت.
وفي المثل: «رُبَّ عَجَلَةٍ تَهَبُ رَيْثاً»، يقول: ربّ عجلة يُراد بها صلاح الأمر
فتفسده حتى لا يصلح إلّا بعد مدّة طويلة، فكانها كانت ريثاً.
وهذا قريب من قول بُزْجُمَهر: إنَّ شرّاً من التواني الاجتهاد في غير حينه.



وأنشدنا ابن حمزة:
الخُرْقُ شُومٌ والأناةُ سَعَادَةٌ فاستأنِ حِلْمَكَ في أمورِكَ تَسْلَمَ
وكان يقال: إنَّ من الحزم الأناة والتَّثَبُّتُ، فإنَّ العجلة لا تزال تُورث أهلها
حسرةً وندامة. وأنشد:
الرِّفْقُ يُمْنٌ والأناةُ سَعَادَةٌ فاستأنِ في رَفْقٍ تُلاقِ نَجَاحاً

مساوي العجلة والحدّة

قيل: سأل المأمون أحمد بن أبي خالد عن أخلاق أبي عبّاد ثابت الكاتب، فقال: هو يا أمير المؤمنين أحد من سيف سعيد بن العاص، وأنزق من مجنون البكرات، قال: ما أثبت ذلك فيه، قال: لموضع الخلافة، وعلى ذلك فإن حرّكته تحرّك.

فأراد المأمون أن يمتحنه، فدخل عليه، فعرض^(١) ما معه من الحوائج، فأمره أن يوقع فيها. ثم خرج، فلمّا صار بالبواب قال: ردّوه، فرجع، فقال: افعل في الأهوازيين ما قلت لك، ولا تعرض فيه رقعة. قال: نعم، ثم خرج، فلمّا صار بالبواب قال: ردّوه، فأتاه الرسول، فقال: ارجع. فرجع، فقال: قل لعمرو بن مسعدة: آخر أمر أبي ذلف حتى أمرك بما أريد، ثم خرج، فلمّا صار بالبواب قال: ردّوه، فأتاه الرسول فقال: ارجع فرجع، فتناول الدواة وقال: الساعة واللّه أضرب بها وجهك القبيح يا بن الخبيثة! قال الغلام: ما ذنبي؟ قال: ينبغي أن تقول: قد ذهب إلى النار ورجع.

فقال: ارفع، في غد - فيما تعرض - قصّة الهاشميين، قال: نعم، ثم قال: واللّه لا أرجع بعدها.

فضحك المأمون حتى أمسك بطنه، وقال: انطلق راشداً.



قال: وقعد المأمون ذات يوم وأبو عبّاد يكتب بين يديه، إذ دخلت شعرة بين سنّي القلم، فأهوى لإخراجها بأسنانه، ثم كتب، فإذا هي على حالها، فأهوى إليها ثانية فقطع طرفها وبقي أصلها، ثم كتب، فإذا هي قد أعمّت حروفه، فأخذ القلم فاتكأ عليه بأسنانه وكسره، وقال: لعنك الله، ولعن من يراك، ولعن من أنت له! فضحك المأمون وقال: بحق قيل فيك ما قيل!

(١) ك: «يعرض».

محاسنُ المكافأة

قال بعض الحكماء: لا يكوننَّ سلاحُك على عدوك أن تكثير سبّه وشتمّه، فإنّك إنما تخبر عن خبره فيك وعجزك عنه، ولكن عامله بالكظم، وساتره بالحيلة، فإن أقدمت أقدمت مع الفرصة، وإن غلبت على الظفر لم تغلب على ستر العجز.

وقيل: الأدب الصبر على كظم الغيظ حتى تملك الفرصة.



وقال أبو عمرو بن العلاء: لمّا قدم عبد الملك المدينة خطب، فقال: يا أهل المدينة، إنّنا واللّه ما نحبُّكم ما ذكرنا ما فعلتم بنا، ولا تحبُّوننا ما ذكرتم ما فعلنا بكم، وإنّما مثلنا ومثلكم كمثّل حيّة كانت في جحر إلى جنبها خباء رجل، فوثبت عليه فلسعته، فقتلته، فجاء أخو المقتول يطلب بثأره، فقالت له الحيّة: لا تقتلني حتى أؤدّي إليك دية أخيك. ففارقها على ذلك وعاهدها، فكانت تؤدي إليه في كلّ يومين مالا، فلما استوفى أكثر الدية قال: واللّه لو قتلتها كنت قد أدركت ثأري وأخذت الدية، فعمل فأساً وحددها، فلما خرجت إليه أهوى إليها بالفأس فأخطأها، ورجعت إلى جحرها، فأسقط في يده! فقالت: أما واللّه ما الثأر أدركت، ولا الدية استوفيت! فقال: تعالي أعاقذك ألاّ يبدأك مني مكروه حتى أستوفي منك الدية، فقالت: أمّا ما رأيت قبر أخيك تُجاهك وذكرت أنا الضربة فلن أثق بك، ولن تثق بي. ثم أنشد:

ألا هل لنا مولى يحبُّ صلاحنا فيعذرنا من مُرّة المتناصرة



وأنشد في مثله:

ظلمتُ الناسَ فاعترفوا بظلمي فتبتُ فأزَمَعُوا أن يظلموني
فلمستُ بصابرٍ إلا قليلاً فإن لم ينتهوا راجعتُ ديني



آخر:

إِيَّاكَ مِنْ ظُلْمِ الْكَرِيمِ فَإِنَّهُ حُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلَقِمِ
 إِنَّ الْكَرِيمَ إِذَا رَأَى ظِلْمَتَهُ ذَكَرَ الظَّلَامَةَ بَعْدَ نَوْمِ النَّوْمِ
 فَجَفَا الْفِرَاشَ وَبَاتَ يَطْلُبُ ثَأْرَهُ أَنْفَاءً وَإِنْ أَغْضَى وَلَمْ يَتَكَلَّمِ



محاسن الشدة

ذكروا أن جُنْدَب بن العنبر^(١) كان شديد البأس، وأن عوانة بن زيد^(٢) عيّره يوماً فقال:

هَلْ يَسْوَدُ الْفَتَى إِذَا قُبِحَ الْوَجْهُ هُ وَأَمْسَى تَرَاهُ غَيْرَ عَتِيدٍ!
وَإِذَا النَّاسُ فِي النَّدَى رَأَوْهُ نَاطِقًا قَالِ قَوْلَ غَيْرِ سَدِيدٍ
وَكَانَ جُنْدَب فِيهِ دِمَامَةٌ مَعَ إِمْسَاكَ، غَيْرَ أَنَّهُ كَانَ لَيْثًا فِي الْحَرْبِ، فَأَجَابَهُ:
لَيْسَ زَيْنَ الْفَتَى الْجَمَالُ وَلَكِنْ زَيْنُهُ الضَّرْبُ بِالْحُسَامِ التَّلِيدِ
وَكَانَ جُنْدَب عَائِقًا فَقَالَ: وَاللَّهِ لَا تَمُوتُ حَتَّى تُنْصَرَ عَلَيْكَ ظَعِينَةٌ^(٣).

وإنَّ عَوَانَةَ خَرَجَ يَوْمًا يَتَصَيَّدُ عَلَى فَرَسِهِ وَمَعَهُ قَوْسُهُ، فَسَارَ غَيْرَ قَلِيلٍ إِذْ عَرَضَتْ لَهُ جَارِيَةٌ قَدْ حَمَلَتْ وَطْبًا مِنْ لَبَنٍ، فَهَمَّ بِهَا فَدَنَّا، فَقَالَ: تَمَكِّنِي طَائِعَةً أَوْ تَقَهَّرِي؟ فَقَالَتْ: لَا إِحْدَاهُمَا. فَنَزَلَ إِلَيْهَا فَأَخَذَتْ سَاعِدَيْهِ بِأَحْدَى يَدَيْهَا، فَمَا زَالَتْ تَعَصْرُهُمَا حَتَّى تَرَكَتَهُمَا وَمَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحْرَكَهُمَا، ثُمَّ كَتَفَتْهُ بَوْتَرٍ قَوْسٍ، وَشَدَّتْ حَبْلَ الْفَرَسِ فِي جِيدِهِ، ثُمَّ قَالَتْ: خُذْ بِنَا نَحْوَ مَحَلَّةِ جُنْدَبٍ، فَمَرَّ يَقُودُ الْفَرَسَ^(٤) فِي جِيدِهِ حَبْلٌ، فَلَمَّا قَارَبَ الْحَيَّ بَصُرَ بِجُنْدَبٍ مُقْبِلًا فَنَادَاهُ: أَيُّهَا الْمَرْءُ الْكَرِيمُ، «انْظُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا». فَذَهَبَ مِثْلًا فَأَطْلَقَهُ^(٥).



ومنهم كليب بن شؤبوب الأزدي^(٦)، كان أخبث أهل زمانه في قَطْعِ الطَّرِيقِ

(١) مجمع الأمثال للميداني: «ابن عمرو بن تميم».

(٢) مجمع الأمثال: «سعد بن زيد مناة».

(٣) الميداني: «لتأسرنك ظعينة».

(٤) ك: «فرسه».

(٥) الميداني: ٢: ٣٣٤، مع اختلاف في الرواية.

(٦) الميداني: «كليب الأسدي».

وحده، وكان كثير الغارة على طيئ، فدعا حارثة بن لأم الطائي رجلاً من قومه يقال له: عبرم^(١)، وكان شجاعاً، فقال له: أما تستطيع أن تكفينا هذا! قال: نعم؛ فأرسل العيون حتى علم مكانه، فانطلق إليه حتى وجده نائماً في ظل أراكة، وفرسه مشدودٌ عنده، فنزل عبرم ورجل معه، فمشيا حتى أخذ كل واحدٍ منهما بإحدى يديه، فانتبه، ونزع يده اليمنى فقبض على حلق صاحب اليسرى، وهو عبرم، فما زال يخنقه حتى قتله، وقد كان أعدّ قوماً فلحقوه، وهم عشرة؛ فوجدوه قتيلاً، وأخذوا كلياً فكتفوه وساقوه. وأنشأ خودة^(٢) بن عبرم يرثي أباه ويقول:

إلى الله أشكو أن أووبَ وقد ثوى
فمات ضياعاً هكذا بيدِ امرئٍ
ولكن ثوى لم يكلم السيفُ جيدهُ
فأنت ابنُ شُبوبٍ فيا لهفتا لهُ
سأسقيك قبل الموتِ كأساً مزاجها
فأجابه كليب:

أخوذة إن تفخر وتزعم بأنني
فأقسمُ بالبيتِ المحرمِ من منى
لضُبِّ بقفرٍ من قفارٍ وضبعةُ
ألا عجباً من فخر هذا وأمه
أتوعدني بالمنكراتِ وإنني
وأعلمُ أنني ميتٌ لا محالة

فأراد خودة قتله، فمنعه أصحابه حتى يذهبوا به إلى حارثة فلما انتهوا إليه قال له حارثة: يا كليب، أنت أسير، فقال: «من ير يوماً ير به»، فذهبت مثلاً^(٥).

فدفعه إلى خودة فخنقه حتى مات.



(١) الميداني: «عترم».

(٢) الميداني: «خودة».

(٣) ورد البيت مصحفاً في ط، وأثبت ما في الميداني.

(٤) الميداني: «لثيم فمتى عترم اللؤم الأم».

(٥) الميداني: ٣٠٤: ٢.

ومنهم هُدْبَةُ بن خَشْرَم، قتل ابن عمّ له يسمى زيادة بن زيد، فحبس ليقاد به، فلم يزلُ محبوساً حتى شبَّ ابنُ المقتول فدخل عليه السجن، وهو يلاعب صاحِباً له بالشَّطرنج، فقبل له: قُم إلى القتل، فقال: حتى أفرِّغ من لعبتي، فلمَّا فرغ خرج وجعل يُهرول، فقبل له: ما بالك تأتي الموت هكذا! فقال: لا آتيه إلا شداً، فلقِيَه عبد الرحمن بن حسان، فقال أنشدني: فأَنشده:

أَلَا عَلَّلَانِي قَبْلَ نَوْحِ النِّوَانِحِ وَقَبْلَ أَطْلَاعِ النَّفْسِ بَيْنَ الْجَوَانِحِ^(١)
وَقَبْلَ غَدٍ يَالْهَفَ نَفْسِي عَلَى غَدٍ إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَلَسْتُ بِرَائِحِ
إِذَا رَاحَ أَصْحَابِي وَخُلِفْتُ ثَاوِيَاً بِدَاوِيَةٍ بَيْنَ الْمَتَانِ الضَّحَاحِ
قال: ثم أقعد ليقاد، فنظر إلى أبويه فقال:

أُبْلِيَانِي الْيَوْمَ صَبْرًا مِنْكُمْ إِنَّ حُزْنَاً مِنْكُمْ بَادٍ لَشَرٍّ^(٢)
لَا أَرَى ذَا الْمَوْتِ يُبْقِي أَحَدًا إِنَّ بَعْدَ الْمَوْتِ دَارَ الْمُسْتَقَرِّ
ثم نظر إلى امرأته، فقال لها:

فَلَا تَنْكِحِي إِنْ فَرَّقَ الدَّهْرُ بَيْنَنَا أَغْمَ الْقَفَا وَالْوَجْهَ لَيْسَ بِأَنْزَعَا^(٣)
وَكُونِي حَبِيسًا أَوْ لَأَزُوعَ مَاجِدٍ إِذَا ضَنَّ أَغْسَاسُ الرِّجَالِ تَبْرُعَا
فمالت زوجتُه إلى جِزَارٍ؛ فأخذتُ مُدْيَتَهُ، فقطعت بها أنفها وجاءته مَجْدُوعَةً، فقالت: أتخافُ أن يكون بعد هذا نكاح! فرسف في قيوده وقال: الآن طاب الموت!

فلما قُدِّمَ ليقاد بابن عمِّه وأخذ ابن زيادة السيف، فضُوعِفَتْ له الدِّية حتى بلغت مائة ألف درهم، فخافت أم الغلام أن يقبل ابنها الدِّية ولا يقتله، فقالت: أعطِي الله عهداً لئن لم تقتله لأتزوجنَّه، فيكون قد قتل أباك ونكح أمك. فقتله^(٤).



قال: ولما واقع طلحة والزُّبير عثمان بن حنيف عاملَ عليّ بن أبي طالب

(١) الأول والثاني في ديوان الحماسة ٣: ١٢٦٦ - بشرح التبريزي، ونسبهما إلى أبي الطمحان القيني.

(٢) الكامل ٤: ٨٧.

(٣) قبله في الكامل: ٤: ٨٦.

فإن يَكُ أنفِي بآن منه جماله فما حَسَبِي فِي الصَّالِحِينَ بِأَجْدَعَا
(٤) أخبار مقتل هذبة في الكامل ٤: ٨٤ - ٨٧.

رضي الله عنه على البصرة، خرج حُكَيْم بن جبلة العبدِيّ، فشدَّ عليه رجل من أصحاب طلحة، فقطع رجله، فزحف إلى رِجله حتى أخذها ورمى بها فأطَّتها، فقتله وهو يقول:

يَا رَجُلُ لَا تُرَاعِي إِنَّ مَعِيَ ذِرَاعِي^(١)

ثم حبا إلى المقتول فاتكأ عليه، ف قيل له: يا حُكَيْم، من ضربك؟ فقال: وسادتي^(٢).



وعن معاذ بن الجَمُوح، قال: سمعتُ النَّاس يوم بدر يقولون: أبو الحكم! لا يُخَلِّصَنَّ إليه - يريدون أبا جهل - فلمَّا سمعتها جعلته من شَأني، فصمدتُ نحوه، فلمَّا أمكنني حملتُ عليه، فضربته ضربة أطَّت قدمه بنصف ساقه، فوالله، ما شَبَّهتها حين طاحت إلَّا بالنواة تطيح من تحت مِرْضخة النوى.

قال: وضربني عِكرمة بن أبي جهل على عاتقي، فطرح يدي، فتعلَّقت بجلدة من جنبي، فأجهضني القتال عنه، فلقد قاتلت عامَّة يومي، وإني لأسحبها خلفي، فلمَّا آذنتني وضعت عليها قدمي، ثم تمطَّيت بها حتى طرحتها.



قيل: ولما حُبل رأس محمد بن عبد الله بن الحسن إلى المنصور من مدينة الرسول عليه وعلى آله السلام، قال لمُطِير بن عبد الله: أما تشهد أنَّ محمداً بايعني! قال: أشهد بالله لقد أخبرتني أنَّ محمداً خيرُ بني هاشم، وأنتك بايعتَ له! قال: يابن الزانية، أنا قلت! قال: الزانية ولدتك! قال: يابن الزانية الفاعلة، أتدري ما تقول؟ قال: التي تعني خيرٌ من أمك، فأمر به، فوَّد في عينيه فما نطق.



قيل: وقَدِمَ أعرابيٌّ على عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه يستحمله؛ فقال: خُذْ بغيراً من إبل الصدقة، فنظر إلى بغير منها فتعلَّق بذنبه، ونازعه البعير، فاقتلع ذنبه، فقال عمر: هل رأيتَ أشدَّ منك؟ قال: نعم، خرجتُ بامرأة من أهلي أريد

(١) في الطبري:

أَقُولُ لِمَا جَدَّ بِي زَمَاعِي لِـرَجُلٍ يَارَجُلِي لَا تُرَاعِي

* إن معي من نجلد ذراعي *

(٢) الطبري ١: ٣٣٣٦ (طبع أوروبا).

بها زوجها، فنزلت منزلاً أهله خُلف، فدنوتُ من الحوض، فإذا رجل قد أقبل ومعه ذُوْدٌ لَهُ، فصرف ذُوْدَهُ إلى الحوض وأقبل نحو المرأة، ولا أدري ما يريد؛ فلما قرب منها ساورها، فنادتني، فلما انتهيت إليه كان قد خالطها، فجئت أدفعه، فأخذ رأسي فوضعه بين ذراعه وجنبه، فما استطعت أن أتحرّك حتى قضى ما أراد، ثم قام فاضطجع، وقالت: نِعَمَ الفحل هذا لو كانت لنا منه سَخْلَةٌ! فأمهلته حتى امتلأ نوماً، ثم قمْتُ إليه فضربت ساقه بالسيف فأطنتها^(١)، فوثب، فهربت، وغلبه الدّمُ فرماني بساقه، فأخطأني، وأصاب بعيري فقتله.

فقال عمر: فما فعلت المرأة؟ فقال: هذا حديث الرجل، فكّرر عليه مراراً، كلّ هذا يقول: هذا حديث الرجل!



عمر بن شَبّة النُمَيْرِيّ أبو زيد، قال: كان عليّ بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين من آل الأَفْطُس، وكان يلقّب بالجزريّ، فتزوَّج رُقِيَّةَ بنت عمرو العثمانية، وكانت تحت^(٢) المهديّ، فبلغ ذلك الهادي فأرسل إليه، فحمّله، وقال: أعياءُ النِّساءِ إلّا امرأةُ أمير المؤمنين! فقال: ما حرّم الله عزّ وجلّ على خَلْقِهِ إلّا نساءَ جدّي ﷺ، فأما غيرهنّ فلا ولا كرامة! فشجّه بمِخْصَرَةٍ كانت في يده، وأمر بضربه خمسمائة سوط، وأراده على أن يطلقها فلم يفعل، فحُمِلَ من بين يديه في نِطْعٍ، فأُلْقِيَ ناحية، وكان في يده خاتم سريّ، فرآه بعض الخَدم وقد غُشِيَ عليه، فأهْوَى إلى الخاتم، فقبض على يد الخادم فدقّها، فصاح: الموت دقّ يدي! فسمعه الهادي فدعاه، فرأى ما به، فاستشاط فقال: تفعل هذا بخادمي مع استخفافك بي، وقولك لي! قال: قل له وسله ومرة أن يضع يده مرة على رأسك ليصدقنّ. ففعل ذلك موسى، فصدّقه الخادم، فقال: أحسن والله؛ أنا أشهد أنه ابن عمّي؛ لو لم يفعل ذلك لانتفيت منه. وأمر بإطلاقه ووصله بمائة ألف درهم^(٣).



قيل: وخطب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: تقول قريش: جزع ابن أبي طالب من الموت، والله لعليّ أنس بالموت من الطّفْلِ بثدي أمّه!



(٢) ل: «تحب».

(١) أطنتها: قطعتها.

(٣) تاريخ الطبري ٣: ٥٨٧.

قيل: ولمّا كان في حرب صفّين، والنّاس في أشدّ ما يكون من الحرب، قال عليّ رضوان الله عليه: ألا ماءً فأشربه! فأناه شابٌّ من بني هاشم بشربة من غسل فتناوله وقال: يا فتى، غسلك هذا طائفيّ. قال: سبحان الله! في هذا الوقت تعرف الطائفي من غيره! فقال: إنّه لم يملأ صدر ابن عمّك شيء قطّ.



وحكي عنه رضوان الله عليه أنّه قال: ما أبالي وقعت على الموت أو وقع الموت عليّ!



حدثنا الوضّاحيّ، عن معمر بن وهيب، قال: قال عبد الملك بن مروان عند موته للوليد وهو يبكي عند رأسه: ما هذا البكاء، وحنين النساء! ثكلتك أمك! ألا تتأهب للخلافة بشدة سطوتك، وقلة رحمتك لناقض بيعتك، وتجريد سيفك للمبدي ذات طويته! فقال له قبيصة بن ذؤيب: ليس هذا أمر الله جلّ وعزّ، فقال: ما كنت لأمر بغيره! ثم قال:

بنو الحرب لا نعيًا بشيء نريده ولسنا على ما أحدث الدهر نجزع
جلاد على ريب الزمان فلن ترى على هالك عيناً لنا الدهر تدمع



وأنشدنا غيره في مثله:

وإنّا لقوم ما تفيض دموعنا على هالك منّا وإن قصم الظهرا
ولسنا كمن يبكي أخاه بعبرة فيعصرها من جفن مقلته عصرا
ولكننا نشفي الفؤاد بغارة تلهب من قطني جوانبها جمرًا



ولآخر في مثله:

سقياً ورعيّاً وإيماناً ومغفرةً للباقيات علينا يوم نرتحل!
يبكى علينا ولا تبكي على أحدٍ لنحن أغلظ أكباداً من الإبل!^(١)



(١) في هذا البيت إقواء.

ولآخر في نحوه:

إذا استلبَ الخوفُ الرجالَ قلوبَها صَبَرْنَا على الموتِ النَّفُوسَ الغَوَالِيَا
حَذَارَ الأحاديثِ التي غَبَّ يومِها عَقَدْنَ بأعناقِ الرِّجالِ المخَازِيَا



ولآخر في مثله:

مُقْتَلُونَ وَقَتَّلُونَ مِيتَتَهُمْ كما تَقْتُلُ أسدُ الغابِ في الأَجَمِ
والقَتْلُ عادَتُهُمْ، والقَتْلُ مَكْرَمَةٌ ولا يَمُوتُونَ مِنْ داءٍ ولا هَرَمِ
وبالوُجوهِ جراحٍ ما تَشِينَهُمْ وما بِهِمْ طَعْنَةٌ في ظَهرِ مَنْهَزِمِ



ولآخر في مثله:

سَدَكْتَ أناملَهُ بقائِمِ سِيفِهِ وَبَنَشَرِ فائِدَةٍ وَذُرُوءَةٍ مِنْبَرِ^(١)
ما إِنْ يَزَالُ إذا الرِّماحُ شَجَرْنَهُ متَسَرِّباً سُرْبَالِ طَيِّبِ العُنْصُرِ
يَلْقَى الرِّماحَ بِصَدْرِهِ وَبَنَحَرِهِ^(٢) وَيَقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ المِغْفَرِ
أَوْمَى إلى الكُرْماءِ: هذا طَارِقٌ نَحَرْتَنِي الأَعْدَاءُ إِنْ لَمْ تُنَحِرِ!



وللما مون:

نَحْنُ الذِّينَ إذا تَخَمَّطَ^(٣) عُصْبَةٌ مِنْ مَعَشَرَ كُنَّا لَهَا أنْكَالاً
وتَرى القُرُومَ مَخَافَةً لِقُرُومِنا قَبْلَ اللِّقَاءِ تَقْطُرُ الأبْوَالاً
نَرِدُّ المَنِيَّةَ لا نَخَافُ ورُودَها تَحْتَ العَجاظَةِ والعِيونُ تَلالاً
نُعْطِي الجَزِيلَ فلا نَمُنُّ عِطَاءَنا قَبْلَ السَّوَالِ، وَنَحْمِلُ الأَثْقَالَ
وَإذا البَلادُ على العِبادِ تَزَلْزَلَتْ^(٤) كُنَّا لَزَلْزَلَةِ البَلادِ جِبالاً

(١) سَدَكْتَ، أي لَزَمْتُ، وفي ك: «لصقت».

(٢) ك: «بوجهه وبنحره».

(٣) تَخَمَّطَتْ: ثارت وغلضبت.

(٤) ل: «على الأنام».

مَسَاوِي الْجُبْنِ

قيل في المَثَل: «هو أجبن من هَجْرَس»^(١)؛ وهو القَرْد؛ وذلك أنه لا ينام إلا في يده حَجَرٌ مَخَافَةَ أَنْ يَأْكَلَهُ الذَّبُّ.



وحدَّثنا رجلٌ بمَكَّةَ، قال: إذا كان الليل رأيت القُرود تجتمع في موضع^(٢) واحد، ثم تبيتُ مستطيلاً، واحداً في أثر واحد، في يد كل واحدٍ منها حَجَرٌ لئلا ترقد فيأْتِيهَا الذَّبُّ فيأْكُلُهَا، فإن نام واحد وسقط الحجر من يده فزعت، فتحوّل الآخر فصار قدامها، فلا تزال كذلك طول الليل^(٣)، فتصبح وقد صارت من الموضع الذي باتت فيه على ثلاثة أميال وأقل أو أكثر جُبناً.



وقيل أيضاً: «هو أجبن من صَافِر»^(٤)، وهو طائر يتعلّق برجليه وينكس رأسه، ثم يصفر ليلته كلها خوفاً من أن ينام فيؤخذ. ويقال أيضاً: إنّ الصافر هو الذي يصفر لريّة.



وذكروا أنّ رجلاً كان يأتي امرأة وهي جالسة مع بنيتها وزوجها، فيصفر لها، فتقوم وتخرج عَجْزَهَا من وراء الباب وهي تحدث ولدها، فتقضي حاجتها وحاجته وينصرف، فعلم بذلك بعض بنيتها، فغاب عنها يومها، ثم جاء في ذلك الوقت وصفر ومعه مسمارٌ محمى، فلمّا جاءت لعادتها كواها به، فجاء الرجل بعد ذلك فصفر، فقالت: «قد قلّينا صفيركم»، فضربه الكُميت مثلاً في قوله:

أَرْجُو لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي مَوَدَّتِكُمْ كَلْباً كَوَزْهَاءَ تَقْلِي كُلَّ صَفَّارٍ

(١) مجمع الأمثال ١: ١٨٥.

(٢) ك: «مكان».

(٣) ك: «ليلتها».

(٤) مجمع الأمثال ١: ١٨٤.

لَمَّا أَجَابَتْ صَفِيرًا كَانَ يَأْلُفُهَا مِنْ قَابِسٍ شَيْطَ الْوَجَعَاءِ بِالنَّارِ



وقيل أيضاً: «هو أجبن من المنزوف ضرطاً»^(١)؛ وكان من حديثه أن نسوة من العرب لم يكن لهنّ رجل، فتزوّجت واحدة منهنّ برجل كان ينام إلى الضحى؛ فإذا أتينه بصُبوحة قُلن له: قم فاصطحب، فيقول: لو لعادية تنبّهني! فقلن: هذه نواصي الخيل، فجعل يقول: الخيل، الخيل! ويضُرط حتى مات، فضرب به المثل.



قيل: وخرج رُهم بن خَشَرَم الهلاليّ، ومعه أهله وماله، يريد الثُقلة من بلد إلى بلد، فلقيه قومٌ من بني تغلب، فدهش ورعب رعباً شديداً، فقال: يا بني تغلب، شأنكم في المال وخلوا عن الطعينة! فقالوا: رضينا إن ألقيت الرمح! فرجع إليه عقله وقال: أو معي رمح! وحمل عليهم فقتل منهم رجلاً ثم صرع آخر، وأنشأ يقول:

رَدُّوا عَلَى آخِرِهَا الْآتَالِيَا إِنَّ لَهَا بِالْمَشْرِفِيِّ حَاذِيَا
ذَكَرْتَنِي الطَّعَنَ وَكُنْتُ نَاسِيَا

فانهزم الباقون، ونجا هو بالمال والطعينة، ومرّ نحو وطنه سالماً!



قيل: وكان في بني ليث رجل جبان فخرج رهطه، وبلغ ذلك ناساً من بني سليم، كانوا أعداءهم، فلم يشعر الرَّجُلُ إِلَّا بخيلٍ قد أحاطت بهم، فذهب يفرُّ فلم يجد مفرّاً، ووجدهم قد أخذوا عليه كلّ وجه، فلمّا رأى ذلك جلس؛ ثم أبرز كنانته وأخذ قوسه وقال:

مَا عَلَّتِي وَأَنَا جَلْدُ عَابِلٍ^(٢) وَالْقَوْسُ مِنْ نَبْعِ لَهَا بَلَابِلٍ!
يَرُنُّ فِيهَا وَتَرُّ عُنَابِلٍ^(٣) إِلَّا أَقَاتُلْكُمْ فَأُمِّي هَابِلُ
أَكُلُ يَوْمٍ أَنَا عَنْكُمْ نَاكِلُ لَا أَطْعَنُ الْقَوْمَ وَلَا أَقَاتِلُ!
الْمَوْتُ حَقٌّ وَالْحَيَاةُ بَاطِلُ

فقاتلهم، فانهزموا، فصار بعد ذلك أشجع قومه.



(١) مجمع الأمثال: ١: ١٨٠.

(٢) الوتر العنابل: الغليظ.

(٣) العبل: الضخامة والقوة.

قيل: وخرج أبو دُلَامَة مع رَوْح بن حاتم إلى بعض الحروب، فلَمَّا التقى الجمعان قال أبو دُلَامَة لرَوْح: أصلح الله الأمير! لو أنَّ تحتي فرساً من خيلك، وفي وسطي ألف دينار لأشجيت أعداءك، نجدة وإقداماً، فقال رَوْح: ادفَعوا إليه ذلك، فدفع إليه، فلَمَّا أخذه أنشأ يقول:

إني أعودُ برَوْح أن يُقدِّمَنِي إلى القتالِ فيشقى بي بنو أسدِ
إنَّ المهلبَ حُبَّ الموتِ أورثكم ولم أرث نجدةً في الموتِ من أحدٍ!
فأجابه رَوْح:

هَوْنٌ عليك فلنْ أريدك في الوغى لَطَاعِنٍ وَتَنَازُلٍ وضرابِ
كُنْ آخراً في القومِ تنظرُ واقفاً فإنْ انهزمتْ مشيتَ في الهَرَابِ
فأجابه أبو دُلَامَة:

هذي السُّيُوفُ رأيتها مشهورةً فتركتها ومضيتُ في الهَرَابِ
ماذا تقولُ لما يجيء ولا يرى من بادرَاتِ الموتِ من نُسَابِ!
فضحك رَوْح، فأعفاه وانصرف.



وحدَّثني أبو مالك عبد الله بن محمد، قال: لما تُوفِّي أبو العباس السَّفَّاح دخل أبو دُلَامَة على أبي جعفر المنصور، والنَّاس عنده يعزُّونه، فقال: يا أمير المؤمنين، كان أبو العباس أمر لي بعشرة آلاف درهم وخمسين ثوباً، وهو مريض، فلم أقبضها، فقال المنصور للخازن: ادفَعها إليه، وسيَّره إلى هذا الطاغية - يعني عبد الله بن علي - فقال أبو دُلَامَة: يا أمير المؤمنين أعيذك بالله أن أخرج معهم، فأني والله مشؤوم، فقال: لعلَّه يغلب شؤمُك! فأخرج مع العسكر، فقال: والله ما أحبُّ لك يا أمير المؤمنين أن تجرَّب ذلك، فأني لا أدري على أيِّ الفريقين يكون!
فقال أبو جعفر: دعني من هذا، ما نريد غيرَ المسير، فقال: يا أمير المؤمنين، والله لأُصدِّقَنَّكَ، إني شهدت تسعةَ عساكر كلها هُزِّمَتْ، فأنا أعيذك بالله أن تكون العاشر! فاستفرغ أبو جعفر ضحكاً وأمره أن يتخلف.



قال: وقيل لجبان: انهزمتَ فغضب عليك الأمير! فقال: يَغْضَبُ عليَّ الأمير وأنا حيٌّ أحبُّ إليَّ من أن يرَضَى عني وأنا ميت.



قال: وقيل لبعض المجان: ما لك لا تغزو! فقال: والله إني لأبغض الموت على فراشي، فكيف أسير إليه ركضاً!



قال: وقال الحجاج لحُميد الأرقط - وقد أنشده قصيدة يصف فيها الحرب: يا حُميد، هل قاتلت قط؟ قال: لا، أيها الأمير إلا في النوم! قال: وكيف كانت وقعتك؟ قال: انتبهت وأنا منهزم!



وقال عمرو بن بحر الجاحظ: سمعت بلالاً يحكي عن أصحابه أن رئيسهم كان يسمّى إبريقياً، وأنهم خرجوا في سفر، فإذا بعشرة نفر من اللصوص قد تعرّضوا لهم، قال: وكان أشدّ أصحابنا والمنظور إليه منّا فتى يقال له: دومني، بطل شديد لا يهولُه شيء، مطاعن مسابق. فحمل على رجل منهم، فعطف عليه الرجل، فقطع أنف دومني ونزع خُصِيَّه، وكسر أسنانه. فرجع منهزماً. فغاضني ذلك، وأخذت كسائي وطويته بطاقيْن ولَفَقْتُهُ على يدي، وأخذت عَصَاي، وأخذ آخر ملحفة والدته فلَقَّها على ذراعيه، وأخذ آخر طبقاً كبيراً من أطباق الفاكهة فستَر به وجهه وخرجنا، وتقدم رئيسنا إبريقياً وقد لفَّ على يده قطيفة وهو يقول:

إنّ تنكروني فأنا ابنُ كلب

فقال له بعض اللصوص: ما تُنكر ذلك عليك، فشدّ عليه إبريقياً بأسفل دَن كان معه فلم يُحِكْ^(١) فيه، فأخذ اللص أسفل الدَن فرمى به إبريقياً، فهشَم وجهه، وكسر أسنانه، وتنحّى إبريقياً، وأقبل منا آخر يسمى لِقْوَة؛ وأنشأ يقول:

إنّ عصاي فاعلموا مُقَيَّرَه أضرب بها وجه اللصوص الكفَرَه
ثم شدّ على واحد^(٢) منهم فضرب مفرق رأسه فلم يُحِكْ فيه، واستلب العصا منه وطلاه بها طلياً، فإذا هو قد خلع منكبه، وكسر أضلاعه، وبقي لا يُحلي ولا يُمرّ، ثم أقبل فتى من أصحابنا وفي يده مِجْرَفَة وهو يقول:

أنا ابن كهل في يدي مِجْرَفَه واللّه لو كان بكفّي مِغْرَفَه
وهي لعمري قد كستني ملحفة والدتي كريمة منظره
قتلتكم فكيف عندي مِجْرَفَه

(١) لم يحك: لم يؤثر.

(٢) ك: «عليه واحد».

فضرب بالمجرفة واحداً من اللصوص فأخطأه، وعطف عليه اللص فأخذها من يده، ثم ضربه بها ضربةً فدار سبع مراتٍ، وسقط وقد غشي عليه، فلما رأيت ذلك عدتُ إلى الطعان وأنا أقول:

أنا فلانٌ سيِّدُ الفتيانِ أنا ابنُ حُمرانٍ فتى الميْدانِ
أحلفُ بالله وبالفرقانِ لأضربَنَّ القومَ باليمانِ
ضربَ غلامٍ ماجدٍ كَشْحانِ والعجزُ منسوبٌ إلى الجبانِ
فأشدُّ على واحدٍ منهم، فأضرب كَفَّيه؛ فوثب قبل أن تصل إليه الضربة، فضربني فهشم أنفي، وكسر أسناني، وخرجت مغشياً عليّ، ثم فتحت عيني فلم أر منهم أحداً، ولا أدري كيف أخذوا! فالحمد لله على الظفر.



ما قيل في ذلك من الشعر

ما أحسنَ الضربةَ في وجهه إن لم تكنَ رَمحةً بِرُذُونِ
ولآخر:

ويَحسبُها الشجاعُ قِرَاعَ سَيْفٍ ويَحسبُها الجبانُ قِرَاعَ ثَوْرِ



آخر:

جَبانُ اللقاءِ وعندَ الخِوَا نِ أمضي وأشجعُ من رُسْتَمِ
فلو كنتَ تَفْعَلُ ذا في الحُرُوبِ أَعَرْتَ على الثُّرُكِ والدَّيْلَمِ



كاتب الحسن بن زيد:

ظَلَّتْ تُشَجِّعُنِي ضَالًّا بِتَضْلِيلِ ولِلشجاعةِ خَطْبٌ غيرُ مَجْهولِ
هَاتِي شجاعاً بغيرِ القتلِ مَضْرَعُهُ أَوْجِدْكَ أَلْفَ جَبانٍ غيرِ مَقْتولِ
الحرْبُ تُوسِعُ مَنْ يَصْلَى بها حَرْباً يُتَمِّمُ البَنِينَ وإِثْكَالَ المِثْاكِيلِ
واسمُ الوَعَى اشتَقُّ من عَوْغَاءِ تَبْصِرْها يَغْدُونَ لِلْمَوْتِ كالطيرِ الأَبابِيلِ
واللَّهْ لَوْ أَنَّ جَبْرِيلاً تَكْفَلَ لِي بالتَصَرِّ ما خَاطَرَتْ نَفْسِي بِجَبْرِيلِ
هَلْ غَيْرَ أَنْ يَعدِّلُونِي أَنَّنِي فِشَلٌ فكل هذا نعم فاعرُّوا بتعذيلي!

إِنْ أَعْتَذَرَ مِنْ فَرَارِي فِي الْوَعَى أَبَدًا
 أَسْمَعُ أَخْبَرَكَ عَنْ بَأْسِي بِذِي سَلَمٍ
 لَمَّا بَدَتْ مِنْهُمْ نَحْوِي عَشَوَزَنَةٌ
 فَقُلْتُ: وَيَحْكُمُ لَا تُذْهِبُوا جَلْدِي
 لَمَّا اتَّقَيْتَهُمْ طَوْرًا بِذَاتِ يَدٍ
 اللَّهُ خَلَّصَنِي مِنْهُمْ وَفَلَسَفَتِي
 لَكَ أَنْ ذَلِكَ عَذْرًا غَيْرَ مَقْبُولٍ
 خِلَافَ بَأْسِ الْمَسَاعِيرِ الْبَهَالِيلِ
 تُشْرَعُ الْمَوْتُ فِي عَرْضِي وَفِي طُولِي
 رُمَحِي كَسِيرٌ وَسَيْفِي غَيْرُ مُسْلُولٍ
 وَانْصَعْتُ أَطْوِي الْفَلَامِيلَ إِلَى مِيلٍ
 حَتَّى تَخْلَصْتُ مَخْضُوبَ السَّرَاوِيلِ



ولآخر:

أَضَحْتُ تُشَجِّعُنِي هِنْدٌ وَقَدْ عَلِمْتُ
 لَا وَالَّذِي حَجَّتِ الْأَنْصَارُ كَعْبَتَهُ
 لِلْحَرْبِ قَوْمٌ أَضَلَّ اللَّهُ سَعِيَهُمْ
 وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا أَهْوَى فَعَالَهُمْ
 قَطْرُ النَّحْوِيِّ:
 أَنْ الشَّجَاعَةَ مَقْرُونٌ بِهَا الْعَطْبُ
 مَا يَشْتَهِي الْمَوْتُ عِنْدِي مَنْ لَهُ أَرْبُ
 إِذَا دَعَتُهُمْ إِلَى حَوْمَاتِهَا وَثَبُّوا
 لَا الْقَتْلُ يُعْجِبُنِي مِنْهُمْ وَلَا السَّلْبُ

مَا لِي وَمَا لِكَ قَدْ كَلَّفَتْنِي شَطَطًا
 أَمِنْ رِجَالِ الْمَنَايَا خِلَتْنِي رِجَالًا
 تَمْشِي الْمُنُونُ إِلَى غَيْرِي فَأَكْرَهُهَا
 هَلْ خِلْتُ أَنَّ سَوَادَ اللَّيْلِ غَيَّرَنِي
 حَمَلَ السِّلَاحِ وَقَوْلَ الدَّارَعَيْنِ: قَفْ!
 يُمَسِّي وَيُصْبِحُ مُشْتَقًّا إِلَى التَّلَفِ
 فَكَيْفَ أَمْشِي إِلَيْهَا عَارِي الْكِتِفِ!
 وَأَنْ قَلْبِي فِي جَنْبِي أَبِي دَلَفِ!



محاسن النظر في المظالم

قال: دخل رجل في جماعة من الناس على سليمان بن عبد الملك وهو جالس للعامّة، فقال: يا سليمان، أذكرك يوم الأذان! قال: فارتاع لما دعاه باسمه وقال: ويحك! وما يوم الأذان؟ قال: قول الله جلّ وعزّ: ﴿فَأَذِّنْ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فبكى سليمان وقال له: ما حاجتك؟ فقال: أنا جارّ في ضيعة الفلانيّة، وقد ظلمني وكيلك فأضّرّ ذلك بي وبعيالي، قال: قد وهبت لك الضيعة، وكتب إلى وكيله بتسليمها إليه.



قيل: وقدم رجل من حلوان مصر على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ والدك وليّ بلادنا، فكتب إلى عبد الملك^(١) يخبره أن حلوان صافية، وهي أرض خراج، فأقطعها إياه، فورثتها أنت وأخوتك، فاتفق الله ولا تظلمنا كما ظلمنا أبوك، فإنه كان شيخاً ضعيف الخرج^(٢)، وأنت رجل مخرج^(٣). فقال عمر: إن كان أبي كما ذكرت فهو أبي لا أبوك، نازعني منازعة جميلة، ولا تشتم عرضي، فإنّ لي فيه شركاء: إخوة وأخوات لا يرضون أن أقضي فيها بغير قضاء قاض، أقوم معك إلى القاضي، فإن قضى لي اضطبرت، وإن قضى لك سلّمت، قال: إن قمت معي إلى القاضي فقد أنصفتني.

فقاما جميعاً إلى القاضي، فقعدا بين يديه، فتكلم عمر بحجّته، وتكلم الرجل، فقضى القاضي للرجل، فقال عمر: إنّ عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم، فقال القاضي: قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك.

فقال عمر: وهل القضاء إلا هذا! لو قضيت لي ما وليت لي عملاً أبداً. فخرج إلى الرجل من حقّه.



(١) هو عبد الملك بن مروان، الخليفة، أخو عبد العزيز بن مروان والد عمر بن عبد العزيز.

(٢) الخرج والخراج كلاهما بمعنى واحد.

(٣) المخرج: المؤدي للخراج.

قال: ودخل نفرٌ من القرءاء وفيهم رجل ذكر ظلامَةً له على عمر، فقال: يا أمير المؤمنين، اذكر مقامي هذا، فإنَّه مقام لا يشغل الله جلَّ وعزَّ عنه كثرة مَنْ تخاصم إليه من الخلائق يَوْمَ تلقاه^(١) بلا ثقة من العمل، ولا براءة من الذنوب! فقال عمر: ويحك! اردد كلامك! فردَّه عليه، فجعل يبكي وينتحب^(٢) حتى إذا أفاق قال: ما حاجتك؟ قال: عاملك على أذربيحان ظلمي، وأخذ من مالي عشرة آلاف درهم، فكتب بردَّ ذلك عليه وب عزل عامله، وقال: انظروا هل اخلوَّق^(٣) له من ثوب، أو تقطَّع له من حذاء؟ فحسب ذلك، فبلغ عشرين ديناراً، فأمر بدفعها إليه.



قال: وبينما عمر رحمه الله يسير على بغلته إذ جاء رجل فتعلَّق بلبجامها؛ فقال: أتيتك بعيد الدار مظلوماً، قال له: مِنْ أين أتيت؟ قال: مِنْ حَضْرَموت، أرضي وأرض آبائي، أخذها الوليد وسليمان فأكلها، فنزل عمر عن بغلته يبكي حتى جلس على الأرض، ثم قال: مَنْ يعلم ذلك؟ قال: أهل البلد قاطبةً، قال: يكفيني من ذلك شاهداً عدل، اكتبوا له إلى بلاده، إن أقام شاهدي عدل؛ أن الأرض له ولآبائه، فادفعوها إليه^(٤).

فلما ولَّى الرجل قال: انظروا هل هلكت له راحلة؟ أم نفد له زاد؟ أو تخرق له من حذاء! فحسبوا ذلك فبلغ ثلاثين ديناراً، فأتى بها فعدَّت في يده.



قال ابن عيَّاش: وخرج عمر ذات يوم من منزله على بَغلة له، وعليه قميص وملاءة، إذ جاء رجلٌ على راحلة حتى أُنَاخَهَا، وسأل عن عمر، فقيل له: قد خرج وهو راجع الآن، فأقبل عمر ومعه رجلٌ يسايره، فقيل للرجل: هَذَا أمير المؤمنين؛ فقام فشكا إليه عدي بن أرطاة في أرض له، فقال عمر: قاتله الله! أمَّا والله ما غرنا إلا بعمامته السوداء، أمَّا إني قد كتبت إليه^(٥) فضلاً عن وصيتي: إنَّ من أُنَاكَ بيَّنة على حق له فسلمه إليه، ثم قد عنَّاك إليّ.

(١) ك: «تلقاه».

(٢) ك: «فبكي وانتحب».

(٣) اخلوَّق الثوب: بلي بعد جدته.

(٤) ك: «فادفعوا له الأرض».

(٥) ك: «له».

فكتب إلى عديّ بردّ أرضه، وقال للرّجل: كم أنفقت؟ قال: تسألني عن نفقتي وقد رددت عليّ أرضاً هي خير من مائة ألف درهم! قال: إنّما ردّها عليك حقك، أخبرني كم أنفقت؟ قال: ما أدري، قال: احزروه^(١)، فإذا هو ستون درهماً، فأمر له بها من بيت المال، فلمّا ولّى صاح به فرجع، فقال: وهذه خمسة دراهم من مالي فكلّ بها لحماً حتى تبلغ^(٢).



الأعمش، عن حبيب بن أبي ثابت، قال: أخبرني دُهقان السَّيلحين^(٣)، قال: كان لسعيد بن مالك إلى جنبي ضيعة، وكان رجلاً حديداً، فأتيته، فقلت له: أعدني على نفسك، فأمر بوجئي^(٤) في عنقي، فقلت: لأرحلنّ إلى عمر^(٥)، فدخلت على امرأتي فأعلمتها ذلك، فقالت: إنّني أخاف ألاّ تصنع شيئاً، ويجترئ عليك! فقلت: إني أكره أن تتحدّث العجم بأني قلت شيئاً ولم أفعله.

قال: فخرجت حتى قدمت المدينة، فسألْتُ عن عمر رحمه الله فدلّلت عليه، وأرشدت إليه، فلما أتيت منزله دخلت، فإذا عمر رضي الله عنه جالس على عباءة، فرفع رأسه إليّ وقال: كأنك لست من أهل الملة! فقلت: أنا رجل من أهل الذمة، قال: فما حاجتك؟ قلت: لسعيد بن مالك ضيعة إلى جانبي، وإني أتيت أستعديه على نفسه، فأمر بي فوجئت في عنقي، فقلت: لأرحلنّ إلى عمر، فقال عمر: يا يرفأ، ائتني بالدّواة والمكتب، فأتاه بجراب فأدخل يده وأخرج صحيفة فكتب فيها، ثم أخرج سيراً يشدّها به فلم يقدر عليه، فتناول خيطاً من العباءة التي تحته، وقد تنثرت جوانبها فشدّها به، فأردت ألاّ آخذها، ثم تناولتها متثاقلاً، فكأنه عرف ما في نفسي، فقال: ائته، فإن كفأك وإلاّ فأقم واكتب إليّ.

قال: فخرجت حتى قدمت على أهلي، فقالوا: ما صنعت؟ قلت: أتيت رجلاً لم يقدر على سير يشدّ به صحيفته حتى تناول خيطاً من عباءة كانت تحته، قد تفزّرت وتنثرت جوانبها، فشدّها به، قالوا: وما عليك من ذلك أن نفذ أمره!

(١) احزروه: قدروه.

(٢) حتى تبلغ، أي تصل إلى بلدك.

(٣) السيلحون: قرية بالحيرة، ضاربة في البر، قرب القادسية؛ وتعرب إعراب جمع السلامة. ياقوت.

(٤) أمر بوجئي في عنقي، أي ضربني، يقال: وجأه باليد والسكين؛ إذا ضربه.

(٥) عمر بن الخطاب.

قال: فأتييت سعيداً فناولته الكتاب، فلمّا قرأه أرعدت فرائضه حتى سقط الكتاب من يده وقال: ويلك، ما صنعت! اذهب فالأرض لك. فقلت: لا أقبلها، فقال: لا والله، لا أخذتها أبداً^(١).

قال: وكان نسخة الكتاب: بسم الله الرحمن الرحيم، من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى سعيد بن مالك: سلام عليك، أما بعد. فإن مهرزاد دهبان السيلحين ذكر أن له ضيعةً إلى جانبك، وأنه أتاكَ يستعديك على نفسك، فأمرت به فوجئت عنقه، فإذا جاءك كتابي هذا فأرضه من حقه؛ وإلا فأقبل إليّ راجلاً. والسلام.



قيل: لما ولي المأمون الخلافة، عرضت عليه سيرة أبي بكر رحمه الله وفي آخرها: «وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها»، فقال: أمير المؤمنين لا يطيق ذلك. ثم عرضت عليه سيرة عمر رضي الله عنه وفي آخرها: «وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها»، فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة عثمان رحمه الله وفي آخرها: «وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها»، فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة علي رضي الله عنه، وفي آخرها: «وكان يأخذ الأموال من وجوهها ويضعها في حقوقها»، فقال: أمير المؤمنين لا يطيق هذا. ثم عرضت عليه سيرة معاوية بن أبي سفيان، وفي آخرها: «وكان يأخذ الأموال من وجوهها، ويضعها كيف شاء»، فقال: إن كان فهذا!



وأخبرنا بعض أصحابنا، قال: شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البُستان ببغداد، فصاح به رجل بصريّ: يا أمير المؤمنين، إنّي تزوّجت بامرأة من آل زياد، وإن أبا الرازي فرّق بيننا وقال: هي امرأة من قريش، قال: فأمر عمرو بن مسعدة، فكتب إلى أبي الرازي: إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادة وخلعك إياها؛ إذ كانت من قريش، فمتى تحاكت إليك العرب - لا أم لك - في أنسابها! ومتى وكّلتك قريش - يابن اللّخناء - بأن تلصق بها من ليس منها! فخلّ بين الرجل وامرأته، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سُميّة؛ بغيّ عاهرة لا يفتخر

(١) ل: «تنشّرت».

بقرباتها، ولا يُتطاول بولادتها، ولئن كان ابن عبيد لقد باء بأمر عظيم إذا ادّعى إلى غير أبيه لحظّ تعجّله، ومُلك قهره.



وحدّثنا غيره، قال: شهدت المأمون وقد ركب بالشّماسيّة^(١) وخلفَ ظهره أحمد بن هشام، فصاح به رجل من أهل فارس: الله الله يا أمير المؤمنين! فإنّ أحمد بن هشام ظلمني، واعتدى عليّ؛ فقال: كن بالباب حتى أرجع فأنظر في أمرك. فلمّا مضى التفت إلى أحمد بن هشام فقال: ما يؤمنك منّا أن نوقفك وصاحبك هذا على رؤوس هذه الجماعة، وتقعّد مع خصمك حيث يقعد، ثم تكون محقّقاً وتكون مبطلاً! فكيف إن كنت في صفته، وكان في صفتك! فوجّه إليه من يحوّله عن بابنا إلى رحلك وأنصفه من نفسك، وأعطه ما أنفق في طريقه إلينا، ولا تجعل لنا ذريعة إلى لاأثمتك، فوالله لو ظلمت العباس ابني كان أهون عليّ من ظلمك ضعيفاً لا يجدني في كلّ وقت، ولا يخلو له وجهي، ولا سيّما من كان يتجشّم السفر البعيد، ويكابد حرّ الهواجر وطول المسافة.

قال: فوجّه إليه أحمد بن هشام فحوّله إلى مضربه، وكتب إلى عامله برّد ما أخذه منه، ووصل الرجل بأربعة آلاف درهم.



قال: وتنازع رجلان بباب الجسر: أحدهما من العظماء، والآخر من السّوقة، فقّعه^(٢) الرجل، فصاح السّوقيّ: وأعمراه! ذهب الإسلام! فأخذ الرجل وكتب بخبره إلى المأمون، فدعاه وقال له: ما كانت حالك؟ فأخبره وأحضر خصمه، وقال له: لم قنّعت هذا؟ فقال: يا أمير المؤمنين، هذا رجل مُعاملي^(٣)، وكان سيّئ المعاملة، وكنت صبوراً على ذلك منه، فلمّا كان في هذا اليوم مررتُ بباب الجسر، فأخذ بلجام دابتي وقال: لا أفارقك حتى تخرج إليّ من حقّي، فقلت له: إني أبادر إلى باب إسحاق بن إبراهيم؛ فقال: والله لو جاء إسحاق، ومن ولى إسحاق ما فارقتك^(٤)؛ فما صبرت حين عرّض بالخلافة أن قنّعتُه. فصاح: واعمره! ذهب الإسلام منذ ذهب عمر.

(١) الشّماسيّة: موضع في أعلى مدينة بغداد، منسوب إلى بعض شماسي النصارى.

(٢) يقال قنع رأسه بالسوط: إذا غشاه به.

(٣) ياقوت: «أعامله».

(٤) ياقوت: «فقلت: إني أريد السلطان؛ فإذا رجعت وفيتك، فقال: لو جاء السلطان ما تركتك».

فقال للرجل: ما تقول؟ قال: كذب عليّ وقال الباطل، فقال الرجل: لي جماعة يشهدون على مقالته يا أمير المؤمنين، فإن أذنت لي أحضرتهم. قال المأمون للرجل: من أين أنت؟ قال: من أهل فامية^(١)، فقال: أما إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: مَنْ كان جازُهُ نَبْطِيًّا واحتاج إلى ثمنه فليبعه، فإن كنت إنما طلبت سيرته فهذا حكمه في أهل فامية، ثم أمر له بألف درهم وأمر صاحبه أن ينصفه^(٢).



وحدثنا أبو الفضل الهاشمي، عن قحطبة بن حميد بن قحطبة، قال: قعد المأمون للمظالم ذات يوم، فلم يزل قاعداً إلى أن قلنا: قد فاتته الصلاة، فكان آخر من دُعِيَ امرأة، فقالت: السّلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته، فنظر المأمون إلى يحيى بن أكثم فقال: وعليك السلام، تكلمي يا أمة الله، فقالت:

يا خيرَ منتصفٍ يُهدى به الرّشدُ ويا إماماً به قد أشرق البلدُ
أشكو إليك عقيدَ الملكِ أرملَةً عداً عليها فلا تفوّى به الأسدُ
فابتزّ منّي ضياعي واستبدّ بها ففارقَ العيشَ منّي الأهلُ والولدُ
فقال المأمون:

في دُونِ ما قلتِ عيلَ الصّبرِ والجلدُ وقد تقطّعَ منّي القلبُ والكبدُ
هذا أو أن صلاةَ الظّهرِ فأنصرفي وأحضري الخصمَ في اليوم الذي أعدُ
والمجلسُ السّببُ إن يُقضَ الجلوسُ لنا ننصفُك فيه؛ وإلاّ المجلسُ الأحدُ

قال: فانصرفت، فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من دعا به المرأة، فسلمت، فردّ المأمون عليها السلام، وقال: أين الخصم رحمك الله! قالت: هو واقف على رأسك وقد حيلَ بيني وبينه - وأومأت إلى العباس ابنه - فقال: يا أحمد بن أبي خالد، خذ بيده؛ فأقعهده معها.

قال: ففعل ذلك، فجعلت تعلو على العباس بصوتها، وتقول: ظلمتني واعتديت عليّ، وأخذت ضيعتي! فقال لها أحمد: ما هذا الصياح! إنك بين يدي أمير المؤمنين تناظرين الأمير! فقال المأمون: دَعْها يا أحمد، فإن الحق أنطقها، والباطل أخرسه. فلم يزالا يتناظران حتى حكم المأمون لها بردّ ضيعتها، ثم قال:

(١) فامية: قرية من قرى واسط.

(٢) الخبر في معجم البلدان: ٦: ٣٣٤، ٣٣٥.

يا أحمد، اردد عليها ما جبّاه العباس من ضيعتها، وادفع إليها عشرة آلاف درهم ترمّ بها ما أراه من سوء حالها، واكتب إلى والينا وقاضينا بإرفاقها^(١) والنظر في أمرها، وأوغز^(٢) لها خراج ضيعتها بالشيء الطّفيف، وليكن ذلك في يومنا هذا. فما برحت حتى قُضيت حوائجها وخرجت.



وعن الحسن بن سهل قال: جلس المأمون ذات يوم للمظالم، وإذا هو برجل قد مثّل بين يديه، وفي يده رقعة فيها سطران: «بسم الله الرحمن الرحيم، مظلمة من أمير المؤمنين، أطل الله بقاءه!». فقال: أمظلمة منّي! قال: أفأخاطب بالخلافة سواك! قال له: وما ظلامتك هذه؟ قال: ثلاثون ألف دينار، قال: وما وجهها؟ قال: إن سعيداً وكيلك اشترى منّي جوهرًا بثلاثين ألف دينار وحمله إلى منزلك، ولم يوفّر عليّ المال، قال: فإذا اشترى سعيد منك الجوهر تشكو الظّلامة منّي! قال: نعم، إذا كانت الوكالة قد صحّت له منك!

قال: إنّ كلامك هذا يحتمل ثلاث جهات: أمّا أول ذلك؛ فلعلّ سعيداً قد اشترى هذا الجوهر منك كما زعمت وحمله إلينا، وأخذ المال من بيت المال، ولم يوفّره عليك، أو لعلّه قد وفّره وادّعت باطلاً، أو اشتراه لنفسه، أمّا في العاجل فلا يلزمي لك حقّ، ولا أعرف لك ظّلامة.

فقال الرجل: إن الله جلّ وعزّ قد أهلك لموضع رفيع، واختصّك بنسب جعلك أولى الخلق معه بالإنصاف والانتصاف، فإنك مناسبت لرسول الله ﷺ، واسترعاك على خلقه، فهلاًّ تحمّلني على كتاب الله جلّ وعزّ وسنة ابن عمك رسول الله ﷺ، وسنة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في رسالته إلى أبي موسى الأشعري، وهي التي اتخذتموها صدوراً أحكامكم، ووصية لقضائكم، إذ يقول: «البيّنة على من ادّعى، واليمين على من أنكر»! قال المأمون: فإنك والله قد عدمت البيّنة، فما يجب لك إلا حلفه، ولئن حلفتها لأنا صادق، إذ كنت لا أعرف لك حقّاً يلزمي! قال: فإذا أدعوك إلى الحاكم الذي نصّبت له لرعيّتك! قال: نعم، يا غلام، عليّ بيحيى بن أكثم، فإذا هو قد مثّل بين يديه فقال: يا يحيى، قال: لبيك يا أمير المؤمنين، قال: اقض بيننا، قال: في حكم وقضية؟ قال: نعم، قال: لا

(١) يقال: أرفقه إرفاقاً؛ إذا رفق به ونفّعه.

(٢) الإيغار: إسقاط الخراج.

أفعل، قال: ولم؟ قال: لأنَّ أمير المؤمنين لم يجعل داره مجلس قضائي، قال: قد فعلت. قال: فإنِّي أبدأ بالعامَّة أولاً ليصحَّ المجلس للقضاء، قال: افعل. ففتح الباب وقعد في ناحية من الدَّار وأذن للعامَّة، ونادى المنادي، وأخذ الرِّقاع ودعَا بالناس، ثم دعا الرجل المتظلَّم فقال له يحيى: ما تقول؟ قال: أقول: أن تدعُو بخصمي أمير المؤمنين المأمون. فنادى المنادي، فإذا المأمون قد خرج في رداء وقميص وسراويل قد أرسلها على عَقْبِهِ في نعل رقيق، ومعه غلام يحمل مصلى حتى وقف على يحيى وهو جالس، فقال له: اجلس، فطرح المصلى ليقعد عليه، فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين، لا تأخذ على خصمك شرف المجلس، فطرح له مصلى آخر، فجلس عليه، وقال له يحيى: ما تقول؟ فقال: لي على هذا ثلاثون ألف دينار، قال: ومن هذا؟ قال: أمير المؤمنين المأمون بالله، قال له يحيى: يا أمير المؤمنين، قد سمعت ما يقول، قال: سلّه، ما وجهها؟ فأعاد خبر الوكيل، فقال المأمون: ما أعرف له حقاً. فأقبل على الرجل فقال: قد سمعت، ألك بيته؟ قال: لا. فما تريد؟ قال: ما يوجب الحُكم لمن عدم البيته، قال المأمون: ويحك! قد لججت في اليمين، قال: يا أمير المؤمنين، أتُحلف؟ قال: أي والله، ولا أوطئ نفسي العشوة في إعطاء رجل مالا يجب له ظلماً فقال: قل: والله! فاستحلفه غموساً^(١)، ثم وثب يحيى عند فراغ المأمون من يمينه، فقام على رجليه، فقال له المأمون: ما أقامك؟ فقال: إني كنتُ في حقِّ الله جلّ وعزّ حتى أخذته منك، وليس الآن من حقك أن أتصدّر عليك، وقبض على الرجل لثلا يخرج.

فقال المأمون: ارفقوا به، ثم قال: يا غلام، احضرنى ما ادّعى من المال، فلما أحضر قال: خذ إليك، والله ما كنت أحلف على فجرة، ثم أسمح لك فأفسد ديني ودنياي! والله يعلم ما دفعْتُ إليك هذا المال إلا خوفاً من هذه الرعيّة، لعلها ترى أنني تناولتك من وجه القدرة، وأتّي منعت واجبك بالاستطالة عليك، وإنها لتعلم الآن ما كنت أسمح لك باليمين والمال. فقال: يا أمير المؤمنين، أفأحاطُ في المال حتى أصل إلى حيث آمن عليه! قال: إي والله ولو بالتَّغْزِز وأسبيج، فأخرج الرجل مع المال وبذرق^(٢) به إلى أن بلغ مأمنه.



(١) اليمين الغموس: التي تغمس صاحبها في الإثم.

(٢) البذرة: الخفارة.

ومنه روايات: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ الرجل إذا ظلم فلم ينتصر ولم يجد مَنْ ينصره فرفعه طرفه إلى السماء ودعا، قال الله جل وعز: لبيك عبيد أنصرك عاجلاً وآجلاً».

وقال رسول الله ﷺ في قولهم: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً؛ قال: تمنعه من الظلم، فذلك نصره إياه».

قال: وقال الفضيل بن عياض: بكى ابني، فقلت له: ما يبكيك؟ فقال: أبكي على مَنْ ظلمني وأخذ مالي، أأرحمه غداً إذا وقف بين يدي الله عز وجل وسأله فلا تكون له حجة!

قال: وقال الحسن البصري: يا أيها المصدق على السائل ترحمه، ارحم أولاً مَنْ ظلمت!

وروي عن عبد الله بن سلام أنه قال: قرأت في بعض الكتب، قال الله تبارك وتعالى: إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني. وقال خالد: إياكم ومجانيق الضعفاء - يريد الدعاء.



ومنه توقيعات: قال: وقّع المأمون في كتاب متظلم من أحمد بن هشام: «اكفني أمر هذا الرجل وإلا كفيتك أمرك».

ووقع في رقعة رجل من العامة تظلم من علي بن هشام، «يا أبا الحسن، الشريف مَنْ يظلم مَنْ فوقه، ويظلمه مَنْ دونه، فأعلمني أي الرجلين أنت».

وقال عمرو بن مسعدة: كتبت إلى عامل دسّبي^(١) كتاباً أطلتُه، فأخذه المأمون من يدي وكتب: «قد كثر شاكوكُ وقَلَّ شاكروك، فإما عدلت وإما اعتزلت».

ووقع في رقعة رجل تظلم من الرُستمي: «ليس من البرّ أن تكون آنتك ذهباً، وقدورك فضّة، وجارك يطوي، وغريمك يعوي».

قال: ووقع هشام بن عبد الملك في رقعة متظلم من العامة: «أتاك الغوث إن كنت صادقاً، وحلّ بك النكال إن كنت كاذباً، فتأخّر أو تقدّم».

قال: ورفع رجل إلى المنصور قصّة يتظلم فيها من عامل فارس، فوقع له: «إن آثرت العدل صحبتك السلامة».

(١) دسّبي: كورة مقسومة بين الري وهمدان.

ووقع يحيى بن خالد لمتظلم من بعض الولاة: «أنصف مَنْ وُلِّيتَ أمره، وإلا أنصفهم مَنْ وُلِّيَ أمرُك».

ووقع بعضهم إلى صاحب مظالم: «ما أراني سالماً من المآثم بتوليتي إياك المظالم، يا رديء المختبر، اعتزل غير محمود الأثر».

قيل: وقال رجل للمعتصم: يا أمير المؤمنين، ظلمني مَنْ وافق اسمه فعله. فقال المعتصم لبُغا: سلّه، ممّن يتظلم؟ فإني أراه يتظلم من ظلوم! فسأله، فقال: مَنْ ظلوم؟ فتبسّم المعتصم وقال لابن أبي دؤاد: ما أبعد الرجل في قوله! قل لها بحياتي أنصفيه.



قال: وأخبرنا إبراهيم بن محمد، قال: كنا مع المتوكل في بعض متنزهاته، فوقف على تلّ كلّ حصيّ قد غسله المطر، فاستحسنه، فنزل فصلّي وسبّح، ثم قال في دعائه: اللهم إنك خلقتني ولم أك شيئاً، ثم صيرتني فوق هذا الخلق، وأنت قادر أن تزيل هذا كلّ، فارزقني العدل والنّصفه، وألق في قلبي لهم الرأفة والرحمة! ثم بكى وأخذ كفّاً من ذلك الحصى فجعله على رأسه، وجعل يقلّب خدّه ووجهه على الأرض ثم قام فركب.

مساوي أخذ الجار بالجار

قال: قال الحجاج بن يوسف: لأخذن السمي بالسمي، والولي بالولي، والجار بالجار.

وقد لعن الناس قائل هذا البيت:

أرى أخذ البري بغير جرم تجنب ما يحاذره السقيم
وقال الحارث بن عباد في هذا المعنى:
لم أكن من جناتها علم الل له وإني بحرّها اليوم صال
وقيل:

لعلّ له عذراً وأنت تلوم

وأنشد في مثله للنابعة:

فحملتني ذنب امرئ وتركته كذي العرّ يكوي غيره وهو راتع^(١)
وكانوا إذا أصاب إبلهم العرّ كوّوا السليم ليذهب العرّ عن السقيم، فأسقموا
الصحيح من غير أن يبرأ السقيم، وكانوا إذا أوردوا البقر الماء فلم تشرب، ضربوا
الثور ليقتحم الماء فتتبعه البقر، فقال الشاعر في ذلك:

هَجَوْنِي إِذْ هَجَرْتُ جِبَالَ سَلَمَى كَضْرِبِ الثَّوْرِ لِلْبَقْرِ الظَّمَا
وقال غيره:

كَمَا ضَرَبَ الْيَعْسُوبُ أَنْ عَافَ بَاقِرٌ وَمَا ذَنْبُهُ إِنْ عَافَتْ الْمَاءَ بَاقِرٌ
وقال غيره:

إِذَا عَرَكْتَ عَجَلَ بِنَا ذَنْبَ طَيِّءٍ عَرَكْنَا بَتِيمَ اللَّاتِ ذَنْبَ بَنِي عَجَل
وقال سعيد بن عبد الرحمن بن حسان:

وَإِنْ أَمْرًا يُمَسِّي وَيُصْبِحُ سَالِمًا مَنْ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدٌ

(١) ديوانه: ٥٤ والعر بالضم: الجرب.

قيل: وأُتي عبد الصمد بن عليّ بأناس من الشُّطّار، فأمر بضربهم وحلق رؤوسهم ولحاهم، ففعل بهم ذلك، وكان فيهم رجل سُنّاط^(١) ف قيل له: إن هذا ليست له لحية، فهل تريده في الضرب؟ قال: لا، ولكن احلقوا لحية هذا الشرطي مكانه.

(١) رجل سُنّاط: ليست له لحية.

محاسن السطوة

قيل: وبلغ من عدل هُرمز بن كسرى أنوشروان أنه ركب ذات يوم إلى ساباط المدائن متنزهاً - وكان ممره على كروم وبساتين، وإن رجلاً من أساورته أطلع على كرم فرأى فيه حِصراً غصاً، فأمر غلامه فنزل إليه، وأخذ منه عناقيد، وقال له: انطلق به إلى المنزل لطبخ مرقّة حِصْرَمِيّة، فأقبل حافظ ذلك الكرم فتعلّق بالغلام، وصاح حتى بلغ ذلك صاحبه، ففزع وتخوّف عقوبة الملك، فدفع منطقتّه إلى حافظ ذلك الكرم - وكانت محلاًّ بالذهب، مرصّعة بالجواهر - فافتدى بها نفسه من عقوبة الملك، ورأى أن لحافظ ذلك الكرم عليه^(١) الفضل.



وبلغ من عدله أيضاً، أنّ ابنه أبرويز وقع مركّب من مراكبه في بعض مسيره في زرع على طريقه فأفسده، فأقبل صاحب الزرع إلى ذلك المركب فأخذه، وصار إلى الموكل بالنظر في مظالم الرعيّة، فرفع أمره إلى الملك، فأمر الملك بالفرس أن تُجدّع أذناه، ويقطع ذنبه، ويغرّم صاحبه كسرى أبرويز مقدار مائة ضعف ممّا أفسد^(٢) من ذلك الزرع.

فخرج الموكل بذلك من عند الملك لينقذ أمر الملك في فرس ابنه، فتحمل عليه ابنه بنفّر من عظماء المرازبة، وسألوه أن يصفح عمّا أمر به الملك، على أن يغرّم كسرى لصاحب الزرع ألفي ضعف ما أفسد المركب من زرعه، فلم يجبههم الموكل إلى ذلك، وأخذ الفرس فجّدع أذنيه، وقطع ذنبه، وغرّم كسرى مائة ضعف ما أفسد المركب من زرع الرجل، وردّه عليه.



وحكي عن بهرام جور أن رجلاً من خاصّته في مسيره إلى ملك الترك أخذ

(١) ك: «له».

(٢) ك: «أفسده».

من امرأة أَكَّارَ سَبَدَتَيْنِ^(١)، فشكت ذلك إلى بهرام، فأمر بالرجل فضربت عنقه ودُفع سَلْبُهُ إلى المرأة بدلًا من تينها.



قيل: وبلغ من عدل كسرى أنوشروان أنه اتخذ وصيفتين، وأمر أن تقوم واحدة عن يمينه، وتقوم الأخرى عن شماله، بأيديهما قضيبان من ذهب، وهو جالس لينظر في أمور الناس، فكان إذا كاد أن يسهو حركته بالقضيب وقالتا له والرعية يسمعون: أيها الملك انتبه، أنت مخلوق لا خالق، أنت عبد لا مولى، أنت فان لا باق، ليس بينك وبين الله عز وجل قرابة، فانظر لنفسك، وأنصف الناس.

فمضى على هذا حتى أتاه اليقين.



وقال أردشير: تعطيل الحدود تضرية للمجرمين، ويوم العدل على الظالم أمر من يوم الظالم على المظلوم.



المدائني، قال: مر رجل من الدهاقين أيام زياد بحمار قد حُمِلَ عليه خمر، فأخذه الحرس وقالوا: ألم تعلم أن الأمير قد نهى عن إدخال الخمر إلى المِصْر! قال: بلى، وهذا الخمر للأمير، فلما بلغ زياداً ذلك قال: هذا رجل احتال للوصول إليّ، فدعا به وقال: ما أمرك؟ قال: لي أرض عند نهر المرأة، فيها نخل، فأرسل ابن المرأة غلماناً ليصرموا^(٢) بعض النخل، فقلت لهم: خذوا حاجتكم منها ولا تفسدوا.

فأخذوا ما أرادوا، وأتوه فأخبروه بمقالتي، فأرسل إليّ وضربني وعقر نخلي. فأرسل زياد معه رجلاً وقال له: انطلق به، فإذا كنت قريباً من الأرض التي يذكر فسل من لقيت من رجل وامرأة عما يقول، فإن اجتمعوا على مقالة واحدة، ورأيت النخل قد عقر، فخذ الذي أمر بقطعها فأجله ثلاث ساعات، فإن أتاكَ بقيمة النخل لكل نخلة ألف درهم فخلّ سبيله، وإن مضت الثلاث الساعات ولم يأتك بذلك فاضرب عنقه، واتّني برأسه. ومضى الرسول وسأل، فكان الأمر كما حكاه، فأغرم قاطع النخل أربعين ألف درهم، وحُمِلَ المال إلى زياد فقال: لو أتيتني برأسه كان أحب إليّ، ودفع المال إلى صاحب النخل.

(٢) صرام النخل: قطعه.

(١) السبد: شبه المكنل (مغرب).

محاسن العفو

قيل: أخذ مُصعب بن الزُبَيْر رجلاً من أصحاب المختار بن أبي عبيدة، فأمر بضرب عُقْقه، فقال: أيُّها الأمير، ما أقبح بك أن أقوم يوم القيامة إلى صورتك هذه الحسنة فأَتعلّق بأطرافك وأقول: يا رب، سلْ مُصعباً فيم قتلني! فقال: أطلقوه، فقال: أيُّها الأمير، اجعل ما وهبت لي من عمري في خفض، فقال: أعطوه مائة ألف درهم. قال: بأبي أنت وأمي! أشهدك أنّ لابن قيس الرُّقيّات منها النصف، لقوله:

إنما مُصعبٌ شهاب من اللَّـهِ هـ تجلّت عن وجهه الظُّلَماءُ^(١)
فضحك مصعب وقال: لقد تلطّفت؛ وإنّ فيك لموضعاً للصنيعة، وأمر له بالمائة الألف، ولابن قيس بخمسين ألف درهم.



وذكر عن أبي العباس السِّفّاح أنه غضب على رجل فذكره في ليلة من الليالي؛ فقال له بعض جلسائه: يا أمير المؤمنين، إنّ فلاناً لو رآه أعدى خلق الله له لرحمه وأنغص^(٢) قلبه له، قال: ولم ذلك؟ قال: لغضب أمير المؤمنين عليه، قال: ما له من الذنب ما تبلغ به العقوبة هذا المبلغ، قال: منّ عليه يا أمير المؤمنين برضاك، قال: ما هذا وقت ذاك؟ قال: يا أمير المؤمنين، إنك لمّا صغرت ذنبه طمعت له في رضاك، فقال: إنه من لم يكن بين غضبه ورضاه فُرْجَةٌ لم يحسن أن يغضب ولا يرضى، وعلى هذا أخلاق الملوك.



قيل: وحضر صالح المُرَيِّ مجلس المنصور وعنده نفرٌ من أهل بيته - وقد ولى سعيد بن دُعْلَج أحداث البصرة - فدعا بنفر من أهل الجنايات ليعاقبهم، فلما أتي بهم تحرّك صالح ليقوم، فقال له رجل ممّن حضر: أين تقوم؟ واللّه ما أحتاج

(١) ديوانه: ٩١.

(٢) أنغص قلبه: اضطرب.

إلى جلوسك عنده إلا الساعة، فقال: صدقت. وقال: يا أمير المؤمنين، إن الله جلّ وعزّ يقول في كتابه: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]؛ فبكى المنصور حتى أخضل لحيته بالدموع وأمر بتخليتهم.



قيل: وأُتِيَ المنصور بجانٍ، فأمر فيه بعقوبة غليظة، فقال له العباس بن محمد: يا أمير المؤمنين، إنك غضبت لله جل ذكره، فلا تغضب له بأكثر ممّا غضب لنفسه، وقد تبين لك ما يجب على مثله من الحدّ. فأمر بإطلاقه.



قال: وحدثنا المدائني قال: كان سهل بن سعد القُشيريّ خرج مع محمد وإبراهيم ابني عبد الله بن الحسن على المنصور. فقال المنصور: هذا كان عندنا من الفقهاء والعلماء، فكيف خرج علينا! ثم قال له المنصور: والله لأقتلنك قتلة ما قتلتها أحداً، فقال: يا أمير المؤمنين، إن تحنث في يمينك هذه خير لك عند الله من أن تبرّ بها، واعلم يا أمير المؤمنين أنك إن قتلتني قتلت أربعة آلاف حديث سمعتها من الضحّاك بن مزاحم، عن جدّك عبد الله بن العباس، عن رسول الله ﷺ، لا يروها أحدٌ غيري! قال: فوضع يده على خده وقال: هات، قال: حدثني الضحّاك بن مزاحم، عن جدّك عبد الله بن العباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «عمل الجنة حزنٌ برّوة، وعمل النار سهلٌ بسهوة^(١)»، والسعيد من وقّي شرّ الفتن، ومن ابتلي فصبر، فيا لها ثم يا لها! وما امتلاً عبدٌ غيظاً فكظمه إلا ملأه الله إيماناً»، قال: هات، قال: حدثني الضحّاك بن مزاحم، عن جدّك عبد الله بن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزّله عن الناس».

فأمره بالجلوس ثم قال: هل من أحدٍ يضمّنك على أن تلزمنّا فتسمّر عندنا! وأقام معه.



وقيل: إنّه سَخِطَ المهديّ على بعض القحاطبة فقال: لا أراه إلا والسيف مسلّول، والنّطع منشور؛ فأتى به وقد سلّ السيف، ونُشِرَ النّطع، فبكى، فقال:

(١) السهوة: الأرض السهلة، وانظر النهاية لابن الأثير.

ألك^(١) مثل حركتك وتبكي؟ فقال: ما بكيتُ جزءاً من الموت، ولكن بكيتُ أن ألقى الله وأنت ساخطٌ عليّ! فقال المهديّ: يا غلام، ادرج النطع. واغمد السيف. إنَّ الكريم إذا خادَعته انخدعا



قيل: وعاتبَ المهديّ شبيب بن شيبه في شيء بلغه عنه، فاعتذر إليه وقال: والله لو كان لي ذنب لأقررت، ولكن عفو أمير المؤمنين أسرع إليّ من براءتي.



وقال موسى بن عبد الله: أتيتُ موسى برجل فجعل يقرّره بذنوبه، ويتهدّده، فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، اعتذاري مما تُقرّعني به ردُّ عليك، وإقرارِي يوجب لي ذنباً، ولكنني أقول:

فإن كنتَ ترجو في العقوبة رحمةً فلا تزهدن عند المُعافاة في الأجر فأمّر بإطلاقه.



وقال العباس بن قيس: أتيتُ الهادي برجل أراد أن يضرب عنقه، فقال: يا عدو الله ائتمناك فخنّت، واستنجدناك فلم تنجدنا، وأعطيناك فلم تشكرنا. فقال الرجل: يا أمير المؤمنين، إنَّ كلامي وحجّتي ردُّ عليك؛ وفي أكثر مما قال أمير المؤمنين، وعفوه وإحسانه يأتیان على ذلك.

فكأنما كان ناراً صُبَّ عليها الماء. فخلّى سبيله.

وحكي عن الرشيد في عبد الله بن مالك الخُزاعيّ حين غضب عليه؛ فأمر أهله وحشمه وجميع قراياته أن يتجنّبوا كلامه، ومعاملته ومعاطاته؛ حتى أثر ذلك في بدنه، وتحاماه أقرب الناس إليه من ولد وأهل؛ فلم يدن منه أحدٌ ولم يطف به، فجاءه محمد بن إبراهيم الهاشمي - وكان أحد أودائه - في جوف الليل، فقال له: إنَّ لك عندي يداً ما أنساها؛ ومعروفاً ما أكفره، وقد علمت ما تقدّم به أمير المؤمنين في أمرك، وها أنا بين يديك، ونُصّب عينيك، فمزني بأمرِك؛ فوالله لأجعلن نفسي وقايةً لك.

فقال له عبد الله خيراً وأثنى عليه، وأخبره بعذره فيما وجد عليه الرشيد.

(١) يريد دهاءه وخداعه.

فلما دخل عليه قال له: أين كنت في هذه الليلة؟ قال: عند عبدك يا أمير المؤمنين عبد الله بن مالك، كنتُ عنده وهو يحلف بطلاق نسائه، وعِثْق مَمَالِيكِهِ، وَصَدَقَهُ مَالَهُ، مع عشرين بدنةً يُهديها إلى بيت الله الحرام حافياً راجلاً، إن كان ما بلغ أمير المؤمنين سمعه الله جلّ وعزّ من عبد الله، ولا اطلع عليه ولا همّ به أو أظهره!

قال: فأطرق الرشيد ملياً مفكراً ومحمد يلحظه، ووجهه يشرق مرةً ويُسْفِرُ أخرى، وكان قد حال لونه حين دخل عليه، ثم رفع رأسه، فقال: أحسبه صادقاً يا محمد، فمرّه بالرواح إلى الباب، قال: وأكون معه؟ قال: نعم.

فانصرف محمد إلى عبد الله فبشّره وأمره بالركوب رواحاً؛ فدخل جميعاً. فلما أبصر عبد الله بالرشيد انحرف نحو القبلة، وخرّ ساجداً، ثم رفع رأسه، فاستدناه الرشيد؛ فدنا وعيناه تهملان، فأكبّ^(١) عليه وقبّل بساطه ورجليه وموطئ قدميه، ثم طلب أن يأذن له في الاعتذار، فقال: ما بك حاجةً إلى أن تعتذر، إذ قد عرفت عذرَكَ! قال: فكان عبد الله يرى بعد ذلك إذا دخل على الرشيد بعض الانقباض، فشكا ذلك إلى محمد، فقال محمد: يا أمير المؤمنين، إن عبدك عبد الله يشكو أثراً باقياً من تلك النبوة التي كانت من أمير المؤمنين، ويسأل الزيادة في بسطته، فقال الرشيد: إنّنا معشر الملوك إذا غضبنا على أحد من بطانتنا ثم رضينا عنه، بقي لتلك الغضبة أثر لا يخرج ليل ولا نهار.



قيل: ومدح شاعر أبا حاتم كاتب الديوان، فلم يصله بشيء، فأنشأ يقول:

لَتَنْصِفَنِي يَا أَبَا حَاتِمٍ أَوْ لِأَصِيرَنَّ إِلَى حَاكِمٍ
أَوَّلَ مَا أَتَلَفْتَ مِنْ مَالِهِ^(٢) خَمْسِينَ أَلْفًا فِي شِرَا هَاشِمٍ
خَمْسِينَ أَلْفًا وَضَحًا كُلِّهَا^(٣) مِنْ مَالِ هَذَا الْمَلِكِ النَّائِمِ

فاحتفظها صاحب الخبر، ورفعها إلى الرشيد، فقال: صدق، لولا أنّي نائم ما كانت أموري تجري على هذا السبيل، وأمر بإخراج الجرائد من الدار إليه، فأول ما وجد على منصور بن زياد عشرة آلاف ألف درهم.

فحدّث صالح صاحب المصلى، قال: دعاني الرشيد وهو على كرسي؛

(١) ك: «فانكب».

(٢) ك: «في».

(٣) الوضح هنا: الفضة.

فقال: اذهب الساعة فخذ منصور بن زياد بالخروج من عشرة آلاف ألف درهم، فإن لم يوردها بينك وبين المغرب فاضرب عنقه، وجئني برأسه، وأنا نفي من المهدي، لئن أنت دافعت عنه لأضرب عنقك، قلت: يا سيدي، فإن أعطاني بعضها ووقت لي في بعضها وقتاً؟ قال: لا.

فخرجت، فأعلمته الخبر، فأسقط في يده وقال: ما أراد إلا قتلي؛ لأنه يعلم أن مقدار مالي لا يبلغ ما به طالبني، ولكن تأذن لي أن أدخل بيتي فأودع أهلي! فأذنت له، فدخل ودخلت معه وبقيت واقفاً، فبعث إلى أمهات أولاده وبناته ونسائه أن أخرجن إلي كما كنتن تخرجن عند موتي؛ فإن هذا آخر أيامي ولا ستر لئن بعدي، فخرجن إليه مشققات الجيوب، مخمّشات الوجوه بصراخ شديد، فبكى إليهن، وبكين إليه، وبكى معهن، ثم ودّعهن وخرج وهن في أثره واضعات التراب على رؤوسهن. ثم قال: يا أبا مقاتل، لو أذنت لي في المصير إلى أبي علي يحيى بن خالد البرمكي أوصيه بولدي وأهلي! فقلت: امض.

وصرنا إليه وقد نزل في ساعته وهو على كرسي يغسل يده، فلمّا توسطنا الدار جعل منصور يبكي ويمشي إليه حتى دنا منه، وهو يسأله عن الحال فيمنعه البكاء من إخباره، فقصصت عليه قصته؛ فقال: ارجع إلى أمير المؤمنين وسله أن يهبه لي، قلت: ما لي إلى ذلك سبيل، ولا يراني إلا والمال معي، أو رأس منصور كما أمرني، فقال الخادم له ائت فلانة فسلها: كم لنا عندها من المال؟ فانصرف وذكر أن عندها خمسة آلاف ألف درهم، فقال لي: احملها، وأبلغ أمير المؤمنين رسالتي في باقيها، فأعلمته أن لا سبيل إلى حمل بعضها دون بعض، فأطرق ثم رفع رأسه، ثم قال: يا غلام، ائت دنانير فقل لها تبعث إلي بالجواهر الذي وهبه لها أمير المؤمنين، فبعثت إليه بحق، فقال: هذا جوهر ابتعناه لأمر المؤمنين بمائتي ألف دينار، وهو عارف به، وقد جعلته له بمائة ألف دينار، وهو ألفا ألف درهم، واحمل إليه هذه السبعة الآلاف الألف والرسالة، فأبيت.

فوجه إلى الفضل ابنه: إنك كنت أعلمتني أنك على ابتياع ضيعة نفيسة وقد أصبتها، ولا يوجد مثلها في كل وقت، وابتياعها فرصة، فاحمل إلي مالها، فعاد الرسول ومعه ألف ألف درهم، ووجه إلى جعفر ابنه أن يوجه إليه بألف ألف درهم، فأنفذ إليه صكاً أو صكاً إلى الجهبذ^(١) بها.

(١) الجهبذ: النقاد الخبير.

فقبضت المال، ووافيت الرشيد قبل المغرب، وهو منتصب على حالته ينتظر رجوعي إليه، فأخبرته الخبر، فلما انتهيت إلى خبر الحقة قال: صدق، وقد ظننت أنه لا ينجيه غيرهم، احمِلْ هذا المال أجمع إلى أبي عليّ وارده عليه، وأعلمه أنّي قد قبلت ذلك عن منصور، ورددته عليه.

ف فعلت ذلك، ولقيني بعد ذلك يحيى منصراً من الدار ومنصور معه يسايره، ويضاحكه والناس خلفه، فقلت: واللّه لأنصحنّ هذا الشيخ الكريم، فدخلت معه، ودخل منصور ودعا بفدائه، فلما نهض منصور قلت: يا أبا علي، إني واللّه ما رجعت معك إلا لنصحك، وقد رأيت مكان هذا الرجل منك، وكنت حين حملت المال أنهضته معي، فواللّه ما قطع نصف الصحن من الدار حتى تمثّل بهذا البيت:

فما بُقيَا عليّ تركتُماني ولكن خِفْتُما صردَ النبال^(١)

فعارضَ أكرم فيك بالأم خصلة فيه، فدعاني الامتعاض من ذلك إلى إخبارك فإنني من تعلم في مودتك وطاعتك، فأكبّ على الأرض ساعة ثم رفع رأسه فقال: اعذره فقد كان عقله عزّب عنه في ذلك الوقت، قال: فكان عذره له أحسن من إحيائه إياه.



قيل: وأمر الرشيد يحيى بن خالد بحبس رجل جنى جناية، فحبسه يحيى، وسأله عنه الرشيد فقبل: هو كثير الصلاة والدعاء، فقال للموكل به: اعرض عليه أن يكلمني ويسألني إطلاقه؛ فقال له ذلك الموكل به، فقال: قل لأمير المؤمنين إن كل يوم يمضي من نعمتك ينقص من محنتي، والأمر قريب، والموعد الصراط، والحكم لله، فخرّ الرشيد ساجداً مغشياً عليه وأمر بإطلاقه^(٢).



قيل: وأتّى الرشيد برجل قد وجب عليه الحدّ، فأمر أن يضرب، فقال: يا أمير المؤمنين، قتلتنّي! قال: الحقّ قتلك، قال: ارحمّني! قال: لست بأرحم لك ممّن أوجب عليك الحدّ! ثم أمر بإطلاقه.



(١) البيت للعين المنقري يخاطب جريراً والفرزدق؛ وصرد السهم؛ إذا نفذ. اللسان - صرد.

(٢) الخبر في تاريخ الطبري: ٣: ٦٩٠ (طبع أوروبا).

قال: وقال الرشيد للجهم: أزيد أنت؟ فقال: كيف أنا زنديق؛ وقد قرأت القرآن، وفرضت الفرائض، وفركت بين الحجة والشبهة! قال: واللّه لأضربنك حتى تُقِرَّ، قال: هذا خلاف ما أمر الله جلّ وعزّ به، أمر أن يضرب الناس حتى يقرّوا بالإيمان، وأنت تضربني حتى أقرّ بالكفر! فالتفت الجهم إلى أبي يوسف القاضي فقال له: أفته، لا يهلك في دينه.



قال: وبلغ الرشيد أنّ عبد الملك بن صالح دعا إلى نفسه، فأمر بحبسه، ثم دعاه ذات يوم فقال: أكفراً للنعمة، وإظهاراً للغدر! قال: كلاً يا أمير المؤمنين، ولكنه مقالة كاشح، واحتيال حاسد، قال: هذا قمامة كاتبك يذكر صحة ذلك، قال: أسمعني يا أمير المؤمنين، قال: اخرج يا قمامة^(١) - وكان من وراء الستر - فخرج فقال له: لقد انطويت عليه، وواطأت من خلفه، قال: يا أمير المؤمنين، كيف لا يكذب عليّ من خلفي من يبهتني في وجهي مع نعمتي عليه، وإحساني إليه! قال: فهذا عبد الرحمن ابنك، فقال: هو بين مأمور وعاق، فإن كان مأموراً فلا ذنب له، وإن كان عاقاً فأقل عقوبته الشهادة بالزور عليّ، قال: فما الحكم؟ قال: أولى الناس بصفحك عنه من لا شفيح له إليك إلا حلمك، فقال الرشيد:

أريد حياته ويريد قتلي عذيرك من خليلك من مُراد^(٢)

والله! لكأني أنظر إلى شؤبوبها^(٣) وقد همع، وإلى عارضها^(٤) وقد لمع، وكأني بالوعيد قد أوري نارا فأقلع عن براجم، بلا معاصم^(٥)، ورؤوس بلا غلاصم^(٦)، مهلاً مهلاً بني هاشم! فبي سهل الله الوعر، وصفي الكدر، وألقت الأمور أزمته، واندفع حذار من حلول داهية خبوط باليد، لبوط بالرجل.

فقال عبد الملك: أفذاً أتكلم أم توءماً؟ قال: بل توءماً. فقال: يا أمير المؤمنين، اتق الله فيما ولّاك، وراقبه فيما استرعاك، ولا تجعل الشكر بموضع الكفر، ولا الثواب بمحلّ العقاب، والله الله في رحمك أن تقطعها بعد أن وصلتها

(١) كذا في الطبري؛ وفي ابن الأثير: «ثمامة».

(٢) لعمر بن معدى كرب اللّالي ١٣٨.

(٣) الشؤبوب: الدفعة من المطر.

(٤) العارض: السحاب المعترض في الأفق.

(٥) البراجم: الأصابع. والمعاصم: جمع معصم، وهو موضع السوار، أو اليد.

(٦) الغلاصم: جمع غلصمة، وهي رأس الحلقوم بشواربه.

بظنّ يؤثم! ثم يقول باغ ينهش اللحم، ويلغ في الدم، فقد جمعت القلوب على محبتك، وذلت الرجال لطاعتك، وكنت كما قال أخو كلاب لبيد بن ربيعة:

وَمَقَامَ ضَيِّقِ فَرَجْتُهُ بِلِسَانِي وَبَيَانِي وَجَدَلُ^(١)
لَوْ يَقُومُ الْفِيلُ أَوْ فَيَالُهُ زَلَّ عَنْ مِثْلِ مَقَامِي وَزَحَلُ^(٢)

فوثب الرشيد من مجلسه واعتنقه، وجعل يقبل ما بين عينيه ويسترجع ويعتذر، ثم خلع عليه حلل الرضا، وتنفس الصعداء وقال: واللّه لقد دعوته وإني لأرى موضع السيف من قفاه، وهأنذا نادى على ما كان مني، واللّه جلّ وعزّ يتجاوز بقدرته عن ذلك^(٣).



قال: وظفر المأمون برجل كان يطلّبه، فلمّا دخل عليه قال: يا عدوّ اللّه، أنت الذي تفسد في الأرض بغير حق! يا غلام، خذه إليك واسقه كأس الموت. فقال: يا أمير المؤمنين، إن رأيت أن تستبقيني حتى أؤيدك^(٤) بمال؟ قال: ليس إلى ذلك سبيل، قال: فدعني أصلي ركعتين أختم بهما عملي، قال: ليس إلى ذلك سبيل، قال: فدعني أنشد أبياتاً، قال: هات، قال:

زعموا بأنّ الصقر صادف مرّة عصفور برّ ساقه المقدور
فتكلّم العصفور تحت جناحه والصقر مُنْقَضٌ عليه يطير
ما كنت خاميزاً لمثلك لقمة^(٥) ولئن شويت فإنني لحقير
فتهاون الصقر المُدِلُّ بصيده كرمأ وأفلت ذلك العصفور

فقال المأمون: أحسنت! ما جرى ذلك على لسانك إلا لبقية بقيت من عمرك، فأطلقه، وخلع عليه ووصله^(٦).



قال: وقال عبد اللّه صاحب المأمون: دخلت على المأمون، فإذا نطع مبسوط؛ ورجل فوقه، على رأسه رجل مسلول سيفه، فلمّا نظر إليّ المأمون قال:

(١) ديوانه: ١٦:٢. (٢) زحل: زال.

(٣) تاريخ الطبري: ٣: ٦٧٩. (٤) ك: «أمدك».

(٥) في اللسان عن ابن سيده: «الخاميز أعجمي، حكاه صاحب العين ولم يفسره، قال: وأراه ضرباً من الطعام».

(٦) تاريخ الطبري: ٢: ٧١، المحاسن والأضداد: ٤٩، ٥٠.

يا عبد الله، شأنك والرجل! فحسرتُ عن ذراعي، وقمت فوق رأسه، واخترطت سيفي، فسَلَط على المأمون النعاس، فجعل يخفق برأسه ويقول: أَسْتَخِير الله! فلَمَّا كان عند المساء قال لي: شأنك والرجل احفظه؛ فطرحْتُ حمائل سيفي في عنقه وأردفتُه خلفي، وذهبت به إلى منزلي، ثم عدتُ اليوم الثاني إلى المأمون، ففعل كفعله أمس، فلَمَّا كان اليوم الثالث قال لي المأمون: خلَّ عن الرجل، وأعطه عشرة آلاف درهم؛ فأردفته خلفي، ولم أجعل حمائل السيف في عنقه، فقال لي: ما لك لم تلق حمائل السيف في عنقي! قلت: إنه قد عُفِيَ عنك، قال: فخلَّ عني إذاً، قلت: أمرني أن أعطيك عشرة آلاف درهم؛ قال: لا حاجة لي فيها، خلَّ عني، قال: إذا أَمَرْنَا بِأمرٍ انتهينا إليه. ثم قلت له: كنت تهمهم في قفائي إذا أنا أردفتك بشيء، فما كنت تقول؟ قال: كنت أقول: اللهم أنت كلَّ يوم في شأن، لا يشغلك شأنٌ عن شأن، فاجعلني من شأنك؛ حتى تنقل ما في قلب هذا الرجل من الغضب إلى الرضا، ومن الغلظة إلى اللين والرفقة، يا أرحم الراحمين!



وعن إبراهيم بن المهدي، أنه بنا هو في مجلس المأمون إذ تكلم بكلام أسقط فيه، وكان كلامه يحتمل أمرين، فقام، وعلم أنه قد أخطأ؛ فقال: إن رأى سيدي أن يأذن لي في الكلام! قال: قل. قال: نساؤه طوالق، وماله صدقة، وعبيده أحرار، وكلَّ نذر وضعه لله جلَّ وعزَّ بين عباده ففي عنقه دون الخلق؛ حتى يَفِي به، إن كان ما تكلم به إلا لجهة كذا وكذا، وتأويل كذا وكذا!

قال: فتبسَّم المأمون وقال: اجلس، إنِّي والله ما ذهبتُ حيث ظننت، وما كنت لأعفو عن الكلِّ وأخذ بالجزء، ولولا أنني في مجلس يرقُّ عن الإغضاء على أكثر الحالات، ثم بلغ مني رجل ما يبلغ من عبده، ما وجد عندي إلا الصُّفْح والعفو، وما أحسبني أوجر عليه إذ كان لا يؤثر فيَّ، وإنما الأجر بقسط الألم، وميزان المضض.



وعن بعضهم، أن والياً أتى برجل قد جنى جناية؛ فأمر بضربه، فلما مدَّ قال: بحقِّ رأس أمك إلا عفوت عني! فأبى، فقال: بحقِّ عينيها! قال: اضرب، قال: بحقِّ خديها ونحرها! قال: اضرب، قال: بحقِّ ثدييها! قال: اضرب. قال: بحقِّ سُرَّتْها! قال: دعوه لا ينحدر إلى أسفل!

مساوي تعدي السلطان

قال: قال جميل بن بُصْبُهري: إِيَّاكَ أَنْ تَصْحَبَ السُّلْطَانَ بِالْجَرَاءِ عَلَيْهِ، وَالتَّقْصِيرَ فِي الْمَعْرِفَةِ بِقَدْرِهِ، وَالتَّهَانُونَ بِأَمْرِهِ، وَلِتَكُنْ صَحْبَتُكَ لَهُ بِالْحَذَرِ وَشِدَّةِ التَّوَقُّي، كَمَا تَصْحَبُ الْأَسَدَ الضَّارِي، وَالْفِيلَ الْمَغْتَلَمَ، وَالْأَفْعَى الْقَاتِلَةَ. وَلَا تَصْحَبِ الصَّدِيقَ إِلَّا بِالْتَّوَاضِعِ وَلَيْنِ الْجَانِبِ؛ وَاصْحَبِ الْعَدُوَّ بِالْحِجَّةِ فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ، وَالْإِعْذَارَ عَلَيْهِ، وَاصْحَبِ الْعَامَّةَ بِالْبِرِّ وَالْبِشْرِ الْحَسَنِ.

وقد قيل: سَبْعُ غَشُومٍ، خَيْرٌ مِنْ وَالٍ ظَلُومٍ.

وحدثنا إسماعيل بن أبي خالد، قال: أَتَى الْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بَرَجِلٌ مِنَ الْخَوَارِجِ، وَعِنْدَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ وَخَالِدُ بْنُ الرَّيَّانِ، فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: مَا تَقُولُ فِي أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَ: صَاحِبُ نَبِيِّ اللَّهِ فِي الْعَارِ، وَثَانِي اثْنَيْنِ؛ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ! قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي عُمَرَ؟ قَالَ: هُوَ الْفَارُوقُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَفَرَ لَهُ! قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي عُثْمَانَ؟ قَالَ: كَانَ سُنِّيَّاتٍ مِنْ خِلَافَتِهِ مَلَازِمًا لِلْعَدْلِ. قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي مَرْوَانَ بْنِ الْحَكَمِ؟ قَالَ: لَعَنَ اللَّهُ ذَاكَ! قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي عَبْدِ الْمَلِكِ؟ قَالَ: ذَلِكَ ابْنُ ذَاكَ، لَعَنَ اللَّهُ ذَاكَ! قَالَ: فَمَا تَقُولُ فِي؟ قَالَ: بَنِي دَيْنِكَ، وَأَنْتَ شَرُّ الثَّلَاثَةِ. فَقَالَ: يَا عُمَرُ، مَا تَقُولُ فِيمَا تَسْمَعُ؟ قَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، مَا أَحَدٌ أَعْلَمُ بِهَذَا مِنْكَ، وَأَنْتَ أَعْلَى بِهِ عَيْنًا. فَالْحَجَّ عَلَيْهِ: وَاللَّهِ لَتَقُولَنَّ! فَقَالَ: أَمَا إِذَا أَبَيْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ أَقُولَ فَسُبَّ أَبَاهُ كَمَا سَبَّ أَبَاكَ، ﴿وَأَنْ تَعْفُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧]، قَالَ: لَيْسَ إِلَّا هَذَا! قَالَ: لَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا أَنْ تَدْخُلَكَ جَبَرِيَّةٌ، فَأَمَّا الْحَقُّ فَلَيْسَ إِلَّا هَذَا.

فالتفت إلى خالد بن الريان وهو قائم على رأسه، ثم قام وهو غضبان، فقال خالد: واللَّهِ يَا عُمَرُ، لَقَدْ نَظَرَ إِلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ نَظْرَةَ ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَأْمُرُنِي بِضَرْبِ عُنُقِكَ، قَالَ: وَلَوْ أَمَرْتُكَ كُنْتَ تَفْعَلُ! قَالَ: إِي وَاللَّهِ! قَالَ: أَمَا إِنَّهُ كَانَ يَكُونُ شَرًّا لَكُمَْا وَخَيْرًا لِي، ثُمَّ سَكَتَ عَنْهُ، وَبَقِيَ ذَلِكَ فِي قَلْبِهِ، فَلَمَّا قَامَ الْوَلِيدُ مِنْ مَجْلِسِهِ دَخَلَ عَلَى امْرَأَتِهِ أُمِّ الْبَنِينَ بِنْتِ عَبْدِ الْعَزِيزِ - وَهِيَ أُخْتُ عُمَرَ - فَقَالَ: أَخْوَكِ الْحُرُورِيِّ وَاللَّهِ لَا أَقْتُلْتَهُ! فَمَكَثَ أَيَّامًا وَعُمَرَ^(١) فِي مَنْزِلِهِ لَا يَحْضُرُ الْبَابَ، وَلَا

(١) ك: «عمر أياماً».

يلتمس المعذرة، فأتاه رسول الوليد وقت القائلة فدعاه، فلمّا دخل من باب القصر عدل به إلى بيت فأدخل فيه، وطّين عليه الباب.

فرجع صاحب دابّته إلى أهله فأخبرهم، فأخبروا أخته بذلك، فبحثت عن خبره فلم تجد أحداً يخبرها بخبره وذلك يوم الثالث، فقيل لها: إنّ فلاناً الخَصِيّ يعلم علمه؛ فأرسلت إليه، فأعلمها بموضعه، فدخلت على الوليد فناشدته الله والرحم، وقبّلت يده، فقال: قد وهبته لك إن أدركته حيّاً، قال: ففتحوا عنه الباب، فوجدوه قد انثنى عنقه. فحملوه إلى منزله وعالجوه.

فلما توفي الوليد وكان سليمان بعده فهلك؛ وتولى عمر الخلافة جاء خالد بن الريان في اليوم الذي استخلف فيه عمر رحمه الله متقلداً سيفه، فقال له عمر: يا خالد، انطلق بسيفك هذا فضعه في بيتك واقعد فيه، فإنه لا حاجة لنا فيك، أنت رجل إذا أمرت بشيء فعلته، لا تنتظر لدينك.

فلما ولي خالد، نظر عمر في قفاه فقال: اللهم يا ربّ إني قد وضعته لك فلا ترفعه أبداً، فما لبث إلا جمعة حتى ضربه الفالج فقتله.



قال: ولما قالت التغلبة للجحّاف بن حكيم في وقعة البشر: فضّ الله عمادك، وأطال سُهادك، وسلّبك حياتك! فوالله لئن قتلت إلا نساء كالدُمى - أو أسافلهنّ دُمى - وأعاليهنّ تُديّ؛ فقال لمن حوله: لولا أن يلد منها حكيم لخليت سبيلها. فبلغ ذلك الحسن البصري؛ فقال: إنما الجحّاف جذوة من نار جهنم.



قيل: ولما بنى عبید الله بن زياد البيضاء^(١) بالبصرة أمر أصحابه أن يسمّوا من أفواه النَّاس، فأتي برجل قيل إنه تلا: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلَدُونَ ﴿ [الشعراء: ١٢٩، ١٣٠]. فقال: ما دعاك إلى هذا؟ قال: آية من كتاب الله عزّ وجلّ حضرت، قال: والله لأعملنّ فيك بالآية الثانية، ﴿وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠]؛ فأمر فُبني عليه ركن من أركان القصر^(٢).



قيل: إن الحجاج لما أتى المدينة أرسل إلى حسن بن حسن، فقال: هات سيف رسول الله ﷺ ودِرْعه! فقال: لا أفعل.

(١) في معجم البلدان: «والبيضاء دار عمرها عبید الله بن زياد ابن أبيه بالبصرة».

(٢) الخبر في معجم البلدان: ٣٣٦: ٢.

قال: فجاء الحجاج بالسيف والسوط والعصا، فقال: والله لأضربنك بهذه العصا حتى أكسرها؛ ثم قال: لأضربنك بهذا السوط حتى أقطعه، ثم لأضربنك بهذا السيف حتى تبرّد أو تأتيني بهما، فقال الناس: يا أبا محمد، لا تتعرضن لهذا الجبار، قال: فجاء الحسن بسيف رسول الله ﷺ ودرعه، فوضعهما بين يدي الحجاج، فأرسل الحجاج إلى رجل من آل أبي رافع، فقال له: هل تعرف سيف رسول الله ﷺ؟ فخلطه بين أسيافه، ثم قال: أخرجه. فأخرجه، ثم جاء بالدرع فنظر إليها، فقال: هناك علامة كانت على الفضل بن العباس يوم اليرموك، فطعن بحربة فخرقت الدرع، فرفعناها، فوجدنا الدرع على ما قال.

فقال الحجاج للحسن: أما والله لو لم تجئني به وجئت بغيره لضربت به رأسك.



وذكروا أن الحجاج قال يوماً لحاجبه: أغسّس الليلة بنفسك، فمن وجدته فجئني به، فلما أصبح أتاه بثلاثة نفر، فقال الحجاج لواحد منهم: ما كان سبب خروجك بالليل وقد نادى منادٍ ألا يخرج أحدٌ ليلاً! فقال: أصلح الله الأمير! كنت سكراناً، فغلبني السكر، فخرجت ولا أعقل، ففكر الحجاج ساعة ثم قال: سكران غلبه سُكرُهُ، خلّوا عنه، لا تعودنّ.

وقال للآخر: فأنت، ما كان سببك؟ قال: أصلح الله الأمير! كنت مع قوم في مجلس يشربون، فوقع بينهم عربة، فخفت على نفسي، فخرجت، ففكر الحجاج في نفسه ثم قال: رجل أحبّ المسالمة خلّوا عنه. ثم قال للآخر: ما كان سبب خروجك؟ قال: لي والدة عجوز، وأنا رجل حمّال، فرجعت إلى بيتي فقالت والدتي: ما ذقتُ اليوم طعاماً، فخرجت ألتمس لها ذلك، فأخذني عَسَسُ الأمير، ففكر ساعة ثم قال: يا غلام، اضرب عنقه، فإذا رأسه بين رجليه.

محاسنُ الحلم

حُكِيَ عن أنوشروان أن وفوداً وردوا عليه من قبل الملوك، فأتوا واستأذنوا؛ فأمر رجلاً من بطانته أن يأتيه بتاجه، فأقبل الرجل بالتاج فارتعشت يده، وسقط التاج من يده فانكسر؛ وذلك بعين كسرى، فغضّ طرفه لئلا يُرعبه، فتناول الرجل التاج، وقال له كسرى: لا بأس عليك! انطلق إلى الحاجب ومُرّه أن يصرف الوفود في هذا اليوم.



وحُكي عنه أيضاً أنه دعا كاتبه، وعرض عليه كتاباً ورد عليه من قبل إصْبَهذ^(١) خراسان، فيه أخبار من أخبار الترك، فجعل يؤمره فيها، وإن رَهْطاً من خاصته قاموا خلف سريره، فتسمّعوا عليه، فعطس واحد منهم، فالتفت كسرى ونظر إليهم، وقال: لا ينبغي أن تسمعوا سرّ الملك، وقد صفحتُ عنكم، فلا تعودوا لمثل ذلك.



قال: وقال رجل من قريش: ما أظن معاوية أغضبه شيء قط، فقال بعضهم: إن ذكرت أمّه غضب. فقال مالك بن أسماء المني القرشي: أنا أغضبه إن جعلتم لي جُعلاً، ففعلوا، فأتاه في الموسم، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عينيك لَتُشْبِهَان عيني أمك، قال: نعم؛ كانتا عينين طالما أعجبتا أبا سفيان! ثم دعا مولاه سُقران، فقال له: أعدد لأسماء المني دية ابنها؛ فإنني قد قتلته وهو لا يدري، فرجع وأخذ الجُعْل.

ف قيل له؛ إن أتيت عمرو بن الزبير، فقلت^(٢) له مثل ما قلت لمعاوية، أعطيناك كذا وكذا، فأتاه، فقال له ذلك، فأمر بضربه حتى مات، فبلغ معاوية فقال: أنا والله قتلته، وبعث إلى أمه بديته، وأنشأ يقول:

(١) أصْبَهذ بالفارسية: قائد العسكر.

(٢) ط: «فقلت».

أَلَا قُلْ لَأَسْمَاءُ الْمُئْتَى أَمْ مَالِكُ فَإِنِّي لَعَمْرُ اللَّهِ أَهْلَكْتُ مَالَكَا



قيل: وجاء رجل إلى الأحنف بن قيس فلطم وجهه فقال: بسم الله يابن أخي! ما دعاك إلى هذا! قال: آليت أن أطم سيّد العرب من بني تميم! قال: فبرّ يمينك، فما أنا بسيّدها^(١)، سيّدها حارثة بن قدامة، فذهب الرجل فلطم حارثته، فقام إليه حارثة بالسيف، ففطع يمينه، فبلغ ذلك الأحنف، فقال: أنا والله قطعته.



وعن إسحاق بن إسماعيل قال: حدّثني أبي، أنّه كان يتغدّى مع يحيى بن خالد البرمكي يوماً، إذ طلب أرزّة اشتهاها، فأمر الطباخ باتخاذها بدهن النّارجيل، فغلط الطباخ وجعل مكان الدهن نفطاً وأتاه بها^(٢)، فلمّا وضع يده فيها قال: ارفع، ولم يقل شيئاً سوى ذلك.



وحكى جعفر ابن أبي العباس قال: دخلت على المأمون ويدها معلقتان من شيء رطب أكله، قد مسّته النّار وهو يصيح، يا غلام - وكلّهم يسمع صوته - فما منهم أحد يجيبه، فخرجت إليهم وأنا أفور غضباً، فإذا بعضهم يلعب بالشّطرنج، وبعضهم بالكعب^(٣)، وبعضهم يهارش الدّيوك، فقلت: يا بني الفواعل! أما تسمعون أمير المؤمنين يدعوكم! فقال واحد: حتى أقيس هذا الكعب. وقال الآخر: قد بقيت عليّ ضربة.

وقال آخر: امض فإنّي أتبعك، فما علمت ما أخطبهم به من الحنق عليهم، فإذا المأمون قد صوّت بي؛ وأنا أقذف أمّهاتهم، فأتيته وهو يضحك، فقال: ارفق بهم. فإنّهم بشر مثلك. فقلت: تقول هذا وأنت معلق اليد! فقال: وهذه معاشرتك خدمك؟ فقلت: والله! لو فعل بي هذا ولدي من دُونِ خدّمي لقتلته، قال: هذه أخلاق السّوقة، وأخلاقنا أخلاق الملوك، فقلت: لا والله؛ ما هذه أخلاق الملوك ولا أخلاق الأنبياء عليهم السّلام!



(١) ك: «سيد العرب».

(٢) ك: «به».

(٣) في اللسان: «الكعب والكعبة: الذي يلعب به؛ وجمعه كعاب».

وقال ثمامة بن أشرس: والله! إنني لفي مجلس المأمون وعنده عمرو بن مسعدة، وأبو عباد، والعباسي، ومحمد بن أبي محمد اليزيدي، إذ دخل علي بن صالح، فقال: محمد بن الفضل بن سليمان الطوسي بالباب، قال: يدخل، فدخل وسلم وفي يده كتاب، فأشار به إلى المأمون، فقال المأمون: اذكر ما فيه، فقال: يا أمير المؤمنين، جعلني الله فداك! سر من أسرار الخليفة لا يحتمل إذاعته، قال: وإن كان ذلك فاذكره. قال: يا أمير المؤمنين، لست فاعلاً. قال: يا هذا، ما بحضرتنا من نكتمه أسرارنا، فأبدي ما عندك، فأعاد محمد بن الفضل مثل قوله الأول والثاني.

فقال المأمون: إني لأعلم ما في كتابك! قال: هذه كهانة، قال: فنزل المأمون عن فرشه، ورفع سترًا كان في ظهر مجلسه ودخل، وأشار إلينا، وقال: لا تبرحوا.

فجاء علي بن صالح فأخذ بيد الطوسي وقال: قم فأنت أشأم من البسوس، فأقعده خلف حائط بقرب المجلس؛ لكي إن خرج لا يراه، وإن دعاه أحضره.

قال: فجعل كل واحد منا يرجف بجنس من المكروه، وكلنا خائفون عليه، فواحد يقول: يأخذ الساعة أمواله ويُنْفِيه، وآخر يقول: يضرب عنقه.

قال: فأبطأ علينا المأمون ثم خرج ووجهه مسفر، ضاحكة سنه، فقال: سمعتم ما كلمني به هذا الخائن! إنه والله لما بلغ مني كلامه لم أجد بُدًّا ولا دواء إلا ملاعبة الجواري والنساء؛ ليزول عني ما قد تداخلني، وقد أسمعني ما أكره بضع عشرة مرة، واحتملته!

مساوي من سُخِطَ عليه وحُبِسَ

في الحديث المرفوع قال: شكا يوسف عليه السلام إلى ربه جلّ وعزّ طول الحبس، فأوحى الله تبارك وتعالى إليه، أنت حبست نفسك حيث قلت: ﴿رَبِّ السِّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]؛ ولو قلت: «العافية أحب إليّ» عوفيت. قال: وكتب يوسف على باب السّجن: «هذه منازل البلوى، وقبور الأحياء، وشماتة الأعداء، وتجربة الأصدقاء».

ودعا لأهل الحبس بدعوتين، هما معروفتان فيهم إلى اليوم: اللهم اعصف عليهم قلوب الأخيار، ولا تعمّ عليهم الأخبار؛ فكلّ الناس يرحمونهم، والأخبار من كلّ جهة عندهم.

قال: ولما خرج جعفر الأحمرّي من الحبس وأدخل على المهديّ في الحديد، قال له: يا فاسق، أذلك الشيطان وأغواك، وفي غمرة الجهل أزداك، وعن الهدى بعد البصيرة أعماك؛ حتى تركت الطريقة، ودخلت فيما لا أصل له ولا حقيقة؛ كيف رأيت الله كشف أمرك، وأعلن فسقك؛ وأظهر ما كنت تخفي من سقم سريرتك، وخبث نيتك؛ فأوردك حوض منيتك؛ وذلك بما قدّمت يدك، وما الله بظلام للعبيد!

قال جعفر: لا والذي لم يزل بعباده خبيراً، وبعث محمداً عليه وعلى آله السلام بالحق بشيراً، وطهر أهله من دنس الرّيب تطهيراً، ووقفني بين يديك أسيراً، وجعلك علينا سلطاناً أميراً، ما خنت الإسلام نقيراً، ولا أضللت الهدى منذ كنت بصيراً، فلا تقدم عليّ بالشبهة تقديراً، بسعي ساع سوف يُجزى بسعيه سعيراً.

فقال المهدي: ما يغني عنك وسواسك، فما تهذي من أمّ رأسك! قد تناهت إليّ أخبارك، وأذاها من كان يقفو آثارك، ويعرف أسرارك، ومن بايعك من أعوانك، الذين وازروك على ضلالك، فأقلل لا أمّ لك تسجيعة^(١)؛ فقد حلّ قضاؤك، وحان حصادك!

(١) ط: «تشجيعك».

فقال جعفر: إن تقتلني تقتل مني علماً، فلا تجعل لي على ظهرك وزراً، فأصير لك يوم القيامة خصماً، وأنت تعلم أنك لا تجيء بقتلي عدلاً، ولا تنال به فضلاً، فاتق الذي خلقك، وأمر عباده ملكك، وبالعدل فيهم أمرك، ولا تحكم عليّ بحكم عن الهدى مائل، فإنك للدنيا مفارق وعنهما راحل؛ وكل ما أنت فيه فمضمحل زائل.

قال له المهدي: تطالبنني وأنت المطلوب، وبباطلك تغلب حقي وأنت المغلوب؛ الآن ظهر فسادك، وبلغ غرسك، ودبت عقاربك^(١)، اللهم إلا أن تقر بذنبك، وتعترف بجرمك، وتتوب إلى ربك، وتحقن بالإنيابة دمك؛ فإن فعلت ذلك أمهلتنا أمرك، وأطلنا حبسك، وإلا فاحتسب نفسك؛ ولا تلم إلا جهلك!

قال جعفر: ما لي ذنب فأستغفر، ولا جرم فأعترف، ولا لي بك قوة فأنتصر، وأنت على ظلمي مُقنّدر، فإن كنت تعلم أن ما بعد الموت مصدر، ولا للعباد بعد البلى محشر، ولا للظالم موعد يخاف منه ويحذر، فاعمل من هذا ما شئت واستكثر.

قال المهدي: لا والذي بمكة بيته الحرام، وحوله الشعث العاكفون قيام، ما أخشى في إقامة الأحكام عليك وعلى أشباهك إثماً ولا وزراً، فاستسلم للقتل ودع الكلام؛ فإنه إذا عُقر الأساس تداعى النظام، وإذا انكسرت القوس تعطلت السهام، وأنت فطالماً أعنت على إطفاء النور بريح الظلام.

قال جعفر: اعف فإنك كريم جواد سامح، ولا تقبل في قول العدو الكاشح؛ فإني من الإسلام على الطريق الواضح، رفيق على أهله ولهم ناصح، أبر العالمين بفهم راجح، فلا تقدم عليّ بقول كلب نابح، فقتلك إياي عمل غير صالح.

قال المهدي: مذهبك واعتقادك! تزعم أن الآخرة، بعد فراق الساهرة^(٢)، وأن الناس كانوا أعلاماً زاهرة، وأشجاراً ناضرة، وزروعاً غاضرة، تلبث يسيراً، ثم تعود هشيماً، وإن من مات لا يعود؛ كما أن ضوء المصباح إذا طفى لا يرجع.

قال جعفر: لا والذي يخلق ويبيد، وهو أقرب إلينا من حبلى الوريد، ما قلت^(٣) ذلك وهو له شهيد، وإني أخلص له التوحيد والتفريد، والشية والتحديد، وأشهد أنه الغفور الودود، يعلم منقلب العبيد.

(١) انظر الحاشية.

(٢) الساهرة: الأرض، وقيل: وجهها.

(٣) ك: «ما قلت له».

قال المهدي: إن كنت تحب خلاص نفسك ورقبتك، فأحضرني كتاب زُندقتك، الذي بالجهل ألفتَه، وبالباطل زينتَه، وبالضلال زخرفته. سَمَّيْتَهُ أُسَّ^(١) الحكمة، وبستان الفلسفة، زعمته مستخرجاً من ديوان الإلهام، منظماً بحسن الكلام، عنفت فيه الإسلام، وأضللت فيه الأنام.

فقال جعفر: لا والذي خلق الظلمات والنور، ودبر الأمور، وهو قادر على أن يبعث مَنْ في القبور، ما هذا إلا إفكٌ مجترح وزور، وإن ديني لظاهر منير، تقديمي ذرية مَنْ هو مع الله جل وعزَّ في كل فرض لازم، إمام النبيين في البيت المعمور، فاتَّقِ الذي خلقك، وأمر عباده قلِّدك، يعلم خفيات الأمور.

قال المهدي: وأصفح لك عن هذا! فما حُجَّتْكَ في كتابك الذي أضلَّ أهل الشقاق والنِّفاق، وَمَنْ منهم في الأنديّة والأسواق، يقرؤونه ويتدارسونه في الآفاق. أما بعد؛ أعلمكم أنّ الله جلَّ وعزَّ عدلٌ لا يوالي الظالمين، ولا يرضى فعال الجاهلين، وإنه ليس لله بوليّ من رَضِيَ بأحكام الجائرين؛ فسيحوا في الأرض حيث لا تنالكم أيدي المعتدين، فإن بني العباس طُغاةٌ كُفَّرة، أولياؤهم فسقة، وأعوانهم ظلمة، دولتهم شرّ الدول، عجل الله بوارهم، وهدم منارهم، والعاقبة للمتقين.

قال جعفر: هذا والله بهتانٌ عظيم جدّاً، قذفني به قاذف عمداً، وأنت تعلم أنّي ما خالفت لكم أمراً، ولا عبثت منكم أحداً، فاقبل المعذرة، وأقل العثرة، وتغمّد الهفوة، واغتفر الرُّلة، فإنك راعٍ مسؤول.

قال المهدي: أولمَّ أبلغ أنك في الغوغاء تحثّهم على شق العصا، ومخالفة الأمر، وتحيدهم عن طاعة الخلفاء، فأبي داهية أدهى منك!

قال جعفر: ما بُلِّغْتَ حقّاً، ولقد طوى التصيحة مَنْ أودع قلبك بهتاناً وإفكاً، فلا تقبل في قول من ظلم واعتدى، وبفسادي إليك سعي، فإن الله جلَّ وعزَّ سائله يوم يودّ الظالم يا ليتَه لم يكن أميراً، ولا كان المضلّ له وزيراً!

قال المهدي: إنّك لجاهلٌ أن تقيم اعوجاجك بكثرة احتجاجك، هيهات! لا يكدر صفوي مزاجك! وقد قيل: مَنْ ظفر بحية لا يأمن لسعها^(٢)، ثم لم^(٣) يشدخ

(١) ك: «أمر الحكمة».

(٢) ك: «لسعتها».

(٣) ك: «وإن لم».

رأسها، كانت سبب حتفه. ولعمري إنَّ مَنْ يكونُ له عدوٌّ مثلك يرقب غرَّتَه،
وينتظر فورَّتَه، ولا يطلق يده بقتله، لِعَاجِزٍ.

قال جعفر: وما بلغ الله بقدر النملة، ونكاية النحلة! وإنما يكتفي مثلي من
مثلك بلحظة؛ فالكرماء رُحماء بَرَّة، والقُسوة في اللئام الشَّرَّة.

قال المهديُّ: من تنتهي أيامُه، لاحِث في الظلام أعلامُه، وأسرع به أن يذوق
حمامه! يا غلام، سيفاً قاطعاً، وضارباً^(١) حاذقاً!

قال جعفر: إن كنت تؤمن بالمعاد، وتتقي من الحشر يوم التناد، يوم يجمع
الله فيه العباد، تعلم أن طالب ثأري لك بالمرصاد، ومن لم يكن له في الموت خير
فلا خير له في الحياة. إن قدّمتني أمامك؛ فأنا قاعد لك على الجادة التي ليس عنها
مِرْحل؛ والحاكم يومئذ غيرك!

قال: فسكت المهديُّ طويلاً؛ ثم التفت إلى أصحابه فقال: كيف أقدم على
قتل رجل لا يخاف مكيدتي، ولا يرعبه سلطاني، ولا يتقي سطوتي وأعواني!
يناصبني كلامي، ويفسخ احتجاجي. كيف ولو كنّا بين يدي مَنْ لا يخاف جوره،
ولا يتقي ميله وخيفه! كان لسانه أمضى، وقلبه أجرى، وخصمه أذلّ وأقماً، خلّوا
سبيله. فمضى.



وحكي عن عديّ بن زيد أنه كان ترجماناً بين كسرى وبين العرب، وأنه أشار
على كسرى بتولية النعمان بن المنذر المُلْك، وكان له عبدٌ يعرف بعديّ بن قيس،
فؤشّي إلى النعمان بعديّ بن زيد، وذكر أنه كان السبب في تملكه، فسجنه النعمان
وسخط عليه، وتغيّر له وحبسه، فكتب عديّ بن زيد إلى النعمان يستعطفه:

أبا مُنْذِرٍ جازيتني الوُدَّ سُخْطَةً فماذا جزاء المجرم المتبغض!^(٢)

وإنَّ جزاء الحرّ منك كرامةٌ وليس بنصح فيك بالمتعرّضِ

فلم يحفل النعمان بقوله، فقال يذكر حبسه:

إنَّ للدهرِ صَوْلَةً فاحذرْ نَهَا لا تبیتنَّ قَدْ أَمِنْتَ الدُّهْورا

قد يبيتُ الفتى صحيحاً فيرْذَى ولَقَدْ بَاتَ آمِناً مَسْرُوراً

إنَّما الدَّهْرُ لَيِّنٌ وَنَطْوَحٌ يتركُ العِظَمَ واهناً مكسوراً

(١) س: «صارماً».

(٢) شعراء النصرانية: ٤٦٨.

فَسَلَّ النَّاسَ أَيْنَ آلُ قُبَيْسٍ طَحَطَحَ الدَّهْرُ قَبْلَهُمْ سَابُورًا
 خَطَفَتْهُ مَنِيَّةٌ فَتَرَدَّى وَهُوَ فِي ذَاكَ يَأْمُلُ التَّعْمِيرَا
 وَلَقَدْ عَاشَ ذَا جَنُودٍ وَتَاجَ تَرَهَّبُ الْأَسَدُ صَوْلَهُ وَالزَّئِيرَا
 وَبَنُو الْأَصْفَرِ الْكَرَامُ مَلُوكُ الْـ رُومِ لَمْ يُبْقِ مِنْهُمْ مَذْكُورًا^(١)
 ثُمَّ إِنَّ عَدِيًّا كَتَبَ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ مَقِيمٍ بَبَابِ كَسْرَى، يَقَالُ لَهُ أَبِي:

فَأَبْلَغُ أَبِيًّا عَلَى نَأْيِهِ وَهَلْ يَنْفَعُ الْمَرْءَ مَا قَدْ عَلِمَ!^(٢)
 بِأَنَّ أَخَاكَ شَقِيقَ الْفُؤَادِ يَكَادُ لِنَأْيِكَ أَنْ يُخْتَرَمَ
 لَدَى مَلِكٍ مُوثِقٌ بِالْحَدِيدِ إِمَّا بِحَقٍّ، وَإِمَّا ظُلْمٍ
 فَلَا تُلْفَيْنِ كَثِيرَ الرِّقَا دَبْلٍ إِضْرَمِ الرَّأْيَ ثُمَّ اعْتَزِمِ

فلما قرأ هذه الأبيات، دخل على كسرى فأخبره بما كان من النعمان إلى عدي، فغضب كسرى، وبعث برجل من مرازبته إلى النعمان أن يطلق عدياً ويبعث به إليه، فأقبل الرسول حتى دخل إلى النعمان وأدى إليه رسالة كسرى، فقال: نعم أنا أطلقه! ودس إلى عدي من قتله، ثم قال للرسول: ادخل السجن حتى تخرجه، فلما دخل إليه وجده ميتاً، فرجع إلى النعمان وقال له: عجّلت عليه وقتلته، وأنا مخبر كسرى بذلك! فوصله بألف دينار، وسأله تحسين أمره عند كسرى، فانصرف الرسول فأخبر كسرى بموته.

وكان لعدي ابنٌ يقال له زيد، فخاف النعمان على نفسه، فهرب من الحيرة حتى أتى المدائن، فدخل على كسرى، وتعرّف له فقربه وبرّه، فقال لكسرى ذات يوم: أيها الملك، إن لعبدك النعمان ابنةً يقال لها حُرقة وأختاً تُسمّى سَعْدَى، وابنة عمّ تسمّى لباب، وليس في جميع الأقاليم أحسنُ منهنّ. فكتب كسرى إلى النعمان: أن احمل إليّ ابنتك حُرقة، وأختك سَعْدَى، وابنة عمك لباب؛ على يدي خادم له.

فقال زيد: أيها الملك، ابعث بي مع الخَصِيّ، فقال: اخرج على اسم الله، وعجّل عليّ بالنسوة، فخرجا حتى قدما الحيرة، فدخلوا على النعمان، ودفعوا الكتاب إليه، فلما قرأه قال: أما في عين السّود وفارس ما يغني الملك عن العريّات، السّود الأبدان، الحُمش السّيقان^(٣)!

(١) شعراء النصرانية: «لم يترك الدهر منهم».

(٢) شعراء النصرانية: ٤٦٨.

(٣) حمش السيقان: دقاقها.

فقال الخادم لزيد: ما يقول النعمان؟ قال: يقول: أما في بقر فارسَ والسواد ما يغني الملك عن العربيات! فخرج الخادم حتى أتى كسرى فأخبره بما سمعه من النعمان، وقال: أيُّها الملك، إن الكلب الذي بعثت بي إليه قد سمن وتعدى طوره.

فوقع ذلك في قلب كسرى وغضب على النعمان؛ ودعا إياس بن قبيصة الكِنانيّ، فولّاه مكان النعمان، وأمره أن يكبل النعمان بالحديد، ويبعث به إليه. فبلغ ذلك النعمان، فاستودع أهله وولده وخزائنه وسلاحه وابنته حُرقة وخيله عند هاني بن مسعود المزدلف.

ثم خرج حتى أتى المدائن فلقي زيد بن عديّ، فقال له: يا بن اللخناء! لئن بقيت لك لألحقنك بأبيك! فقال له زيد: أما والله لقد بنيتُ لك عند الملك بنيّة لا تصلح بعدها أبداً!

ثم دخل على كسرى ودخل زيدٌ بعده، فقال زيدٌ: أيُّها الملك، إنّ هذا العبد إذا جلس على سريره، ووضع التاج على رأسه، ودعا بشرا به لم يظنّ أنّ لك عليه سلطاناً! فأمر كسرى بالنعمان أن يُلقَى بين أرجل الفيلة، ففعل به ذلك، فداسته الفيلة وقتلته، وهبج ذلك حرب ذي قار.



وحدّث الهيثم بن الخليل الشيعي - وكان موكلاً بحبس البرامكة من قبل هرثمة بن أعين - قال: أتى مسرور الخادم الحبس يوماً ومعه خدّم، في يد بعضهم منديل ملفوف على شيء، فأمرني بإخراج الفضل بن يحيى، فأخرجته، فقال: إنّ أمير المؤمنين يقول لك: اصدّقني وإلا فقد أمرت مسروراً أن يضربك مائتي سوط! فنكس رأسه ساعة، فقال له مسرور: يا أبا العباس! الرأي لك ألا تؤثر مالك على مهجتك، فإني لا آمن إنّ نفذت ما أمرني به أن آتي عليك، ومع هذا فإن صرت إلى رضا أمير المؤمنين فإن المال يأتيك كما أتاك، وإن يك غير ذلك فما حاجتك إلى المال!

فرفع رأسه وقال: والله يا أبا هاشم، ما كذبتُ أمير المؤمنين ولا كذبتُك، ولو كانت الدنيا لي ثم خيّر بين الخروج منها وبين أن أقرع بمقرعة بسببها لاخترتُ الخروج منها، وأمير المؤمنين يعلم وأنت تعلم أنّي كنت أصون عِرْضي بمالي، فكيف لا أصون الآن نفسي بمالي! فإن كُنتُ أمرت بشيء فامضِ له. فأمرنا

بالمنديل فنُفِضَ، وسقط منه سياطٌ بثمارها، فضربه مائتي سوط، وتولّى ضربه الخدم، فضربوه أشدَّ ضرب، ولم يحسنوا أن يضربوه، فضربتة الحُمرة^(١) وخيف عليه، فقيل له: هاهنا فتى كان في الحبس هو بصيرٌ بهذا، فأتيتُه فسألته فقال: لعلك تعالج الفضل بن يحيى، فقد بلغنا خبره! قلت: نعم، قال: فامض بي إليه، قلت: وتجرسُ على ذلك! قال: نعم، واللّه ولو قُطِّعْتُ! فجئتُ به، فلما رآه قال: ليس بشيء ضرب خمسين سوطاً، قلنا: بل ضرب مائتين، قال: هذا أثر خمسين، وأحتاج أن أنيمه على باريّة^(٢) وأدوس صدره.

فجزع الفضل من ذلك، وأبى أن يفعل؛ فحوّفناه تَلَفَ نفسه، وناشدناه حتى فعل. فأخذ بيده بعض مَنْ حضر، وأخذتُ بيده الأخرى ثم جرّزناه على الباريّة، فإذا عليها صورته من لحم ظهره، فقال: لا بدّ لي من أن أعيده فأعاده.

ثم اختلف إليه، فبينما هو ينظر إليه يوماً إذ خر ساجداً، فقلت: ما لك، قال: برئ أبو العباس بإذن الله! فدنوت، فأراني في ظهره لحماً ناتئاً كهية الدعاميص^(٣) الحُمَر، ثم قال: أت حفظ قولِي: «إنه أثر خمسين سوطاً» لو ضرب ألف سوط ما كان أثرها بأشدّ من ذلك! ولكنتي قلت ما قلت لتقوى نفسه، فيعينني على علاجه؛ وخرج. وسألني الفضل أن ألقى بعض إخوانه وأعلمه أنّه يحتاج إلى عشرة آلاف درهم، فأتيت بعض إخوانه وأعلمته أنّه يحتاج إلى عشرة آلاف درهم، فسألني أن أحملها إليه، وأمرني بدفعها إلى الرّجل الذي عالجه، فلما مضيت بها إليه، وجدته غائباً عن منزله، ورأيتُ بابه مُغلَقاً؛ فملت إلى مسجدٍ هناك منتظراً له حتى عاد، فقمّت إليه ودخلتُ منزله، فإذا بيتٌ فيه حصيران ومِسورتان وطنبور، وثلاث دساتيج^(٤)، وقناني وأقداح، فقال:

ما حاجتك؟ فأقبلت أعتذر إليه، وأذكر حاله، ثم أعلمته ما وجّهني له، فنخر نَخرة حتى أفرغني، ثم قال: عشرة آلاف! فجهدت الجهد كلّ به أن يقبلها فأبى، فعدت إلى الفضل فأعلمته، فقال: إنه استقلّها واللّه، قلت: لا أظنّ، قال: بلى، وإلّا فما معنى قوله: «عشرة آلاف درهم»، ولكن تعود إلى صاحبنا وتسأله عشرة آلاف أخرى وتحملها إليه.

(١) الحُمرة عند العرب: داء يعتري الناس فيحمر موضعه.

(٢) الباريّة: الحَصِير المنسوج.

(٣) الدعاميص: جمع دَعْمُوص، وهي دويبة لها رأسان تراها في الماء إذا قل.

(٤) الدساتيج: جمع دَسْتَجَة، وهي إناء كبير يتخذ من الزجاج، هو معرب «دسته».

فحملتها إلى الرجل، فنخر نخرة أشد من نخرته الأولى ثم قال: أنا أعالج فتى من الأبناء بكراء! أنا طبيب والله! والله لو كانت عشرة آلاف دينار ما قبلتها.

فخرجت من عنده وسألت عن معيشته، فقيل: له برج يصعد إليه في كل يوم، فيبيع فراخه وصيده، ويعتكف على ما تراه. فرجعت إلى الفضل وأخبرته، فتعجب ثم قال: أخبرني بأعجب ما رأيته منّا وأحسنه؟ فاندفعت أحدثه، فلمّا رأى إطنابي، قال: بالله أيّنا أحسن أفعالاً، نحن أم هذا الفتى؟ فإذا هو يستقبح أفعالهم مع فعله ويستصغرها!



قال: ودخل ابن الزيات على الأفشين وهو محبوس مكبل بالحديد، فقال:

اصبر لها صبر أقوام نفوسهم لا تستريح إلى عقل ولا قود

فقال الأفشين: من صحب الزمان، رأى الكرامة والهوان! ثم قال:

لم ينج من خيرها أو شرّها أحد فاذكر شآبيبها إن كنت من أحد

خاضت بك المنيّة الحمقاء غمرتها^(١) فتلك أمواجها ترمىك بالزبد

الشعر الأول والثاني لأبي سعد المخزومي.

قال حمدون بن إسماعيل: بعث الأفشين إلى المعتصم من الحبس: أن يا أمير المؤمنين، أن مثلي ومثلك مثل رجل ربى عجلاً له حتى أسمنه وكبر وحسنت حاله، وكان له أصحاب اشتهو أن يأكلوا من لحمه، فعرضوا له بذبح العجل، فلم يجبههم إلى ذلك، فاتفقوا جميعاً على أن قالوا له ذات يوم: ويحك! ألم تر هذا الأسد وقد كبر! والسبع إذا كبر رجع إلى جنسه. فقال لهم: هذا عجل، فقالوا: هذا سبع، سل من شئت عنه! وقد تقدّموا إلى جميع من يعرفه أنه إن سألهم عنه قالوا: هو سبع، فأمر بالعجل فذبح؛ ولكنّي أنا ذلك العجل، كيف أقدر أن أكون أسداً! الله الله في أمري، فقد وجب حقّي، وأنت سيدي ومولاي.

فلم يلتفت المعتصم إلى رسالته، وغلظ عليه الأمر حتى قيل إنه قد مات. فقال المعتصم: أروه ابنه، فأخرجوه مكبلاً بالحديد، فطرحوه بين يديه، فلمّا رآه تنف لحيته ودعا بالويل والثبور، ثم ردّوه إلى منزل إيتاخ، وكان يطعم في كل يوم

(١) كذا في المحاسن والأضداد. وك، وفي ل: «خاضت بك المنة».

رغيفاً حتى مات، فأخرجوه وصلبوه على باب العامّة، ثم أحرق ورُمي به في دجلة^(١).



قيل: وكان العُجيف بن عنبسة ممّن خرج مع العباس بن المأمون على المعتصم، وسعى في الخلاف عليه، قال: فحدّثنا أبو طالب قال: كُنْتُ مع محمد بن الفضل الجرجرائي^(٢)، فالتفت إلى رجل عنده فقال: حدّث أبا طالب بما حدّثني به، فأقبل عليّ الرّجل يحدثني. فسألت عنه، فقيل: هو عمر بن عمرو القرقرارة الكاتب. قال: كنت أتقلّد ضياع عُجيف بناحية كَسْكَر، فرفع عليّ أني خربت ضياعه، فكتب في حملي، فأدخلت عليه وهو في داره التي بسُرّ مَنْ رأى، وهو يطوف على الضياع وعلى رأسه برّطلة^(٣) خوص، فلمّا نظر إليّ قال: أخربت ضياعي، وأخذت أموالِي؛ واللّه لأقتلنك! ودعا بالسّيّاط، فبُلتُ فرَقاً منه، فكأنّي أنظر إلى البؤل يأخذ في سراويلي يميناً وشمالاً، وأومأت إلى الكاتب، فالتفت الكاتب إلى عُجيف، فقال: أيّها الأمير، أنت مشغول القلب بما يحتاج أن تأمر به، وتشرف عليه، وهذا في أيدينا، فإن كان ما رُفع عليه حقاً فالأمير من وراء ذلك، وإن كان باطلاً لم تأثم فيه. فقال: الحبس؛ فلبثت في الحبس أياماً، فوجّه إليّ كاتب عجيف فأتيته، فقال لي: طاب لك المكان، ما معك؟ فبررته بشيء فأطلقني، فقلت لغلامي: قد نالنا من الحبس والغرم ما نالنا، وصديقي فلان ابن فلان صاحب الديوان أحتاج أن ألقاه، لعلّ الله عزّ وجلّ أن يسهل عملاً! فأتيت صديقي ذلك، فقال لي: أنت في الحياة! هاهنا عملٌ في ديار ربّيعه، أفلُدّكه، فتقلّدته.

وخرجت أنا وغلامي، فما زلت أسير حتى أتيت باعيناً^(٤)، فغمزني البول في السّحر، وهي مُقْمِرة، فنزلت عن دابتي وجلست وأنا أبول^(٥)، فقلت لغلامي: ويحك! لكأنّي أبول في ثيابي، فاطلب لي ماءً، فقال: الناس نيام؛ فلم أزل واقفاً

(١) ك: «الدجلة».

(٢) وزير المتوكل، منسوب إلى جرجرايا، بلد من أعمال النهروان الأسفل، بين واسط وبغداد من الجانب الشرقي.

(٣) البرطلة: القلنسوة.

(٤) باعيناً: قرية كبيرة كالمدينة فوق جزيرة ابن عمر، فيها نهر كبير يصب في دجلة (ياقوت).

(٥) ك: «لأنبول».

حتى خرج بعض أوائل الأنباط، فطلب الغلام منه ماءً، فجاء به، فجعل هو والغلام يصبان عليّ الماء وأنا أغسل ثيابي، فقال لي النَّبِطِيُّ: وأين بُلْتَ؟ قلت: هاهنا؟ قال: هذا نطع عُجَيف، قلت: عجيف! قال: نعم، قلت: ما يعمل عُجَيف هاهنا؟ قال: أو ما بلغك أنَّ أميرَ المؤمنين بعث إليه بَشْرَبَة، فأقامته ثلاثمائة مجلس فمات، فَلَفَّ في نطع، وها هوذا!

فصبرت حتى أصبحت، فنظرت إلى النطع، فقلت: لا إله إلا الله! بينا أنا بالأمس بين يديه أبول من فرقه، حتى جئت فُبُلْتَ عليه!



قيل: وَسَخِطَ الْمُعْتَصِمُ عَلَى الْفَضْلِ بْنِ مِرْوَانَ، فَأَمَرَ بِحَبْسِهِ وَتَقْيِيدِهِ، وَاسْتِئْذَانِهِ أَلْفَ أَلْفِ دِينَارٍ وَسِتْمِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ، وَرُفِعَتْ فِيهِ الْقِصَصُ، فَأَقْبَلَ أَحْمَدُ بْنُ عَمَّارٍ يَقْرُؤُهَا، فَوَقَعَتْ فِي يَدِهِ قِصَّةٌ^(١) فِي نِصْفِ طُومَارٍ^(٢)، فَإِذَا فِيهَا شَعْرٌ، فَتَوَقَّفَ عَنْ قِرَاءَتِهَا، فَقَالَ: مَا تَوَقَّفُكَ^(٣)؟ قَالَ: إِنَّهُ شَعْرٌ، قَالَ: هَاتِهِ، فَإِذَا فِيهَا^(٤):

لَا تَعْجَبَنَّ فَمَا بِالذَّهْرِ مَنْ عَجِبَ	وَلَا مِنَ اللَّهِ مَنْ حَصَنٍ وَلَا هَرَبٍ
يَا فَضْلُ لَا تَجَزَّعَنَّ مِمَّا ابْتَلَيْتَ بِهِ	مَنْ خَاصَمَ الذَّهْرَ أَجْثَاهُ عَلَى الرُّكْبِ
كَمْ مِنْ كَرِيمٍ نَشَأَ فِي بَيْتِ مَكْرُمَةٍ	أَتَاكَ مَخْتَنِقًا بِالْهَمِّ وَالْكَرْبِ
أَوَّلَيْتُهُ مِنْكَ إِذْ لَا وَمُنْقَصَةً	فَخَابَ مِنْكَ وَمِنْ ذِي الْعَرْشِ لَمْ يَخِبْ
وَكَمْ وَثَبْتَ عَلَى قَوْمٍ ذَوِي شَرَفٍ	فَمَا تَلْعَثُمْتَ عَنْ زُورٍ وَعَنْ كَذِبٍ
خَنَتَ الْإِمَامَ وَهَذَا الْخَلْقَ قَاطِبَةً	وَجُرْتَ حَتَّى أَتَى الْمَقْدُورُ فِي الْكُتُبِ ^(٥)
جَمَعْتَ شَتَّى وَقَدْ أَدَيْتَهَا جَمَلًا	لَأَنْتَ أَخْسَرُ مِنْ حَمَّالَةِ الْحَطَبِ

فقال المعتصم: لِيُدْعَ صَاحِبُ الْقِصَّةِ، فِدْعِي فَلَمْ يَجِبْ، فقال: واللَّهِ لو جَاءَنِي لَدَفَعْتُ إِلَيْهِ الْفَضْلَ لِيَنْفِذَ فِيهِ أَمْرَهُ.



وقال بعضهم: رَأَيْتَ عَلَى حَائِطِ دَارِ الْفَضْلِ بْنِ مِرْوَانَ مَكْتُوبًا:

تَفَرَّعَتْ يَا فَضْلُ بْنُ مِرْوَانَ فَاغْتَبِرَ	فَمَثَلُكَ كَانَ الْفَضْلُ وَالْفَضْلُ وَالْفَضْلُ
ثَلَاثَةُ أَمْلَاحٍ مَضَوْا السَّبِيلَ لَهُمْ	أَبَادَهُمُ التَّنْكِيلُ وَالْحَبْسُ وَالْقَتْلُ

(١) ك: «رقعة».

(٣) ك: «ما يوقفك؟».

(٥) ل: «المقدار».

(٢) الطومار: الصحيفة.

(٤) ك: «فيه هذه الأبيات».

وإِنَّكَ قَدْ أَصْبَحْتَ فِي النَّاسِ لَعْنَةً سَتُودِي كَمَا أُوْدَى الثَّلَاثَةُ مِنْ قَبْلُ



قيل: وكان الواثق غضب^(١) على جعفر المتوكل أخيه لبعض أموره، فأراد أن يقومه، فوكل به عمر بن فرج، فأتى جعفر إلى محمد بن عبد الملك الزيات مستغيثاً به؛ ليكلّم أخاه، فدخل عليه، فمكث ملياً واقفاً بين يديه لا يكلّمه، ثم أشار إليه أن يقعد، فقعد، فلما فرغ من نظره في الكتب، التفت إليه؛ شبيهاً بالمتهدّد له، فقال: ما جاء بك؟ قال: جئت لتسأل أمير المؤمنين الرضا عني! فقال لمن حوله: انظروا إلى هذا، يُغضب أخاه ثم يسألني أن أسترضيه! اذهب فإنك إذا صلحت رضي عنك. فقام جعفر كئيباً حزيناً لما لقّيه به من قبح اللقاء، فخرج من عنده.

وكتب محمد بن عبد الملك إلى الواثق حين خرج جعفر من عنده: يا أمير المؤمنين، أتاني جعفر بن المعتصم يسألني أن أسأل أمير المؤمنين الرضا عنه في زِيّ المخنثين، له شعر.

فكتب إليه الواثق: ابعث إليه فأحضره، ومُر من يجزّ شعره، ويضرب وجهه. فحدّث عن المتوكل قال: لما أتاني رسوله لبستُ سواداً لي جديداً، وأتيته رجاء أن يكون قد أتاه الرضا عني، فلما دخلت عليه قال: يا غلام، عليّ بالجام. فدعي فقال: خذ شعر هذا، فأخذه على السواد الجديد، ولم يأتني بمنديل، فأخذ عليه شعري، وضرب به وجهي، فما دخلني شيء من الجزع مثل ما دخلني في ذلك اليوم.

قال: فلما وُلّي جعفر الخلافة بعث إلى محمد بن عبد الملك فدعاه، فركب حتى أتى دار إيتاخ، فأخذ سيفه وقلنسوته، ودراعه، ودفع إلى غلمانه. وانصرفوا وهم لا يشكّون أنه مقيم عند إيتاخ، ثم سُوهر ومُنع النوم، وسأل عن شيء يعذب به، فدلّ على تنور من حشَب فيه مسامير قيام.

فحدّثت عن أحمد بن أبي داود أنه قال: هو أوّل من أمر بعمل التنور، فابْتُلِيَ به لصحّة المثل: «كما تدين تُدان»، وإن شئت: «من يرّ يوماً يرّ به»، وإن شئت: «من حفر حُفرة هوى فيها»؛ فعذب في التنور.

فحدّث الموكّل بعذابه، فقال: كنت أخرج وأقفل عليه الباب، فيمدّ يديه إلى السماء جميعاً حتى يدقّ موضع كتفيه، ثم يدخل التنور ويجلس، وفي التنور مسامير حديد، وفي وسطه خشبة معترضة، يجلس المعذب عليها إذا أراد أن يستريح.

(١) ك: «قد غضب».

قال المعذَّب له : فحاتلته يوماً وأرَيْته أَنِّي قد أَقفلت عليه ، ثم مكثت قليلاً ودفعت الباب ، فإذا هو قاعد ؛ فقلت : أراك تعمل هذا ! فكنت إذا خرجت شددت خناقه ، فما مكث بعد ذلك إلا أياماً حتى مات ، فوجد على حائط البيت الذي كان فيه من قَبْلِ التَّنُورِ :

لَعَبَ الْبَلَى بِمَعَالَمِي وَرُسُومِي وَدُفِنْتُ حَيًّا تَحْتَ رَدَمِ غَمُومِ
وَشَكُوتُ غَمِّي حِينَ ضِيقَتْ وَمَنْ شَكَا كَرْباً يَضِيقُ بِهِ فَغَيْرَ مَلُومِ
لَزِمَ الْبَلَى جِسْمِي وَأَوْهَنَ قَوَّتِي إِنَّ الْبَلَى لَمَوْكَلٌ بِلَزُومِي
أُبْنَيْتِي قَلْبِي بِكَاءِكَ وَاصْبِرِي فَإِذَا سَمِعْتَ بِهِالِكِ مَغْمُومِ
فَانْعَيْ أَبَاكَ إِلَى نَسَائِهِ واقْعِدِي فِي مَاتَمِ يَبْكِي الْعَيُونَ وَقُومِي
قُولِي لَهُ : يَا غَائِباً لَا يُرْتَجَى حَتَّى الْقِيَامَةِ مَخْبِراً بِقُدُومِ
يَا عَيْنَ كُنْتَ وَمَا أَكَلْفُكَ الْبُكَاءِ حَتَّى ابْتُلَيْتِ فَإِنْ صَبَرْتَ فَدُومِي
وقال في التَّنُورِ الذي عَذَّبَ فِيهِ :

هَيْضَ عَظْمِي الْعَدَاةُ إِذْ صَرْتُ فِيهِ إِنَّ عَظْمِي قَدْ كَانَ غَيْرَ مَهِيضِ
وَلَقَدْ كُنْتُ أَنْطُقُ الشَّعْرَ دَهْرًا ثُمَّ حَالَ الْجَرِيضُ دُونَ الْقَرِيضِ^(١)

وله أيضاً وهو يعذَّب في التنور ، وقيل إنه آخر ما قاله :

تَمَكَّنْتُ مِنْ نَفْسِي فَأَزْمَعْتُ قَتْلَهَا وَأَنْتَ رَخِيُّ الْبَالِ وَالنَّفْسُ تَذْهَبُ
كَعَصْفُورَةٍ فِي كَفِّ طِفْلِ يَسُومُهَا وَرُودَ حِيَاضِ الْمَوْتِ وَالطِّفْلِ يَلْعَبُ
فَلَا الطِّفْلُ يَدْرِي مَا يَسُومُ بِكَفِّهِ وَفِي كَفِّهِ عُصْفُورَةٌ تَتَضَرَّبُ



قال : وكان إسماعيل بن القاسم في حبس الرشيد ، فكتب إليه بسوء حاله ، فكتب في رقعته : ليس عليك بأس ! فكتب إليه :

أَرِقْتُ وَطَارَ عَنْ عَيْنِي النِّعَاسُ وَنَامَ السَّامِرُونَ وَلَمْ يَوَاسُوا
أَمِينَ اللَّهِ أَمْنُكَ خَيْرُ أَمْنٍ عَلَيْكَ مِنَ التَّقَى فِيهِ لِبَاسُ
تَسَاسُ مِنَ السَّمَاءِ بِكُلِّ بَرٍّ وَأَنْتَ بِهِ تَسُوسُ كَمَا تُسَاسُ
كَأَنَّ الْخَلْقَ رُكِبَ فِيهِ رُوحٌ لَهُ جَسَدٌ ، وَأَنْتَ عَلَيْهِ رَأْسُ
أَمِينَ اللَّهِ إِنَّ الْحَبْسَ بِأَسٍّ وَقَدْ أَرْسَلْتَ لَيْسَ عَلَيْكَ بِأَسٍّ
فَأَمْرٌ بِإِطْلَاقِهِ وَصِلَّتْهُ .

(١) حال الجريض دون القريض ؛ مثل ، وأول من قاله عبيد بن الأبرص ، وانظر مجمع الأمثال .

قيل : إنه لما غضب المتوكل على سليمان والحسن ؛ ابني وهب ، قال الحسن :

أقول والليل ممدود سرادقه وقد مضى الثلث منه أو قد انتصفا
يا رب ألهم أمير المؤمنين رضا عن خادمين له قد شارفا التلفا
لئن يكونا أساءا في الذي سلفا فلن يسيئا بإذن الله مؤتلفا
فرضي عنهما وأمر بإطلاقهما .



قال الكسروي : وقع كسرى بن هرمز إلى بعض المحتبسين : «من صبر على النازلة ، كان كمن لم تنزل به ، ومن طول له في الحبل كان فيه عطفه ، ومن أكل بلا مقدار تلفت نفسه» .



ووقع بعضهم لمحجوس سأل الإطلاق : «أنت إلى الاستيثاق أحوج منك إلى الإطلاق» .

وأنشد في هذا المعنى :

ألا أحد يدعو لأهل محلة مقيمين في الدنيا وقد فقدوا الدنيا!
كانهم لم يعرفوا غير دارهم ولم يعرفوا غير الشدائد والبلوى



وقال أعرابي :

ولما دخلت السجن كبر أهله وقالوا : أبوليلي الغداة حزين
وفي الباب مكتوب على صفحاته بأنك تنزرو ساعة وتلين



ولابن المعتز :

تعلمت في السجن نسج التكا وكنت امرأة قبل حبسي ملك
وقيدت بعد ركوب الجياد وما ذاك إلا بدور الفلك
ألم تبصر الطير في جوه يكاد يلامس ذات الحبك!
إذا أبصرته خطوب الزما ن أوقعنه في حبال الشرك

فَهَا ذَاكَ مَنْ حَالِقٍ قَدْ يَصَادُ وَمَنْ قَعَرٍ بِحَرٍ يُصَادُ السَّمَكُ
 وَوَجَدْنَا فِي أَرْضِ الْبَيْتِ الَّذِي قُتِلَ فِيهِ بِخَطِّهِ :
 يَا نَفْسُ صَبْرًا لَعَلَّ الْخَيْرَ عَقْبَاكَ خَانَتْكَ مِنْ بَعْدِ طَوْلِ الْأَمْنِ دُنْيَاكَ
 مَرَّتْ بِنَا سَحَرًا طَيْرٌ فَقُلْتُ لَهَا : طُوبَاكَ يَا لَيْتَنِي إِيَّاكَ ، طُوبَاكَ !



قال : وكتب يحيى بن خالد البرمكي إلى الرشيد من الحبس :

لأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَخَلَفِ الْمُهَدِّيَّينَ ، وَخَلِيفَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ؛ مِنْ عَبْدٍ أَسْلَمَتْهُ
 عِيُوبُهُ ، وَأَوْبَقَتْهُ ذُنُوبُهُ ، وَخَذَلَهُ شَقِيقُهُ ، وَرَفَضَهُ صَدِيقُهُ ، وَزَالَ بِهِ الزَّمَانُ ، وَنَزَلَ بِهِ
 الْحَدَثَانُ ، وَحَلَّ بِهِ الضِّيقُ بَعْدَ السَّعَةِ ، وَالشَّقَاءُ بَعْدَ السَّعَادَةِ ، وَعَالَجَ الْبُؤْسَ بَعْدَ
 الدَّعَةِ ، وَلَبَسَ الْبَلَاءَ بَعْدَ الرَّخَاءِ ، وَافْتَرَشَ السُّخْطَ بَعْدَ الرِّضَا ، وَاکْتَحَلَ السُّهُودَ ^(١) ،
 وَفَقَدَ الْهَجُودَ ^(٢) ؛ سَاعَتُهُ شَهْرٌ ، وَلَيْلَتُهُ دَهْرٌ ، قَدْ عَايَنَ الْمَوْتَ ، وَشَارَفَ الْفَوْتَ ،
 جَزَعًا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - قَدَّمَنِي اللَّهُ قَبْلَكَ - مِنْ مَوْجِدَتِكَ ، وَأَسْفَأَ عَلَيَّ مَا حُرِّمَتْهُ مِنْ
 قَرَبِكَ ، لَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَوَاهِبِ ؛ لِأَنَّ الْأَهْلَ وَالْمَالَ إِنَّمَا كَانَا لَكَ ، وَعَارِيَةٌ فِي
 يَدَيَّ مِنْكَ ، وَالْعَارِيَةُ لَا بَدَّ مُرْدُودَةٍ . فَأَمَّا مَا اقْتَصَصْتَهُ مِنْ وَلَدِي فَبَذَنِيهِ ، وَعَاقَبْتَهُ
 بِجَرَمِهِ وَجَرِيرَتِهِ عَلَى نَفْسِهِ ، فَإِنَّمَا كَانَ عَبْدًا مِنْ عَبِيدِكَ ، لَا أَخَافُ عَلَيْكَ الْخَطَأَ فِي
 أَمْرِهِ ، وَلَا أَنْ تَكُونَ تَجَاوَزْتَ بِهِ فَوْقَ مَا كَانَ أَهْلُهُ ، وَلَا كَانَ مَعَ ذَلِكَ بِقَاوُهُ أَحَبُّ
 إِلَيَّ مِنْ مُوَافَقَتِكَ .

فَتَذَكَّرَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ وَحَجَبَ عَنِّي فَقْدَكَ - كِبَرَ سَنِّي ،
 وَضَعْفَ قُوَّتِي ، وَارْحَمْ شَيْبَتِي ، وَهَبْ لِي رِضَاكَ عَنِّي ، وَلْتَمِلْ إِلَيَّ بِغَفْرَانِ ذَنْبِي ،
 فَمِنْ مِثْلِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ الزَّلَّلَ ، وَمِنْ مِثْلِكَ الْإِقَالَهَ ؛ وَلَسْتُ أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ إِلَّا بِمَا
 تَحَبَّبَ الْإِقْرَارُ بِهِ حَتَّى تَرْضَى ، فَإِذَا رَضِيتَ رَجُوتُ أَنْ يَظْهَرَ لَكَ مِنْ أَمْرِي ، وَبِرَاءَةِ
 سَاحَتِي ، مَا لَا يَتَعَاطَمُكَ مَعَهُ مَا مَنَنْتَ بِهِ مِنْ رَأْفَتِكَ بِي ، وَعَفْوِكَ عَنِّي ، وَرَحْمَتِكَ
 لِي .

زَادَ اللَّهُ فِي عَمْرِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَقَدَّمَنِي لِلْمَوْتِ قَبْلَكَ !

وكتب في أسفله :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ ذِي الصَّنَا نَعِّ وَالْعَطَايَا الْفَاشِيَهْ

(٢) ك : «الرقاد» .

(١) ك : «السهاد» .

وابن الخلائف من قريه
ملك الملوک وخير من
ان البرامكة الذي
عمتهم لك سخطه
فكانهم مما بهم
صفر الوجوه عليهم
متفرقين مشتت
بغدا الإمارة والوزا
ومنازل كانوا بها
وتحرّم برضاع أو
فاليوم قد رموا لذي
أضحوا وجلّ مناهم
فاذا رضىت فإن أنف
فاليوم قد سلب الزما
واليوم قد ألقى الزما
ورمى سواد مقيلتي
يامن يودّ لي الردى
يكفيك ما أبصرت من
يكفيك أني مستبأ
ورزئت مالي كُله
إن كان لا يرضيك إلا
فلقد رأيت الموت من
وفجئت أعظم فجعة
ولبست أثواب الذلي
وعطبت في سخط الإما
فانظر بعينك هل ترى
وذخائراً مفسومة

ش والملوك الهادي
ساس الأمور الماضي
من رموا لذيك بدهيه
لم تبق منهم باقيه
أعجاز نخل خاويه
خلع المذلّة باديه
ين بكل أرض قاصيه
رة والأمر السامي
فوق المنازل عاليه
في مريض لك فاديه
ك بما يشيب النصيه
منك الرضا والعافيه
سهم بحكمك راضيه
ن كرامتي وبهائيه
ن جرانه بفنائيه
فأصاب حين زمانيه
يكفيك ويحك ما بيه
ذلي وذلل مكانيه
ح معشري ونسائيه
وفدى الخليفة ماليه
أن أذوق جمامي
قبل الممات علانيه
وفنيت قبل فنائيه
ل ولم تكن لباسيه
م على رفيع بنائيه
إلا قصوراً خاليه!
قسمن قبل مماتي

وحرائرًا مِنْ بَيْنِ صَا
ونوادرٍ بَايُنْدُبْنِي
يَا بَا عَلِيَّ الْبَرْمَكِيَّ
وبكاؤهنَّ وقد سمع
أخليفةَ اللَّهِ الرُّضَا
أذْكَرُ غُهوْدَكَ لي وما
أذْكَرُ مُقَاسَاتِي الْأُمُو
أَرْحَمُ أَخَاكَ الْفَضْلَ وَالـ
فلقد دَعَوُكَ وقد دَعُو
أخليفةَ الرَّحْمَنِ إِنَّـ
وبكاءَ فَاطِمَةَ الْكُئِيـ
ومقَالَهَا بِتَوَجُّعٍ:
مَنْ لِي وَلَا مَنْ لِي وَقَدْ
وعِدِمْتُ صَفْوَ مَعِيشَتِي
مَنْ لِي وَقَدْ غَضِبَ الزَّمَانُ
أَوْدَى الزَّمَانُ بِجَوْرِهِ
يَا عَطْفَةَ الْمَلِكِ الرُّضَا

رَحْمَةً عَلَيَّ وَبَاكِئَةً
تَحْتَ الدُّجَى بِكُنَائِيهِ^(١)
فَمَا أُجِيبُ الدَّاعِيَةَ
تُ مُقْلَقْلُ أَحْشَائِيهِ
لَا تُشْمِتُنْ أَعْدَائِيهِ
أَعْطَيْتَنِي بِوَفَائِيهِ
رَوْحِ دُمْتِي وَغَنَائِيهِ^(٢)
بَاقِيْنَ مِنْ أَوْلَادِيهِ
تُكَ إِنَّ سَمِعْتَ دُعَائِيهِ
لَكَ لَوْ رَأَيْتَ بَنَاتِيهِ
بَتَّةً وَالْمَدَامِيعَ جَارِيهِ
وَأَشَقَّوَتَا وَشَقَّائِيهِ!
قَصَمَ الزَّمَانُ قَنَاتِيهِ^(٣)
وَتَغَيَّرَتْ حَالَاتِيهِ
نُ عَلَى جَمِيعِ رِجَالِيهِ!
بِسَاسَتِي وَحُمَاتِيهِ^(٤)
عُودِي عَلَيْنَا ثَانِيهِ

فوقع الرشيد في رُقعته: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وقد قلت:

يَا آلَ بَرْمَكٍ إِنَّمَّا^(٥)
فَطَعَيْتُمْ وَبَغَيْتُمْ
هَذَا عَقُوبَةً مِنْ عَصَى

كُنْتُمْ مُلُوكًا عَادِيَهُ
وَكَفَرْتُمْ نِعَمَائِيهِ
مَنْ فَوْقَهُ وَعَصَانِيهِ

(١) ك: «بكتاييه».

(٣) ك: «فصم».

(٥) ك: «إنكم».

(٢) ل: «مقاساة الأمور».

(٤) الساسة: المجربون، والحماتيه: الشجعان.

كُنْتُمْ كَشِيٍّ قَدْ مَضَى أَحْلَامَ نَوْمٍ سَارِيَهُ
وَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ مُهْلَهْلٍ:

بَاتَ لَيْلِي بِالْأَنْعَمِينَ طَوِيلًا أَرْقُبُ النَّجْمَ سَاهِرًا أَنْ يَزُولَا^(١)
أَزْجُرُ الْعَيْنَ أَنْ تُبْكِيَ الطُّلُولَا إِنَّ فِي الصَّدْرِ غُلَّةً لَنْ تَقْضَى
إِنَّ فِي الصَّدْرِ غُلَّةً لَنْ تَقْضَى مَا دَعَا فِي الْعُصُونِ دَاعٍ هَدِيدًا
لَمْ يُطِيقُوا أَنْ يَنْزِلُوا فَنَزَلْنَا وَأَخُو الْحَرْبِ مَنْ أَطَاعَ النَّزُولَا



قال أبو أحمد بن القاسم بن واضح رحمه الله: كان محمد بن الواثق؛ وهو المهتدي بالله قبل الخلافة يكثر عند المعتز بالله الجلوس، والخلافة يومئذٍ بسُرٍّ مَنْ رَأَى، فيرجع المعتز إلى قول محمد في أموره، وما يُمضيه ويُبْرِمه، وكان كثير المعارضة لأمّ المعتز فيما تأمر به وتنهى، فلم تنزل بالمعتز إلى أن أمر بإحضاره إلى مدينة السلام^(٢) على كره منه، فلمّا أمر بذلك كان وزيره أحمد بن إسرائيل منحرفاً عن محمد بن الواثق، وأحبّ أن يخرجّه مع حُرْمه نهاراً ليسوءه ويضع منه، فسأل محمد بن الواثق القاسم بن واضح - لحالٍ كانت بينهما ورُفّةٍ كانت له عنده متقدّمة - أن يدخل مع صاحبه المعروف بالطوسي، ويسأله أن يخرجّه وحُرْمه ليلاً، ففعل، وكلم أحمد بن إسرائيل ورقّقه ولاطفه، فغضب أحمد واحتدّ، وكان غير حافظ للسان، قليل الفكر في العواقب، متهوراً، فأطلق لسانه بكلام بشعٍ قبيح، وقال: من هو! ومن بنائه وحُرْمه! الكذا الكذا؛ حتى لا يخرجون نهاراً.

فقال القاسم: ليت أنّ رجلي انكسرت ولم أحضر هذا المجلس! وقام معه الطوسي رسول محمد بن الواثق، وما زال يسأله ألا يردّ خبر المجلس ولا يحكي الكلام الذي بدر من أحمد بن إسرائيل. فوعده وخالفه لمّا فارقه ولم يصبر حتى مضى، فحكاه لمحمد بن الواثق، وأخضّر محمد مع حُرْمه نهاراً إلى مدينة السلام، فوقر ذلك في نفس محمد وحقده على أحمد بن إسرائيل، فلم يمض إلا القليل؛ حتى قعد محمد بن الواثق في الخلافة بعد قتل المعتز. وكان رجلاً تقياً متألّهاً^(٣) يؤثر العدل والإنصاف، ويتحرّج ويحبّ إظهار السنن الحسنة، وإقامة الدين؛ على

(١) الأغاني: ٤: ١٤٨ (ساسي).

(٢) مدينة السلام: بغداد.

(٣) متألّها: متعبداً.

شرائعه المستوية، وأعلامه القديمة؛ من الخلفاء الذين عدلوا؛ إلا أن أيامه قصرت، وكان الأتراك قد غلبوا على الخلافة^(١)؛ لكثرة معارضتهم للخلفاء، وإضعافهم أيديهم، وإيهائهم أمرهم.

فأمر لمّا وُلِّي الخلافة بالقبض على أحمد بن إسرائيل، وأبي نوح الكاتب، والحسن بن مَخلَد، وكانت عليهم تدور دولة المعتز من قبله، ورسم أن يضرب أحمد بن إسرائيل بباب العامة ألف سوط، فإن مات وإلا زيد ضرباً حتى يتلف؛ وذلك لما كان منه من القول الذي كان سبب تَلَفه.

فراسل أحمد القاسم بن واضح في أن يشفع له إلى المهدي، ففعل، وكتب إليه رقعة وصلت مع خادم له اسمه، مستطرف، فوقَّع المهدي: «هذا رجل لنا في جنبه حدود أنت شاهد ببعضها؛ ولا سبيل إلى الصّفح عنه». وكان ذلك تذكيراً له بأمر المجلس، وقول أحمد ما قاله فيه وفي حُرْمه، وضرب أحمد إلى أن تلف، ثم كَلَم المهدي في أمر أبي نوح الكاتب، والحسن بن مَخلَد، فقال: لأبي نوح حرمة، وهي أن أمّه كانت تهدي إلينا كامخاً كالناطف المعقود وزيتوناً كأمثال البيض، فأطلقوا عنه، وأمّا الحسن بن مَخلَد فقد بلّونا منه نصحاً وميلاً، فردّوه إلى منزلته، وتخلّصا جميعاً، وعادا في الأمر.

وكان المهدي فصيحاً شجاعاً فطناً عارفاً بالتدبير لو أمهل، ولم تعجل الأتراك إلى قتله، وكان خرج يوماً في هَيْجَ لهم، ويده العقرب سيف عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحمل على الأتراك، ووسّط منهم جماعة قدّمهم وقصّعهم.

وكان إذا جلس للمظالم أمر بأن توضع كوانين الفحم في الأروقة والمنازل عند تحرّك البرد، فإذا دخل المتظلم أمر بأن يُدْفَأ، ويجلس ليسكن، ويثوب إليه عقله، ويتذكّر حجّته، ثم يُدْنِيهِ ويسمع منه، ويقول: متى يَلْحَن^(٢) المتظلم بحجّته إذا لم يُفعل به هذا وقد تداخلته رهبة الخلافة وألم البرد! وكان الغالب على أمر الخلافة في أيامه وصيف الكبير، وداره معروفة بمدينة السلام في مربّعة الخُرْسِي إلى اليوم.

(١) ك: «عليه».

(٢) لحن: فطن لحجته وانتبه.

محاسن الحبس

لعلّي بن الجهم^(١):

حبسي، وأيُّ مُهنّدٍ لا يُعمدُ!
كَبِراً وأوباشُ السَّبَاعِ تردّدُ^(٣)
لا تُصطلي إن لم تُشرّها الأزنُدُ
أيّامُهُ وكأنَّهُ متجدّدُ
إلا الثّقافُ وجذوةٌ تتوقّدُ
والمالُ عاريةٌ يفادُ وينفدُ
أجلى لك المَكروهُ عمّا تحمدُ
خطبُ أتاكَ به الزمانُ الأنكدُ^(٦)
فَنَجَا وماتَ طبيبُهُ والعُودُ!
ويَدُ الخليفةِ لا تُطاولُ لها يدُ
تُزري، فَنِعَمَ المنزلُ المتورّدُ^(٨)!
لا يستذلُّك بالحجابِ الأعبدُ
ويُزارُ فيه ولا يزورُ، ويُحمدُ^(١٠)

قالتُ حُبستَ فقلتُ ليس بضائري^(٢)
أو ما رأيتَ الليثَ يألفَ غيلَهُ
والنارُ في أحجارها مخبوءةٌ
والبدْرُ يُدرِكُهُ السّرارُ فتنجلي^(٤)
والزّاعبيّةُ لا يُقيمُ كعوبها^(٥)
غيرُ الليالي بادئاتُ عودُ
ولكلِّ حالٍ مُعقبٌ ولربّما
لا يؤيسّنكَ مِنْ تفرُّجِ كُربةٍ
كم من عليلٍ قد تخطّاه الرّدى
صبراً فإنّ اليومَ يتبعُهُ غدُ^(٧)
والحبسُ ما لم تَغشهُ لدنيّةٍ
لو لم يكن في الحبسِ^(٩) إلا أنه
بيتٌ يُجددُ للكَريمِ كرامةً

(١) ديوانه: ٤١ - ٤٧.

(٢) الديوان: «بضائر».

(٣) الغيل: الشجر الكثير الملتف.

(٤) السرار: آخر أيام الشهر.

(٥) الرماح الزاعبية: منسوبة إلى رجل من الخزرج، اسمه زاعب كان يعمل الأسنة.

(٦) الديوان: «رماك به الزمان».

(٧) الديوان: «فإن الصبر يعقب راحة».

(٨) رواية الشطر الثاني في الديوان:

* شَمْعَاءُ نِعَمَ المنزلِ المتورّدُ *

(٩) الديوان: «في السجن».

(١٠) الديوان: «يحفد»، أي يخدم.

يا أحمد بن أبي دؤاد إنما
أبلغ أمير المؤمنين ودونه
أنتم بنو عم النبي محمد
ما كان من حسن فأنتم أهله
أمن السوية يابن عم محمد
إن الذين سعوا إليك بباطل
شهدوا وغبنا عنهم فتحكموا
لويجمع الخصماء عندك مجلس
والشمس لولا أنها محجوبة
تدعى لكل عزيمة يا أحمد^(١)
خوض العدا ومخاوف لا تنفذ
أولى بما شرع النبي محمد
طابت مغارسكم وطاب المحتد!
خضم تقرُّبه وآخر تبعده!
أعداء نعمتك التي لا تجحد
فيها؛ وليس كغائب من يشهد
يوماً؛ لبان لك الطريق الأقصد^(٢)
عن ناظر يك لما أضاء الفرقد



قال: فعارضه عاصم بن محمد الكاتب لما حبسه أحمد بن عبد العزيز بتغير حمولة له، فقال:

قالت حبست فقلت خطب أنك
لو كنت حراً كان سربي مطلقاً
أو كنت كالسيف المهند لم أكن
أو كنت كالليث الهصور لما رعت
من قال إن الحبس بيت كرامة
ما الحبس إلا بيت كل مهانة
إن زارني فيه العدو فشامت
أو زارني فيه الصديق فموجع
أنحى علي به الزمان المرصد^(٣)
ما كنت أؤخذ عتوة وأقيد^(٤)
وقت الشديدة والكريهة أغمد
في الذئاب وجدوتي تتوقد
فمكاشر في قوله متبلد
ومذلة ومكاره ما تنفذ
يؤدي التوجع تارة ويفند
يذري الدموع بزفرة تتردد



فلئن بقيت على الزمان وكان لي
واحتج خصمي واحتججت بحجتي
يوماً من الملك الخليفة مفعد
لفلجت في حججي، وخاب الأبعد

(١) أحمد بن أبي دؤاد الإيادي، قاضي المعتصم.

(٢) بعده في الديوان.

(٣) محاضرة الأبرار: ٥: ٢.

(٤) محاضرة الأبرار: «ما كنت أحبس».

وَاللَّهُ بِالْعُمْرَةِ فِي خَلْقِهِ
وَلَنْ مَضِيَتْ لِقَلَمًا يَبْقَى الَّذِي
فَبَائِي ذَنْبٍ أَصْبَحْتُ أَعْرَاضُنَا
يَكْفِيكَ أَنَّ الْحَبْسَ بَيْتٌ لَا تَرَى
عَشْنَا بِخَيْرِ بُرْهَةٍ فَكَبَا بِنَا
قَصُرْتُ خُطَايَ، وَمَا كَبُرْتُ وَإِنَّمَا
فِي مُطَبِّقٍ فِيهِ النَّهَارُ مُشَاكِلٌ
تَمْضِي اللَّيَالِي لَا أَذُوقُ لِرَفْدَةٍ
فَتَقُولُ لِي عَيْنِي إِلَى كَمْ أَشْهَدْتُ^(٢)
وَعِذَايَ بَعْدَ الصَّوْمِ مَاءٌ مُفْرَدٌ
وَإِذَا نَهَضْتُ إِلَى الصَّلَاةِ تَهْجُرًا
فَالِي مَتَى هَذَا الشَّقَاءُ مُؤَكَّدٌ
يَا رَبِّ فَارْحَمْ غُرْبَتِي وَتَلَا فَنِي
مَا لِي مَجِيرٌ غَيْرُ سَيِّدِي الَّذِي
غُذِيتْ حُشَاةً مَهْجَتِي بِنَوَافِلِ
عَشْرِينَ حَوْلًا عَشْتُ تَحْتَ جَنَاحِهِ
إِنْ حَدَّثْتُ عَنْ قَصْدِ الْمَحْجَةِ قَالَ لِي
فِيرَدَّنِي بِتَرْفُقٍ نَحْوِ اللَّتِي
فَبَعْدْتُ عَنْهُ مَجْبَرًا مُتَكَرِّهًا
وَحَلَا الْعَدُوَّ بِمَوْضِعِي مِنْ قَلْبِهِ
هَبْنِي أَسَأْتُ فَلَمْ حَقْدْتُ إِسَاءَتِي
بَلْ كُنْتُ تَغْتَفِرُ الذُّنُوبَ تَكْرَمًا
فَاغْفِرْ لِعَبْدِكَ ذَنْبَهُ مُتَطَوِّلًا
وَإِذَا كَرُ خَصَائِصَ حُرْمَتِي وَمَقَاوِمِي
يَا أَحْمَدُ بْنُ مُحَمَّدٍ يَا ذَا النَّدَى

وَالِيهِ مَصْدَرُنَا غَدًا وَالْمَوْرِدُ
قَدْ كَادَنِي وَلَيَجْمَعُنَا الْمَوْعِدُ
نَهْبًا يُشِيدُ بِهَا اللَّئِيمُ الْأَوْغَدُ
أَحَدًا عَلَيْهِ مِنَ الْخَلَائِقِ يُحْسَدُ
رَيْبُ الزَّمَانِ وَصَرْفُهُ الْمَتَرَدُّ
قَصُرْتُ لِأَنِّي فِي الْحَدِيدِ مُصْقَدُ
لَّيْلِ وَالظُّلُمَاتِ فِيهِ سَرْمَدُ^(١)
طَعَمًا، فَكَيْفَ حَيَاةٌ مِنْ لَا يَرْقُدُ!
وَيَقُولُ لِي قَلْبِي إِلَى كَمْ أَكْمَدُ!
كَمْ عَيْشٌ مِنْ يَغْزُوهُ مَاءٌ مُفْرَدُ
جَذِبْتُ قِيُودِي رَكْبَتِي فَأَسْجَدُ
وَالِي مَتَى هَذَا الْبَلَاءُ مُجَدَّدُ!
إِنِّي غَرِيبٌ مُفْرَدٌ مُتَلَدَّدُ!
مَا زَالَ يَكْفُلُنِي، فَنَعَمَ السَّيِّدُ!
مَنْ سَيْبُهُ وَصَنَائِعُ لَا تَجْحَدُ
عَيْشَ الْمُلُوكِ وَحَالَتي تَتَزَيَّدُ
مَهْلًا فَذَاكَ هُوَ الطَّرِيقُ الْأَقْصَدُ
فِيهَا السَّلَامَةُ وَالسَّبِيلُ الْأَرْشَدُ
اللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَقُولُ وَيَشْهَدُ
فَحِشَاةً جَمْرًا نَارُهُ مَا تَخْمَدُ
مَا إِنْ عَهْدَتِكَ مُذْ صَحْبَتِكَ تَحْقَدُ!
وَتَظَلُّ تَعْفُو دَائِمًا وَتَعْمَدُ
فَالْحَقُّ مِنْكَ سَجِيَّةٌ لَا تُعْهَدُ
أَيَّامُ كُنْتُ جَمِيعَ أَمْرِي تَحْمَدُ
دُمْ لِي عَلَى مَا كُنْتُ لِي يَا أَحْمَدُ

(١) المطبق: السجن تحت الأرض.

(٢) ل: «أسهرت».

لا تُشمتنَّ بي العدوَّ وحلّني ببياض وجهك، إنّ وجهي أسودُّ



ولغيره^(١):

إلى الله فيما نابنا نُؤثّر الشكوى	ففي يده كشفُ الضرورة والبلوى
خرجنا من الدنيا ونحن من أهلها	فلسنا من الأحياء فيها ولا الموتى
إذا دخل السَّجَّان يوماً لحاجةٍ	عجبنا، وقلنا: جاء هذا من الدنيا
ونفرحُ بالرؤيا فجُلّ حديثنا	إذا نحن أصبحنا الحديث عن الرؤيا
فإنَّ حَسُنْتَ كانتَ بطيئاً مجيئها	وإنَّ قبحَتْ لم تُنتظر وأتَتْ عَجَلَى

(١) نسبها القفطي وياقوت إلى صالح بن عبد القدوس، وفي مقدمة اللزوميات أن هذا الشعر لرجل من ولد صالح بن عبد القدوس. وانظر أنباه الرواة: ١. ٦١: ٦٢.

محاسن برّ الآباء

حُكي عن مَيِّمُون بن مِهْرَان أنه قال: كنت عند عُمر بن عبد العزيز، فوجدته يكتب إلى ابنه عبد الملك:

أما بعد، فَإِنَّ أَحَقَّ مَنْ وَعَى عَنِّي وفهم قولِي أنت، وَإِنَّ اللَّهَ - وله الحمد - قد أحسن إلينا في لطيف أمرنا وجليله، وعلى الله جلّ وعزّ تمام النعمة. فاذا ذكر يا بُنَيَّ فضلَ الله عليك وعلى أبيك، فإنك إن استطعت أن تصدّق ذلك كلّه بعملٍ تعمله أو صلاة أو صوم أو صدقة قبل ذلك منك، وإياك والعزّة والعظمة والكبرياء، فإنه^(١) مَنْ عمل الشيطان، وهو عدوّ مُضِلّ مبين، ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَمَ رَبِّي﴾ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿[يوسف: ٥٣]. واعلم أن الشباب - إِلَّا ما وقى الله ودفع - عونٌ على أمور كثيرة من السُّوء، وفيه لعمرى معونة كثيرة على الخير لمن رزقه الله. فاحذر شبابك، وإياك وأن تعلم في قلبك زهواً أو كبراً؛ فإنه ما لم يكن من ذلك كان خيراً، واحفظ لسانك ونفسك حفظاً ترجو فيه رحمة الله جلّ وعزّ ومغفرته. واذكر صغر أمرِك، وحقارة شأنِك، ولا تبغ فيما أعجبك من نفسك، وفيما عسيت أن تفرط فيه مما ليس معه غير الفكرة في أمرِك وأمره، وليس كتابي هذا لأن يكون بلغني عنك إلّا خيراً؛ غير أنّه قد بلغني عنك شيء من بعض إعجابك بنفسك، ولو بلغني أن ذلك خرج عنك إلى أمرٍ كرهته، لبلّغك عني أمرٌ يشدّ عليك كراهته، وعرفت مع ذلك أن الشباب والحرص والنعمة يحمل ذلك كلّه على أمرٍ شديد إلّا ما وقى الله ودفع.

فكن يا بُنَيَّ على حذر، فَإِنَّ الشيطان قلّما يصيب فُرْصَتَهُ بمن احترس منه بدعاء الله جلّ اسمه، والتواضع له، وأكثر تحريك لسانك في ليلك ونهارك بذكر الله، فإن أحسن ما وصلت به حديثاً حسناً ذكرُ الله جلّ اسمه، وأحسن ما قطعت به حديثاً سيئاً ذكرُ الله تبارك وتعالى، وأعزّ على نفسك بخير، نسأل الله لنا ولك حسن التوفيق، والسلام.

(١) ك. «فإنهما».

قال ميمون: ثم قال لي عمر: إن ابني عبد الملك قد زُين في عيني، وأنا متهم لنفسي فيه، وأخاف أن يكون هوائٍ فيه قد غلب على علمي به، وأدركني ما يدرك الوالد من الإشفاق على ولده، فأته واسبره ثم اتتني بعلمه، ثم انظر هل ترى منه ما يشاكل التخوة؛ فإنه غلام حَدَث، ولا آمن عليه الشيطان!

قال ميمون: فخرجت إلى عبد الملك حتى قدمت عليه، فاستأذنت ودخلت، فإذا غلام ابن ست عشرة سنة، جالس على حشية بيضاء؛ أحسن الناس تواضعاً، وإذا مرافق بيض وبساط شعر، فرحب بي ثم قال: قد سمعت أبي يذكر منك ما أنت أهله، وإنني أرجو أن ينفع الله بك، وقد حسبت أن يكون قد غرني من نفسي حسن رأي والدي في وما بلغت من الفضل كل ما يذكر، وقد حذرت أن يكون الهوى قد غلبه على علمه، فأكون أحد آفاته.

قال ميمون: فعجبت من اتفاهما، فقلت له: أعلمني من أين معيشتك؟ قال: من عطائي ومن غلة زراعة اشتريت عن ظهر يد من ورثها عن أبيه، فوهبها لي فأغواني بها عن فيء المسلمين. قال: فقلت: فما طعامك؟ فقال: ليلة لحم وليلة عدس وزيت، وليلة خل وزيت، وفي هذا بلاغ.

قال: فقلت له: أفما تعجبك نفسك؟ فقال: قد كان في بعض ما كان، فلما وعظني أبي في كتابه بصّرني نفسي وما صغر من شأني، وحقّر من قدرتي؛ فنفعني الله جلّ وعزّ بذلك فجزاه الله من والدٍ خيراً.

فقعدت ساعة أحدثه وأتسمّع من منطقته، فلم أر فتى كان أجمل وجهاً، ولا أكمل عقلاً، ولا أحسن أدباً - على صغر سنه، وقلة تجربته - منه.

قال ميمون: فلما كان آخر ذلك أتاه غلام فقال: أصلحك الله! قد فرغنا. قال: فسكت، فقلت: ما هذا الذي فرغ منه؟ قال: الحمام أخلاه لي. قال: فقلت: لقد كنت وقعت مني كل موقع حتى سمعت هذا! قال: فاسترجع ودّع وقال: وما ذاك يا عمّ يرحمك الله؟ قلت: الحمام لك؟ قال: لا. قلت: فما دعاك إلى أن تطرد عنه غاشيته، كأنك تريد بذلك الكبر، فتكسر على صاحب الحمام غلته، ويرجع من أتاه خائباً! قال: أمّا صاحب الحمام؛ فإنني أرضيه وأعطيه غلة يومه، قال: قلت: هذه نفقة سرف خالطها الكبر، وما يمنعك أن تدخل الحمام مع الناس، وإنما أنت كأحدهم! قال: يمنعني من ذاك أن أرى عورة مسلم، ورعاعاً من الناس يدخلون بغير أزر، فأكره رؤية عوراتهم، وأكره أن أجبرهم على أزر، فيضعون ذلك مني على حدّ هذا السلطان الذي خلّصنا الله منه كفافاً؛ فعظني

رحمك الله عظةً أنتفع بها، واجعل لي مخرجاً من هذا الأمر. فقلت له: ادخله ليلاً، فإذا رجع الناس إلى رحالهم خلا لك الحمام، قال: لا جرم! لا أدخله نهراً أبداً؛ ولولا شدة برد بلادنا هذه ما دخلته أبداً؛ فأقسمت عليك لتطوين هذا الخبر عن أبي، فإنني أكره أن يظل عليّ ساخطاً، ولعلّ الأجل يحول دون الرضا منه.

قال: فأردت أن أسبر عقله، فقلت: إن سألني: هل رأيت منه شيئاً؟ تأمرني أن أكذبه؟ قال: لا معاذ الله! ولكن قل: رأيت شيئاً ففطمته^(١) عنه، وسارع إلى ما أردت من الرجوع، فإنه لا يسألك عن التفسير؛ لأن الله جلّ وعزّ قد أعاده من بحث ما ستر!

قال ميمون: فلم أر والدًا قطّ ولا ولدًا قطّ - رحمة الله وبركاته عليهما - مثلهما!



وذكروا أنّ ضرار بن عمرو الضبيّ ولد له ثلاثة عشر ابنًا؛ كلّهم بلغ ورأس، فاحتمل ذات يوم فلمّا رأى بنيه رجالاً معهم أهاليهم وأولادهم سرّه ما رأى من هيئتهم، ثم ذكر نفسه، وعلم أنهم لم يبلغوا ذلك حتى أسنّ هو ورقّ وضعف، فقال: «من سرّه بنوه ساءت نفسه»، فذهبت مثلاً.



قيل: ودخل الأمين على أبيه الرشيد وقد عرضت له وصيفة جميلة، فلم يزل محمد ينظر إليها، وفطن له أبوه، فقال: يا محمد، ما ترى في هذه الوصيفة؟ قال: ما أرى بأساً. قال: فهل لك فيها؟ قال: أمير المؤمنين أحقّ بها منّي، قال: فقد آثرك على نفسه، فخذها، فأخذها، فقال الرشيد:

ولي ولدٌ لم أعصه مُذْ ولدته ولا شكّ في برّي به مُذْ ترعرعا

تخيّرته للملك قبل فطامه وأقطعتُه الدنيا فطيماً ومُرْضعا

فلا الملكُ يخلو باعُهُ من محمدٍ ولا هوَ منه، بل هُما هكذا معا

فنهض محمد ومعه الجارية، فأتبعه طرفه، فلما غاب قال^(٢):

(١) فطمته عنه، أي منعته.

(٢) ك: «قال الرشيد».

وإنما أولادنا بيننا أكبادنا تمشي على الأرض



وحكي عن بعض الأعراب أنه كان يرقص ولده ويقول:

كأنما ريح الولد ريح الحزامي بالبلد
أهكذا كل ولد أم لم يلد قبلي أحد!



محاسن تأديب الولد

قيل: نظر ابنُ عَبَّاسٍ رحمه الله إلى بعض ولده نائماً بِالْعَدَاةِ، فركلهُ برجله، ثم قال: قُمْ، لا أنام اللهَ عينك! أتنام في وقت يقسمُ الله جلَّ وعزَّ فيه الأرزاق! أو ما علمت أنَّها النومة التي قالت العرب فيها: مكسلة ومانعة للحوائج! وقد قيل: النوم على ثلاثة أوجه: خُرْق، وَحُمَق، وَخُلُق. فأما الخُرْق، فنوم الضُّحى شغل عن أمر الدنيا والآخرة، والحُمَق النَّوم بين العصر والمغرب، فإنه لا ينامها إلاَّ أحمق أو عليل أو سكران. وأما الخلق فنومُ الهاجرة الذي أمر به رسول الله ﷺ، فإنه قال: «قيلوا فإنَّ الشيطان لا يقيل». وقيل: إنَّ نوم الغداة يَمْحَقُ الرزق، ويورث الصُّفَار والكسل والبُخْر.



وذكروا عن عبد الملك بن مروان أنه مات بعضُ ولده، فجاءه الوليد ابنه وهو صغير فعزَّاه، فقال: يا بُنَيَّ، لمصيبتني فيك أعظم وأفدح من مصيبتني بأخيك، ومتى رأيت ابناً عزَّى أباه! فقال: يا أمير المؤمنين، أمِّي أمرتني بذلك، قال: يا بُنَيَّ، أهونُ عليَّ! وهو لعمرى من مشورة النساء!

مساوي جفاء الآباء

قال: قال رجل لابنه: يا بن الزانية، فقال: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ﴾ [النور: ٣].

وقال آخر لابنه: يا بن الزانية، قال: لا تفعل، لقد كنت أحفظ لأهلك من أبيك لأهله.



قال: وقال أعرابي لابنه:

وأُمُّكَ قَدْ رَوَيْتُهَا فَشَفِيتُهَا عَلَى حَاجَةٍ مِنِّي وَعَيْنُكَ تَنْظُرُ
فَأَجَابَهُ:

وَجَدِّي قَدْ رَوَى عَجُوزاً فَبَلَّهَا فَمَا كُنْتَ تَرَعَاهُ وَمَا كُنْتَ تَشْكُرُ
وَقَالَ بَعْضُ الْأَعْرَابِ فِي بَنِيهِ:

إِنَّ بَنِيَّ خَيْرُهُمْ كَالْكَلْبِ الْأُمُّهُمْ أَوْلَعُهُمْ بِسَبِي
لَمْ يُغْنِ عَنْهُمْ أَدْبِي وَضَرْبِي فَلَيْتَنِي كُنْتُ عَقِيمَ الزُّبِّ
أَوْ لَيْتَنِي مِتُّ بِغَيْرِ عَقْبٍ



وقيل لأعرابي وقد تزوج بعد ما كبر وأسن: لِمَ تَأَخَّرْتَ عَنِ التَّزْوِجِ؟ قال: أبادر ابني باليتم قبل أن يسبقني بالعقوق.

قال: وقال رجل لأبيه: يا أبتاه، إن عظيم حقك لا يُبطل صغير حقي، ولا أقول: إني وإياك بالسواء، ولكن الله جلّ وعزّ لا يحب الاعتداء.

محاسن برّ الأبناء بالآباء والأمهات

عن طاوس، عن أبيه، قال: كان رجلٌ له أربعة بنين، فَمَرَضَ فقال أحدهم: إِمَّا أَنْ تَمَرِّضُوهُ وَلَيْسَ لَكُمْ مِنْ مِيرَاثِهِ شَيْءٌ، وَإِمَّا أَنْ أَمْرَضَهُ وَلَيْسَ لِي مِنْ مِيرَاثِهِ شَيْءٌ، قالوا: بل تَمَرِّضْهُ؛ وَلَيْسَ لَكَ مِنْ مِيرَاثِهِ شَيْءٌ، فَمَرَضَهُ حَتَّى مَاتَ وَلَمْ يَأْخُذْ مِنْ مِيرَاثِهِ شَيْئاً، قالوا: فَأُتِيَ فِي النُّومِ، فَقِيلَ لَهُ: ائْتِ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا فَخُذْ مِنْهُ مِائَةَ دِينَارٍ، فقال: أَفِيهَا بَرَكَةٌ؟ قالوا: لَا؛ فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لَامْرَأَتِهِ، فَقَالَتْ: خُذْهَا فَإِنَّ مِنْ بَرَكَتِهَا أَنْ نَكْتَسِيَ مِنْهَا وَنَعِيشَ بِهَا.

فلما أَمْسَى أُتِيَ فِي النُّومِ فَقِيلَ لَهُ: ائْتِ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ فَخُذْ مِنْهُ عَشْرَةَ دَنَانِيرٍ، فقال: أَفِيهَا بَرَكَةٌ؟ قالوا: لَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ ذَكَرَ ذَلِكَ لَامْرَأَتِهِ، فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ، فَأَبَى أَنْ يَأْخُذَهَا، فَأُتِيَ فِي اللَّيْلَةِ الثَّالِثَةِ؛ فَقِيلَ لَهُ: ائْتِ مَكَانَ كَذَا وَكَذَا؛ وَخُذْ مِنْهُ دِينَاراً، فقال: أَفِيهِ بَرَكَةٌ؟ قالوا: نَعَمْ. قال: فَذَهَبَ فَأَخَذَ الدِّينَارَ ثُمَّ خَرَجَ بِهِ إِلَى السُّوقِ، فَإِذَا هُوَ بِرَجُلٍ يَحْمِلُ حُوتَيْنِ، فقال: بَكُمُ هُمَا؟ قال: بِدِينَارٍ، فَأَخَذَهُمَا مِنْهُ وَانْطَلَقَ بِهِمَا إِلَى بَيْتِهِ، فَلَمَّا شَقَّاهُمَا وَجَدَ فِي بَطْنِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا دُرَّةً لَمْ يَرَ النَّاسَ مِثْلَهَا، فَبَعَثَ الْمَلِكُ يَطْلُبُ دُرَّةَ يَشْتَرِيهَا فَلَمْ تَوْجَدْ إِلَّا عِنْدَهُ، فَبَاعَهَا بِثَلَاثِينَ وَفَرَّ ذَهَباً، فَلَمَّا رَأَاهَا الْمَلِكُ قَالَ: مَا تَصْلُحُ هَذِهِ إِلَّا بِأَخْتٍ، فَاطْلُبُوا أَخْتَهَا وَلَوْ أَضَعَفْتُمُ الثَّمَنَ؟ فَجَاؤُوهُ وَقَالُوا^(١): أَعِنْدَكَ أَخْتُهَا وَنَعْطِيكَ ضِعْفَ مَا أُعْطِينَاكَ؟ قال: نَعَمْ. فَأَعْطَاهُمُ الثَّانِيَةَ بَضْعَ مَا بَاعَ بِهِ الْأُولَى.



قال: وذكر المأمون برّ الأبناء بالآباء، فقال: لَمْ أَرِ أَحَدًا أَبْرَ مِنَ الْفَضْلِ بْنِ يَحْيَى، فَإِنَّهُ بَلَغَ مِنْ بَرِّهِ بِأَبِيهِ أَنَّهُمَا حَيْثُ حُبَّسَا كَانَ الْفَضْلُ يُسَخِّنُ لِيَحْيَى الْمَاءَ لَوْضُوئِهِ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَتَوَضَّأُ بِالْمَاءِ السَّخَنِ، فَمَنْعَهُمُ السَّجَّانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ مِنْ إِدْخَالِ الْحَطَبِ، وَاللَّيْلُ بَارِدٌ، فَقَامَ الْفَضْلُ حِينَ أَخَذَ يَحْيَى مُضْجِعَهُ إِلَى قِمَقِمٍ كَانَ يَسَخِّنُ فِيهِ الْمَاءَ فَمَلَأَهُ مِنَ الْجُبِّ، ثُمَّ جَاءَ بِهِ إِلَى الْقَنْدِيلِ فَأَدْنَاهُ مِنْهُ،

(١) ك: «فقالوا له».

فلم يزل قائماً والقمقم في يده حتى أصبح وقد سخن الماء، فأدناه من أبيه.



قال: ولمّا وجّه عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه الجيش إلى اليرموك، قام إليه أميّة بن الأسكر الكناني فقال: يا أمير المؤمنين، هذا اليوم من أيامي؛ لولا كبر سنّي! فقام إليه ابنه كلاب - وكان عابداً زاهداً - فقال: لكنت يا أمير المؤمنين، أبيع الله نفسي، وأبيع دنياي بآخرتي، فتعلّق به أبوه؛ وكان في ظلّ نخلة له، وقال: لا تدع أباك وأمك شيخين ضعيفين، ربّيك صغيراً حتى إذا احتاجا إليك تركتهما! فقال: نعم؛ أتركهما لما هو خير لي، فخرج غازياً بعد أن أرضى أباه، فأبطأ، وكان أبوه في ظلّ نخلة له، وإذا حمامة تدعو فرخها، فرأها الشيخ فبكى، فرأته العجوز يبكي فبكت، فأنشأ يقول:

لَمَنْ شِيْخَانٍ قَدْ نَشَدَا كِلَابَا	كُتَابَ اللَّهِ إِنْ ذَكَرَ الْكِتَابَا ^(١)
أَنَادِيهِ وَيَعْرُضُ لِي حَنِينٌ ^(٢)	فَلَا وَأَبِي كِلَابٌ مَا أَصَابَا
تَرَكْتُ أَبَاكَ مُرْعَشَةً يَدَاهُ	وَأَمَّكَ مَا تَسِيغُ لَهَا شَرَابَا
فَإِنَّ أَبَاكَ حِينَ تَرَكْتَ شَيْخٌ	يُطَارِدُ أَيْنُقًا شُزْبًا جَذَابَا ^(٣)
إِذَا رَفَعْنِ إِزْقَالًا سِرَاعًا	أَثْرُنَ بَكْلٍ رَابِيَةٍ تَرَابَا ^(٤)
طَوِيلًا شَوْقُهُ يَبْكِيكَ فَرْدًا	عَلَى حُزْنٍ وَلَا يَرْجُو الْإِيَابَا
إِذَا غَنَّتْ حَمَامَةٌ بَطْنٌ وَجٌّ ^(٥)	عَلَى بَيُضَاتِهَا ذَكَرًا كِلَابَا

فبلغت هذه الأبيات عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأرسل إلى كلاب فوافاه، فقال: إنّه بلغني أنّ أباك وجد لفراقك وجداً شديداً، فبماذا كنت تبرّه؟ قال: كنت أبرّه بكلّ شيء؛ حتّى أتّي كنت أحلب له ناقة، فإذا حلبتها عرف حلبّي.

فأرسل عمر رحمه الله إلى الناقة، فجاء بها من حيث لا يعلم الشيخ، فقال له: احلبها، فقام إليها وغسل ضرعها، ثم حلبها في إناء، فأرسل عمر رحمه الله بالإناء إلى أبيه، فلما أتى به بكى ثم قال: إني أجد في هذا اللبن ريح كلاب؛ فقلن

(١) الأغاني: «إن قبل الكلابا».

(٢) الأغاني: «فيعرض في إباء».

(٣) الأغاني: «سرباً طراباً».

(٤) دفعن: عدون عدواً بعضه أرفع من بعض. والإرقال: ضرب من السير.

(٥) الأغاني: «بطن داود».

له نسوة كنَّ عنده: قد كبرت وخرفت، وذهب عقلك! كلاب بظهر الكوفة، وأنت تزعم أنك تجد ريحه! فأنشأ يقول:

أعاذل قد عدلت بغير علم وهل تدري العواذل ما ألاقى! ^(١)
 سأستعدى على الفاروق رباً له حجّ الحجاج على اتساق ^(٢)
 إن الفاروق لم يزد كلاباً إلى شيخين ما لهما تواقى ^(٣)
 فقال له عمر: اذهب إلى أبيك، فقد وضعنا عنك الغزو، وأجرينا لك
 العطاء ^(٤).

قال: وتغنت الركبان بشعر أبيه، فبلغه، فأنشأ يقول:

لعمرك ما تركت أبا كلاب كبير السن مكتئباً مُصاباً
 وأما لا يزال لها حنين تنادي بعد رقدتها كلاباً
 لكسب المال أو طلب المعالي ولكنني رجوت به الثواباً
 وكان كلاب من خيار المسلمين، وقتل مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه
 بصيفين، وعاش أبوه أمةً دهرًا طويلاً حتى خرف، فمرَّ به غلام له كان يرعى غنمه،
 وأمة جالس يحثو على رأسه التراب، فوقف ينظر إليه، فلما أفاق بصر بالغلام،
 فقال:

أصبحتُ لهواً لراعي الضأن أعجبه ماذا يُريبك متي راعي الضأن ^(٥)
 إنعق بضأنك في أرضٍ بمخضرة من الأباطح واحسبها بجلدان
 إنعق بضأنك إنني قد فقدتهم بيض الوجوه بني عمي وإخواني

(١) بعده في الأغاني:

فأما كنت عاذلتني فردّي كلاباً إذ توجه للعراق
 ولم أقض اللبانة من كلاب غداة غدٍ وأوذَن بالفراق
 فتى الفتيان في عسرٍ ويُسرٍ شديد الركن في يوم التلاقي
 فلا والله ما باليت وجدي ولا شفقي عليك ولا اشتياقي
 فلو فلق الفؤاد حَماطٍ وجدي لهم سواد وجهي بانفلاقٍ

(٢) بعده في الأغاني:

وأدعو الله مجتهداً عليه ببطن الأخشبين إلى دُقاقٍ

(٣) الأغاني: «هامهما زوارقي».

(٤) الأغاني: ١٨: ١٥٦، ١٥٧.

(٥) يعنف نفسه ويلومها حيث أصبح غلامه وراعي غنمه يسخر منه لخرفه.

قال: وحدثني مَنْ سمع أعرابياً حاملاً أمّه في الطواف؛ وهو يقول:
 إِنِّي لَهَا مَطِيَّةٌ لَا أُذْعِرُ إِذَا الرِّكَابُ نَفَرَتْ لَا أَنْفِرُ
 مَا حَمَلْتُ وَأَرْضَعْتُني أَكْثَرُ اللَّهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ أَكْبَرُ
 ثم التفت إلى ابن عباس رحمه الله فقال له: أتراني قضيتُ حقّها؟ فقال: لا
 والله؛ ولا طَلَقَةً من طَلقاتها.



قال: ونحر أعرابيٌّ جُزوراً، فقال لامرأته: أطعمي أمّي منه، فقالت: أيّها
 أطعمها؟ فقال: قَطّعي لها الْوَرِكَ. قالت: ظوهرت بشحمة، وَبُطْنَتْ بلحمة، لا
 لعمر الله! قال: فاقطّعي لها الْكَتِف. قالت: الحاملة للشحم من كلّ مكان! لا
 لعمر الله! قال: فما تقطّعين لها؟ قالت: اللَّحْي، ظوهرت بجلدة، وَبُطْنَتْ بعظم،
 قال: فتزوّدِيها إلى أهلك، واخلّي سبيلها.



وروي أن الحسن بن عليّ رضوان الله عليه كان يمتنع من مؤاكلة أمّه صلوات
 الله عليها، فسئل عن ذلك وهو ابن ستّ سنين، فقال: أخاف أن تسبق يدي إلى
 لقمةٍ تقع عينُها عليها فأكون قد عَقَقْتُها.



مساوي عقوق البنين

الأصمعي، قال: حدّثني رجلٌ من الأعراب قال: خرجتُ من الحيّ أطلبُ أعقَّ الناس، وأبرَّ النَّاس، فكنتُ أطوفُ بالأحياء حتى انتهيتُ إلى شيخ في عنقه حَبْلٌ يستقي بدلٍ لا تطيقه الإبل في الهاجرة والحرّ الشديد، وخلفه شاب في يده رِشاء من قَدِّ ملويّ يضربه به، قد شقَّ ظهره بذلك الحبل، فقلت: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف! أما يكفيه ما هو فيه من مدّ هذا الحبل حتى تضربه! قال: إنه مع هذا أبي! قلت: فلا جزاك الله خيراً! قال: اسكت، فهكذا كان يصنع هو بأبيه، وكذا كان يصنع أبوه بجده! فقلت: هذا أعقَّ الناس.

ثم جُلْتُ أيضاً حتى انتهيت إلى شاب في عنقه زَبِيلٌ^(١) فيه شيخ كأنه فرخٌ، فيضعه بين يديه في كلِّ ساعة، فيزقه كما يزقُّ الفرخ، فقلت له: ما هذا؟ فقال: أبي وقد خرف، فأنا أكفُّه، قلت: فهذا أبرُّ العرب، فرجعت وقد رأيت أعقهم وأبرهم.



قيل: وكانت الخيزران في خلافة موسى الهادي كثيراً ما تكلمه في الحوائج، فكان يجيبها إلى كلِّ ما تسأل، حتى مضت لذلك أربعة أشهر من خلافته، فاجتمع النَّاس إليها، وطمعوا فيما قبلها، فكانت المواكب تغدو إلى بابها وتروح، قال: فكلمته يوماً في أمرٍ، فاعتلَّ بعلة، فقالت: لا بُدَّ من إجابتي، قال: لا أفعل. قالت: فإنِّي قد تضمّنت هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، قال: فغضب وقال: ويلي عليه ابن الفاعلة! قد علمتُ أنه صاحبها، والله لا قضيتها له. قالت: إذاً والله لا أسألك حاجة أبداً، فقال: إذاً والله لا أبالي! وحمي وغضب ثم قال: مكانك حتى تستوعبي كلامي والله! وإلا فأنا نفِّي من قرابتي من رسول الله ﷺ، لئن بلغني أنه وقف ببابك أحدٌ من قوادي وخاصتي وخدمي لأضربن عنقه، ولأقبضن ماله، فَمَن شاء فليلزم ذلك. ما هذه المواكب التي تغدو وتروح إلى بابك في كلِّ

(١) الزبيل: القفة، وقيل: الجراب.

يوم! أما لك مغزل يشغلك! أو مصحف يذكرك! أو بيت يصونك! إيّاك ثم إيّاك أن تفتحي بابك لِمَلِّي ولا ذِمِّي.

فانصرف ما تعقل ما تطأ، فلم تنطق عنده بحلوة ولا بمرّة بعد ذلك.

قال يحيى بن الحسن: وحدثني أبي، قال: سمعت خالصة تقول للعبّاس بن الفضل بن الربيع: بعث موسى الهادي إلى أمه الخيزران بأرزّة، فقال: اشتيتها فأكلتها، فكلي منها، قالت خالصة: فقلت: أمسيكي حتى ننظر فإنّي أخاف أن يكون فيها شيء، فأرسل إليها بعد ذلك، كيف رأيت الأرزّة؟ قالت: وجدتها طيبة، فقال: لِمَ لَمْ تأكلي منها؟ واللّه لو أكلت [فمت] ^(١) كنت استرحت منك، فما أفلح خليفة له أم!

قيل: وضرب إبراهيم بن بهنك العكّي ابنه، فذهب الابن فوشى بأبيه ^(٢) إلى الرشيد، وذكر أنّه يريد اغتياله، فدفعه الرشيد إلى ابنه، فقيده وحبسه في بيت، ودعا بأمّهات أولاده، فجعل يشرب معهم ليغيظ أباه، فاستبطأه الرشيد، فدعا به، وقال له: إنّ كنت كذبت على أبيك استرضيناك لك، وإن كنت صدقت فلست أرى فعالك تشاك أفعال الصادقين!

فلما انصرف من عنده دخل على أبيه بالسيف فضربه حتى قتله، ولذلك قيل: شرّ المرزئة سوء الخلف.



قال: ولما خلع شيرويه بن كسرى أباه وهمّ بقتله، قال لعظيم من عظماء مرّازبته: ادخل على أبينا فاقتله، فانطلق المرزبان حتى دخل على كسرى، فأخبره بما أمر به ابنه، فقال له كسرى: انصرف فلست بصاحب، فانصرف المرزبان إلى شيرويه فأخبره بمقالة كسرى، فوجّه رجلاً آخر، فلما دخل قال له مثل مقالته للأول، فانصرف، ولم يصنع شيئاً، واعتلّ على شيرويه بأنه لم يطب نفساً بقتله، فالتفت شيرويه إلى فتى يسمى هُرمز ^(٣) بن مرّدانشاه، وكان أبوه يقال له: فاذوسبان بابل وخطريه، وقد كان كسرى سأل المنجمين قبل ذلك بعامين عن ميته، فأخبروه أنّها على يدي رجل يكون عظيم بابل، فلما سمع ذلك وقعت تهمة على مرّدانشاه،

(١) تكملة.

(٢) ك: «به».

(٣) تاريخ الطبري ١: ١٥٨: «مهر هرمز».

فكتب إليه يأمره بالقدوم عليه، فلما قدم تجئى عليه، ثم أمر بقطع يمينه، فقطعت، فتناولها بيده الأخرى ووضعها في حجره، وجعل يبكي وينتحب، فسمع كسرى ذلك، فرحمه ورق له، فأرسل إليه أنه قد ندم على ما كان منه، وأمره أن يسأله حاجة تكون عوضاً من ذهاب يده، فأرسل إليه مردانشاه أن وثق لي بالأيمان المحرجة. ففعل كسرى ذلك، وعاهده أن يجيبه إلى جميع ما سأل، فأرسل إليه: إن حاجتي أن تأمر بقتلي، فلا خير في الحياة بعد يميني، فأمر كسرى به فضربت عنقه، فلما دخل ابنه هرمز على كسرى قال له: من أنت؟ قال: أنا ابن مردانشاه فاذوسبان بابل، فقال: أنت لعمري صاحبي! كنت قتلت أباك ظلماً، فدونك وما أمرت به. وكان معه طبرزين^(١)، فضرب به كسرى على عضده؛ فلم يحك^(٢) فيه، لأن كسرى كان في عضده خرزة لا يعمل الحديد فيه من أجلها، فضرب الشاب بيده إلى عضده، وقطع تلك الخرزة، ثم ضربه بالطبرزين حتى مات، وانصرف إلى شيرويه فأخبره، فأمر بقتله. ثم هلك شيرويه بعد قتل أبيه بثمانية أشهر.



وقد قالت الحكماء ومن جرب من الأوائل: إن الرجل إذا قتل أباه وأخاه لم يمتنع بعدهما إلا أربعة أشهر، أو ما هو فوق ذلك بيسير! وربما سُلط عليه السهر، فلا يزال كذلك حتى يتلف^(٣).



قال: وقيل للمأمون: إن بني علي بن صالح مجان سفهاء. فقال المأمون: يا علي، أخضر ولدك الأكابر والأصاغر، فإنني أريد أرتبهم وأرشحهم للأمر الذي يصلحون له. فانصرف علي، فأخبر ولده بذلك وأمرهم بالركوب، فاستعدوا وتزيّنوا بأحسن هيئة، واستأذن لهم، فدخلوا وسلّموا، فقال لهم المأمون: تركتم الأدب واطرحتموه؛ وآثرتم المجون والسّفه، هذا وأبوكم أحد الفقهاء والعلماء، يستضاء برأيه، ويحمد مذهبه! فأقبل عليّ فقال: أمّا على ذلك فما الذنب إلا لك، إذ تركتهم يتتبعون^(٤) في المجون، وتركوا ما كان أولى بك وبهم أن تأخذهم به. فقال عليّ: ولا سيما يا سيدي هذا الكبير، فإنه باقعة، لا والله ما لي بهم قوة

(١) الطبرزين: آلة من السلاح تشبه الفأس.

(٢) لم يحك: لم يؤثر.

(٣) ل: «إلى أن يتلف».

(٤) يقال: تتابع في الأمر إذا رمى بنفسه فيه من غير تثبت.

ولا يدّ، وهذا الكبير أفسدهم وهتكهم وزين لهم سوء أعمالهم، فصدهم عن السبيل، فهم لا يهتدون.

فأطرق الأكبر ما يترمرم^(١) بحرف، فقال المأمون: تكلم، قال: يا سيدي، بلساني كله، أو كما يتكلم الذليل بين يدي مولاه حتى يترك حجته، ويسكت عن إيضاح جوابه مهابةً لسيده! قال: تكلم بما عندك، فقال: يا أمير المؤمنين، هل حمدت رأي أبينا وحمدت مذهبه وعلمه؟ قال: نعم، قال: فأعنت ما يملك، وطلّق ما يطأ طلاق الحرج والسنة، وصدّق بما حوى، وعليه ثلاثون حجة؛ مع ثلاثين نذراً يبلغ به الكعبة، إن لم يكن أبوه عليّ طلب سكر طبرزد، فلم يوجد في خزانته، ولم يكن وقتاً يوجد فيه سكر، ولا يقدر على ابتياع شيء منه، فقال: فيم تصلح الخزانة التي ليس فيها سكر! ثم قال: الحمد لله رب العالمين، ولا أقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، وإن كانت المصيبة! لأن ذلك إنما يقال عند المصائب في الأنفس، ولكنتي أحمدّه على السراء والضراء، والشدة والرخاء، كما حمده الشاكرون، وأنا أرجو أن أكون منهم. ثم أقبل على الخازن، فقال: ادع الوكيل، فدعاه، فقال: ما منعك إذ فني السكر أن يشتري لنا سكر؟ قال: لم يعلمني الخازن، فقال للخازن: لم لم تعلمه؟ قال: كنت على أن أعلمه، قال: ما هاهنا شيء هو أبلغ في عقوبتكما من أن أقوم على إحدى رجلتي، وألا أضع الأخرى ولا أراوح بينهما، حتى تحضروني ألف من سكر طبرزد^(٢)، ليس بمضرّس ولا وسخ، ولا لين المكسر، ولا بمحدث الصنعة، ولا معوج القلب، ثم وثب فقال: ﴿يُفُونَ بِالْذِّكْرِ وَيَخْفَوْنَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُمْ مُسْتَهْرِكًا﴾ [الإنسان: ٧]. واللّه واللّه لا أزال قائماً حتى أوفي بنذري؛ قال: فتبادر غلمانهم ومواليه وبعض أولاده وعجائزه نحو السوق، فواحد ينبه حارساً، وآخر يرمي كلباً، وآخر يفتح درباً، وآخر يوقظ نائماً، وآخر يدعو بائعاً، والغلمان والجواري والجيران والسوقة والحراس في مثل صيحة يوم القيامة، ثم قال: يا قوم، أما لي من أهلي مُساعد! أين البنات العواتق والأبكار! أين اللواتي كنت أغذوهنّ بطيب الطعام ولين اللباس، يسرحن فيما ادعين من خفض العيش، وغضارة الزهر! أين أمهات الأولاد اللواتي اعتقدن العقد النفيسة، وملكن الرغائب بعد الحال الخسيسة! أين الأولاد الذكور الذين لهم نسعى ونحفد، ونقوم ونعقد، ولهم نروح ونغدو! فبادرت إليه بناته وأمّهاتهنّ، فقامت واحدة منهنّ على ساق،

(١) يقال: ترمم فلان إذا تحرك للكلام ولم يتكلم.

(٢) المن: كيل معروف، والطبرزد: السكر الأبيض الصلب.

فقال: أحسنتنَّ أحسنَ الله جزاءكنَّ! لمثل هذا أردتكنَّ، ولاحظ الكبرى من بناته وآخر من بنيه وهما يراوحيان بين أقدامهما، فقال: يا فلانة، تراوحين ولا أراوح! صدق الله جلَّ وعزَّ، وبلغ رسوله عليه وعلى آله السلام حيث يقول: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأُولَٰئِكُمْ عَدُوٌّ لَّكُمْ فَلَحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]؛ حذرنِّي ربِّي جلَّ وتعالى منكم! ثم قال: علي بن صالح ليس في خزانته سكر طبرزد، وجائزته من أمير المؤمنين ألف ألف درهم، وضيعته بالنَّهروان تغلُّ ثلاثمائة ألف درهم، وضيعته بالكوفة المعروفة بالمغيرة من أنبل ضيعة، ما ملك مثلها أحد بسطوح الدُّسكرة، ولولا أن سعيداً السعدي - أراح الله منه - قطع شربها، وعوَّر مجاري مياهها حتى اندفعت أنهارها، وقَلَّتِ عمارتها؛ إضراراً بنا، وتعدياً علينا ما كان لأحد مثلها، وعلى أنَّ أكرتها ومزارعيها من أخابث خلق الله. والله! والله لو أمكنهم أن يقطعوا الحاصل وحاصل الحاصل ما أعطونا من ذلك شيئاً!

ومَنْ أخبرك أنَّ الضيعة لربِّ الضيعة فقل له: كذبت، لا أم لك! الضيعة ثلاثة أثلاث: فثلث للسلطان، وثلث للوكيل، وثلث للأكار، وإنما يأتي ربُّ الضيعة صُبابه كصُبابة الإناء، ومخة كمخة عُرُقوب^(١)، يجني الأكار وقت الدياس، فيمر بهم الأرجبذ^(٢)، هذا يذبح له، وهذا يخبز له، وهذا يسقيه النبيذ، وما نبذهم إلا العكر الأسود، ووضر الدنس، وماء الأكشوث^(٣)، قَبَحَ الله ذلك من شراب! ما أنغله^(٤) للجوف، وأضره بالأعلاق النفيسة! ثم يأتي وقت الكيل فمن بين رقام^(٥)، رقم الله جلبابه، وأعدَّ له الهوان، ومن بين كيال جعل الله له الويل، لقوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]؛ ما يبالي أحدٌ منهم علام يقدم! لقد سمعتُ أمير المؤمنين يسأل فضاته وكلهم بالحضرة، هل عدلتُم كيالاً قط؟ فكلهم يقول: لا، فإن أطعموا الجدء الرُّضْع، ونقي الخبز من دسْتَميسان، ووهِبَتْ لهم الدراهم، ظفر الأكار بحاجته. فويل يومئذٍ لقبة السلطان! ماذا يُحمل إليها من القشب والقصل، والمدر والزَّوان^(٦)، ويحشى فيها التبن. ثم قال: يا قوم، لم أطنبت في

(١) في المثل يقال: «شر ما أجاءك إلى مخة عرقوب» يضرب عند طلبك إلى لثيم حاجة.

(٢) الأرجبذ: رئيس الجهة، وانظر كشف الغريب من تاريخ الطبري (طبعة أوروبا).

(٣) الأكشوث: نبت يتعلّق بالأغصان وعرقه في الأرض.

(٤) ما أنغله، أي ما أفسده للجوف.

(٥) الرقام: الخطاط، والترقيم علامة لأهل ديوان الخراج تجعل على التوقيعات.

(٦) القشب: اليايس الصلب، والقصل في الطعام مثل الزَّوان؛ وهو كالقصاله أيضاً من البر ما عزل منه إذا لقي.

ذكر هؤلاء؟ وما الذي أهاج هذا في هذه الساعة حتى قضت فيه!

أما كفاني أني قائم على رجلي، على أحد جناحي! قالوا: هذا للسُّكر الذي ليس في خزانك منه شيء. قال: أجل، واللَّه! إذا كان وكيلي مشغلاً بزوجه وبناته، ومصالح حالهن، فمتى^(١) يفرغ للنظر في مصالح خزانتني؟ واللَّه واللَّه لقد حدثت أنه حلَّى بَنَاتِه بألوف دنانير، وقال^(٢) لزوجه: اخرجي إلى الأعياد، وادخلي الأعراس، وسلي عن الرجال المذكورين، واطلبي المراضع المعروفة، والأنساب المرضية لبناتك، وأخرجيهن في الجمعات يتصفحن محاسن الغرات، ويخترن أولي الأنساب، أو لم يُرو عن الثقات أنهم كرهوا خروج الأبقار في الجمعات التي فرض الله جلَّ وعزَّ فيهنَّ السعي إلى ذكره. فنبغ قوم من هؤلاء المبتدعة، خارجة خرجت، ومارقة مرقت، ورافضة رفضت الدِّين وأهل الدين، فتركوا ما فرض الله جلَّ وعزَّ عليهم، ف﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ أَتَى يُؤْفَكُونَ﴾ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴿[التوبة: ٣٠، ٣١].

وقد روينا عن النبي ﷺ من غير وجه ولا اثنين، أنه خطب الناس فقال في خطبته: «إِنَّ اللَّهَ جَلَّ وَعَزَّ قد افترض عليكم الجمعة في مقامي هذا، من عامي هذا إلى يوم القيامة، فَمَنْ تركها استخفافاً بها وجحوداً لها، فلا جَمَعَ اللَّهُ شمله، ولا بارك له في أهله، ولا حجَّ له، ولا جهاد حتى يتوب إلى اللَّهِ جَلَّ وَعَزَّ! فَمَنْ تاب تاب اللَّهُ عليه»، ثم قال: يا قوم، ما الَّذي حَرَكْنَا على هذه الفضيلة في جوف هذه الليلة؟ قيل: السُّكر الطَّبْرزد، قال: أجل واللَّه! فما أحضرتموني ألف مَنْ سكر إلى هذه الغاية، أيا نصح، أيا فتح، أيا صُبْح، أيا نُجْح! تبادروا مولاكم، فإنه قد نَصِب وتعب من طول القيام، واللَّه لأحسب الثرياً مقابلة سَمَتِ رَأْسِي! ذهب واللَّه الليل، وجاء الويل، ويلكم! أدركوني؛ فإني أريغ نومة؛ ولا بد لي من البكور نحو الدار.

فبادرت حُرْمه الخاصة، فحثُّوا الباعة^(٣)، وأنبهُوا السُّوقة، وأخذوا ما عندهم على غير سَوْم؛ وجاؤوا به فقال: ما هذا؟ قالوا: ما أمرت به؛ قال: فهل أخذتموه على الصِّفة التي وصفت لكم! قالوا: نعم؛ قال: فهل وزنتموه واستوجبتموه؟ قالوا: لا؛ قال: يا أعداء الله، أردتم أن تفسدوا ديني، لا والله! لا يُطمع منِّي في هزيمة، لا والله، لا يزال هذه حالي حتى تأخذوه بيعاً صحيحاً لا شرط فيه ولا

(١) ل: «متى».

(٢) ك: «وأنه قال».

(٣) ك: «أتباعه».

خيار، ولا مثنويّة، ولا على حدّ تلجئة، هيهات! يأبى الله جل وعزّ ذاك عليّ، قال: فرجعوا وساموا الباعة، وقطعوا ثمنه وأخبروه، فقال: يُوزن بحضرتي، فأتوه بالقبّان، فقال: مَنْ يزن منكم؟ قالوا: مَنْ أمرته، قال: زنْ يا نُصح، فقد دنا الصّبح؛ وأرجح، فإنّ النبي ﷺ اشترى، فقال للوزّان: «زنْ وأرجح»، والله لو لم يكن في الرجحان إلّا تحلّة القسم لكان في ذلك ما يدعو العلماء والفقهاء في دين الله جلّ وعزّ إلى العمل به، فجعل الغلام يزن ويرجّح وهو يقول: ويلك! عجل فداك أهلك. قد دنا الصبح وخرجت نفسي أو كادت.

فلما استوى الوزن خرّ مغشياً عليه، ما يدري أرضاً توسّد أو وساداً! وكذلك كانت حال مَنْ كان في مثل حاله، فهذه يا أمير المؤمنين حال من أحمدت علمه وفهمه ورأيه!

فقال المأمون: قاتلك الله! ما أعجب أمرك على كلّ حال! والله لئن كنت ولّدت هذا عن أبيك في مقامك، ما لك في الأرض نظير، ولا في السماء شبيه، وإن كنت حكيت عنه عياناً، فلقد أجّدت الحكاية، وأحسنّت العبارة، وما لأبيك في الدنيا شبيه، وإنّك تغمر مساويك بمحاسنك، فلا تذكرن شيئاً من هذا بعد هذا المجلس، فإنّ عيبه فينا أقدح منه في أبيك. قال: فذهب عليّ ليتكلّم؛ فقال المأمون: لا تبصّن لسانك بحرف واحد، ثم أمر بنيه بالانصراف.

محاسن البنات

قال رسول الله ﷺ: «نعم الولد البنات مطلقاً مجهزات، مؤنسات مباركات مفلّيات فاليات، مندّبات نادبات».

قال: ودخل عبد الله بن الزبير على معاوية بن أبي سفيان وبنّية له تمرغ على صدره؛ فقال: أمطها عنك يا أمير المؤمنين، فإنهن يقربن الأعداء، ويورثن البعداء.

فقال معاوية: مهلاً يا ابن الزبير! فما مرض المرضي، ولا ندب الموتى، ولا برّ الأحياء كهنّ. فقال ابن الزبير: قد تركتهن أثر عندي من الأبناء. وحكي أنه قال: والله لقد دخلت وما أحد أبغض إليّ منهنّ، وإنّي أخرج وما أحد أحبّ إليّ منهنّ.



وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من أحد من أمتي ولدت له جارية فلم يتسخط ما خلق الله جلّ وعزّ، إلّا هبط ملك من السماء بجناحين أخضرين موشحين بالدرّ والياقوت، في سلّم من درّ، ويرفّ من درجة إلى درجة حتى تأتيه بالبركة، فيضع يده على رأسها وجناحه على جسدها، ثم يقول: بسم الله. وبالله، محمد رسول الله؛ ربّي وربّك الله، نعم الخالق الله؛ ضعيفة خرجت من ضعيف، المنفق عليها معان إلى يوم القيامة».

وقال ابن المقفع لرجل ولدت له جارية: بارك الله لك في الابنة المستفادة، وجعلها لكم زينة، وأجرى لكم عليها خيراً، فلا تكرههنّ، فإنهن الأمّهات والأخوات، والعَمّات والخالات، ومنهنّ الباقيات الصالحات، ورُبّ غلام ساء أهله بعد مسرّتهم، ورُبّ جارية فرّحت أهلها بعد مساءتهم، وأنشد في ذلك:

سَخِطَتْ بُنْيَّةً عَمَّا قَلِيلٍ	تُسَرُّ بِهَا عَيُونُ النَّاضِرَاتِ
فَبَارَكَ فِي فُطَيْمَةِ رَبِّ مُوسَى	وَأُنْبَتَهَا نِبَاتَ الصَّالِحَاتِ
وَزَادَكَ عَاجِلاً أُخْرَى سِوَاهَا	بِسُخْطِكَ إِذْ سَخِطْتَ عَلَى الْبَنَاتِ

قال: وكان لرجل امرأتان في دار واحدة، فولدت إحداهن غلاماً، والأخرى جارية، فكانت أم الغلام تقول:

عافاني اليوم من الجواري من كل سوداء كش بال
لا تدفع الضيم عن العيال
وقالت أم الجارية:

وما علي أن تكون جاريه	تحفظ بيتي وترد العاريه!
تمشط رأسي وتكون الغاليه	وتحمل الفاضل من خماريه
حتى إذا ما بلغت ثمانيه	وزيئت بنقبة يمانيه
زوجتها مروان أو معاويه	أزواج صدق بمهور غاليه

محاسن بر البنات

عوانة، قال: بلغنا أن شيخاً من أصحاب معاوية كان يكتب علي بن أبي طالب رضوان الله عليه، وقد كان طعن في السن، فبلغ معاوية خبره فدعاه، فقال: أيها الشيخ، إنك لتكتب علياً رضي الله عنه؛ ولولا سنك لقتلتك، فلا تفعل ولا تعد.

فوقع كتاب له بعد ذلك إلى علي رحمه الله في يدي معاوية، فدعاه، وقال: أتعرف هذا الكتاب؟ قال: نعم، كتب فأجبتة، فأمر معاوية بقتله. فأنهى الخبر إلى ابنة له صغيرة، فجاءت حتى قامت بين يدي معاوية؛ وأنشأت تقول:

مُعَاوِي لَا تَقْتُلْ أَبَاكَ مُشْفِقًا عَلَيْنَا فَنَبْقَى إِنْ فَقَدْنَاهُ شَرًّا
وَتُوتُمْ أَوْلَادُ صِغَارٍ بِقَتْلِهِ وَإِنْ تَعَفُّ عَنْهُ كُنْتَ بِالْعَفْوِ أَسْعَدًا
مُعَاوِي هَبْهُ الْيَوْمَ لِلَّهِ وَحْدَهُ وَلِلْبَاكِيَاتِ الصَّارِخَاتِ تَلَدُّدًا
مُعَاوِي مِنْكَ الْعِلْمُ وَالْحِلْمُ وَالتَّقَى وَكُنْتَ قَدِيمًا يَابْنَ حَرْبٍ مُسَدَّدًا
فَعَجِبَ مُعَاوِيَةَ وَأَصْحَابَهُ مِنْهَا، وَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، وَوَهَبَهُ لَهَا.



قيل: وكان المأمون وجد علي قائداً من قواده، فاستصفى ضياعه وداره، وأنهب دوابه وماله، وكان شيخاً فانياً، ولم يكن له من الولد إلا بنية صغيرة، فأجمع أن يضرب في الأرض، ويطلب من فضل الله جل وعز، ويخلف بنيته، فبكت الابنة وقبضت على أبيها، وقالت: اقنع بما آتاك الله واصبر على محن الزمان، ونوائب الدهر، والزم الوطن، وارحم وحدتي وضعفي، وقلة حيلتي، أو اذبحني فلا أبنتى بفراقك فبكى الشيخ وقال:

تَقُولُ ابْنَتِي لَمَّا أَرَدْتُ وَدَاعَهَا وَقَدْ حَضَرْتَنِي نِيَّةٌ وَرَحِيلُ
لَعَلَّ الْمَنِيَا فِي رِحَالِكَ ^(١) تَنْبَرِي لِنَفْسِكَ خَتْلًا أَوْ تَغُولُكَ غُولُ

(١) ك: «في ارتحالك».

فتتركني أدعى اليتيمة بعدما تبين وعزي بعد ذاك ذليل
أفي طلب الدنيا وربك بالذي تسير له راع عليك كفيل!
أليس ضعيف القوم يأتيه رزقه يساق إليه، والبلاذ مُحول!
ويحرم جمع المال من قد يرومه يكُد عليه رحله ويجول
فلو كنت في طود على رأس هضبة لها نجف فيه الوُعول ثقيل^(١)
مُصعدة لا يُستطاع ارتقاؤها ولا لنزول يُستطاع سبيل^(٢)
إذا لأتاك الرزق يحدوه سائق حثيث ويهديه إليك دليل

قال: فثُمِي الخبرُ إلى المأمون فدعا بالشيخ، فاستنشه شعره فأنشده، فرق له، وأمر برد جميع ما أخذ منه، وأعادته إلى مَرَبَّتِهِ وزاده من عنايته.



قال: وعاش يزيد بن زبيبة الشيباني دهرًا طويلاً حتى لحق زمن الحجاج، وسعى مع ابن الأشعث، فظفر به الحجاج، وورد عليه كتاب عبد الملك بن مروان يأمره بقتله، فلمَّا دعا به قال له: أيُّها الأمير، اتَّقِ اللَّهَ بسبع عشرة نسوة - أو تسع عشرة نسوة - ليس لهنَّ قِيَمٌ غيري، قال: احضرهنَّ، فلمَّا حضرنَّ سألهنَّ الحجاج عن شأنهنَّ، فما منهنَّ امرأةٌ إلَّا وهي تقول: اقتلني ودعه، فقامت بنية له صغيرة فبكت بكاءً حارًّا موجعاً محرِّقاً، وأنشأت تقول:

أحجاج إمَّا أن تجودَ بنعمة علينا، وإمَّا أن تقتلنا معا
أحجاج كم تفجع به إن قتلتُه ثلاثاً وعشرًا واثنتين وأربعاً!
فمن رجلٍ دانٍ يقومُ مقامه علينا، فمهلاً لا تزدنا تضعضعا!
فرجِمه الحجاج، وكتب إلى عبد الملك يسأله العفو عنه، فأجابه إلى ذلك وأطلقه.

(١) الطود: الجبل.

(٢) ك: «ولا لتروك».

مساوي من كره البنات

قيل: وبُشِّر الأحنفُ بجارية فبكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: لِمَ لا أبكي وهي عورة، وبكاؤها عبْرَة، وهديتها^(١) سرقة، ونصرتها^(٢) البكاء، ومهنؤها لغيري.



وقال رجل ولدت له جارية:

قد كنتُ أرجو أن تكونَ ذَكَراً
شَقّاً أبى اللّهُ لَهُ أن يُجبراً
ومما قيل فيها من الشعر:

لولا البُنيّةُ لَمْ أجزع من العدم
وَرَأَدَنِي رَغْبَةً فِي العَيْشِ معرفتي
تهوى بَقَايَ وأهوى موْتَهَا شفقاً
مخافة الفقر يوماً أن يُلَمَّ بها
إذا تذكرتُ بنتي حين تندبني
آخر:

أحبُّ بُنَيَّتِي ووددتُ أني
وما بُغضها غَرَضٌ ولكن^(٤)
مخافة أن تصير إلى لئيم
فليت اللّهُ أكرمها بقبرٍ

(١) الهدية والهدى: العروس تهدي إلى بعلها.

(٢) الراغب: «وسلاحها».

(٣) لإسحاق بن خلف، ديوان الحماسة - بشرح المرزوقي ١: ٢٨٢، مع اختلاف في الرواية.

(٤) ط: «وما أبى».

فَتَسْتُرْ عَوْرَتِي وَتَكُونُ أَجْرًا إِذَا قَدَّمْتُهَا وَكُتِمْتُ وَجَدِي
وَتَتَّبَعَ بَعْدَ ذَلِكَ بِأَمِّ صَدَقٍ فَتُؤْنِسُ بِنْتَهَا، وَأَعِيشْ وَحْدِي!
وَلَا خَر:

فَكُلْ أَبِي بِنْتٍ يُرْجِي بِبَعْلِهَا ثَلَاثَةَ أَصْهَارٍ إِذَا عُدِدَ الصَّهْرُ
فَزَوْجٌ يُرَاعِيهَا، وَخِذْرٌ يَصُونُهَا وَقَبْرِ يُوَارِيهَا، وَخَيْرُهُمُ الْقَبْرُ



مساوي البنات

قيل: وكان همّام بن مُرّة غَيُوراً، وله أربع بنات، فجعلنّ في قَصْرِ، فلمّا بلغنّ مبلغ النّساء اشتهينّ الرّجال، واستردن الأب، وبعثنّ إليه في ذلك بأبيات شعر، فكتبت واحدةً منهنّ:

أهمّام بن مُرّة حنّ قلبي إلى صلعاء مُشرفة القَدال
فقال: يا بنيّة، أهب لك بيضة - ولم يعرف المعنى.

وكتبت إليه الثانية:

أهمّام بن مُرّة حنّ قلبي إلى شيء يكون مع الرّجال
فقال: نعم - ولم يعرف المعنى، أهب لك سيفاً، وكتبت إليه الثالثة:

أهمّام بن مُرّة حنّ قلبي إلى ما بين أفخاذ الرّجال
فقال: يا بنيّة، أهب لك فرساً، فقالت الرابعة:

أهمّام بن مُرّة حنّ قلبي إلى شيء أسدّ به مَبالي
فلما صرّحت هذه عرف المعنى، فزوّجهن جميعاً.



وذكروا أن الضّيزن الغسّانيّ ملك الحيرة، سار إليه سابور ذو الأكتاف، فتحصّن الضّيزن، وحاصره شهراً، وإن مُليكة بنت الضّيزن نظرت من ناحية السّور إلى سابور، فهويته، وأرسلت إليه: إنّي قد هويتك، وسأدّلك على فتح هذه المدينة، فقال: أفعلي وأنا لك وبين يديك، فأسكرت حُقاط السور، وفتحت الأبواب، فدخل سابور فقتل من قدر عليه، وأخذ أباهما أسيراً، فلمّا أصبح سابور أمر فأدخل إليه الضّيزن، وهو قاعد على سرير من ذهب، والجارية إلى جانبه، فلمّا رآها ضرب بيده ورجله وغشي عليه، وقال لها حين أفاق: ما لك سوّد الله وجهك كما سوّدت وجهي وسلّطه عليك! فأمر به سابور فضربت عنقه، وغنم هو وأصحابه غنائم كثيرة، وانصرف إلى دار ملكه، وأمر للجارية بمقصورة فبنيت لها، فأسكنها

فيها، وأعجب بها إعجاباً شديداً، فمكثت عنده حولاً، ثم إنه دعاها ذات ليلة، فباتت معه على فراش حشوه ريش، فقَلَقَتْ قلقاً شديداً، فقال لها: ما لك يا حبيبتى؟ قالت: إنَّ في الفراش شيئاً خشناً قد أفلقني، ففتش الفراش، فوجد تحت الريش ورقة آس، وإذا هي قد أثرت في جنبها بمقدار الورقة؛ لרטوبة جسدها ولين بشرتها، فقال لها: ما الذي كان أبوك يغذوك به؟ قالت: بالَمْخَّ ولباب الدَرْمَك - وهو الحَوَارَى بالسَّكَّر الطَّبْرزد - فقال: واللَّه لأَكافئنك، فأمر بها فشُدَّت ضفائرها إلى أذنان فرسين فركضا فتقطعت.

محاسن الإخوان

قال بعض الحكماء: ليس للعقلاء تنعم إلا بمودات الإخوان.
وقال آخر: الازدياد من الإخوان زيادة في الآجال، وتوفير لحسن الحال.
وقال المأمون: الإخوان ثلاث طبقات: طبقة كالغذاء لا يستغنى عنه، وطبقة كالدواء يحتاج إليه أحياناً، وطبقة كاللذات الذي لا يحتاج إليه.
وقيل: أبعد الناس سَفْراً مَنْ كان سفره في ابتغاء أخ صالح.



وكان يقال: أعجز الناس مَنْ فرط في طلب الإخوان، وأنشد:
لَعَمْرُكَ ما مالُ الفتى بذخيرةٍ ولكنَّ إخوان الثُّقات الذخائرُ
وقيل: صحبة الأخيار تُورث الخير، وصُحبة الأشرار تورث الشرَّ، كالريح إذا مرَّت على الثَّن حملت نَتْنًا، وإذا مرَّت على الطيبِ حملت طيباً.
وقال شيخ من الأعراب: عاشروا النَّاس معاشرة إن عِشتم حتوا إليكم، وإن مِتُّم بَكُوا عليكم. وقيل في ذلك:

قد يمكثُ الناس حيناً ليس بينهمُ وُدٌّ فيزرعُهُ التَّسليمُ واللَّطفُ
يُسلي الشقيقين طولُ النَّأي بينهما وتلتقي شُعبٌ شَتَّى فتألفُ
وقال آخر:

كم إخوةٍ لك لم يلدك أبوهم وكأئما أبأؤهم ولَدُوْكَ
وأقاربٍ لو أبصروك معلقاً بنياطِ قلبك ما رؤُوا رَحْموكا



وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن، صلوات الله عليه:
ابذل لصديقك كلَّ المودة، ولا تطمئن إليه كلَّ الطمأنينة، وأعطه كلَّ المؤاساة، ولا تفُض إليه بكلِّ الأسرار.

وقال العباس بن جرير: المودة تعاطفُ القلوب، وائتلاف الأزواج، وأنسُ

النفوس، ووحشة الأشخاص عند تنائي اللقاء، وظهور السُرور بكثرة التَّراور، وعلى حسب مشاكلة الجواهر يكون الاتِّفاق في الخصال.



وكتب بعض الكُتَّاب: إِنَّ فلاناً أولاني جميلاً من البشر، مقروناً بلطيف من الخطاب؛ في بسط وجه، ولين كَنَف، فلمَّا كشفه الامتحان بيسير الحاجة، كان كالتَّابوت المِطْلِيّ بالذهب؛ المملوء بالعِذرة، أعجبك حسنه ما دام مطبقاً فلما فتح آذاك نتنه، فلا أبعد الله غيره!.



وقال بعضهم: مَنْ لم يُوَاح من الإخوان إلا مَنْ لا عيب فيه قلَّ صديقُه، ومَنْ لم يَرْضَ إلا بإيثاره إيَّاه على نفسه دام سَخَطُه، ومَنْ جَانَبَ^(١) على غير ذنبٍ إخوانه كثر عدُوّه.

(١) المحاسن والأضداد: «عاتب».

مساوي الإخوان

أنشد لبعضهم:

والله لو كرهت كفي منادمتي
لقلت للكف بيني إذ كرهتيني^(١)
ولآخر:

فإني لو تخالفني شمالي
إذا لقطعتها ولقلت بيني
كذلك أجتوي من يجتويني
ولآخر:

من لم يردك فلا ترده
باعد أخاك إذا نأى
قال - وسمعا الكسروي فقال:
هبة كمن لم تستفده
وإذا دنا شبراً فزده

في سعة الأرض وفي عرضها
فمن دنا من أهلها به
آخر:
مستبدل بالأهل والجار
ومن تولى فإلى النار

وقائل كيف تهاجرتما
لم يك من شكلي فتاركته
ولآخر:
فقلت قولاً فيه إنصاف
والناس أشكال وألاف

تود عدوي ثم تزعم أنني
وليس أخي من ودني رأي عينه
وقد قالت الحكماء الأوائل: نعوذ بالله من بوائق الثقات، ومن الاغترار
بظاهر المودات.

وأنشد الآخر:

إن اختياريك على خبرة
أعجب شيء مر في العالم

(١) لذي الإصبع العدوانى، المفضليات ١٦٤.

وأنشد لآخر:

إِنَّ اخْتِيَارِيكَ لَا عَنْ خَبْرَةٍ سَلَفْتُ إِلَّا الرِّجَاءَ وَمِمَّا يَخْطِئُ النَّظْرُ
كَالْمُسْتَغِيثِ بِبَطْنِ السَّيْلِ يَحْسِبُهُ جُرْزاً يُبَادِرُهُ؛ إِذْ بَلَّهَ الْمَطَرُ
وأنشد لآخر:

إِذَا كُنْتُ فِي قَوْمٍ فَقَارُنُ سِرَاتِهِمْ فَإِنَّكَ مَنْسُوبٌ إِلَى مَنْ تُقَارَنُ
وَبَيْتُ عَدِيِّ بْنِ زَيْدٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى مَخْتَارٌ قَدِيمٌ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلُ وَأَبْصُرْ قَرِينَهُ فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي
وَلَا خَرَفَ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

مَشْيُ الْبَرِيِّ مَعَ الْمُقَارِفِ تَهْمَةٌ وَيُرَى الْبَرِيُّ مَعَ السَّقِيمِ فَيُلَطَّخُ^(١)
وَلَا خَرَفَ فِي هَذَا الْمَعْنَى:

إِذَا اعْتَذَرَ الصَّدِيقُ إِلَيْكَ يَوْمًا مَنْ التَّقْصِيرِ عَذْرَ أَخٍ مُقَرَّرٍ
فَصْنَهُ عَنْ جَوَابِكَ وَاعْغُضْ عَنْهُ فَإِنَّ الْعَفْوَ شِمَةٌ كُلُّ حَرٍّ
وَلِبَعْضِ الْكُتَّابِ:

وَصَاحِبُ كَانَ لِي وَكُنْتُ لَهُ أَشْفَقَ مَنْ وَالِدٍ عَلَى وَلَدٍ
وَكَانَ لِي مُؤْنَسًا وَكُنْتُ لَهُ لَيْسَتْ بِنَا حَاجَةً إِلَى أَحَدٍ^(٢)
كُنَّا كَسَاقٍ تَمْشِي بِهَا قَدَمٌ أَوْ كَذِرَاعٍ نِيَطَتْ إِلَى عَضْدٍ
حَتَّى إِذَا أَمَكْنَ الْحَوَادِثُ مَنْ حَظِّي وَحَلَّ الزَّمَانُ مِنْ عُقْدِي
أَزُورَ عَنِّي وَكَانَ يَنْظُرُ مِنْ عَيْنِي وَيَرْمِي عَنْ سَاعِدِي وَيَدِي
حَتَّى إِذَا اسْتَرْفَدَتْ يَدِي يَدَهُ كُنْتُ كَمُسْتَرْفِدٍ يَدَ الْأَسَدِ



(١) المقارِف: الذي قارف ذنباً.

(٢) المحاسن والأضداد: «وحشة».

محاسن الخُصَيان

من مناقب الخصيان، أَنَّ الخَصِيَّ لا يصلع، ومَتَى خُصِيَّ قبل الإنبات لم ينبُت، وإذا خُصِيَّ بعد استحكام نبات الشَّعر في مواضع الشَّعر، تساقط كلُّه إلَّا شعر الرأس والحاجبين وأشْفَار العينين؛ وإنما يعرض لما يتولَّد من فضول البدن؛ ولم يُرْ خَصِيَّ قطُّ مُحْتَثًّا ولا سمعنا به، ولا ندري كيف ذلك، ولا نعرف المانع منه ما هو، وقد كان ينبغي أن يكون ذلك فيهم خلقَةً. ويشمل جماعتهم لشبهِهم بالنساء، وقربهنَّ من الصَّبيان، وقد رأينا غير واحدٍ من الأعراب مُحْتَثًّا، ورأينا عدَّةً مجانيين مُحْتَثِّين، وأخبرني مَنْ رأى كَرْدِيًّا مُحْتَثًّا.

ومن فضائل الخَصِيَّ أَنَّ المرأة تميل إليه؛ لأنَّ أمره أَسْتَرُّ، وعاقبته أَسْلَمُ، وتحرص عليه لأنَّه ممنوع عنها وترغب في السَّلامة من الولد، والخَصِيَّ إذا تنسَّكَ غَزَا ولزم الثُّغور، وبادر بماله إلى طَرَسُوس، وقيل فيهم:

ونسَاء لمطمئنُّ مُقيمٍ ورجال إن كانت الأسفارُ

وقد يُرى الخَصِيَّ وكأنَّ السيوف تلمع في لونه، وكأنه مرآة صينية، وجُمارة [رطوبة]^(١) أو قُضيب^(٢) فضة قد مسَّه ذهب، وكأنَّ في وجناته الورد، ويعرض له صبرٌ على طول الركوب، والقوَّة على كثرة الركض حتى يجاوز في ذلك رجال الأتراك، وفرسان الخوارج، وهم أطول الناس أعماراً، وما ذلك فيما أرى إلَّا لعدم النكاح، وقلة استنزاج النطف^(٣)، ولذلك يقال: إنَّ البغل أطولُ عمراً من سائر الدوابِّ، والعصفور أقلُّها أعماراً، وما ذلك إلَّا لكثرة سِفاد العُصفور، وقلة نَزْو البغال، ولو أنَّ أَحَوَيْن أحدهما توأم أخيه، خُصِيَّ أحدهما، لخرج الخَصِيَّ منهما أجودَ خدمة، وأفطن لأبواب المعاطاة، وأذكى عقلاً عند المخاطبة، من أخيه الذي ولد معه في وقت واحد^(٤).

(١) من الحيوان للجاحظ.

(٢) الحيوان: «وكانه قُضيب فضة».

(٣) الحيوان: «استفراع».

(٤) انظر الحيوان ١: ١٠٦ وما بعدها.

مساوي الخَصِيَّانِ

قيل: كلّ ذي رِيح مُنْتِنَةٍ، وكلّ ذي ذَفَرٍ وَصْنَانٍ كَرِيهٍ المَشَمِّم كالتَّيْس وما أشبهه، فإنه متى خُصِيَّي نقص نَتْنُهُ، وذهب صُنَانُهُ، غير الإنسان، فإنَّ الخَصِيَّ يعود أنْتَن ما كان، وَصْنَانُهُ أَحَدٌ، وَيَعْتَرِي الخَصِيَّانِ خَبْث العَرَق؛ حتى توجد لأجسادهم رائحةٌ لا تكون لغيرهم.

وكلُّ شيءٍ من الحيوان يُخْصَى فَإِنَّ عَظْمَهُ يَدْقُ وَيَسْتَرْخِي ^(١) لحمه، ويتبرأ ^(٢) من عظمه، ويعود رَخْصاً رَطْباً، بعد أن كان عَصِلاً صُلْباً، والإنسان إذا خُصِيَ طال عظمه وَعَرُضَ.

ويعرض له طول القدم، واعوجاج الأصابع، ويعرض له سرعة التغيّر والتبدّل، والانقلاب من حدّ الرطوبة والبضاضة وملاسة الجلد وصفاء اللون ورقته والتقبّض، إلى الهزال وسوء الحال. ويعرض للخصيان سرعة الرضا والغضب، وحبّ النميمة، وضيق الصدر لما أودع من سرّ.

وما أكثر ما يعرض للخصيان البول في الفراش، ولا سيّما إذا بات أحدهم ممتلئاً من التّبِيذ. ويعرض لهم حبّ الشَّرَاب والإفراط في شَهْوَتِهِ، وتعرض لهم سرعة الدَّمْعَة والعَبَث، واللَّعِب بالطير والفَخّ، وما أشبه ذلك من أخلاق الصبيان. ويعرض لهم الشرّة عند الطعام، والبخل عليه.

والخَصِيُّ تسخن معدته، وتلين جِلْدَتُهُ، وتنحدر ^(٣) شعرته، ويتّسع دُبُرُهُ.

والخاصي ربما عمّد إلى الصبيّ ليخصّيه، فتتقلّص إحدى خُصيتيه، وتصير البيضة في موضع لا يمكنه رَدّها إلى مكانها، فيقطع ما ظهر له، ويبقى ذا بيضة واحدة، فهو حينئذٍ لا امرأة ولا رجل ولا خصيٍّ، وتخرج لحيته، فلا يدعه الناس في دُورهم، فلا يكون مع الخصيان مقرباً، ولا مع الفحول مستخدماً، وقد فاته غشيان النساء ولدّة النسل، والتمتع بشم الأولاد.

(١) الحيوان: «فإذا دق عظمه استرخى لحمه».

(٢) الحيوان: «تبرأ».

(٣) الحيوان: «وانجردت شعرته».

وعلى أن في الخصيان شرّها شديداً، وميلاً عجيباً إلى النساء، من ذلك ما حكى عن أبي المبارك الخصي، ومسامحته في حفظ النساء، فقال: واللّه إني ربّما أسمع نغمة المرأة؛ فأظنّ أنّ كبدي قد ذابت، وأنّ عقلي قد اختلس، وربّما نزا فؤادي عند ضحك إحداهنّ حتى ظنّ أنه قد خرج من فمي، فكيف ألوم عليه غيري^(١)!

وكان في قطيعة الربيع خصي، وكان أثيراً عند مولاه، يثق به في ملك يمينه وحرمه من ابنة وزوجة وأخت، فأشرف يوماً على مريد له فيه غنم، وقد شدّ يدي شاة، وقد ركبها من مؤخرها يكومها، فلما أبصره كذلك وجّم وتحير، ورفع الخصي رأسه، فلما أثبت مولاه مرّ مسرعاً نحو باب الدار ليركب رأسه، ويهيم على وجهه، وكان المولى أقرب إلى الباب منه، فسبقه إليه، فبقِيَ الخصي ساعة ينتفض من حمى ركبته، ثم فاضت نفسه، فلم يُمسِ إلّا وهو في القبر.

قال: وكان الجمّاز يتعشّق جارية لآل جعفر، يقال لها: طغيان، وكان لهم خصي يسمى سناناً يحفظها، وكان يتعشّق الجارية أيضاً، وحال بينها وبين الجمّاز ومنعها من الدنو منه. فقال الجمّاز:

ما للمقيتِ سنانٍ وللظباء الملاح
أليس زانٍ خصيٍّ غارٍ بغير سلاح!



قيل: ودخل معاوية بن أبي سفيان على امرأته ميسون بنت بحدل، وهي أمّ ابنه يزيد، ومعه خصي، فاستترت منه، فقال: لم تستترين منه؟ وإنما هو بمنزلة المرأة! فقالت: كأنك ترى أنّ مثلتك به تحلل له ما حرّم الله عليه منّي!



قيل: وكان إسحاق بن مسلم العقيليّ جالساً عند المنصور، فمرّ خادم وضيء الوجه، فقال: يا أمير المؤمنين، أيّ ولدك هذا؟ قال: ما هو لي بولد. قال: فأيّ إخوة أمير المؤمنين هذا؟ قال: ما هو لي بأخ، قال: فمن هو؟ قال: فلان الخادم.

قال: يا أمير المؤمنين، فشمّة هذا وضمّته أحبّ إليها من شمتك وضمّتك!

قال: فداخل المنصور من ذلك أمرٌ عظيم حتى تغيّر وجهه، وأمر بمنع الخدم من دخول دار النساء.

(١) الحيوان: «واتسعت فمحته».

محاسن العبيد

قال: مرَّ عبيد الله بن معمر بحبشيٍّ يأكل تمرّاً، وبين يديه كلبٌ، فلمّا وضع في فمه لقمة رمى إلى الكلب بلقمة وتمرة، فقال له عبيد الله: هذا الكلب لك؟ قال: لا، قال: فكيف صرّت تطعمه وأنت تأكل؟ قال: إني لأستحيي ذا عينين أن ينظر^(١) إليّ وأنا آكل فلا أطعمه!

قال له عبيد الله: أأنت حرّ أم عبد؟ قال: عبد لبني غاضرة، فأتاهم، فقال: لمن الحبشي؟ قال صاحبه: لي. فقال: بعه منّي. قال: هو لك، قال: لا والله إلا أن تأخذ ثمنه أو غلاماً يكون محلّه، فاشتراه ثم قال: أشهدكم^(٢) أنه حرٌّ لوجه الله جلّ وعزّ!



قيل: ومرَّ عبد الله بن عمر براع مملوك يرعى غنماً، فقال له: بغني شاء من هذه الغنم، فقال: إنها ليست لي، فقال: أين العلل^(٣)؟ فقال: فأين الله جلّ وعزّ؟ فاشتراه ابن عمر وأعتقه، فقال: اللهم قد رزقتني العتق الأصغر، فارزقني العتق الأكبر - أو قال: فلا تحرمني العتق الأكبر!



قال: وكان لكثير عزة عبد راع يتولّى بيع غنمه، فباع عزة - وهو لا يعرفها - شيئاً من غنمه، فقال يوماً وهو يتقاضاه:

قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقِي غَرِيمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْتَى غَرِيمُهَا

فقالت له امرأة: أتعرف عزة؟ قال: لا، قالت: فهذه والله عزة؛ فقال: لا والله، لا آخذ منها شيئاً أبداً، ورجع إلى كثير فأخبره فأعتقه لما فعل.

(١) ك: «ينظرني».

(٢) ك: «اشهدوا».

(٣) ل: «العدل».

مساوي العبيد

محمد بن عبد الله بن عمر، قال: حَدَّثَنِي بَعْضُ الثَّقَاتِ أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ السُّنْدِ مِنْ آلِ الْمَهْلَبِ بْنِ أَبِي صُفْرَةَ اشْتَرَى غُلَامًا أَسْوَدَ، فَرَبَّاهُ وَتَبَّأَهُ، فَلَمَّا اشْتَدَّ وَتَرَعَرَ هَوِي مَوْلَاتِهِ، فَرَاوَدَهَا عَنْ نَفْسِهَا؛ فَأَجَابَتْهُ إِلَى ذَلِكَ، فَدَخَلَ مَوْلَاهُ يَوْمًا عَلَى غَفْلَةٍ؛ فَإِذَا هُوَ عَلَى بَطْنِ مَوَلَاتِهِ، فَعَمِدَ إِلَيْهِ فَجَبَّ ذَكَرَهُ؛ وَتَرَكَهُ يَتَشَحَّطُ فِي دَمِهِ.

ثم إنه أدركته عليه رقّة وتخوّف من فعله، فعالجه حتى أبل^(١) من علته وخرّج من مرضه، فأقام بعد هذا مدّة يطلب غرّة مولاة ليثأر به، ويدبرّ عليه أمراً يكون فيه شفاء قلبه، وكان لمولاه ابنان: أحدهما طفل، والآخر يافع، فغاب الرّجل عن منزله لبعض أموره، فأخذ الأسود الصبيّين؛ فصعد بهما إلى ذرّوة سطح عال ونصبهما، وجعل يُعلّلهما بالمطعم مرة وباللّعب أخرى، إلى أن دخل مولاة، فرفع رأسه، فإذا هو بابنيه في شاهق، فقال: ويلك يا فلان!، عرّضت ابني للموت! فقال: أجل، وقد ترى موضعهما، فوالله الذي لا يحلف بأعظم منه! لئن لم تجب نفسك كما جبتني لأرمين بهما، فقال: ويلك! الله الله في تربيتي لك! قال: دُع عنك هذا، فوالله ما هي إلّا نفس! وإنني لأسمح بها في شربة من ماء. قال: فجعل يكرّر عليه ويأبى، وذهب ليروم الصعود إليهم، فأهوى بهما ليردّيهما من ذرّوة ذلك الشاهق، فقال أبوهما: ويلك، فاصبر حتى أخرج المدينة فأفعل ما أردت، فأخذ مُدِيَّةً واستقبله ليرى ما يصنع بنفسه، فرمى بذكره وهو يراه، فلما علم أنه قد فعل، رمى الصبيّين وقال: ذاك بدا، وهذا زيادة، فتقطّع الصبيان وأخذ ذلك الأسود، وكتب بخبره إلى المعتصم بالله، فأمر بقتله، وأن يخرج من مملكته كلّ عبد أسود.



وعن حميد الطويل: كَانَ رَجُلٌ لَهُ غُلَامٌ فَبَاعَهُ وَقَالَ لِلْمَشْتَرِي: إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِنْ كُلِّ عَيْبٍ بِهِ إِلَّا عَيْبًا وَاحِدًا، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: النَّمِيمَةُ. قَالَ: أَنْتَ بَرِيءٌ

(١) ط: «أبتل».

منه، فإنني لا أقبل قوله. قال: فما لبث إلا قليلاً حتى أتى السيّد، وقال: إنّ امرأتك بغيٌّ، وهي تريد أن تقتلك وتتزوّج غيرك قال: وما يُدريك؟ قال: قد عرفتُ ذلك، فتناوَمَ عليها، فإنه سيظهرُ لك ما أقول، وأتى المرأة، فقال: إنّ زَوْجَكَ يريد أن يخلعك ويتزوّج غيرك، فهل لك أن أرقيك فيرجع إليك حُبّه، قالت: نعم؛ ولك كذا وكذا، قال: اثتيني بثلاث شَعرات من تحت حَنَكه، فلمّا دنت منه لتتناول الشَّعْر قام إليها بالسيف، ولم يشكّ فيما قاله الغلام، فقتلها، وجاء إخوة المرأة فقتلوا الزَّوْجَ، فذهبا جميعاً بسوء صنيعِ عبدهما وقبولهما نميمته.



ومما قيل فيهم من الشعر:

وَإِذَا مَا جَهِلْتُ وَدُّ صَدِيقٍ فَاخْتَبَرُ مَا جَهِلْتُ بِالْغِلْمَانِ
إِنَّ وَجَهَ الْغِلَامِ يَخْبِرُ عَمَّا فِي ضَمِيرِ الْمُؤَلَى مِنَ الْكِثْمَانِ



قال: وكتب الطائيُّ إلى بعض إخوانه يسأله نبيذاً، فأمر بذلك ومنعه الغلام،

فقال:

أَبَا جَعْفَرٍ وَأَصُولُ الْفَتَى تَدُلُّ عَلَيْهِ بِأَغْصَانِهِ
أَلَيْسَ قَبِيحٌ بَأَنَّ امْرَأً رَجَاكَ لَصَالِحِ أَزْمَانِهِ
فَتَأْمُرُ أَنْتَ بِإِعْطَائِهِ وَيَأْمُرُ فَتَحٌ بِحَرْمَانِهِ
وَلَسْتُ أَحَبَّ بَأَنَّ الشَّرِيفَ يَكُونُ غَلَاماً لِغِلْمَانِهِ

مساوي سوء معاملات الموالى لعبيدهم

قال: وقال أبو العباس الموصلي: كان لي جار، فسمعت من داره استغاثة مضروبين، فلما سألت عن الخبر، قيل: إنه فقد دجاجة، فكتبت أبياتاً في رقعة، وشدتها في رجل دجاجة، وألقيتها في داره، وضمنتها:

ياذا الذي من أجل فروجة أظهر للعالم أخلاقه
ألقى على الغلمان من أجلها بالضرب والتعذيب أرواقه
رفقاً قليلاً بعقوباتهم فإنهم لم يعقروا الناقه



قيل: وقدم أعرابي مصرّاً من الأمصار، فدخل سوق النّحاسين ليبتاع جارية، فصادف جاريةً قد أقيمت لتباع؛ يبرأ فيها من الإباق والسّرقة، والسكر والفجور، وقد تحامأها الناس، فاشتراها، وأبرأها من غيوبها، فقال له رجل: يا عبد الله، لقد اشتريت بمالك ما لم يكن غيرك يأخذه بلا ثمن، فقال: إنّنا لسنا نكره من مثلها ما تكرهون، أمّا الإباق، فوالله إنّ أدنى ماءٍ من مياهنّا لعلّى مسيرة خمس، ولربّما سرى الرّجل الهادي من حيث ينزل، فيصبح يرى، فأنى لها بالإباق! وأما السّرقة؛ فما عسى أن تسرق! شاةً أو بغيراً أو قباءً أو جلساً! وأما السكر: فوالله ما نقدر على ريّها من الماء، فكيف تصيب شراباً! وأما الفجور، فإنّ لنا زُنجاً يخدموننا فما نكره أن يقع عليها بعضهم فننتفع بولدها. ثم عمّد إلى ثوبين مصبوغين كانا عليها فانتزعهما منها، وقال: مولاتك أحقّ بهما، وألبسها مدرعة.

فبكت الجارية وقالت: قد كانت مولاتي تدعو عليّ وتقول: باعك الله في الأعراب، فقال: لأنّا نُجيع كبده، ونُفري جلده، ونطيل كده.

محاسن مطالبة المعلمين بالتعليم

قيل: كان الرّشيدُ جعل محمّداً الأمين في حجر الفضل بن يحيى، وعبد الله المأمون في حجر جعفر بن يحيى، فقال الفضل بن يحيى لهشيم بن بشير الواسطي: ليكنن أكثر ما تأخذ به ولي العهد تعظيم الدماء، فإنّي أحبّ أن يُشرب الله قلبه الهيبة لها، والعفاف عن سفكها.

ثم إن الرّشيد أرسل إلى الأحمر النحوي، فلمّا دخل عليه، قال: يا أحمَر، إنّ أمير المؤمنين قد دفع إليك مهجة نفسه، وثمره قلبه، وصير يدك عليه مبسوطة، ومقالتك فيه مُصدّقة، وطاعتك عليه واجبة، فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين؛ أقرئه القرآن، وعلمه الآثار والأخبار والسّنن، وروّه الأشعار، وبصره مواقع الكلام، ومُرّه بالرزانة في مجلسه، والاقتصاد في نظره وسمعه، فلا تمرّن بك ساعة إلا وأنت مغتمّ فيها فائدة تفيده إياها، وكلمة نافعة يعيها ويحفظها؛ من غير أن تحرق به، فتُميت ذهنه وتملّه؛ ولا تمعن في مسامحته، فيستحلي الفراغ ويألفه، وقومّه بالتّقريب والملاينة فإن أبي فالشدة!

قال الأحمر: فكنت كثيراً ما أشدّد عليه في التأديب؛ وأمنعه السّاعات التي يتفرّغ فيها للهو واللّعب.

فشكا ذلك إلى خالصة، فأتتني برسالة من أمّ جعفر تعزم عليّ بالكفّ عنه، وأن أجعل له وقتاً أجّمه فيه لتوديع بدنه.

فقلت: الأمير قد عظم قدره، وبعد صوته؛ وموقعه من أمير المؤمنين ومكانه من ولاية العهد لا يحتملان التقصير، ولا يُقبل منه الخطل، ولا يُرضى منه بالزلل في المنطق والجهل بشرائع الدين، والعمى عن الأمور التي فيها قوام السّلطان، وإحكام السياسة.

قالت: صدقت، غير أنها والدة لا تملك نفسها، ولا تقدر على كفّ إشفاقها وحذرهما، ومع حذرهما أمرٌ إن شئت حدّثتك به.

فقلت: وما ذاك؟ قالت: حدّثني السيّدة أنّها رأت في اللّيلة التي حملت فيها

به كأنّ ثلاث نسوة دخلن عليها، فقعدت منهنّ ثنتان، واحدة عن يمينها، وواحدة عن يسارها، فأمرت إحدى الثلاث يدها على بطنها؛ ثم قالت: ملك ربّحل^(١)، عظيم البذل، ثقیل الحمل، سريع الأمر.

وقالت الثانية: ملك قصير العمر، سليم الصدر، متهتك الستر.

وقالت الثالثة: ملك قصاف، عظيم الإتلاف، يسير الخلاف، قليل الإنصاف.

فانتبهت وأنا فزعّة، فلم أحسّ لهنّ أثراً؛ حتى كانت الليلة التي وضعته فيها، أتيتني في الخلق الذي رأيتهنّ، فقعدن عند رأسه، واطلعن جميعاً في وجهه، ثم قالت واحدة منهنّ: شجرة نضرة، وريحانة جنيّة، وروضة زاهرة، وعين غدقة، قليل لبثها، عجلّ ذهابها.

وقالت الثانية: سفيه غارم، وطالب للمغارم، جسرّ على المخاصم.

وقالت الثالثة: احفروا قبره، وشقّوا لحده، وقربوا أكفانه، وأعدّوا جهازه، فإن موته خير له من حياته.

قالت: فبقيت متحيّرة، وبعثت إلى المنجمين والمعبرين، ومن يزجر الطير، فكلّ يبشّرني بطول عمره، ويعدني بقاءه وسعادته، وقلبي يأبى إلاّ الحذر عليه؛ والتّهمة لما رأيت في منامي.

وبكت خالصة، وقالت: يا أحمر، وهل يدفع الإشفاق والحذر والاحتراق واقع القدر، أو يقدر أحدّ على أن يدفع عن أحبائه الأجل!

قلت: صدقت، إنّ القضاء لا يدفعه شيء. ثم كان من أمره ما كان.

ثم اتّخذ الرشيد قطرباً النحويّ على الأمين، وكان حمّاد عَجْرَد يتعشّق الأمين، ويطمع فيه أن يتّخذه عليه مؤدّباً، فلم يتهيأ له ذلك لتتهتكه، وقبيح ذكره في الناس، وقد كان رام ذلك فلم يُجب إليه. فلمّا سمع أنّ قطرباً قد استوى أمره، وأجيب إلى ذلك لستره وعفافه، أخذ حمّاداً المقيم والمقعد حسداً على ما ناله قُطْرَب من ذلك وبلغه من المنزلة الرفيعة، والدرجة السنية؛ فأخذ رقعة وكتب فيها أبياتاً ودفعها إلى بعض الخدم الذين يقومون على رأس الرشيد، وجعل له على ذلك جُعلاً، وسأله أن يودع الرقعة دواة أمير المؤمنين، ففعل، فما كان بأسرع من أن دعا الرشيد بالدّواة، فإذا فيها رقعة بها هذه الأبيات:

(١) الربحل: اللّحيم العظيم الخلق.

قل للإمام جزاك الله مغفرة لا يجمع الدهر بين السخل والذيب
السخل غرّوهم الذئب غفلته والذئب يعلم ما بالسخل من طيب
فلما قرأ الرشيد الرقعة؛ قال: انظروا لئلا يكون هذا المعلم لوطياً، انفوه من
الدار.

فأخرجوه عن تأديب الأمين، واتخذ عليه حمّاداً، وجعل عليه ثمانين من
الرقباء.

قال: ولما وُسم قُطرب بهذه السمة القبيحة؛ خاف أن يلحقه بعض ما يكره،
فهرب إلى الكرج، وتوسّل إلى أبي دُلف ومعقل ببراعة الأدب، فلما عرفا غزارة
فنه، ووقفوا على معرفته، اصطفياه لأنفسهما، وأحلاه محلاً رفيعاً، وقدماه على
جميع أهل الأدب، وأرغدا له في العطية، فلما رأى قُطرب برّهما به، وإلطافهما
له، رغب في المقام بالكرج وأثرى، وكثر ماله، فيقال: إنّ أصل هذه الآداب التي
وقعت بالكرج إلى أبي دُلف ومعقل من علم قطرب وتصنيفه الكتب.
وإنّ المأمون سأل أبا دُلف: من خلّف بالجبل منسوباً إلى الأدب؟ قال: ما
خلّف غير قطرب.

فقال المأمون: صدقت، إن لقطرب لمحلاً من هذا الشأن!



وعن أبي محمد اليزيدي، قال: كنت أؤدّب المأمون وهو في حجر سعيد
الجوهري، فأنيته يوماً وهو داخل، فوجّهت إليه بعض غلمانته يُعلمه بموضعي،
فأبطأ عليّ؛ ثم وجّهت إليه آخر فأبطأ، فقلت لسعيد: إنّ هذا الفتى ربّما تأخّر
وتشاغل بالبطالة، قال: أجل، ومع هذا إذا تأخّر تعرّم^(١) على خدمه ولقّوا منه
أذى، فقوّمه بالأدب. فلما خرج أمرت بحمله وضربته تسع درر، قال: فإنّه ليدلّك
عينه من أثر البكاء، إذ أقبل جعفر بن يحيى، فاستأذن وأخذ منديلاً فمسح عينيه،
وجمع ثيابه. وقام إلى فراشه؛ وقعد عليه متربّعاً، ثم قال: يدخل. فدخل وقمت
عن المجلس، وخفت أن يشكوني إليه فألقى منه ما أكره قال: فأقبل عليه بوجهه
وحديثه حتّى أضحكه وضحك، فلما هم بالحركة دعا بدابّته، وأمر غلمانته فسعوا
بين يديه، ثم سأل عني فجئت، فقال: خذ ما بقي من حُرني، فقلت: أيها الأمير؛
لقد خفت أن تشكوني إلى جعفر، ولو فعلت ذلك لتنكر لي، قال: إنّنا لله! أتراني

(١) تعرّم: أشرب واطر.

يا أبا محمد كنت أطيع الرشيد في هذه فكيف جعفرًا! أطلعته على أنني أحتاج إلى أدب. يغفر الله لك، خذ في أمرك، فقد خطر ببالك ما لا تراه أبدًا، ولو عُدت في كل يوم مرة.



وكان لسعيد الجوهري غلام قد لَزَّ^(١) بالمأمون في الكُتَّاب، فكان إذا احتاج المأمون إلى مَحْوٍ لَوَحِه بادرَ إليه، فأخذ اللُّوح من يده فمَحَّاه، وغلبَ على غلمان المأمون ومسحه، وجاء به فوضعه على المُنْدِيل في حجره. فلَمَّا سار المأمون إلى خراسان، وكان من أخيه ما كان، خرج إليه غلام سعيد؛ فوقف بالباب حتى جاء أبو محمد اليزيدي، فلَمَّا رآه عَرَفَه، فدخل فأخبر المأمون، فقال له مستبشراً بقدومه: لك البشرى! ثم أذن له، فدخل عليه، فضحك إليه حين رآه، ثم قال: أتذكر وأنت تبادر إلى مَحْوِ لَوْحِي؟ قال: نعم يا سيدي، فوصله بخمسمائة ألف درهم.

ثم اتَّخذ الرشيد الحسن اللؤلؤي بعد أبي محمد اليزيدي على المأمون، فيينا هو يطارحه شيئاً من الفقه إذ نعس المأمون. فقال له اللؤلؤي: نمت أيها الأمير؟ فقال المأمون: سوقي ورب الكعبة! خذوا بيده، فبلغ الرشيد ما صنع فقال متمثلاً: وهل يُنبتُ الخَطِيَّ إلا وشيْجُهُ وتُغرسُ إلا في منابتها النخل! ^(٢)

(١) لَزَّ به: لصق ولزم.

(٢) لزهير، ديوانه: ١٥.

محاسن المعلمين

قال: شهد رجلٌ عند سَوَّار القاضي، فقال: ما صناعتُك؟ قال: مُعَلِّم. قال: فإنَّنا لا نَجيز شهادتَكَ، قال: وَلِمَ؟ قال: لأنَّكَ تأخذ على التعلِيم أجراً، قال: وأنت تأخذ على القضاء بين المسلمين أجراً؟ قال: أُكْرِهت عليه، قال: فَهَبْكَ أَكْرِهْتَ على القضاء، فَمَنْ أَكْرَهَكَ على أخذكَ الأجر، والرزق على الله! فقال: هَلَمْ شهادتكَ؟ فأجازها.



قال: وكان لَشُرَيْح القاضي ابنُ يَكْثَر البَطَّالَة، فنظر إليه شُرَيْح يوماً وهو يُهَارِش بَكَلْبٍ له، فكتب معه رقعة إلى معلِّمه؛ وفيها هذه الأبيات:

تَرَكَ الرِّوَّاحَ لَأَكْلِبٍ يَسْعَى بِهَا	طَلَبَ الهَرَّاشِ مَعَ الْغَوَاةِ الرُّجَسِ ^(١)
فَإِذَا أَتَاكَ فَعَضُّهُ بِمَلَامَةٍ	وَعَظَّمَتْهُ مَوْعِظَةُ الرِّفِيقِ الْأَكْيَسِ
فَإِذَا هَمَمْتَ بِضَرْبَةٍ فَبِدْرَةٍ	وَإِذَا ضَرَبْتَ بِهَا ثَلَاثاً فَاحْبِسْ
وَلِيَحْمِلُنْ مِنِّي إِلَيْكَ صَحِيفَةً	نَكْرَاءَ مِثْلِ صَحِيفَةِ الْمُتَلَمِّسِ ^(٢)
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ مَا أَتَيْتَ فَنَفْسُهُ	مَعَ مَا يُجَرِّعُنِي أَعَزُّ الْأَنْفُسِ

فَضْرَبَهُ الْمُعَلِّمُ عَشْرًا وَعَشْرًا، فَقَالَ لَهُ شُرَيْحُ: لَمْ تُثَبِّتْ عَلَيْهِ الضَّرْبَ؟ فَقَالَ: الْعَشْرُ الْأَوَّلَى لِلْبَطَّالَةِ، وَالثَّانِيَةَ لِلْبَلَادَةِ؛ حَيْثُ لَا يَدْرِي مَا يَحْمِلُ!

(١) العقد ٢: ٤٣٥، مع اختلاف في الرواية.

(٢) العقد: «فليأتينك غدوة بصحيفة». وصحيفة المتلمس تضرب مثلاً لمن يحمل كتاباً فيه حتفه؛ وذلك أن عمرو بن المنذر حمل المتلمس وطرفة كتابين إلى أحد عماله يأمره فيهما بقتلهما، فأما المتلمس فعرف ما فيه فلم يذهب، وذهب طرفة بالكتاب فقتل.

مساوي المعلمين

قيل: كَانَ مَعْلَمٌ يَصَلِّي بِالنَّاسِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ، وَكَانَ يَقِفُ عَلَى مَا لَا يَوْقِفُ عَلَيْهِ^(١)، فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَنَلُّوْا الشَّيْطَانُ﴾ [البقرة: ١٠٢]، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ، فَرَكِعَ ثُمَّ قَامَ فِي الثَّانِيَةِ، فَقُلْتُ: مَا تَرَاهُ يَصْنَعُ! فَلَمَّا قَالَ: ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾، قَالَ: ﴿عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَنَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قَالَ: وَسَمِعْتُ مَعْلَمًا يَقْرَأُ بِالنَّاسِ فِي شَهْرِ رَمَضَانَ: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ﴾ [لقمان: ١٣]، ﴿يَبْنَى لَا نَقْصُصُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، ﴿وَإِكِيدَ كَيْدًا﴾ فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَمَهُلَهُمْ رُؤْيَا؟ [الطارق: ١٦ - ١٧].



وَقَالَ بَعْضُهُمْ: اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ أَعَانَ عَلَى عِرَامَةِ الصَّبِيَّانِ بَرَقَاعَةَ الْمَعْلَمِينَ.



وَقَالَ فِيهِمْ بَعْضُ الشُّعْرَاءِ:

وَهَلْ يَسْتَفِيدُ الْعَقْلَ مَنْ كَانَ دَهْرَهُ يَرُوحُ عَلَى أَنْثَى وَيَغْدُو عَلَى طِفْلِ!



وَقَالَ آخَرُ:

إِذَا كُنْتَ وَرَاقًا فَأَنْتَ مُحَارَفٌ^(٢) وَحَسْبُكَ نُوكَا أَنْ تَكُونَ مَعْلَمًا

(١) ك: «ما يقف عليه أحد».

(٢) المحارف: المحروم من الرزق.

محاسن السُّؤال

قال الجاحظ: سمعت شيخاً من المكديين وقد التقى مع شابٍّ منهم، قريب العهد بالصناعة، فسأله الشيخ عن حاله، فقال: لَعَنَ اللَّهُ الكُدية! ولعن أصحابها، ما أحسها وأقلها من صناعة! إنها ما علمت تُخلِّق الوجه، وتضع من الرجال! وهل رأيت مكدياً^(١) أفلح!

قال: فرأيت الشيخ قد غَضِبَ، والتفت إليه فقال: يا هذا، أقلل من الكلام فقد أكثر! مثلك لا يفلح؛ لأنك محروم ولم تستحكم بعد، وإن للكُدية رجالاً، فما لك ولهذا الكلام!

ثم التفت فقال: اسمعوا بالله! يجيئنا كلُّ نبطيّ قرنان^(٢)، وكلِّ حائك صَفْعان^(٣)، وكلِّ ضراط كشخان^(٤)، يتكلم سَبْعاً في ثمان؛ إذا لم يصب أحدهم يوماً شيئاً ثَلَب الصناعة ووقع فيها أو ما علمت أن الكُدية صناعة شريفة، وهي محببة لذيدة، صاحبها في نعيم لا ينفد، فهو على بريد الدنيا ومساحة الأرض، وخليفة ذي القرنين الذي بلغ المشرق والمغرب، حيثما حلَّ لا يخاف البؤس، يسير حيث شاء، يأخذ أطايب كلِّ بلدة! فهو أيام النُّرسيان والهيرون^(٥) بالكوفة، ووقت الشُّبوط^(٦) وقصب السكر بالبصرة، ووقت البرني والأزاد^(٧) والرازقي^(٨)، والرمان المرمز^(٩) ببغداد، وأيام التين والجوز الرطب بخلوان، ووقت اللوز الرطب والشُّنجار^(١٠) والطبرزد^(١١)

(١) ك: «مكدياً قط أفلح».

(٢) القرنان: الذي يشارك في امرأته.

(٣) صفعان: الرجل يصفع.

(٤) الكشخان: الديوث.

(٥) النرسيان والهيرون: من أنواع التمر.

(٦) الشبوط كتثور: سمك دقيق الذنب عريض الوسط لين اللمس صغير الرأس.

(٧) البرني والأزاد: ضرب من التمر.

(٨) الرازقي: نوع من العنب معروف.

(٩) كذا في الأصول، ولعله: «المز».

(١٠) الشنجار: نبت يستعمل للصيغ. انظر دوزي في المادة.

(١١) الطبرزد: السكر.

بالجبل . يأكل طيبات الأرض ، فهو رخيّ البال ، حسن الحال ، لا يغمّ لأهل ولا مال ، ولا دار ولا عقار ، حيثما حلّ فعَلْفُهُ طَبْلِيّ^(١) . أما والله لقد رأيتني ؛ وقد دخلت بعض بلدان الجبل ، ووقفت في مسجدتها الأعظم ، وعليّ فُوطَة قد انتزرت بها ، وتعمّمت بحبل من ليف ، وييدي عُكَازَة من خشب الدفلى^(٢) ، وقد اجتمع إليّ عالم من الناس ، كأني الحجاج بن يوسف على منبره ، وأنا أقول : يا قوم ، رجل من أهل الشام ، ثم من بلد يقال لها : المصيصَة ، من أبناء الغزاة والمُرابطين في سبيل الله ، من أبناء الركاض^(٣) ، وحرسة الإسلام . غزوت مع والدي أربع عشرة غزوة ، سبعا في البحر ، وسبعا في البر ، وغزوت مع الأرمني ، قولوا : رحم الله أبا الحسن ! ومع عمر بن عبيد الله قولوا : رحم الله أبا حفص ! وغزوت مع البطال بن الحسين والربنداق بن مُدرك ، وحمدان بن أبي قطيفة ، وآخر من غزوت معه يازمان الخادم ، ودخلت قسطنطينية ، وصليت في مسجد مسلمة بن عبد الملك ؛ من سمع باسمي فقد سمع ، ومن لم يسمع فأنا أعرفه نفسي ، أنا ابن الغزِيل بن الرّكان المصيصي . المعروف المشهور ، في جميع الثغور ، والضارب بالسيف ، والطاعن بالرمح ، سدّ من أسداد الإسلام ، نازل الملك على باب طرسوس ، فقتل الذراري ، وسبى النساء ، وأخذ لنا ابنان وحُملا إلى بلاد الروم ، فخرجت هاربا على وجهي ، ومعني كتب من التجار ففُطِع عليّ الطريق ، وقد استجرتُ بالله ثم بكم ؛ فإن رأيتم أن تردّوا ركناً من أركان الإسلام إلى وطنه وبلده ! . . .

فوالله ما أتممت الكلام حتى انهالت عليّ الدراهم من كلّ جانب ، وانصرف ومعي أكثر من مائة درهم .

فوثب إليه الشاب ، وقبّل رأسه ، وقال : أنت والله معلّم الخير ؛ فجزاك الله عن إخوانك خيراً !

(١) نسبة إلى الطبل بمعنى الخراج . انظر اللسان .

(٢) الدفلى كذكرى : نبت مر فتال .

(٣) الركاض : العادون .

أصناف المكدين وأفعالهم

منهم المكي؛ وهو الذي يأتيك وعليه سراويل واسع ديبقي^(١) أو نرسي^(٢)، وفيه تكة أرمنيّة؛ قد شدّها إلى عنقه فيأتي المسجد فيقول: أنا من مدينة مصر، ابن فلان التاجر، وجّهني أبي إلى مرو في تجارة، ومعني متاع بعشرة آلاف درهم، فقطّع عليّ الطريق، وتركْتُ على هذه الحال؛ ولستُ أحسنُ صناعة، ولا معي بضاعة، وأنا ابن نعمة، وقد بقيت [ابن حاجة].

ومنهم السحريّ، الذي يُبكر إلى المساجد من قبل أن يؤذّن المؤذن. والشّجويّ الذي كان يؤثّر في يده اليمنى ورجليه حتى يُري الناس أنّه كان مقيداً مغلولاً، ويأخذ بيده تكة فينسجها، يُوهمك أنّه من الخلدية، وقد حُبس في المُطبق خمسين سنة.

ومنهم الذّراحيّ الذي يأخذ الذّرايح^(٣) فيشدّها في موضع من جسده من أوّل اللّيل، ويبيت عليه ليلته حتى يتيقظ فيخرج بالغداة غريان، وقد تنفّط ذلك الموضع وصار فيه القيح الأصفر، ويصبّ على ظهره قليل رماد، فيُوهم الناس أنّه محترق.

ومنهم الحاجور، وهو الذي يأخذ الحلقوم مع الرّثة، فيدخل الحلقوم في دُبره، ويشرح الرّثة على فخذه تشريحاً رقيقاً، ويدّر عليه دم الأخوين.

ومنهم الخاقانيّ الذي يحتال في وجهه، حتى يجعله مثل وجه خاقان ملك الترك، ويسوده بالصّبر والمداد، ويُوهمك أنّه ورم.

وزكيم المغالطة منهم: السّكوت الذي يُوهمك أنّه لا يحسن أن يتكلّم.

ومنهم الكان، وهو الذي يُواضع القاصّ من أوّل اللّيل على أن يُعطيه النّصف أو الثّلث، فيتركه حتى إذا فرغ من الأخذ لنفسه اندفع هو فتكلّم.

(١) ديبقي: منسوب إلى دبيق، بلد بمصر قرب تنيس تنسب إليه الثياب.

(٢) نرسي: منسوب إلى نرس، بلد بالعراق تنسب إليه الثياب أيضاً.

(٣) الذرايح: جمع ذراح، وهو دويبة حمراء منقطة بسواد، وهي من السموم.

ومنهم المفلفل^(١): الرَفِيقان يترافقان، فإذا دخلا مدينة قصدا أُنبِلَ مسجدٍ فيها، فيقوم أحدهم في أوّل الصّف، فإذا سلّم الإمام صاح الذي في آخر الصّف بالَّذي في أوّل الصّف: يا فلان قلّ لهم؛ فيقول الآخر: قلّ لهم أنت، أنا أيش! فيقول قل: ويحك ولا تستح! فلا يزالان كذلك وقد علّقا قلوب الناس ينتظرون ما يكون منهما، فإذا علما أنهما قد علّقا القلوب تكلّما بحوائجهما، وقالا: نحن شريكان، وكان مَعنا أحمالٌ بَرٌّ كُنّا حملناها من فُسطاط مصر نُريد [بها]^(٢) العراق، ففُطِع علينا [الطريق]، وقد بقينا على هذه الحال، لا نحسن أن نسأل، وليست هذه صناعتنا؛ فيوهمان الناس أنهما قد ماتا من الحياء.



ومنهم، زُكيم الحبشة: الَّذي يأتيك وعليه دُرّاعة صُوفٍ مضرّبة مشقوقة من خُلف وقُدّام، وعليه خُفٌّ ثغريّ بلا سراويل، يتشبه بالغُزاة.

ومنهم زُكيم المرجومة: المكافيف يجتمعون خمسة وستة، وأقلّ وأكثر، وقائدهم يُبصر أدنى شيء، عينه مثل عين الخفّاش، يقال له: الإسطيل، فهو يدعو وهم يؤمنون.

ومنهم الكاغانِي، الَّذي يتجنّن أو يتصارع^(٣)، ويُزبد حتى لا يشكّ أحدٌ في جنونه، وأَنَّهُ لا دواءَ له لشدة ما ينزل به.



ومنهم، القُرسيّ: وهو الَّذي يعصب ساقيه أو ذراعيه عَصَباً شديداً، ويبيت على ذلك ليلةً، فإذا تورّم واحتقن فيه الدم، مسح به شيء من صابون ودم الأخوين، وقَطَر عليه من سمن البقر، وأطبق عليه خِرقة، ثم كشف بعضه، فلا يشكّ من رآه أَنَّهُ إِكَلَةٌ^(٤) نعوذ بالله منها!

ومنهم، المشعّب: الَّذي يحتال للصبيّ حين يولد بأن يُزمنه أو يعميه، ليسأل به النَّاس، وربّما جاءت أمّه أو يجيء أبوه فيتولّى ذلك، فإمّا أن يكسبا به أو يُكرياه، فإن كان عندهما ثقة^(٥)، وإلّا أقام بالأولاد والأجرة كفيلاً.



(١) ك: «المقلقل».

(٢) من ك.

(٣) يتصارع؛ أي يتظاهر بالصرع.

(٤) الإكلة: الحكّة، وهو داء.

(٥) ك: «نفقة».

ومنهم الفيلور؛ وهو الذي يحتال لخصيته حتى يُريك أنه آدر، وربما أراك أن بها شرطاً أو جرحاً، وربما أراك ذلك في دُبره، وتفعل المرأة ذلك بفرجها. ومنهم، الكاخان: الغلام المكدي إذا واجر، وعليه مسحة من جمال، وعمل العاملين جميعاً.

والعواء: الذي يسأل بين المغرب والعشاء، ويطرب في صوته. ومنهم الإسطيل، وهو المتعامي الذي إن شاء أراك أنه أعمى، وإن شاء أراك أنه ممن نزل في عينه الماء، وإن شاء أراك أنه لا يبصر. ومنهم المزيدي؛ وهو الذي يدور ومعه دريهمات، يقول: هذه دريهمات قد جمعت لي في ثمن قطيفة، فزيدوني فيها، رحمكم الله! ومنهم، المستعرض الذي يعارضك، وهو ذو هيئة في ثياب صالحة، يريك أنه يستحيي من المسألة، ويخاف أن يراه معرفة، فيعرض لك اعتراضاً، ويكلمك خفياً^(١). ومنهم المطين، وهو الذي يُطين نفسه من قرنه إلى قدمه، وبأخذ البلاذر، يريك أنه يأكل البلاذر.



ومن نواذرهم:

قيل: إنّه أتى سائل داراً يسأل منها، فأشرفت عليه امرأة من الغرفة، فقال لها: يا أمة الله، لله أن تصدقي عليّ بشيء! قالت: أي شيء تريد؟ قال: درهماً، قالت: ليس [عندي]^(٢)، قال: فدائناً، قالت: ليس، قال: ففلساً، قالت: ليس، قال: فكسوة، قالت: ليس، قال: فكفاً من دقيق، قالت: ليس، قال: فزيتاً... حتى عدّ كل شيء يكون في البيوت، وهي تقول: ليس، فقال لها: يا زانية، فما يجلسك! مُرّي تصدّقي معي.



قال الأصمعي: وقفت على سائل بالمربد، وهو يقول:

قَدْ رَهَنْتُ الْقِصَاعَ مِنْ شَهْوَةِ الْخُبْزِ

(١) ل: «خفياً».

(٢) س ك.

فقلت له : أتممه ، فقال : أتممه أنت ، فقلت :

فمن لي بمن يفك القصاعا

فقال : اضمم إليه بيتاً ، فقلت :

ما رهنْتُ القِصاعَ يا قومَ حتى خِفْتُ واللَّهِ أنْ أموتَ ضِيعاً

فقال : أنت والله أخوجُ إلى المسألة ، وأحقُّ بها مني !



ولأبي فرعون الأعرابي السائل :

وصية مثل صغار الذر	سود الوجوه كسواد القدر
كلهم ملتزق بصدري	حتى إذا لاح عمود الفجر
ولاحت الشمس خرجت أسري	أسبقهم إلى أصول الجدر
ألا فتى يحمل عني إصري	هذا جميع قصتي وأمري !
فاسمع مقالتي وتوق شري	فأنت أنت بغيتي وذخري
كنيت نفسي كنية في شعري	أنا أبو الفقر وأم الفقر



قال : قال الأصمعي : رأيت سائلاً وقد تعلق بأستار الكعبة من بني تميم ،

وهو يقول :

أيا رب رب الناس والمَن والهدى	أمالني في هذا الأنام قسيم !
أما تستحي مني وقد قمت عارياً	أناجيك يا ربّي وأنت كريم !
أترزق أبناء العلوج وقد عصوا	وتترك قرماً من فروم تميم !



قال : ورأيت رجلاً آخر من الأعراب ، وقد تعلق بأستار الكعبة وهو يقول :

يا ربّ إنني سائل كما ترى	مشتمل شميلتي كما ترى
وشيختي جالسة فيما ترى	والبطن مني جائع كما ترى
فما ترى يا ربنا فيما ترى	



قال : وأتى سائل من الأعراب إلى بني عبد العزيز بن مرزوان ، فقال : أنت

علينا سنون لم تُبق زرعاً حصيداً، ولا مالاً تليداً؛ إلا اجتاحتته بزوبره^(١) وأصله، وأنتم أئمة أملي، وقصد ثقتي، فلم يعطوه شيئاً، فقال:

بنو عبد العزيز إذا أرادوا سماحاً لم يلقَ بهم السماح
لهم عن كل مكرمة حجابٌ فقد تركوا المكارم واستراحوا



قال: ومراً سائلٌ منهم برجل يُكنى أبا الغُمر، ضخم عريض، وكان بواباً لبعض الملوك، فقال له: أعين المسكين الضعيف الفقير المحتاج، فقال: ما ألحف جائعكم، وأكثر سائلكم! أراحنا الله منكم. فقال السائل: اسكُت، فوالله لو فُرق قوتُ جسمك في عشرة أجسام منّا لكفانا طعامك ليوم شهراً، وإنك لنبيه الضُرطة، لو ذُرِّي بها بيدُرْ لكفته الريح، عظيم السلحة؛ لو ضُربت لبناً لكفت سوراً.

قال: وقال أعرابيٌّ وهو يسأل: رحم الله مَنْ أعطى من فضلٍ، وآثر من قلة، ووَاسَى من كفاف.



قيل: ودخل رجلٌ منهم على هشام بن عبد الملك بن مروان، فقال: يا أمير المؤمنين، أتنا سنون ثلاث، فأما الأولى فأذابت الشحم، وأما الثانية فأنحضت^(٢) اللحم، وأما الثالثة فهاضت العظم. وعندك أموال، فإن كانت لله جَلّ وعزّ فبئها في عباد الله، وإن كانت لهم، ففيم تحبسها عنهم! وإن كانت لك فتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين.



قال: ودخل أزهَر السَّمان على المنصور، فشكّا إليه الحاجةً وسوء الحال، فأمر له بألف درهم، وقال: يا أزهَر، لا تأتينا في حاجة أبداً، قال: أفعل يا أمير المؤمنين، فلما كان بعد قليل عاد، فقال له: يا أزهَر، ما حاجتك؟ قال: جئت لأدعو لأمر المؤمنين، قال: بل أتينا لمثل ما أتيت له في المرة الأولى، فأمر له بألف درهم، وقال: يا أزهَر لا تأتينا ثالثةً، فلا حاجة لنا في دعائك! قال: نعم، ثم لم يلبث أن عاد، فقال: يا أزهَر، ما جاء بك؟ قال: دعاء كنت سمعته منك

(١) بزوبره، أي بجميعه.

(٢) المنحوض: الذي ذهب لحمه.

أحبُّ أن آخذه عنك، فقال: لا ترذه فإنَّه غير مستجاب، وقد دعوت به الله جلَّ وعزَّ أن يُريحني من خلقتك فلم يفعل.



وممن سأل الخلفاء أيضاً ربيعة بن ربيعة، ذكرُوا أنَّه دخل على معاوية بن أبي سفيان، فقال: يا أمير المؤمنين، زوَّجني بعض بناتك، فقال: قد شغلناهنَّ بكفائهنَّ، قال: فولني سُرطة البصرة، قال: قد وليتها من كفانا، قال: فهب لي قطيفة، قال: أما هذا فنعم.



ومنهم أبو دُلَّامة، دخل على المنصور، فقال: يا أمير المؤمنين، تأمر لي بكلب صيد! قال: أعطوه، قال: كلب بلا صقْر! قال: أعطوه صقراً، قال: كلب وصقْر بلا بازبان^(١)! قال: أعطوه غلاماً بازباناً. قال: فلا بدَّ لهم من دار! قال: أعطوه داراً، قال: فمن أي شيء يعيشون؟ قال: قد أقطعتك أربعمئة جريب، منها مائتا جريب عامر ومائتان غامر، قال: وما الغامر؟ قال: الخراب، قال: فأنا أقطعتك أربعة آلاف جريب بالدَّهْناء غامرة. قال: فقد جعلتها كلّها عامرة، فهل بقي لك شيء؟ قال: نعم تدعني أقبل يدك، قال: ليس إلى ذلك سبيل، فقال: ما منعني شيئاً أهون على عيالي من هذا!



قال: وبعث المنصور إلى زياد بن عبد الله مالا، وأمره أن يفرقه في القواعد والأيتام والعميان، فدخل إليه أبو حمزة الرقيي، فقال: أصلح الله أمير المؤمنين! قد بلغني الكبر، فاكتبني في القاعدين. قال: يغفر الله لك! إنما القواعد النساء اللواتي قعدن عن الأزواج! قال: فاكتبني في العميان فإن الله جلَّ ذكره يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَرُ وَلَكِنَّ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وأنا أشهد أن قلبي أعمى، واكتب ولدي في الأيتام، فإن من كنت أباه فهو يتيماً، قال: اكتبوه في العميان، واكتبوا ولده في الأيتام.



قال: وقالت أعرابيةٌ لحاتم بن عبد الله الطائي: أتيتك من بلادٍ نائية شاسعة؛

(١) البازبان: حافظ الباز، وبان كلمة فارسية معناها الحافظ، انظر معرب الجواليقي ١١٨.

تخفِضُنِي خافضةً، وترفعني رافعةً؛ لملَمَاتٍ من الأمور نَزَلْنَ بي، فبرَيْنَ عظمي، وأذهبنَ لحمي، فتركَنِي بالجريض^(١)، قد ضاقَ بي البلدُ العريضُ، لم يتركَن لي سَبَدًا، ولم يبقين لي لَبَدًا. غابَ الوالدُ، وهلكَ الرَّافِدُ؛ وأنا امرأةٌ من هَوَازِنَ، أقبلْتُ في أفناء من العرب؛ أسأل عن المرجوِّ نائله، والمحمود سائله، والمأمون جانبُه، فقيل لي: أنت؛ فاصنَع بي إحدى ثلاث: إمَّا أن تحسنَ صَفَدِي^(٢)، أو تقيم أودي، أو تردَّني إلى بلدي. فقال: أجمعهنَّ لك وحبًّا، ففعل بها ذلك كله.



قال: وجاءت أعرابية تسأل فقالت: يا قوم، طرائد زمانٍ، وفرائس نازلةٍ، ولحمان وَضَم! نبذتُنا الرِّجال، وأنشزتنا^(٣) الحال، وأطمعنا السؤال؛ فهل من مكتسبٍ للأجر، أو راغب في الذَّخر!



وسأل أعرابي، فقال: سنة جردتُ، وحالٌ جَهدتُ، وأيدٍ خَمَدتُ، فرحم الله مَنْ رحم، وأقرض من لا يظلم!



وسأل أعرابي فقال: أين الوجوه الواضحات الصُّباح، والعقول الراجحات الصُّحاح، والصدور الرحاب السُّماح، والمكارم الثمينة الرِّباح!



وسأل أعرابي، فقال: رحم الله امرأ لم تمجَّ أذنه كلامي، وقَدَّم لمعاذه من سوء مُقامي، فإنَّ البلاد مُجدبةٌ، والحال مُسغبةٌ، والحياء زاجرٌ ينهي عن كلامكم، والفقر عاذرٌ يدعُو إلى إخباركم، فرحم الله امرأً وأسَى بميرٍ، أو دعا بخير! فقال رجل: مِمَّن يا أعرابي؟ فقال: أخٌ في كتاب الله، وجارٌ في بلاد الله، وطالب خير من رزق الله.



وسأل آخر، فقال: نقصَ الكيل، وعَجِفَت الخيل، وقلَّ النَّيل؛ فهل من

(١) الجريض: الهلاك.

(٢) الصَفَد: العطاء.

(٣) أنشزتنا الحال، أي أذهبت شبابنا وقوتنا.

رحيم آجره الله، فإنه لا غنى عن الله، لقوله جلّ وعزّ: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [الحديد: ١١]، لم يستقرض ربنا جلّ وعزّ من عُدْمٍ، ولكن ليلو ويختبر.



وسأل آخر، فقال: إني رجلٌ من مدينة الرسول عليه وعلى آله السلام، مشيتُ حتى انتعلتُ الدّم، فرحم الله مَنْ حملني على نعلين؛ فكأنما حملني على ناقتين، فلا قليل من الأجر، ولا غنى عن الله جلّ وعزّ!



وقيل لسائل أعرابي: أين منزلك؟ قال: ما لي منزل، إنما أشتمل بالليل إذا عَسَس، وأظهر بالنّهار إذا تنفّس.



مساوي الثقلاء

قال بُخْتِيشوع للمأمون: لا تجالس الثقلاء، فإننا نجد في كتب الطب أنَّ مجالسة الثقيل حمى الروح.
وقال بعضهم: سُخْنة العين النَّظَرُ بها إلى الثقلاء.
قال: ونقش رجلٌ على خاتمِه: «أَبْرَمْتُ فُؤْمَ»، فكان إذا جلس إليه الثقيل ناوله إيَّاه.



قيل: ودخل أبو حنيفة على الأعمش يوماً، فأطال جلوسه، فقال: لَعَلِّي قد ثَقَلْتُ عليك! قال: وإِنِّي لأستثقلك وأنت في منزلك، فكيف وأنت عندي!



قيل: واجتمع أصحابُ الحديث عند شريك بن عبد الله، فتبرَّم بهم وأضجروه، فصاح بهم وفرَّقهم فلم يبرحُوا، فقال بعضهم: أنا أطردهم عنك، قال: نعم وانطرد معهم.



قيل: وأتى رجلٌ ابنَ المقفع في حاجةٍ، فلم يصل إليه، وكان مُستثقلاً له، فكتب بيتاً في رقعةٍ وأرسل به إليه:

هل لذي حاجةٍ إليه سبيلٌ وقليلٌ تلَبُّثي لا كثيرُ!
فوقَّع إليه:

أنت يا صاحبَ الكتابِ ثَقِيلٌ وقليلٌ من الثقيلِ كثيرُ
فأجابه الرجل:

قد بدأتَ الجوابَ منك بفُحْشٍ أنت بالفُحْشِ والبُذاءِ جَدِيرُ
فضحك وقضى حاجته.



قال : وكتب أعرابيُّ إلى حمَّاد الراوية المعروف بعَجْرَد، وكان حمَّادٌ يستثقله :

إنَّ لي حاجةً فرأيتُك فيها لك نفسي الفِدا من الأوصابِ
وهي ليست مما يُبلِّغُها غيْب رِي ولا أستطيعُها في كتابِ
غير أني أقولُها حين ألقا لك رُويداً أُسرُّها باكتتابي
فكتب إليه : اكتب بالحاجة يا ثَقيل ، فكتب :

إنني عاشقٌ لجُبَّتِكَ الدَّك ناءٍ عشقاً قد حال دون الشرابِ
فاكسُنيها فدثَّكَ نفسي وأهلي أتمزَّى بها على أصحابي^(١)
ولك اللّهُ والأمانةُ أني أجعلُنها عُمرِي أميرَ ثيابي



وقد قيل : إذا علم الثَّقيلُ أنَّه ثَقيلٌ فليس بثَقيل .



وممَّا قيل فيهم من الشعر :

سألتُك باللّهِ إلّا صدقتَ وعِلْمِي بأنَّك لا تصدقُ
أتبغضُ نفسَكَ من بُغضِها وإلّا فأنت إذا أحمقُ !



ولآخر :

قُلْ للبغيض أخِي البغي ض ابن البغيض ابن البغيضه
أنت الذي حَمَلْتُكَ أُمُّ لك بين فاحشةٍ وحيضه
ضاقْتُ على الثَّقَلينِ مِنْ بغضائك الأرض العريضه
ودَعْتُ ملائكةَ السَّما ء عليك دوى مستفيضه



ولآخر :

يا مَنْ تبرَّمتِ الدنيا بطلعته كما تبرَّمتِ الأجفان بالسُّهدِ
يَمْشِي على الأرض مجتازاً فأحسبه مِنْ بُغض طلعته يمشي على كبدي



(١) أتمزى من المزية، وهي أن يكون للإنسان فضل على غيره.

شخصك في مُقْلَةٍ النديم أثْقَلُ من رِغِيَةِ النُّجُومِ
يا رائِحاً رَوْحَةً عَلَيْنَا أثْقَل من سَبَّةِ اللَّئِيمِ
إني لأرجو بما أقاسي منك خلاصاً من الجحيمِ



ولآخر:

يا مُفْرَغاً في قَالِبِ البُغْضِ بعضك يشكوك إلى بَعْضِي
كأنما تمشي على ناظِري إذا تَخَطَّأت على الأرضِ



ولآخر:

يا من له حركاتٌ على التَّفُوسِ ثَقِيلُهُ
وليس يعرفُ معنى قصيرةً مِنْ طَوِيلُهُ
أورثتني بجُلُوسي إليك حُمَّى مَلِيلُهُ
فاصْفَعْ لِنَفْسِكَ عَنِّي فإنَّ كَفِّي عَلِيلُهُ



ولآخر:

أيامَنْ أعرَضَ الرَّبُّ عن العالَمِ من بُغْضِهِ
ومن عاذَ مَلِيكَ المَوِّ بِالرَّحْمَنِ من قَبْضِهِ
ويا من بَغْضُهُ يشهـ دُ بِالْبُغْضِ عَلَى بَعْضِهِ

مساوي الحمقى

قيل في المثل: «هُوَ أَحْمَقُ مِنْ عَجَلٍ»؛ هو عجل بن لجيم بن صَعْب بن علي بن بكر بن وائل، وذلك أنه قيل له: ما سميت فرسك؟ ففقاً عينه وقال: «الأعور» - أو قال: «سميته أعور» - وقال الشاعر فيه وفي قومه:

رَمَثْنِي بَنُو عَجَلٍ بَدَاءَ أَبِيهِمْ وَأَيُّ امْرِئٍ فِي النَّاسِ أَحْمَقُ مِنْ عَجَلٍ!
أَلَيْسَ أَبُوهُمْ عَارَ عَيْنِ جَوَادِهِ فَصَارَتْ بِهِ الْأُمَثَالُ تُضْرَبُ فِي الْجَهْلِ!



ويقال: «هُوَ أَحْمَقُ مِنْ هَبْتَقَةٍ»، وبلغ من حُمَقِهِ أَنَّهُ ضلَّ له بَعِيرٌ، فجعل ينادي: مَنْ وجد البعير فهو له؛ فقيل له: فلم تنشده؟ قال: وأين حلاوة الوجدان!

واختصمت إليه بنو الطُفَاوَةِ وبنو راسِبٍ في رجل ادَّعاه هؤلاء وهؤلاء، فقالت الطُفَاوَةُ: هذا من عرفتنا، وقالت بنو راسِبٍ: هذا من عرفتنا، ثم قالوا: قد رضينا بأول طالع علينا، فطلع عليهم هَبْتَقَةٌ، فلما رأوه قالوا: إنا لله، مَنْ طلع علينا! فلما دنوا قصُّوا عليه قصَّتْهم، فقال هَبْتَقَةٌ: الحكم في هذا بين، يُذهب به إلى نهر البصرة، فيلقَى فيه، فإن كان راسِبياً رَسَبَ، وإن كان طُفَاوياً طَفَا.

فقال الرَّجُلُ: لا أريدُ أن أكون من أحدِ هذين الحَيِّين، ولا حاجة لي في الديوان.



وكان هَبْتَقَةٌ يرعى غنم أهلِهِ، فيرعى السَّمان في العُشْبِ، وينحّي المهازيل عنه، فقيل له: ويحك! ما تصنع؟ فقال: أصلح ما أصلح الله، وأفسد ما أفسد الله - أو قال: لا أفسد ما أصلح الله، ولا أصلح ما أفسد الله.



وقال الشاعر:

عِشْ بِجَدِّ فَلَئِنْ يَضْرَكَ نُوكُ إِنَّمَا عَيْشُ مَنْ تَرَى بِالْجُدُودِ

عَشْ بَجْدٌ وَكُنْ هَبْنَقَةَ الْعَبْسِ يَّ نُوكَاً أَوْ شَيْبَةً بَنَ الْوَلِيدِ
رُبْ ذِي إِرْبَةٍ مُقِلٌّ مِنَ الْمَا لَ وَذِي عُنْجُهِیَّةٍ مَجْدُودِ
وكان شيبه من عقلاء العرب .



وقيل أيضاً: «هو أحقق من دُعَّة»، وهي مارية بنت مغنج، تزوجت في بني العنبر وهي صغيرة، فلما أصابها المخاض ظننت أنها تُريد الخلاء، فخرجت تبرّز، فصاح الولد، فجاءت منصرفة فقالت: يا أمّه، هل يفتح الجعر فاه؟ قالت: نعم، يدعوا أباه. فسبّت بنو العنبر بذاك، فقالوا لهم: بنو الجعراء^(١).



وقيل أيضاً: «هو أحقق من الممهوره إحدى خَدَمَتَيْهَا»، وهي امرأة أخذها رجلٌ ليفجر بها، فقالت: لا أمكنك من نفسي حتى تمهرني، فقال: قد مهرتك إحدى خَدَمَتَيْكِ - وهما خلخالها - فَرَضَيْتِ وَأَمَكْنْتَهُ مِنْ نَفْسِهَا.



وقيل: «هو أحقق من جَهِيْزَةٍ»، وهي عُرْس الذئب؛ لأنها تدع ولدها وترضع ولد الضبع.

وقال الكُمَيْت:

كَمَا خَامَرْتُ فِي حُضْنِهَا أُمَّ عَامِرٍ لَذِي الْحَبْلِ حَتَّى عَالَ أَوْسٌ عِيَالَهَا^(٢)
أَوْس: هو الذئب.



وقيل: «هو أحقق من نعامة»؛ لأنها تدع الحَضْن على بيضتها، وتحضن بيض نعامة أخرى.

وقال ابن هرمة:

فإني وتركبي ندى الأكرمين وَقَدَحِي بِكَفِّي زِنَاداً شَحَاحَا
كتاركة بيضها بالعراء وَمُلْبَسَةً بِيضٍ أُخْرَى جَنَاحَا



(١) اللسان: ٥: ٢١١.

(٢) اللسان: ١٩١.

وقيل: «هو أحقق من باقل»، وكان اشترى عنزاً بأحد عشر درهماً، فقالوا له: بكم اشتريت العنز؟ ففتح كفيه، وفرّق أصابعه، وأخرج لسانه، يريد «أحد عشر درهماً»، فغيروه بذلك. وقيل: إن الذي اشتراه ظبّي، فلما فتح أصابعه أفلت الظبّي.

وقالوا في باقل:

يَلُومُونَ فِي حُومِهِ بَاقِلًا كَأَنَّ الْحَمَاقَةَ لَمْ تُخْلَقِ
فَلَا تَكْثُرُوا الْعَذْلَ فِي عِيِهِ فَلَلْعِي أَجْمَلُ بِالْأَمْوِقِ
خُرُوجَ اللِّسَانِ وَفَتْحُ الْبَنَانِ أَحَبُّ إِلَيْنَا مَنْ الْمَنْطِقِ



قيل: وقدم وفدٌ من^(١) العراق على سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَقَضَوْا حَوَائِجَهُمْ، وَانصَرَفُوا، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: بَلَّغْنِي أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَبْرُزُ لِلْعَامَّةِ، فَأَنَا أَقِيمُ بَعْدَكُمْ يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ؛ فَلَعَلِّي أَنْ أَرَاهُ وَأَسْمَعُ كَلَامَهُ، ثُمَّ أَتْبِعْكُمْ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، بَرَزَ سُلَيْمَانُ لِلنَّاسِ، وَجَلَسَ عَلَى سَرِيرِهِ، فَأَذِنَ لِلْعَامَّةِ؛ فَدَخَلُوا وَفِيهِمْ عِرَاقِيٌّ، فَجَلَسَ فِي سِمَاطِ سُلَيْمَانَ إِلَى جَنْبِ رَجُلٍ أَحْمَقَ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، فَقَالَ لَهُ الْأَحْمَقُ: مِمَّنِ الرَّجُلُ؟ قَالَ: أَنَا مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ، قَالَ: فَعَلَ اللَّهُ بِكَ وَفَعَلَ! وَجَعَلَ يَشْتِمُهُ، وَيَذْكُرُ أَبَاهُ وَعِرْضَهُ، وَقَالَ: مِثْلُكَ يَقْعُدُ فِي سِمَاطِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ! وَالْعِرَاقِيُّ يَنَاشِدُهُ اللَّهَ، وَيَسْأَلُهُ أَنْ يَكْفَ عَنْهُ فَيَأْبَى، إِلَى أَنْ قَالَ سُلَيْمَانُ: أَيُّكُمْ يَخْبِرُنِي، مَنْ الَّذِي يَقُولُ:

أَتُخَنُّ الْقُرُونَ فَعَقَلْنَاهَا كَعُطْفِ الْعَسِيبِ عِرَاجِينَ مِيَالًا

ويفسر لنا قوله، فله جارية برحالتها. والشاميُّ مُقْبِلٌ عَلَى الْعِرَاقِيِّ لَا يَفْتَرُ عَنْ شَتْمِهِ، وَيَقُولُ: يَا جَاسُوسُ! فَقَالَ لَهُ: كُفَّ عَنِّي فَإِنِّي أَنْفَعُكَ. قَالَ: وَهَلْ مَعَكَ خَيْرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَمِ فَقُلْ لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ: أَنَا أَعْرِفُ مَنْ قَالَ هَذَا وَأَفْسَرَهُ، فَإِذَا قَالَ: مَنْ قَالَه؟ فَقُلْ: امْرُؤُ الْقَيْسِ، فَإِذَا قَالَ: مَا عَنَى بِهِ؟ فَقُلْ: الْبَطِيخُ، فَقَالَ الشَّامِيُّ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَنَا أَعْرِفُ مَنْ قَالَ هَذَا وَأَفْسَرَهُ! فَقَالَ: هَاتِ، قَالَ: امْرُؤُ الْقَيْسِ، فَتَبَسَّمَ سُلَيْمَانُ وَقَالَ: فَمَا عَنَى بِهِ؟ قَالَ: الْبَطِيخُ، فَضَحِكَ سُلَيْمَانُ حَتَّى اسْتَلْقَى عَلَى فَرَّاشِهِ، ثُمَّ قَالَ: وَيْحَكَ! عَمَّنْ أَخَذَتْ هَذَا الْعِلْمَ؟ فَقَالَ: عَنْ هَذَا الْعِرَاقِيِّ، فَأَشَارَ إِلَى الْعِرَاقِيِّ، فَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ

(١) ك: «من أهل العراق».

العراق، كنتُ قدمت مع فلان وفلان، فقصّوا حوائجهم وانصرفوا، فأقمت أرقب جلوس أمير المؤمنين، فقعدت إلى هذا الشاميّ، فلم يدع سباً ولا شتماً إلا استقبلني به، فقلت له: كفّ عني فإني أنفَعُك، قل لأمير المؤمنين كذا وكذا، فكان منه ما قد سمعته.

فضحك وقال: أتعرف أنت من قاله؟ قلت كثير عزة، قال: وما عني به؟ قلت: قرون الرأس، والعسيب الخادم، والعراجين قد اختلفوا فيه، فقال بعضهم: عناقيد الكرم، وقال بعضهم: عراجين النخل، فأمر له بجائزة سنية، وقال له: الحقّ بأصحابك.



وحكي عن أبي عبّاد الكاتب أنه قال: كنت يوماً عند المأمون فدعا بالعداء، وكان يستنزل من قام من مجلسه عند ذكر الطعام؛ ويقول: هذا من أخلاق اللئام، فقدّموا إليه بطيخاً على أطباق جدد، فجعل يقوّر بيده ويدّوق البطيخة، فإذا حمّد حلاوتها قال: ادفع هذه بسكّينتها إلى فلان، فقال لي وقد دفع إليّ بطيخة كانت أحلى من الشّهد المذاب: يا أبا عبّاد، بم تستدلّ على حمق الرجل؟ قلت: يا أمير المؤمنين، أمّا عند الله فعلاماته كثيرة، وأمّا عندي، فإذا رأيت الرجل يحبّ الشاهلوج، ويبغض البطيخ، علمت أنّه أحمق.

قال: وهل تعرف صاحب هذه الصّفة؟ قلت: نعم، يا أمير المؤمنين، الرّسّميّ أحد من هذه صفته.

قال: فدخل الرّسّميّ على أمير المؤمنين، فقال له المأمون: ما تقول في البطيخ الرمشي؟ قال: يا أمير المؤمنين، يُفسد المعدة ويلطّخها، ويرقّها ويرخي العصب، ويرفع البخار إلى الرأس. قال: لم أسألك عن فعله، إنّما سألتك: أشهيّ هو؟ قال: لا. قال: فما تقول في الشاهلوج؟ قال: سمّاه كسرى سيد أجناسه، قال: فالتفت المأمون إليّ وقال: الرّجل الذي كنا في حديثه أمس من تلامذة كسرى في الحُمق!



قال: ودخل أبو طالب صاحب الطّعام على المأمون وكان أحمق، فقال: «كان أبوك يا أبا خيراً لنا منك، وأنت يا أبا ليس تعدنا ولا تبعث إلينا، ونحن يا أبا تجارك وجيرانك». قال: فجعل المأمون لا يزيده على التّبسم.



قال: وقال مروان بن الحكم لرجل: إني أظنك أحمق، فقال: ظنُّ أو يقين!
قال: بل ظنُّ. فقال: أحمق ما يكون الشيخ إذا استعمل ظنَّه!



ومما قيل فيهم من الشعر:

يا ثابتَ العقل كم عاينتَ ذا حُمقٍ	الرزقُ أغرى به من لازم الجرب
وإنني واجدٌ في النَّاسِ واحدةٌ	الرزقُ أزوَّغَ شيءٍ عن ذوي الأدب
وخصلة ليس فيها من يُخالفني	الرزقُ والنُّوكُ مقرونان في سَبَبٍ ^(١)



ولآخر:

أرى زَمناً نُوكاهُ أسعدُ أهله	على أنه يشقى به كلُّ عاقل
سعى فوقه رجلاه والرأس تحته	فكَبَّ الأعالى بارتفاع الأسافل



ولآخر:

رأيتُ الدهرَ بالأحرار يكبُّو	ويرفعُ رُتبةَ القوم اللئام
كأنَّ الدهرَ مُتَوَرِّحٌ حَقُودٌ	يُطالبُ ثأره عند الكرام



ولآخر:

كم من قويٍّ قويٍّ في تقلُّبه	مهذب اللب عنه الرزق منحرف
ومن ضعيفٍ ضعيف العقل مختلط	كأنه من خليج البحر يغترف

(١) النوك: الحمق. والسبب: الحبل.

محاسن مضاحيك وألقاب

قال: كان اسم الأقيشر المغيرة بن الأسود، وكان يغضب إذا دُعِيَ بالأقيشر، فمرّ ذات يوم بقوم من بني عَبَس، فقال بعضهم: يا أقيشر! فنظر إليه طويلاً وهو مغضب، ثم قال:

أتدعونني الأقيشرَ ذاك إسمي وأدعوك ابنَ مُطفئة السّراج
تُناجي خدنها بالليل سرّاً وربُّ النَّاس يعلم مَنْ تُناجي
فسمّي ذلك الرجل: ابن مطفئة السراج، وبذلك يعرف ولده إلى اليوم.



قال: وكان المغيرة بن عبد الله بن أبي عُقيل عامل الحجاج على الكوفة، وكان يلقّب أبا صفية، فاستعدت امرأة على زوجها، فأتاه صاحب العدوى عند المساء فأعلمه، فقال: نعم، أغدو معها. فبات الرجل يقول لامرأته: لو قد أتيت الأمير لقلت: أبا صفية، إنها تفعل كذا وكذا، فيأمر من يوجعك ضرباً، وجعل يكرّر عليها «أبا صفية»، فحفظت الكنية، وظنّت أنها كنيته، فلما تقدّمت إليه قالت: أصلحك الله أبا صفية! فقال لها: «أبو عبد الله، عافاك الله!» فأعادت. فقال لها: «أبو عبد الله»، فأعادت، فقال: «يا فاسقة، أظنك ظالمة، خذ بيدها الخبيثة»، وحكم للزوج عليها.



وولى يوسف بن عمر رجلاً من بني سليم، يلقّب بأبي العاج، وكان يغضب منه، فقدم إليه رجل خصماً له، فقال: يا أبا العاج! فقال: أبو محمد، يابن البظراء! فقال: أتقول هذا لأمي وقد حجت! قال: لا يمنعها ما قلت من الحج.



فنُّ منه في الطمع

قيل لأشعب: أي شيء بلغ من طمعك؟ قال: ناديتُ بصبيان ولعوا بي،

فقلت لهم لأنحيهم عن نفسي: إن في دار بني فلان عرساً، وهناك نثار، فولوا عني مدبرين، فجعلت أشتد معهم طمعاً في النثار.



قال: وكان في دار بعض جيرانه عرس، فتجوع ولزم منزله طمعاً في أن يدعى، فلما تعالى النهار وجاع ولم يدع، قال: قبّح الله هذا الخبز! وقام إلى طعام له فقدمه وجعل يأكل، فسمع وقع الباب، فقال: من هذا؟ قال: من دار العروس، قال: اصبر فديتك! ودخل الخلاء فرمى بجميع ما كان أكله، وغسل فمه، وخرج إليه، فقال: تقول لك مولاتي: أعيرونا الهاون ساعة. فقال: مرّ؛ فأملك وأم مولاتك زانية يابن الفاعلة!



وقيل له: هل رأيت أطمع منك؟ فقال: نعم، مررت وصديق لي بدير، فتنازعنا كلاماً، فقال لي صديقي: أيُّ الراهب في است أم الكاذب! فخرج إلينا الراهب وقد أنعط؛ وهو يقول: من الكاذب منكما، بأبي وأمي أنتما!



فن منه آخر

مرّ ضريرٌ على رجل بصير، فقال: أين الطريق؟ فقال البصير: خذ يمينه، فأخذ يمينه، فسقط في بئر، فقال البصير: أنا والله، غلطت، أردت أن أقول: «يسرة»، فقلت: «يمينه»! فقال الضرير من أسفل البئر: ويحك! أهذا من الغلط الذي يُستقال!



قال: وقيل للعلاء بن عبد الكريم: بكم اكرتيت الدار! فقال: بدينارين وطعامهما، قالوا: وملك! وما طعامهما؟ فقال: صاحب الدار يأكل معي كلما أكلت.



قال: وسمع أعرابيٌّ إماماً يقرأ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ [نوح: ١]، فأرتج عليه، فجعل يردّد الآية، فقال: يا هذا، إن لم يذهب نوح فأرسل غيره!



قال: وشرب أعرابيٍّ وعلى يساره ابنٌ له، فسقاه، فقال له جليسه: السُّنَّةُ أن تسقي من عن يمينك، قال: قد علمت؛ ولكنه أحب إليَّ من السُّنَّةِ!

قال: وقيل لابن رواح الطُّفيليِّ: كيف ابنك هذا؟ قال: ليس في الدنيا شيءٌ مثله، رأيتُ ناديةً خلف جَنَازَةٍ وهي تقول: واسيِّداه! يذهب بك إلى بيتٍ ليس فيه ماء ولا طعام، ولا فراش ولا وطاء، ولا غِطاء ولا سراج. ولا ضياء! فقال: يا أبة يذهبون به إلى بيتنا!



وقال بعضهم: جاء جماعةٌ من أصحاب مَزِيدٍ إليه فقالوا: قم بنا ننتزه فإنَّه يوم طَيِّبٌ، فقال: هو يوم أربعاء! قالوا: فإنَّ فيه وُلد يونس بن متى عليه السلام؛ فقال: بأبي وأُمِّي! صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ، لا جَرَمَ، إِنَّهُ التَّقَمَهُ الحوت. قالوا: نُصِرَ فيه رسولُ اللَّهِ ﷺ، قال: أجل، ولكن بعد إذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنُّون بالله الظنونا!



قال: ووقع بين رجلٍ ومَزِيدٍ كلامٌ، فقال له الرَّجُلُ: أتكلِّمني وأنا نكتُ أمك! فرجع مَزِيدٌ إلى أمِّه، فقال: يا أمِّه، أتعرفين فلاناً؟ قالت: إي واللَّهِ أبو عيلة! فقال: ناكك شهد الله! أسألك عن اسمه، وتأتيني بكنيته!



وكان الحارث بن قيس الفزاريّ شيخاً أعمى، وكان له ابنٌ شيعيٍّ وابنة حُرُوريَّة، وامرأةٌ ترى رأيَ المعتزلة؛ وكانوا جلوساً معه، فقام بيده عليهم وجسَّهم، ثم قال: إنَّ الله جلَّ وعزَّ يحشرنِي وإياكم يوم القيامة طرائقَ قِداداً.



وقال الجاحظ: قيل لرجل طويل اللِّحية، ما لك لا تأخذ من لحيتك؟ قال: لأصونَ بها عِرْضي، فإنَّ الناس يقولون: انظر إلى لحيته كأنها طارئة، وخلق الله هذه اللِّحية، ولحيته كأنها جوالقٌ؛ ولا بارك الله في هذه اللِّحية! فما لي أعرض لشيء يصون عِرْضي!



وحدَّث رجلٌ من عامر بن لُؤَيٍّ قال: كان صبيٌّ ممَّا ترك له أبوه غنماً وعبيداً،

فخرج يوماً فنظر إلى جارية في خبائها، فهويها ومال إلى أمها، وسألها أن تزوجه منه، فقالت: حتّى أسأل عن أخلاقك! فسأل عن أكرم الناس عليها، فدلّ على شيخ كان معروفاً بحسن المحضّر، فأتاه وسلّم عليه، وقال: ما جاء بك؟ فأخبره، فقال: لا عليك؛ فإنّ العجوز غير خارجة من رأيي، فامض إلى منزلك، وأقم يوماً أو يومين، ومُرْ بغنمك أن تُساق؛ وناد في أهليك: أمّا من أراد أن يحلب فليأتنا، ودعني والأمر.

فشاع الخبر، فخرجت العجوز مع مَنْ خرج والشيخ مع القوم، فنظر إلى الشاب، وقد كانت العجوز أخبرتها بشأنه، فقال: هو هو! فقالت: نعم، قال: لقد حرمت حظك! قالت: إنّي أريد أن أسأل عن أخلاقه، قال: أنا ربّيته، قالت: فكيف لسانه؟ قال: خطيب أهله والمتكلّم عنهم، قالت: فكيف سماحته؟ قال: ثمال قومه وربيعهم، قالت: فكيف شجاعته؟ قال: مُحامي قومه، والمدافع عنهم، قالت: فطلع الفتى، فقال: أما ترين ما أحسن ما أقبل! ما انحنى ولا انثنى، فلمّا قرب سلّم، فقال: ما أحسن ما سلّم! ما حار ولا ثار، ثم استوى جالساً، فقال: ما أحسن ما جلس! ما ركع ولا عجز، قالت: أجل، فذهب يتحرّك فضرط، فقال الشيخ: ما أحسن واللّه ما ضرط؟ ما أطنّها، ولا أغنّها ولا نفخها، ولا بربرها، ولا قرّرها!

فنهض الفتى خجلاً، فقال الشيخ: ما أحسن واللّه ما نهض! ما انختل ولا انفتل، قالت العجوز: أجل واللّه! فصخّ به ورّده، فواللّه لزوّجناه ولو خرى.

محاسن المزاح

قيل: أهدى نعيمان الأنصاري إلى رسول الله ﷺ جرّة عسل، وكانت فيه دُعابة؛ وكان اشتراها من أعرابي بدينار، وأتى بالأعرابي إلى باب رسول الله ﷺ، وقال له: خذ الثمن من هاهنا، فلمّا قسمها رسول الله ﷺ بين نسائه، قال له الأعرابي: أعطني يا رسول الله ثمن العسل، فقال عليه السلام: هذه إحدى هنّات نعيمان، وسأله: لم فعلت؟ فقال: أردت أن أبرّك يا رسول الله؛ ولم يكن معي شيء! فتبسّم رسول الله ﷺ وأعطى الأعرابي حقّه.



وعن الهيثم، قال: قدّم تميم الدّاري من الشام وكان تاجراً، فأتاه نعيمان وقال له: هل لك في غلام تاجر له فضل ودين؟ قال: وكيف لي به! قال: إنه إن علم ببيعنا إيّاه لم تنتفع به، ولكن انطلق معي حتى أريكه، فإنه عندنا بمنزلة الولد. قال: فأدخله المسجد، وأراه سُويّط بن عبد العزّي، فنظر إليه تميم فأعجبه، فقال: بكم؟ قال: بمائة دينار. قال: هي لك، فأخذ منه المائة الدينار، فلمّا حضر شخوصه أتى نعيمان، فقال: الغلام! فمضى معه إلى المسجد، وقال: دونك الغلام، فجاء تميم وسُويّط يصلّي إلى جانبه ركعتين ثم قال له: خفّف، فخفّف، وقال له: ما حاجتك؟ قال: قد باعك أهلك منّي، قال: وأي أهلي؟ فارتفع الكلام بينهما حتى خرج رسول الله ﷺ، وقال: ما شأنكم؟ قال تميم: يا رسول الله، باعني أهله، فقال ﷺ: «إني لأظن أن نعيمان صاحبه! عليّ به، فلما جاء قال له: ويحك! ما هذا؟» قال: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! تزوجت امرأة ولم يكن عندي نفقة ولا صداق أدفعه إليها، ولم أجد إلّا ما رأيت! فتبسّم رسول الله ﷺ وقال لتميم: «هي لك عندنا».



وذكروا أن نعيمان مرّ ذات يوم بمخرمة بن نوفل الزّهري الضّرير في المسجد، فقال له مخرمة: خذ بيدي حتى أبول، فأخذ بيده حتى إذا كان في أقصى

المسجد، قال له: اجلس، فجلس يبول، فصاح به الناس: يا أبا المسور؛ إنك في المسجد! قال: ومن قاذني؟ قالوا: نعيمان. قال: واللّه لأضربته بعصاي هذه إن وجدته، فأتاه نعيمان، وقال له: يا أبا المسور، هل لك في نعيمان؟ قال: نعم. قال: فأخذ بيده حتى أوقفه على عثمان بن عفان - وهو خليفة - وتنحى عنه، فعلاه بعصاه ضرباً، فصاح به الناس: ضربت أمير المؤمنين! قال: ومن قاذني؟ قالوا: نعيمان. قال: لا جرم! لا تعرّضت له أبداً!

مُزاح الشعراء

قيل: دخل أبو دلامة على المهديّ؛ فسلم ثم قعد، وأرّخى عيونه بالبكاء، فقال له: ما لك؟ قال: ماتت أمّ دلامة! فقال: إنا لله وإنا إليه راجعون! ودخلت له رقة لما رأى من جَزَعِه، فقال له: أعظم الله أجرك يا أبا دلامة! وأمر أن يعطى ألف درهم، وقال له: استعِنْ بها في مصيبتك، فأخذها ودعا له وانصرف؛ فلما دخل إلى منزله قال لأمّ دلامة: اذهبي فاستأذني على الخيزران، فإذا دخلتِ عليها فتباكي وقولي: مات أبو دلامة! فمضت واستأذنت على الخيزران، فأذنت لها، فلما اطمانت أرسلت عينها بالبكاء، فقالت لها: ما لك؟ فقالت: مات أبو دلامة! فقالت: إنا لله! أعظم الله أجرك! وتوجّعت لها، ثم أمرت لها بألفي درهم، فدعت لها وانصرفت.

فلم يلبث المهديّ أن دخل على الخيزران، فقالت: يا سيدي؛ أما علمت أنّ أبا دلامة مات! قال: لا يا حبيبي، إنّما هي امرأته أمّ دلامة! قالت: لا والله إلا أبو دلامة! فقال: خرج من عندي الساعة آنفاً، فقالت: خرجت من عندي الساعة، وأخبرته بخبرها وبكائها! فضحك وتعجّب من حيلهما.



قال: وكان أبو نواس ولعاً بأبي عبيدة معمر بن المثنى التيمي، فكتب على أسطوانة في مسجد بمقدار قامة وبسطة:

صَلَّى إِلَهَ عَلَى لُوطٍ وَشِيعَتِهِ أبا عبيدة، قل بالله آمينا
فَأَنْتَ عِنْدِي بِلَا شَكٍّ بَقِيَّتُهُمْ منذ احتلمت وجاوزت الثمانينا
فقال لكيسان: ويحك! أما رأيت هذا الفاجر وما صنع؟ قم بنا نحكّه لئلا يراه الناس، فبرك أبو عبيدة وركبه كيسان ليحكّه، فلما ثقل عليه قال له: أوجز؛ فقال له كيسان: قد بقي لوط، فقال: عجل حكّه فهو المعني وعليه تدور فضيحتي!



وذكروا أن أبا الشمقمق دخل عليه أمير المؤمنين موسى الهادي، فقال له:
أنت الذي تقول:

إِنَّ أَمِينَ اللَّهَ مُوسَى الَّذِي لَا يَشْتَرِي الْمِدْحَةَ بِالْذِّينِ
أَيَا أَمِينَ اللَّهَ وَالْمَصْطَفَى دُقْ ثَنَائِي بِالْأَلْفِينَ
فقال موسى: اجلِدُوا بَظْرَ أُمِّ هَذَا بِالْفَيْنِ، فقال أبو الشمقمق: واستها بِالْفَيْنِ.
فضحك وقال: واستها بِالْفَيْنِ.



قال: وكان جميل بن محفوظ يَلِي أَرْجَانَ وَأَبُو دُهْمَانَ يَلِي نَيْسَابُورَ، فزارهما
أبو الشمقمق، فأساء إليه جميل وأحسن إليه أبو دُهْمَان، فقال:
رَأَيْتَ جَمِيلَ الْأَزْدِ قَدْ حَكَ أَمَّهُ فَنَاكَ أَبُو دُهْمَانَ أُمَّ جَمِيلِ



واجتمعوا بعد ذلك عند يحيى بن خالد يتناظران في حساب، فأربى جميل
على أبي دُهْمَانَ، فقال له أبو دُهْمَانَ: احفظ الصهر الذي جعله بيني وبينك أبو
الشمقمق!

فضحك يحيى حتى استلقى على قفاه وفحص برجليه.



تم كتاب المحاسن والمساوي للبيهقي

فهرس المحتويات

٥	محاسن الفأل والزجر
٧	مساوي الفأل
١٤	محاسن الشعر في هذا الفن
١٨	محاسن ترك التطير
١٩	محاسن المواعظ
٢٧	مساوي المواعظ
٢٨	محاسن ما قيل في المراثي
٣١	مساوي ما قيل في المراثي
٣٢	محاسن ما قيل في الشيب
٣٥	محاسن الورع
٣٩	مساوي من لم يتورع
٤٢	محاسن صفة الدنيا
٤٣	مساوي صفة الدنيا
٤٨	محاسن معرفة الأوائل
٥١	مساوي الأوائل
٥٢	محاسن الدلائل
٥٣	محاسن المشورة
٥٦	مساوي من يستشير
٥٨	محاسن كتمان السر
٦٣	محاسن حفظ اللسان
٦٥	مساوي جناية اللسان
٦٨	محاسن الصدق
٧٠	محاسن الكذب
٧٨	محاسن فضل المنطق
٧٩	محاسن الصمت
٨٠	محاسن الكلام في الحكمة

٨٢		محاسنُ البلاغة
٨٣		محاسنُ الأدب
٨٥		المناظرات في الأدب
١٠٥		مساوئ من ذمّ الأدب
١٠٦		مساوئ اللحن
١١١		محاسن الشعراء
١١٥		مساوئ الشعراء
١١٩		محاسن المخاطبات
١٢٥		مساوئ المخاطبات
١٢٧		محاسن المكاتبات
١٣٨		مساوئ المكاتبات
١٣٩		محاسن الخطب
١٤١		مساوئ الخطب
١٤٢		محاسن الأمثال
١٤٤		مساوئ الأمثال
١٤٨		محاسن الجواب
١٥١		مساوئ الجواب
١٥٤		محاسن المُسايَرة
١٥٧		مساوئ المُسايَرة
١٥٨		محاسن المُسامَرة
١٦٢		مساوئ المُسامَرة
١٦٣		محاسنُ الإغضاء
١٦٥		مساوئ الإغضاء
١٦٦		محاسنُ التّأني
١٦٧		مساوئ العجلة والحدّة
١٦٨		محاسنُ المكافأة
١٧٠		محاسنُ الشّدّة
١٧٧		مساوئ الجبن
١٨٣		محاسنُ النّظر في المظالم
١٩٣		مساوئ أخذ الجار بالجار
١٩٥		محاسنُ السّطوة
١٩٧		محاسن العفو

٢٠٦		مساوي تعدي السلطان
٢٠٩		محاسن الحلم
٢١٢		مساوي من سخط عليه وحبس
٢٣٠		محاسن الحبس
٢٣٤		محاسن بر الآباء
٢٣٨		محاسن تأديب الولد
٢٣٩		مساوي جفاء الآباء
٢٤٠		محاسن بر الأبناء بالآباء والأمهات
٢٤٤		مساوي عقوق البنين
٢٥١		محاسن البنات
٢٥٣		محاسن بر البنات
٢٥٥		مساوي من كره البنات
٢٥٧		مساوي البنات
٢٥٩		محاسن الإخوان
٢٦١		مساوي الإخوان
٢٦٣		محاسن الخُصيان
٢٦٤		مساوي الخُصيان
٢٦٦		محاسن العبيد
٢٦٧		مساوي العبيد
٢٦٩		مساوي سوء معاملات الموالى لعبيدهم
٢٧٠		محاسن مطالبة المعلمين بالتعليم
٢٧٤		محاسن المعلمين
٢٧٥		مساوي المعلمين
٢٧٦		محاسن السؤال
٢٧٨		أصناف المكدين وأفعالهم
٢٨٦		مساوي الثقلاء
٢٨٩		مساوي الحمقى
٢٩٤		محاسن مضاحيك وألقاب
٢٩٨		محاسن المزاح
٣٠٠		مزاح الشعراء
٣٠٢		فهرس المحتويات